

البيه شاندور



صَلَاةُ الْأَيَّارِ الْأَيُّوبِيَّ

الْبَطْكُ الْأَنْقَى فِي الْإِسْلَامِ

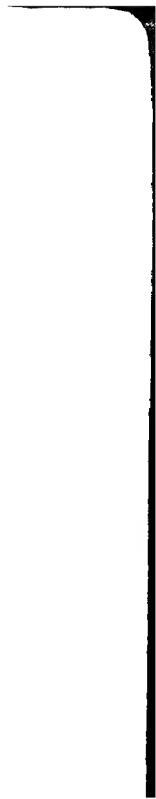
مُرَاجِعَةٍ وَتَفْعِيلٍ
شَدِيمٌ مَرْشِيشِلِيٌّ

ترجمة عن الفنسية
كتاب

0115727



Bibliotheca Alexandrina



909, 99 D.
92702
P...
L



دمشق—أوتوكسرايد المزة

هاتف

٢١٣٨٢١—٢٤٣٩٥١—٢٤٤١٢٦

تلكس: ٤١٢٠٥٠

ص.ب: ١٦٠٣٥

العنوان البرقي

طلاسدار

TLASDAR

ريع الدار خصص

لصالح مدارس ابناء الشهداء في القطر العربي السوري

صَلَامُ الْأَيَّارِ
البَطَلُ الْأَبْنَى فِي الْإِسْلَامِ

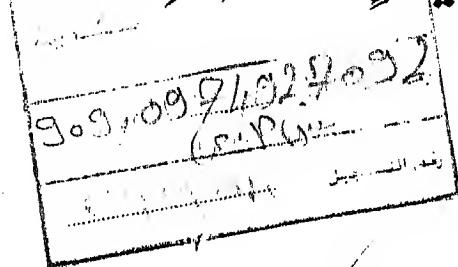
جميع الحقوق محفوظة
لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

طبعة ثانية
١٩٩٣

٣١٥٦٤

البيرشاندور

صَلَاةُ الَّذِينَ أَيُونُهُمْ الْبَطَلُ الْأَنْقَى فِي الْإِسْلَامِ



سليمان وتحقيقه
نديم مرعشلي

ترجمة عن الفرنسية
سعید ابوالحسن

قدم له
العماد مصطفى طلاس

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

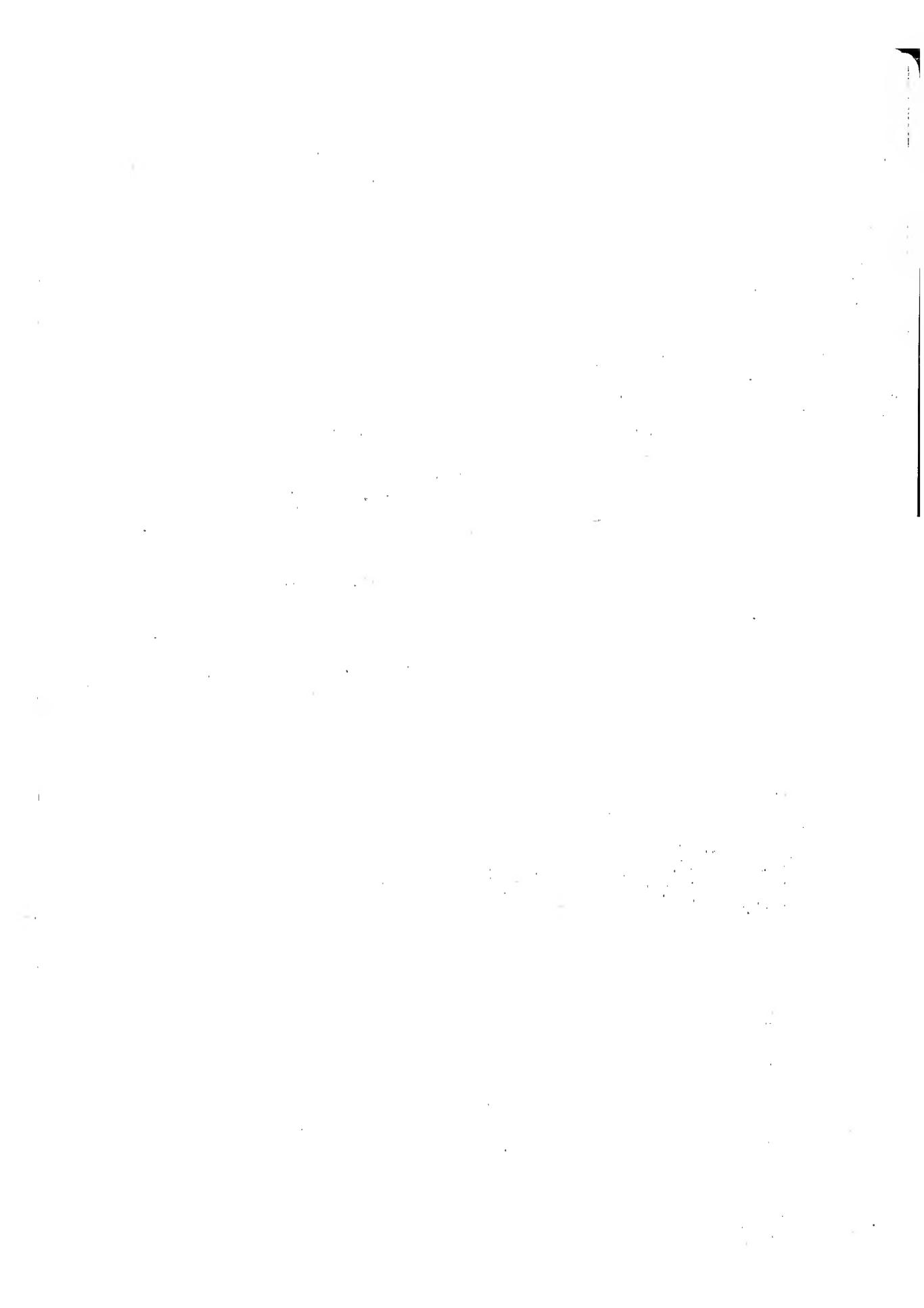
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الإهداء

إلى الجندي العربي الباسل، الواقف على خط النار في مواجهة العدو الصهيوني .. نقدم كتابنا هذا في ذكرى مرور ثانية قرون على معركة حطين وتحرير القدس، واثقين أن للعروبة - أقصى الأداء طال - حطين ثانية، وتحريراً أخيراً لبيت المقدس. ولن تخمد قوى الطفيان شعلة الإيمان.

سعید ، ندیم



رأيت صلاح الدين أمة وحده

داني

الكوميديا الإلأهية



تقديم

بِقَلْمِ الْعَمَادِ مُصْطَفَى طَالِس

ما زالت قصة الصراع بين الشرق والغرب إبان الحروب الصليبية^(١) المصدر التاريخي الشّرّكثير من البحوث والدراسات التي ما برح تردد المكتبة العالمية بتنتاج القرائح وثمرات الأفكار من شتى أصقاع العمورة.

ذلك لأن تلك الحروب تركت بصماتها على المسيرة التاريخية، بل ما انفكّت آثارها تظهر بهذه الصورة أو تلك في العلاقة ما بين الشرق والغرب ولاتصالها المباشر بملحمة صراعهما العقائدي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، لتأخذ الآن دورها ، ولو بشكل غير مباشر ، مثلاً ب مختلف ضروب النزاع الدائر في عالمنا المعاصر.

ولا أدري إذا كان ذاك على قدر أم محض مصادفة أن يضع بين يدي الأحوان العزيزان الأستاذان سعيد أبو الحسن ونديم مرعشلي خطوطه هذا الكتاب «صلاح الدين .. البطل الأنقى في الإسلام» مؤلفه المستشرق

(١) الجدير بالذكر أن المؤرخين العرب أطلقوا على تلك الحروب اسم (حروب الفرنجة) في حين أطلق عليها المؤرخون الأوروبيون اسم (الحروب الصليبية) ثم نقلت هذه التسمية في القرن الحالي بعد السيطرة السياسية والثقافية الغربية .

الفرنسي «البير شاندور» كي أقدم له .. في وقت كانت دمشق العروبة تحسي بندوتها العامرة ذكرى مرور ٨٠٠ عام على معركة حطين الخالدة ، وتحرير بيت المقدس ، وتتنفس بملء رئتها عبق هذا الحدث التاريخي المام .. لأن حطين هي — بلا ريب — إحدى كبريات معاركنا التحريرية .. ونقطة انعطاف في مسيرة الصراع العربي — الأوروبي .. وواحدة من أتصنع صفحات تاريخنا تأليقاً ضد غزو الاستعمار الاستيطاني الذي شهدته القرون الوسطى ، مثلاً بالممالك الفرنجية وليدة الحملات الصليبية في الشرق الأوسط .. وكان بطل أبطالها وعلم أعلامها «صلاح الدين» .

وبديهي والوطن العربي اليوم يعاني ما يعانيه من واقع مر مرهق ترقق وحده الصف ، أن تحمل لنا هذه الذكرى شذى طيب الماضي ، وعقب تاريخنا التليد ، وأن تشدننا لتقليل صفحات ماغير من أيامها ، فيما نحن نتلمس سبيل المستقبل ، ونرى بشائره تومض في سماء دمشق العروبة .

لقد تعرض وطننا العربي — نتيجة ترققه — لكثير من غزوات الاحتلال وأعاصير الاحتياج ، فالغزو الصليبي ، والإعصار المغولي ، ثم الاستعمار الاستيطاني مثلاً بالكيان الصهيوني الذي غرسته حراب الإمبريالية العالمية في فلسطيننا الحبيبة .

ما يجعل حطين اليوم تتعجل لنا ليس فقط في منارة أمل ، بل كذلك مجترح عمل ، فالكيانات المصطنعة مصيرها الزوال سواء أقصر الزمن أم طال .. ما دامت شعلة التحرير تعم قلوبنا ، وإرادة القتال متوجهة في أعماقنا تُرجح فيها جذوة الإيمان بالنصر والتحرير ، وتكتب صفحة الأحداث التي لا بد أن تكون على موعد مع أمين الأمة وقائد المرحلة التاريخية وبطلاها أسد الشام الذي سيجمع متفرق الكلمة تحت راية الشهادة أو النصر .. كما اضطلع صلاح الدين بر رسالة لم الشمل ، وتوحيد الكلمة فصلدم الصليبيين بقوة العرب

وال المسلمين مجتمعين داحرا إياهم في حطين بطاقة ثلاث عواصم هي دمشق وحلب والقاهرة ، ترتفعها حشود الأمة من جميع أقطارها .

أليير شاندور ... والشرق

وأليير شاندور ، المستشرق الفرنسي المنصف والباحث الرصين ، الذي اهتم بآثار الشرق وقضاياها وعشيق جماله الأسطوري وحضاراته المتعاقبة ، ووضع عدة مؤلفات تترجم نوازع اهتماماته منها «بلاد سوريا وأهتها» ، «تدمر خرائب وأطلال» ، «هيكل بعلبك» ، «نينوى» ، «مصر الفرعونية» ، «طيبة ذات الملة باب» .

والذي كتب بصفته باحثاً في علم الجمال عن «امتلاك الجمال» وعن الجميل في آثار الشرق وقدم دراسات جادة ، أثرت المكتبة العالمية وكرس شخصيات تاريخية كانت لسان عهدها الذي اتسم بها ، مثال «قورش» العظيم ملك فارس القديمة وبناني عظمة الأسرة الأخمينية ، و «تيمورلنك» الفاتح المغولي الرهيب ، وأخيراً وليس آخرأً هذا الكتاب ، الذي يخلو للعالم صورة بطلنا الأشهر في تاريخ الأمة العربية في القرون الوسطى «صلاح الدين البطل الأنقى في الإسلام» ، والذي صور فيه شخصية هذا العلم والقائد الإنسان بإطار مرحلته التاريخية الهامة وكفاحه البطولي ضد الكيانات الفرنجية في الشرق بأسلوب علمي رصين «أداء مشرق» ، ووسط لنا صفحات حياته الحافلة بالأحداث . وما تحلى به من رفيع السجاجينا ، ودماثة الخلق ، رغم مضاء حسامه وشدة ذراعه ، كل ذلك برصانة العالم ، وتحليل الباحث ونفذ بصيرة المفكر وللمعية المؤرخ الناقد ، وبشغف يمدوه هاجس تملّي روائع بلاد الشرق ، بذكرها ويدرك حصونها وقلاعها ، ورسم كل ذلك بريشة فنان فذ ، وشاعرية عاشق بهوى البطولة ، ويقدر الجمال فاستطاع أن يصور لنا بكلمات قليلة — لكنها نابضة بحس شاعري مرهف — نشيء مدن الشرق وأثارها الفريدة ولحاظاتها البطولية .

ولنسمعه يتحدث عن دمشق الجميلة الخالدة البيضاء النقية إبان الحملة الصليبية الثانية ، وكيف أصيّب الفرنجة بالدهشة لرأى سحرها الأعاذ يقول :

«أي تأثر استحوذ على الصليبيين حينما اكتشفوا دمشق العظيمة الصامدة البيضاء ، التي كانت مآذنها تشمغ في انطلاقه واحدة من الحجر وسط امتداد رحب المدى من البساتين ، وأي فرح لعيونهم المرهقة بالأشعاعات القاسية عندما رأوا هذا الفردوس المنسي على الأرض ينتصب أمامهم ، فهذه المدينة الشهيرة كانت تبدو من يربو إليها من التلال المجاورة سابحة في النور المنبع من ذاتها غامضة عظيمة شبة .

ودمشق كانت رمز الشرق وجماله وسحره ، بل كل عظمته الأسطورية التي لم تتعجب منها خيالاتهم » . (الفصل الثالث) .

ويتحدث عن القاهرة المدينة الملكية ، مجد الإسلام وسيفه : «القاهرة ... هذا الاسم المهيب الذي يجتمع وقوعه جميل ذكرياتنا ، هذه المدينة المقدسة التي — شأنها شأن دمشق الصامدة البيضاء الكبرى — والتي كانت تعبر أمس كما تعبّر على الدوام بشاعرية قصورها وترف أسواقها عن مجد الإسلام وسيفه ، هذه المدينة الملكية حقاً ، والمشهورة ، موضع احترام جميع المسلمين في سائر أنحاء العالم » (الفصل السادس) .

ويحدثنا في معرض دراسته عن مدينة حلب ، حين عسكرت قوات صلاح الدين أمام أسوارها بتلك اللقطات التي يأخذ فيها التاريخ بيد الجغرافية يشيّان جنباً إلى جنب ، تفيأ كلامها ظلال الحضارة المنبسطة من الماضي البعيد ، مندّحة يراهن الأيام :

«حلب أقدم مدينة في العالم ، ما تزال قائمة في أيامنا مسكنة مزدهرة ، بعد أن شهدت تحت أسوارها أوسع هجرات الشعوب ...» وهو بعد أن يستعرض ما شهدته من ازدهار وعمان ، وما أثرته بعميق طابعها المميز على

مختلف شعوب المشرق لتظل رغم ما اعتبرها من أحداث قائمة راسخة شامخة على صدر المعمورة ، بينما انهارت من حولها عواصم كثيرة أمثال نينوى وبابل وغيرها : يقول :

« وهكذا فإن مركز حلب ، الواقعة على ملتقى تقاطع وحدات جغرافية واسعة ، وتجمعات بشرية كبيرة ، كان وراء حسن حظها أو سوء طالعها ، وذلك محصلة مفترق طرق المواصلات ، وكانت الأعجوبة تكمن في قدرتها على البقاء عبر هذه الإمبراطوريات العديدة .. وأن تزدهر رغم غزوارات الشعوب التي عانت — في كل مكان آخر — على حضارات كاملة ، أية آلة إذاً حمت حلب عبر هذه السلسلة الطويلة من القرون ؟ هذه المدينة التي رأت الكثير من الأرباب وظلت حية متتجددة الشباب ، بينما انهارت نينوى في اللهب ، واحت بابل في الصحراء ، ولم تعد مدن شهيرة غيرها لتخطر بذاكرة البشر ». (الفصل الثامن) .

وهكذا يأخذ بيدنا هذا المؤرخ معرجاً على معظم مدن بلاد الشام ذاكراً تاريخ نشوئها ، أو بادها وأحداثها في استطرادات تاريخية ممتعة ، فيما هو ماض بدراساته « صلاح الدين .. البطل الأنقى في الإسلام » وما كابده مع الغرب الفرنجي باحثاً بدراسة منهجية ما وراء الأحداث من بواعث بدءاً من أولى الحملات الصليبية التي أسست المالك الفرنجية ، وظهور الروح الكفاحية ، انطلاقاً من بقاع الشام وقيام عهد صلاح الدين محققاً الانجازات العظيمة ، التي زرعت الكيانات الصليبية ، ومهدت عملياً لتصفيتها نهائياً . في ثانياً قصة حياة بطل ، كم يتمنى القارئ أن تطول وتطول .

واقع العالم الإسلامي عشية الحروب الصليبية

والآن لنرى كيف يبدأ المؤلف دراسته واقع الصراع الذي شجر ما بين الشرق والغرب ؟ هل تراه شرع من الغرب مَكْتُنَ هذه الحروب الصليبية ؟ أم من الشرق ، مسرح أحداثها ، ومشهد دامي معاركها التي استمرت قرابة قرنين

بدءاً من الحروب الصليبية الأولى (١٠٩٥ - ١٠٩٩) حتى سقوط عكا
آخر معقل صليبي في الأرض المقدسة (١٢٩١)؟

لقد اختار مؤرخنا الشرق منطلقاً لدراسته ، حين بحث في الفصل الأول من كتابه «المخضات الكبرى في العالم الإسلامي عشية الحروب الصليبية» وعرض واقع الانقسام في الصف العربي والإسلامي وضعف السلطة المركزية ، وتسلط المرتزقة على الحكم وعلى الخلافة العباسية ، وقيام الدولات والإمارات وهزيل المالك ، بعد أن كانت للعالم الإسلامي وحدته المعتقدية والزمنية الراسخة ، وهو يرى أن بوادر الانقسام والتفكك هذه ، قد أدت إلى تمزق العالم الإسلامي الذي دخلت أطرافه مرحلة النزاع فيما بينها حتى لم يبق للخلافة العباسية سوى ظلها الديني ، وللحليفة غير العيش في شاهق قصبه .. يحيا على الرفاه لكن دون أن يمسك بمقاييس الحكم .

ويزيد في فصول المأساة أن يكون للخلافة مركز ثان هو القاهرة . حيث يتربع الخليفة الفاطمي الذي امتد سلطانه على فلسطين حيث دمرت كنيسة القيامة على يد الحاكم بأمر الله ، وحدثت بعض التجاوزات على الحاجاج الفرنجية التي ضغخت كثيراً في روع الغرب فتحركت الكنيسة توجج نيران العداوة ضد عالي العروبة والإسلام ، مخفية وراء ذلك كما نعلم علم اليقين حواجز اقتصادية استعمارية كما يتضح في ثانيا الكتاب والكثير من صفحاته .

وكانَت معركة ملاذكُرد (هنريكريت) عام ١٠٧١ التي أباد فيها السلاجقة جيشاً بيزنطياً قوامه مئة ألف مقاتل ، الفتيل الذي زاد في ضرام الأحداث وتسارعها ، وخرج مجمع كليرمون عام ١٠٩٥ بقرار امتيازات السلاح ، ورُزِّحَ أولى الحملات الصليبية نحو الشرق في الظروف التي بسطنا بعض جوانبها من انقسامه وتفرقه .

وتلقت سوريا وحدها الصدمة الأولى ، يقول الكاتب المؤرخ :
«وهذا الحدث الذي انتاب سوريا كان بالنسبة إلى الصليبيين حدثاً

سماوياً، فالوحدة الإسلامية الحقيقة بقبضة حديدية لم تقم قطعاً تجاه هذه المخة الجديدة التي حلت بالإسلام السوري، أما ورثة السلاجقين فانقلبوا اقطاعيين همهمحافظة على مناطقهم من غارات جيرانهم، وبهذا انفصمت روابط الوحدة مرة أخرى، بوقت كانت فيه وحدة العرق والدين ضرورية لمواجهة التهديد الذي أخذ يتضح في الغرب». (الفصل الأول).

الدول اللاتينية في المشرق وعوامل قوتها ووضعها

وكان من النتائج المباشرة للحملة الصليبية الأولى، أن حق الفرنجة نصرهم العسكري في الشرق فسقط الساحل السوري بيدهم، من انطاكية حتى إيلات، واحتلوا مدينة القدس (١٠٩٩)، وظهرت الدول الاتينية في بلاد الشام، وتأسست مملكة القدس وإلى جانبها قامت دول وإمارات وكوئنطيات ومشيخات صليبية.

ويكفي القول إن الصليبيين حملوا معهم بذور قوتهم وضعفهم معاً، حين مارسوا أساليب العلاقات السياسية والاقتصادية والعسكرية للنظام الإقطاعي الأوروبي في إطار سياسة استعمارية استيطانية، ولكن مع تطوير ليبرالي لهذا النظام، يقول المؤلف: «لقد مارس الصليبيون في سوريا عفواً ودون شعور منهم سياسة استعمارية بارعة من الغبن عدم الاعتراف باستلهاماتها الليبرالية». (الفصل الثاني).

تلك الليبرالية التي كم حزّت انعكاساتها في نفس الرحالة ابن جبير، إذ عاد كثير من النازحين العرب المسلمين إلى بيوتهم وأراضيهم، مؤثرين العيش في كتف الفرنجة المستعمررين، على الحياة في ظل الحكم المسلمين، لأنهم اختاروا النير الأخف وطأة.. وحذنا لو وعى بعض حكامنا اليوم هذا المثل.

وفي ظل النظام الإقطاعي ومنهجية الاستعمار الاستيطاني، انتشرت القلاع والمحصون الصليبية في المشرق على ساحل سوريا، والتي ما برح آثارها

ظاهرة حتى اليوم ، تذكرنا بذلك الماضي البعيد القريب الذي مازلنا نحياه ونقلب صفحاته ونقرأ واقعنا الراهن فيه .

هذا ، ودرس الكاتب طبيعة النظام القائم وحلّ أسس العلاقات الاقتصادية — التجارية السائدة ، والواقع الاجتماعي لل المسلمين الذين يعيشون في ظل النظام الصليبي مستندًا إلى مصادر الدراسات التاريخية العربية منها والأجنبية ، التي كانت شاهد عيان لما جرى على الأرض ، فهو ينقل عن كتب الرحالة العرب كتاب جبير والمؤرخين المعاصرين كتاب الأثير في كتابه : الكامل في التاريخ ، والعماد الأصفهاني ، وتاريخ وليم الصوري ، وذيله .. هذه المصادر التي تعد وثائق تاريخية هامة ، لتلك المرحلة الخطيرة في علاقات الشرق

واستناداً إلى الوثائق الفرنجية ، أكد المؤلف أن فرنجة المشرق لم يعودوا أوربيين بل غدوا شرقين يقول : « ولم تثبت أن دوت الكلمة رئيس الكنيسة بودوان الأول : « لقد أصبحنا شرقين كاملين ، فالروماني أو الفرنجي تحول في بنائه الجديد إلى جليلي أو فلسطيني ، والمولود في رنس أو شاتر انقلب إلى واحد من آهالي صور أو انطاكية » .

يقظة الإسلام السوري

ولكن الوجود الصليبي في الشرق لم يمر دون ردة فعل قدحت شاراتها أول ما قدحت على الصعيد الشعبي ، فسقوط المدن الساحلية السورية ومن ثم احتلال القدس ، وارتكاب الجرائم الشنعاء التي ذهب ضحيتها سبعون ألف مسلم في المسجد الأقصى وحده ، هذه جميعها أحدثت هزة عنيفة في ديار الإسلام .

وماعتم أن تبدت آثارها الأولى وبالتالي أولار لها كيقطة — بعد غفلة — في سورية النضال . فكانت الدعوة إلى الجهاد تتعالى في بلاد الشام ، وتتردد

أصداوها في سائر الأصقاع الإسلامية، يقول شاندور: «لم تثبت الدلائل الأولى لرد الفعل الإسلامي أن ظهرت في دمشق أولاً، ثم في حلب وديار بكر والموصل .. واستيقظ الإسلام السوري بعد أن وعى مصابيه، للجهاد، ومن أقصى المغرب إلى أعمق المشرق دوّت صرخة التوحيد الراهية على كل ما عادها من صرخات ثانوية .. الجهاد في كل مكان».

نور الدين زنكي بطل الإسلام والمناضل بلا هواة ضد الفرنجة

وكان أن تشكلت آمال عريضة لدى العرب المسلمين بالنصر على الفرنجة مع فشل الحملة الصليبية الثانية أمام دمشق وارتداد الصليبيين عن أسوارها عام ١١٤٨ وغدت هذه الآمال حقيقة مع بزوغ نجم نور الدين زنكي البطل القومي نيراً ساطعاً، يتبع شاندور: «وتحققت هذه الآمال، إذ دخل تاريخ الإسلام السوري شخص جديد — يمكن اعتبار ملكه بهذا الشكل أو غيره المقدمة لملك صلاح الدين — لقد سبق أن أشرنا إليه آنفًا حين قلنا إن منطقة حلب آلت إلى يد نور الدين، الذي كان تجسيداً للإيمان المناضل».

كان حاكماً صوفياً عييفاً، وبطلاً قومياً حقيقياً، مؤمناً بعظمة الرسالة السماوية. هذا الجندي الباسل الذي غدا بفضل سلسلة من المناورات تدعمها التظاهرات العسكرية سيد سورية، والذي سيكرس حياته لممارعة الفرنجة ومنازلتهم، بينما كانت الممالك اللاتينية في الغرب تصاب بردة الفعل المزعجة في أعقاب فشل الحملة الصليبية الثانية». (الفصل الثالث).

واستفاد الإسلام المناضل من انقسام صف فرنجة المشرق، وحقق — على يد نور الدين زنكي — وحدة بلاد الشام، هذا البطل القومي الذي وضع نصب عينيه هدفاً وحيداً لا يحيد عنه: الكفاح ضد الجسم الغريب، وطرد الصليبيين الأجانب خارج سورية وفلسطين.

وأهمية نور الدين زنكي بالنسبة لتاريخ الحروب الصليبية ولعهد صلاح

الدين تكمن في أنه أرسى قواعد النضال ضد فرنجة المشرق ، وأقام الأسس الراسخة التي شاد عليها صلاح الدين شامخ مجده النضالي ، مستفيداً من ضعف النظام الاقطاعي الصليبي ، يقول شاندور :

«وبق لبعض المؤرخين أن كتبوا قائلين : إن ضعف دول الفرنجة بسوريا ناجم في جوهره عن كون الصليبيين جلبوا معهم النظام الاقطاعي ، ولم تكن سلطة كبار البارونات لتسعد اقطاعتهم الحصينة . وغدت القدس بيزنطية ثانية . وكانت هذه الأسباب من عوامل الضعف التي ما كان لها إلا أن تحظى بمباركة زعيم مسلم من مستوى نور الدين الذي انفرد بهمesta استغلال هذا الوضع مرسياً الأسس التي سيشيد عليها صلاح الدين بناءً راسخاً .. فخلال الثنائي والعشرين سنة التي أمضك فيها بمقاييس الحكم (١١٤٦ - ١١٧٤) أنهك الصليبيين هادماً حصونهم .. وفي أقل من سنتين احتل تقريراً جميع موقع الفرنجة في سوريا الشمالية ، غير تارك لأعدائه لحظة راحة ، داحراً إياهم في جرأة اهتزت لها القدس» . (الفصل الثالث).

الصراع على وادي النيل وبروز نجم صلاح الدين

لقد حدد الصراع على وادي النيل بين الفرنجة وال المسلمين ، بدايات هذا «البطل الأنقى في الإسلام : صلاح الدين» إذ سعى الصليبيون لبسط نفوذهم على أرض الكنانة ، للاستئثار بخيراتها من جهة ، وخشية قيام وحدة سورية مصرية ، تقرب نهايتيهم في المشرق .. من جهة ثانية . ودفعت الحملة الصليبية على مصر ، وما نجم عنها من ارتکاب الفظائع والمجازر في بليس ، الخليفة الفاطمي للاستنجاد بـ نور الدين حين أرسل له شعور نسائه مستغيثاً به ..

وكان هذا حدثاً بالغ الأهمية في سياق الحركة التاريخية لمنطقة الشرق الأوسط ، إذ تربت عليه جملة من الأحداث ، منها : تألق نجم صلاح الدين الأيوني الذي رافق عمه البطل الأسطورة أسد الدين شيركوه على رأس الجيش السوري الذي أنفذه نور الدين إلى مصر ، لدرء الخطر الصليبي عنها ، فاستقبل

في ٨ كانون الثاني كمحرر للبلاد. وكان صلاح الدين ساعد عمه الأمين في القضاء على مؤامرات رجالات البلاط الفاطمي، واستباب الأمن في أرض الكنانة، وخلفه بعد قصير زمن على سدة وزارة مصر، فغدا سيدها المطلق الذي وضع نهاية الخلافة الفاطمية في القاهرة، مؤسساً على أنقاضها الدولة الأيوبية، ومتابعاً خططاً مقارعة الفرنجية، متمماً بذلك رسالة نور الدين، يقول شاندور :

«أقض مضجع الصليبيين أن يروا قبضة صلاح الدين تحكم السيطرة على مصر المشتهاة، وكان على المالك اللاتينية في المشرق التي تهددها حلب من الشمال ودمشق من الشرق، أن تأخذ من الآن فصاعداً جانب الخذر من الجنوب حيث غدت مملكة القدس تهددها مصر التي أصبحت ثانية – تحت حكم صلاح الدين – بؤرة الإسلام المناضل». (الفصل الخامس).

وما لبث ملك القدس أن سارع إلى الدعوة لحرب صليبية جديدة لكنها لم تسفر عن أية نتيجة، رغم قيام حلف ما بين بيزنطة ومملكة القدس هدفه الاستيلاء على مصر، والعمل على فصم وحدة وادي النيل وبلاط الشام، فنهض صلاح الدين لمقارعة قوى التحالف هذه، وتمكن من دحرها في دمياط عام ١١٦٩. وليس هذا فحسب، بل انتقل من الدفاع إلى الهجوم ليمنع الصليبيين من التسلل ثانية إلى مصر، وخاض ضدهم عمليات عسكرية ظافرة، فدخل مدينة غزة وحرر إيلات الواقعة على البحر الأحمر، وبدأ تمكن من إبعاد شبح خطرهم عنه، وتأمين سلامه أرض الكنانة.

ويرز صلاح الدين رجلاً سياسياً بارعاً، وعسكرياً لا يشق له غبار، وشكل خطراً داهماً على المالك اللاتينية، وخاصة بعد أن أنهى الخلافة الفاطمية، وسارع لاصلاح نظام الحكم في ريوس وادي النيل، وحقق نهضة سياسية، وازدهاراً اقتصادياً. وتقدماً عمرانياً .

وفي هذه المرحلة التاريخية، ظهرت الانقسامات داخل صفوف الفرنجية

ولا سيما بعد وفاة آموري ملك القدس والخلافات الناشبة حول الوصاية ، كما ذر قرن الفتنة في الدولة الزنكية أعقاب وفاة نور الدين وقيام المنازعات بين الأمراء على اقتسام السلطة بوجود ابن نور الدين القاصر .

وتوجهت أنظار الشخصيات النافذة في دمشق إلى البطل صلاح الدين ، فسارت لاستدعائه لإنقاذ بلاد الشام من الأخطار المحدقة بها داخلياً وخارجياً ، طالبة منه أن يكون له دوره الحاسم في مستقبل البلاد ، وأن يتحقق وبالتالي المشروع الطموح الذي بدأه نور الدين : طرد الفرنجية وتحرير الديار من رحمة الدخلاء .

وفي العام ١١٧٤ استقبل سكان دمشق بأهازيم الابتهاج صلاح الدين كرمز للبطل المنقذ ، وسرعان ما انضمت تحت ظل قيادته المدن السورية الأخرى حين حقق نصره الحاسم على القوات الزنكية التي قادها أمراء ما بين النهرين ، قرب حماة ، وبذا غدا سيد القطرين سورياً ومصر ، مطوقاً بهما الوجود الصليبي من حلب إلى القاهرة .

ويقول شاندور : « وهكذا بعد نجاحات متنوعة كانت سلطة مؤسس السلالة الأيوبية تترسخ ويعترف بها من حلب إلى القاهرة . وكتب غيوم الصوري يقول : لقد انتشرت تلك الأنبار في أراضي الفرنجية الذين انتابهم من جرائها الذعر لأنها كانت دائماً موضع تخوفهم ، لإدراكهم تماماً أنهم سيطرون من جميع الجهات ، إذا استولى صلاح الدين على حلب ». (الفصل الثامن) .

وتتابع صلاح الدين سيرته الكفاحية ضد الوجود الصليبي في الشرق بعد أن رأى أن الفرنجية ما زالت تتنزع بهم الأحلام للسيطرة على وادي النيل وأن محاولاتهم العسكرية الرامية حسب قول شاندور : « إلى إقامة دولة فرنجية تكون امتداداً طبيعياً لمملكة القدس في وادي النيل الخصيب ينبع الغلات ، ومصدر الواردات ». (الفصل التاسع) خاصة وأن هذه المحاولات لم تبرح تأخذ هذا الشكل أو ذاك .

إلا أن طموحاتهم تبخرت أمام صمود السلطة الأيوية أولاً، ويسرب خلافاتهم الداخلية، ومصالحهم الإقطاعية الأنانية ثانياً.

السيرة النضالية المستمرة ضد فرنجة الشرق

لقد كانت سيرة صلاح الدين بمجملها سيرة كفاح متواصل، إذ نقل مركز سلطته إلى دمشق ليكون قريباً من أعداء العروبة والإسلام. وليتبع مشروعه التحرري النضالي الطموح الهدف إلى تصفية الكيانات الصليبية لاستمرار انتهاكاتهم، في الشرق.. لا سيما وأن الصليبيين لم يكفووا البتة عن النزوع العدواني، وشنّيع أفعال سيد الكرك رينو دي شاتيون، الذي عجل بطيشه وحمّاقاته، ومشروعه الخطير للاستيلاء على المدينتين الإسلاميةين مكة والمدينة، فضلاً عن تجاوزاته المتكررة وخرق اتفاقيات السلم ونهب قوافل الحجيج المسلمين، مما عجل بدفع عجلة الأحداث إلى النقطة الحاسمة في سياق الحروب الصليبية، ونشوب معركة حطين، حين دعا صلاح الدين يؤيده خليفة بغداد «إلى الجهاد المقدس في جميع الديار الإسلامية واعتبرت بذلك أراضي الفرنجة دار حرب». (الفصل الثالث عشر).

حطين.. النصر الأعظم للعرب والمسلمين على الفرنجة

وأعطت الدعوة إلى الجهاد المقدس ثمارها، إذ استنفرت سائر القوى والقبائل العربية في مصر والشرق العربي، وزجت طاقاتها في معركة التحرير، فعمقت التلال والمضاب بفرسان الرحمن.. يقول شاندور واصفاً حشود المسلمين :

«فامتلأت تخوم الجليل بسحب من القوافل شبيهة برمي التجمعات العربية عشيّة فتح الشرق البيزنطي والساساني».

وأخذ صلاح الدين يعد العدة لحرب عسكرية طويلة الأمد، ولخوض معركة مصيرية حاسمة، سرعان ما بلغت أصواتها مسامع الفرنجة، فسارعوا إلى

نجد خلافاتهم ورأب الصدع في صفوفهم ، وتنادوا لتحقيق « وحدتهم المقدسة » لأنّهم غدوا على يقين من أن المعركة المقبلة مع المسلمين تختلف عما عداها من معارك مخاضوها في الشرق ، فهي معركة مصير ، يتوقف عليها وجود أو زوال الكيانات اللاتينية في المشرق العربي ، ولهذا حشدوا لها سائر الرجال القادرين على حمل السلاح ، يقول شاندور :

« وكان يوسع ملك القدس — غي دي لوزينيان — أن يزعم أنه حشد في صفورية أحد أهم الجيوش في جميع الحروب الصليبية ». (الفصل الرابع عشر) .

وأجبر صلاح الدين الفرنجة — بمحاصرته قلعة طبرية — على التخلّي عن صفورية الغنية بالينابيع والمراعي ، ليقودهم في حركة تكتيكية بارعة إلى الموضع الذي اختاره بنفسه للقتال ، بعيداً عن مصادر المياه ، فوقعوا في الشرك ، حين أطبقت عليهم القوات الإسلامية وحاصرتهم محاصرة تامة مضيقة عليهم الخناق ، دون أن يزوج صلاح الدين بكلام جيشه ، إذ احتفظ بقواته احتياطية للعملية العسكرية الشاملة وشرع في إنهاك الفرنجة الحاصرين ، المرهقين ظمآن وحرّاً وجوعاً ، والذين اندفعوا على غير هدى يتسلقون تل حطين ، الذي شهد يردهم على نار جراح القتل ، والتي كانت أبداً لا يقطّة بعدها .

ويصف شاندور النهاية المأساوية لجيش الفرنجة : « وأخيراً أطل اليوم الرابع من تموز (يوليو) ١١٨٧ اليوم الشديد الشؤم على النصرانية » .

ففي هذا اليوم الأغر من تاريخ العروبة استطاع الجيش الإسلامي — حين أصدر صلاح الدين أمره — بشن الهجوم الصاعق ، وزج قواته في المعركة الخامسة أن يبيد الفرنجة الحاصرين عن بكرة أبيهم ...

ويتابع شاندور محللاً نتائج المعركة ، بقوله :

« وقطعاً ، لم تحدث هزيمة أكمل ولا أفحى خسائر ، فعشية المعركة كان

ثلاثون ألف فرنخي يرقدون فوق الرماد الذي ما برح حاراً في هذه الأرض المعادية .. وتويد رواية أحد الحجاج وكان قد حضر هذه المعركة الحالدة ماقلناه آنفاً عن يوم حطين ، هذا اليوم الذي كان أعظم نصر لصلاح الدين» .
(الفصل الرابع عشر) .

وعملياً ، فإن معركة حطين التي كانت الضربة القاضية على القوة الأساسية للفرنجة ، قد هيأت النتائج لصلاح الدين ، الذي لم يتباطأ في قطف ثرات النصر فحرر كامل الساحل الفلسطيني وقسمها من الساحل اللبناني ، وسرعان ما تهافت مدن الفرنجة ، وتساقطت قلاعهم وحصونهم المنيعة يقول شاندور :

«وهكذا ، مثلما جعلت معركة حماة صلاح الدين سيد سورية ، فإن معركة حطين قد جعلته سيد فلسطين» .

فتح بيت المقدس

إلا أن أعظم الثمرات التي جناها صلاح الدين أو كانت من النتائج المباشرة لمعركة حطين ، هي تحريره بيت المقدس ، يقول شاندور :

«وفي السادس عشر من شهر رجب ٥٨٥ هجرية الموافق ٢ أيلول (سبتمبر) ١١٨٧ م أي بعد معركة حطين بشهرين ونصف الشهر ، ظهر صلاح الدين أمام أسوار القدس ، ولم تلبث المدينة أن سقطت وكان هذا تاريخاً لا ينسى في العالم الإسلامي» (الفصل الخامس عشر) .

صلاح الدين ومشروع تصفية الوجود الصليبي في الشرق

وبعد أن حرر صلاح الدين فلسطين ، وضع نصب عينيه تصفية الوجود الصليبي في الشرق تصفية تامة ، ودعا إلى جهاد جديد ، ومع مطلع آذار عام ١١٨٨ .. استؤنفت الأعمال القتالية لاستئصال شأفة الوجود الصليبي من الساحل السوري ، وتمكنت قوات العروبة والإسلام من تحرير بيروت وبانياس وجبلة واللاذقية ، وانتزاع حصن صهيون الذي كان يعد أujeوية

الإنشاء العسكري والذي اعتبر ممتنعاً على الفتح وشبيه بالشجا الناشر في حلق المسلمين .

كما تهافت شبكة التحصينات الصليبية : حامية مملكة أنطاكية ، حين افتتح صلاح الدين عنوة أهم حصونها وأشهر قلاعها .. وفي هذا الوقت تمكّن أخوه الملك العادل أن يفتح الكرك .. ويسقطها أعيدت الاتصالات بين مصر والشام .

الحملة الصليبية الثالثة

كان لمعركة حطين الخالدة وفتح بيت المقدس وتحرير المدن العربية من نير الاستعمار الصليبي ، وقعه البالغ عالمياً ، إسلامياً قوبلت بالأفراح أنباء هذه الأحداث ، بينما كان الذهول يخيم على الغرب ، ولم يفق من الصدمة إلا على أنباء الإعداد لحملة صليبية جديدة ، يقول شاندور :

«لقد أقضت المضاجع في جميع البلاطات الأوربية ، وبدأت الدعوة للحملة الصليبية الثالثة التي دعا إليها البابا غريغوريوس الثامن ، إذ حدّث جميع المسيحيين القادرين على القتال على حمل السلاح بغية إنقاذ الدين». (الفصل الثامن عشر ، تحالف أوروبا المسيحية ضد الإسلام) .

وتسلّم كل من عاهلي انكلترا (ريتشارد قلب الأسد) وفرنسا (فيليب أوغست) الصليب من بطريق صور ، وشرع يعدان العدة معاً للحملة المقبلة ، كما حلم أميراطور جermania فردرريك باربروس بانتزاع قصب السبق في المشرق ، فوضع قواعد صارمة لحملته الصليبية الجديدة ، وأعلن الحرب على صلاح الدين باسم الأباطرة الرومان — حين رفض بطل الإسلام إنذاره بإعادة الأرضي المحررة إلى الفرنجة — وشرع بالزحف برأًّا باتجاه الشرق على رأس جيش قوامه مئة ألف مقاتل .

وظهرت عقريبة صلاح الدين الفذة، حين عقد معاہدة تحالف مع اسحق لانج امبراطور بیزنطیه يقول شاندور محللاً:

«كان عالماً يتأهّل للمواجهة ولتحمل تجربة رهيبة، ولكن عقريبة صلاح الدين السياسية ستتيح له أن يحقق أعظم نجاح دبلوماسي في حياته: فمعاهدة التحالف التي وقّعها مع اسحق لانج الإمبراطور البيزنطي والمسيحي العريق الذي بفضله انضمّت بیزنطیه إلى المسلمين عشيّة الحملة الصليبيّة الثالثة» ويتابع شاندور حديثه عن معطيات المعاهدة، قائلاً:

... «فقد تعهد اسحق لانج بموجب المعاهدة التي أبرمها مع فاتح القدس بالتنازل لل المسلمين عن إحدى أشهر كنائس بیزنطیه لتصبح جامعاً، ووعد بأن يستنزف مؤخرة جيش فرديرك باربروس، وأن يحول الدروب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً إلى طرق مقطوعة». (الفصل الثامن عشر).

ملحمة عكا

كان قد سبق لصلاح الدين أن حاصر مدينة صور ثم اضطر إلى رفع الحصار عنها، مرجحاً إلى وقت آخر فتحها وكان قد تسلم كونراد دي مونفرا زمام قيادتها، فلم يلبث أن حوالها إلى قلعة حصينة، وببوابة مفتوحة لاستقبال أسطيل الغرب، والأمر الأخطى أن انطلق منها غي دي لوزينيان عاهم ملكة القدس - الملكة الشبح - الذي أطلق صلاح الدين سراح أسره في أعقاب معركة حطين - «بعد أن أقسم له بآلا يشهر سيفه أبداً ضد الإسلام» - «ليظهر من جديد على مسرح الأحداث السياسي على رأس سبعة آلاف رجل» زاحفاً باتجاه عكا، حيث التقى هناك بطلائع قوى الفرنجة، وضرب حصاراً على المدينة.

يقول شاندور محللاً الوضع العسكري الجديد أمام أسوار عكا الحاصرة: «وبدلأ من أن يواجه صلاح الدين في عكا - كما كان يعتقد - بعض

مئات من الفرنجية المتعصبين الذين لا يقلقونه لقلة عددهم وجد نفسه وجهاً
لووجه مع ألفي فارس، وثلاثين ألفاً راجل تقريباً، وكانت قوات فرنجية جديدة
تنزل من البحر على الساحل اللبناني، ويعبر خمسماة مركب مضيق جبل
طارققادمة من أوروبا الشمالية في أول أيلول (سبتمبر) وعليها ١٢٠٠٠ من
الدانماركيين والفرنسيين. وكانت أساطيل أخرى ترسو .. ولا ننسى أن هذه
القوات لم تكن تمثل سوى طليعة أنفذها الغرب اللاتيني، ... طليعة ستتبعها
عما قريب جيوش ملكي فرنسا وإنكلترا، وكان فريدريك باريسوس ما يزال زاحفاً
مع جرمانيه المائة ألف ..».

وعند أسوار عكا ، دارت أضري المعارك ما بين عالمين .. فكانت الملحمة
العظمى ، في تاريخ الحروب الصليبية .

وينقل شاندور عن كتاب الروضتين لأبي شامة ما يلي :

«وهكذا ، غدا المسلمين والفرنخة كل منها محاصراً ومحاصراً في آن
واحد ، الأولون في عكا والآخرون في المدينة الجديدة التي كانوا ينشؤنها دفاعاً
عن أنفسهم ضد صلاح الدين ، إلا أنه بقي وحده محتفظاً بحرية الحركة»
وأحكم الفرنجية الحصار على عكا برياً وبحراً ، هذا الحصار الذي بدأ في أيلول
١١٨٩ حتى سقوطها في ١٣ تموز ١١٩١ .

ولكن ، إذا كان الفشل نصيب الحملة الصليبية الألمانية بسبب
ما عانته قواتها من الجماعة والمرض والتساقط موتاً على قارعتي طريق زحفها ،
وأخيراً فقدانها قائدها غرقاً ، ووصول فلوتها هزيلة إلى أرض المعركة .. فإن قوى
الإنكليز والفرنسيين وصلت إلى حومة الصراع بكل زخمها .. كما لم يتوقف البتة
تدفق الإمدادات العسكرية لكلا الم العسكريين معًا .. الفرنجية ، والعرب
المسلمين ، تترى متقدمة نحو عكا لتناوب الهجمات والهجمات المضادة ،
وكان سكان عكا المحاصرون يعانون الجوع والحرمان ، وبالمقابل فقد خامر
اليأس قلوب الفرنجية من طول الحصار المشهود بقوة الصمود .. فشرع كل من

ملكي انكلترا وفرنسا يتباحثان سرًا مع صلاح الدين لإيجاد مخرج لهذا الصراع الذي تتمثل فيه شعوب شتى وأمم مختلفة.

وأخيرًا، سقطت المدينة بيد الفرنجية الذين دفعوا الثمن غالياً، فقد خسروا أمام أسوارها خمسين ألف راجل، ويقدر شاندور استناداً إلى المصادر الغربية أن الفرنجية خسروا في الحملة الصليبية الثالثة مائة وعشرين ألف قتيل.

وانفجرت الخلافات الكامنة في الصف الصليبي إثر سقوط المدينة الشهيدة، فغادر ملك فرنسا الأرض المقدسة، وتفرد ملك انكلترا بقيادة الفرنجية، وارتکب مجررة رهيبة عز نظيرها في التاريخ، بسكان عكا العزل من السلاح.. والذين ساقهم رجالاً ونساءً مكبّلين حفاة عراة، إلا من ستر الإيمان، لتغرس أسنة الحراب في حر الرقاب.

الصراع على الساحل الفلسطيني، وسياسة الأرض المحروقة

وحاول الفرنجية الاستيلاء على الساحل الفلسطيني، بهدف إعادة سيطرتهم على القدس، فناجذهم صلاح الدين بمعارك ضارية دارت ما بين أرسوف والرملة، ولم يتردد بطل الشام في تدمير مدينة عسقلان خشية أن تسقط بيد الفرنجية كي يؤمن حسب قوله حياة القدس وخلاصها.. كما هدم الرملة ولله جاعلاً الطريق إلى القدس قاعاً صفصافاً، مطبقاً بذلك استراتيجية الأرض المحروقة، في كل موطنٍ قدم يمكن للأعداء أن يجوسوا خلاله.

الطريق إلى القدس

واقترب جيش الفرنجية من القدس، وعسكر على قاب قوسين منها، لكنه عانى عند اعتابها: الأمرتين، مرارة الظرف القاسي، والمواجهة الأقسى مع عقبان الصحراء أبطال القبائل العربية، يقول شاندور:

«لقد هرع بدو المناطق المجاورة، فأنزلوا ضرباتهم الحاطفة بالجيش المبتل

بمياه الأمطار ، المرتعد بردًا ، والذي كان يتقى بهنـى البطء في الطرقات الملوحة ، وقطعوا عليه قوافل تموينه مكرهين إياه على البقاء بحالة استئثار دائم » .

« وتوقف ريكاردوس قلب الأسد على مسافة عشرين كيلومترًا من القدس وعقد اجتماعاً ب مجلسه ، وتردد . فقد كان فرنجية المغرب يودون متابعة الرمح نحو القدس ، على حين كان فرنجية المشرق يبغون العودة إلى الساحل لأنهم كانوا يتوجسون خوفاً من أن يصبحوا بين فكي كاشة : حماة القدس ، وجيش صلاح الدين المسيطر على الريف . وكان هذا الخطر شيئاً بذلك الذي سبق أن واجهوه وراء أسوار عكا ، ولكنه هذه المرة أشد ، لأنهم بمنأى عن البحر ويعيدون عن حماية الأساطيل الفرنجية .. وكان الفرنجية على شبه يقين بأن امداداتهم ومواصلاتهم مع الساحل يمكن أن يقطعها عليهم البدو » . (الفصل الرابع والعشرون) .

واضطر الفرنجية إلى الانكفاء متقهقرین إلى الوراء ارتداداً إلى الساحل ، ترجساً من مواجهة العرب المسلمين عند أبواب بيت المقدس ، فتكون القاضية عليهم .

البحث عن مخرج من حالة اللاسلم واللاحرب

وابتدأت مرحلة جديدة في تاريخ الحروب الصليبية ، وترتبت على الفرنجية أن يفكروا بطريقة تخريجهم من مأزقهم الكبير وتخبطهم في النفق المظلم دون أن يروا أي بصيص أمل ، وكان هدف صلاح الدين مع مطلع عام ١١٩٢ حسب رأي شاندور : «أن يطيل حالة اللاسلم واللاحرب المتأرجحة بين المسلمين والفرنجية » ، معتمداً في سياسته البعيدة المدى ، على الصبر واليقظة والتأهب والإنهاك تمهيداً لاستئثار القتال كما يقول صلاح الدين : « حالما نلمع الإمارات المؤاتية لنصر الإسلام الحاسم » .

القدس .. وهاجس حطين أخرى

وقدر الفرنجية استعناف القتال مرة أخرى والرمح نحو القدس ولكنهم انكفاءً عنها ثانية قبل أن يبلغوها لأنهم أدركوا عقم حصارهم إليها إذ تأكروا أنها غدت حصينة لا تقهـر، وأن عليهم مواجهة القوات الإسلامية الموحدة تحت راية صلاح الدين الظافرة عند أسوارها المنيعة، وبخلل شاندور موقف ريكاردوس قلب الأسد، وهاجسه المقلق من حطين أخرى، بقوله:

«ويلاحظ أن ملك إنكلترا لم يكن يريد أن يتحمل مسؤولية حطين ثانية، وأنه كان يفضل الاحتفاظ بالموقع المحتلة على الساحل، ولو بصعوبة بالغة، سليمة بدلاً من خسارة كل شيء في معركة يذكر ريكاردوس قلب الأسد بذعر نتائجها». (الفصل الخامس والعشرون).

الصلح الصعب

وبدأت مرحلة تالية في البحث عن أساس جديدة للصلح الصعب، كان من نتائجها حسب رأي شاندور: «أن أمل صلاح الدين المعاهدة إملاء المنتصر»، حين تم التوقيع على «وثيقة ليست هي سلماً دائمًا بل هدنة مدتها ثلاثة سنتين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام... وبقي الساحل المتند من يافا إلى عكا تحت سلطة الفرنجية، وظللت عسقلان محايـدة، وقسمت منطقة الرملة—اللد قسمين أحدهما بيد الفرنجية، والثاني بيد المسلمين، وبموجبهـا كان المسيحيـون يستطيعـون الحجـ بحريةـ إلى الـديـار المقدـسة».

مجد صلاح الدين وفشل الحملة الصليبية الثالثة

ويخرج شاندور بتحليله الأخير أن الصلح بين الفرنجية والمسلمين كرس مجد صلاح الدين وعقربيـته السياسية والعـسكـرـية، كما كشف عن عـقـمـ الحملـات الصـليـبيةـ، يقولـ:

(تلك كانت نهاية هذا التحالف الضخم للشعوب ، الذي عرف باسم الحملة الصليبية الثالثة وكرست هذه النهاية مجد صلاح الدين وعقربيته ، كما كرست عجز الفرنجة المنقسمين سعياً وراء قضايا مصلحية قذرة ، أمام الإسلام الذي كان ظله يتعاظم ، وسيشمل قارات أخرى فيما بعد) .

صلاح الدين: سيف ملحمة الإسلام المنتصر

كانت حياة صلاح الدين ملحمة بطولية خالدة ، ولذا اعتبر رمز الإسلام وسيفه المنتصر ... يقول شاندور :

« مطلقاً لم يبلغ أحد من البشر ما بلغه صلاح الدين من ألق المجد بعد انقضاء عهد الرسول وقاده الفتح الأولين ، إذ أحرز أكبر نصر للإسلام على الفرنجة في حطين وأزاح ستار الظلم القائم بين الشرق والغرب . لقد بكى الناس فقدان القدس في أكثر الأ��واخ تواضعاً في فرنسا ، ولكن هنا في دمشق أصبح صلاح الدين في حياته وسيقى أبداً على مر الأجيال سيف الإسلام . وأضحى رمز الإسلام ، وغداً اسمه وحده يجعل يقظة الإسلام تهز رهبةً أعمق وأقوى الولايات في الغرب ». (الفصل السادس والعشرون) .

وكان صلاح الدين ، وسيظل تلك الصورة الندية للحاكم العادل والقائد الإنسان ؛ تحمل لمؤرخي الحروب الصليبية بتلك الصورة التقبة الورعة ، ورغم أنه أحق أندح المزامن بالغرب الفرنجي .. فقد ملأت قلبه الرحمة التي تثلت بأروع صورها بعد نصره العظيم في معركة حطين وتحريره بيت المقدس .. لم يقابل أعداءه بالحقد الديني ولا للمجتمعية الجماعية التي عاملوا بها المسلمين وخاصة عندما سقطت بأيديهم القدس عام ١٠٩٩ في الحملة الصليبية الأولى ، إذ ذبحوا سبعين ألفاً من المسلمين في المسجد الأقصى ، بينما سمح هو عقب التحرير ، للفرنجة المهزومين بالخروج سالمين وأظهر رحيمته ونبيله تجاه مستضعفهم ، مخففاً من آلام النسوة ، غامراً إياهن بالهدايا والمؤن ، وبفيض رحمته على هؤلاء وأولئك من البؤساء ، في وقت تنكر لهم أبناء دينهم وجلدتهم .

صلاح الدين الأيوبي .. وحطين ما بين الأمس واليوم

وعوداً على بدء نرجع إلى القول : لقد قدم بطلنا الخالد ، بطل حطين ومحرر بيت المقدس الدروس وال عبر التاريخية ، سياسياً وعسكرياً ، ومن هنا كانت الأهمية الكبيرة لدراسة الحروب الصليبية والوقفة المتأنية حيال أبطالنا الذين نازلوا الكيانات الاستعمارية المصطنعة ، وقارعواها حتى النهاية : نور الدين زنكي ، صلاح الدين الأيوبي ، الظاهر بيبرس ، وإعادة بحث المعارك العسكرية التي دارت ما بين العرب المسلمين والفرنجية الصليبيين وكان مسرحها شرقنا العربي ، ومن هنا كانت أيضاً في محلها تلك الندوة : ندوة حطين التي عقدت مؤخراً بدمشق ، في سياق صراعنا مع الكيان الصهيوني .

ما أشبه اليوم بالبارحة .. الماضي البعيد بالحاضر الراهن ، أي منذ ولادة فكرة الحروب الصليبية إلى الغزو الصهيوني ، بدءاً من الخدعة السياسية والتعلق بالخرافات والأساطير ، إلى تغذية الروح الاستعمارية بهدف الاستيلاء على ثروات الشرق . وكيف لا ؟ والوجود الصليبي – شأنه أنس شأن صنوه الكيان الصهيوني اليوم – قام على حرب الدعم الخارجي الكبير ، فأوروبا كانت وراء المالك اللاتينية في الشرق ، كما أن أمريكا زعيمة الإمبريالية العالمية ودول أوروبا الغربية والرجعيات الدولية ، دعمت وما زالت تدعم بلا حدود هذا الكيان الدخيل .

ولأنسني أن كلا الغزوين الفرنجي والصهيوني استفاداً من تفرق العرب وتختلف المسلمين ، بل من صراعاتهم الداخلية ، ضد بعضهم بعضاً ، عشية الغزو الفرنجي والاحتلال الصهيوني . ولكن هاهي ذي بوارق اليقظة ومشاعل النضال تلوح – كما في سوريا الأمس – وفي سوريا اليوم معقد آمال العرب وكعبة رجائهم في النهوض والتحرير .

ولا خلاف فإننا مع الأخ الدكتور شاكر مصطفى بما ذهب إليه في محاضرته القيمة التي ألقاها في ندوة حطين « من الغزو الصليبي إلى الغزو

**الصهيوني وبالعكس» ، حين خلص إلى النتيجة الهامة — التي يعرفها الصهاينة
وأمرياليو الغرب حق المعرفة — والتي مفادها :**

« كانت عملية تحرير فلسطين من الفرنجية من عمل مصر والشام ، وكان شمال العراق هو العمق الاستراتيجي للعملية .. ويبدو أن المنطق الجيو— بوليسي ما يزال قائماً وما تزال عملية التحرير من مهمات هذه المنطقة بالذات دون غيرها .. وكانت حطين ، لكنها لم تكن إلا بعد أن وجدت عاصمة ومركزاً ديناميكياً لها في دمشق وقيادة واعية ملهمة وقوة موحدة ساحقة ، وعمقاً استراتيجياً وراءها وإعداداً سياسياً وعسكرياً طويلاً ».

وليس من ريب — وقد كانت نهايات الكيانات الصليبية المصطنعة هي الزوال — أن نهاية الكيان الصهيوني ستكون ماثلة ، لأن منطق التاريخ يفرض هذا كما هذه ، ويرفض الكيانات الدخيلة المصطنعة ولن يضيع حق وراءه مطالب ، خاصة وأن سوريا اليوم تعمل وحدها جادة لتحقيق التوازن الاستراتيجي مع إسرائيل ، وتعد العدة إلى صراع طويل الأمد ، فكيف إذا آتت الظروف وتوحدت كلمة العرب ، وانتهت الكلمة الموحدة إلى طاقة وعمل؟

إننا الآن إذ نودع القارئ الكريم ليلاشر بذاته — وعلى هواه — تلك النزهة التاريخية الممتعة ، على صفحات هذا السفر — سواء المترجم منها أو نصوص التحقيق — لا بد من الإقرار بأننا كثيراً وكثيراً ما لاحث لنا تلك الحقيقة في قوله جل جلاله : ﴿إِنَّ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ﴾ .
ويتأطر هذا الشرط وجوابه بوعده الحق : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلُفُ الْمِيعَادَ﴾ .

الشـام ٢٦ تموز ١٩٨٨

العـمـاد

مـصـطـلـفـحـاطـلـاـسـ

الفصل الأول

المخضات الكبرى في العالم الإسلامي عشية الحروب الصليبية

العهد الذهبي للإسلام

في القرنين السابع والثامن للميلاد هرّ الانفجار الرياحي للإسلام القارة القديمة ، وعرف العالم العربي عهداً ذهبياً من التوسيع الإقليمي والديني ، ومن الإشعاع المتوجه في مضمار العلوم والفنون ، فكان هذا هو العصر الذهبي للمؤرخين العرب ، كان عيداً مستمراً ، وليس هذا فحسب ، بل تحقق حلم الاشتراكيين المعاصرین ، في أن يروا أنفسهم عاشرين في كتف الدولة على الرخاء مسكوناً ومطمئناً .

وحدة العقيدة الروحية والزمنية للعالم الإسلامي وبواحد الانقسام واستقر الإسلام بعد أن هدد أوروبا ، وفي هذه الكتلة الإسلامية الضخمة التي نجحت فجأة في تاريخ العالم لم يلبث أن ظهرت — في لحظة حرجة حرجاً خاصاً بالنسبة للغرب المهزوز أمام الفتوحات العربية والصقلبية — الخصومات السلالية والأزمة الرومانية في القرن التاسع ، كما تفجر الكثير من بؤر الاضطراب بين غلاة الدعوة للمائة والأربعين سورة من القرآن الكريم بما فيها من إيجازٍ موحِّيٍّ كان يمكن تأويلها بinterpretations مختلفه . ومن جهة كان النبي ﷺ قد

قال : « اختلاف أئمتي رحمة ». هذا الحديث ذاته كان يمكن أن يرجع أكثر ضمائر المؤمنين رسوخ يقين ، وهو يفسر لنا – إذا لم نؤخذ بعظمة الإسلام الظاهرة – تعدد المدارس الأصولية وتفتحها ، وتلاحيها فيما بينها لاكتساب التابعين .

وكان من نتائج فقدان التوازن العميق لدى قوى الإسلام الروحية أن تتزعزع – ولا مناص – الوحدة العقائدية والزمنية للعالم الإسلامي الذي لم يكن لديه – ولنكرر على هذه الملاحظة – تقليد امبريالي ولا أستقراطية ولا نخبات ، وهي أمور لا يمكن من دونها تغذية ودعم سياسة قومية واضحة .

زعزعة السلطة المركزية وسلط المولى على الحكم

وفي خضم الخصومات العقائدية الحادة تقوضت السلطة المركزية التي غالباً ما كانت شرعيتها غير معترف بها .

وبالتأكيد لم يكن الخلفاء ، خلفاء النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ليخشوا شيئاً خشيتهم من أن تجردهم من سلطتهم الفئات الإصلاحية التي كانت ماتنفك ثائرة عليهم . ولذا استدعوا المولى من مختلف أجنبائهم للحفاظ على سلطانهم وحراسة بلاطتهم وقصورهم وإخماد الفتنة الشعبية التي طالما أرثوها رجال المذاهب بعنابة فائقة . وخشية أن تميد الأرض بهم استعراضوا بالمرتزقة الأتراك أو العبيد الإفريقيين عن الأعراب الأوفاء الذين أسس أجدادهم المتواضعون من قادة القوافل امبراطورية الإسلام ، وتلك هي غقدة المأساة . فالمরتزقة الذين استدعاهم الخلفاء ، وقد هبطوا جميعاً مندفعين من مهدتهم : المضاب الآسيوية القاسية ، سعداء بأن يُسدوا خدمتهم لسادة بغداد الباهرين ، أو سادة دمشق المحاطين بسحابة كثيفة من الشعراء والأمراء .

وكما يكتب أبو داود : لقد سعد رجال الشمال ، هؤلاء الرعاة الذين كان ينذر منهم البؤس في قراهم ، أولئك الحفاة القساة في ساحة المعركة ، الذين هم على أهبة الاستعداد لاستيعاب التلميح في القول لتحديد مهماتهم الأشد قبحاً ، الخدم السريعون التصرف ، العرس ، نعم سعدوا بالغ السعادة من الآن فصاعداً بحياة الرغد في ظل أصحاب السلطان ، وإن يلعبوا دوراً أساسياً في مأساة الحرير الهزلية . ولذا استجابوا دونما استثناء لنداء الخلفاء غير

المتروّي ، تماماً كما حدث فيما مضى للبرابرة الذين تركوا قبائلهم التائهة الجائعة وخفّوا مسرعين لحماية تخوم روما ، ومن ثم لتفويض الإمبراطورية التي آوتهم^(١) .

ولم يلبث الوافدون الجدد أن اطّلعوا على الضعف المزمن للسلطة التي كان عليهم أن يحموها ، وسرعان ما انقلب المعونون الأتراك على أسيادهم المتساقطين على عرش آل النبي (عليه السلام) وحلوا محلّهم ، ولم يدعوا لهم سوى السلطة الروحية ، وثم امتدت منهم قبضة نحو الشرق ، تواصل الإغارة ليلاً نهار حتى بسطت على الهند سلطان الإسلام ، وأما قبضتهم الأخرى فقد احتلت الولايات الغربية من فارس . وفي كل مكان تربع قادة العصابات القدماء والغامرون على دست الوزارة . وغدت فوضي الخلافة الدستورية متواصلة ، والحروب المحلية مستمرة ، ولا ينفك كبار الأقطاعيين يثيرونها على بعضهم بعضاً في السلطanات الثانية . وكما هو الأمر في أوروبا الاقطاعية في الحقبة ذاتها ، شرع حكام الأقطاعيات يهددون السلطة المركزية . وكان ما يجري من نزاع دائم بين المصالح المحلية ، والنهم المتفاقم الذي يمارسه الأعراب (البدو) ، والشاحر المستمر بين السكان ، كل هذه الأسباب الأُولى لعدم الاستقرار كانت تخدم خدمة تتتجاوز مطراً آخر آمال الجيلين الوافدين من الشمال الطامعين ، غلف القلوب .

وكنتيجة غير مرقبة ، كان هؤلاء الغامرون إبان الحملات الصليبية يجعلون الحروب أشد ضراوة ، أو يثيرون بتجاوزاتهم قدرأً من الاستنكار حمل النصرانية بقضها وقضيضها على امتشاق السلاح لتجعل المسلمين الذين طغى عليهم الأتراك يخترقون اتفاقيات شارلaman وهارون الرشيد التي كانت تحافظ على امتيازات مسيحيي سوريا الفرنجية .

والأسباب ذاتها تؤدي على الدوام إلى التنتائج ذاتها . فالخلفاء خدمة الأرضين المقدستين ، سيكتفون من الآن فصاعداً ، بما تدره عليهم سلطتهم الروحية ، تاركين لوزرائهم الأجانب مهمة حل قضايا الدولة ، وعكفوا منهمكين برعاية شعراهم ، يخشون وقع قوافلهم حتى ليفرغوا بيت المال وهم يتمتعون — كما جرى للأمين عشية قتلـه — بعذوبة ضوء القمر الراقص على مياه دجلة . فهذا المجتمع الطائش يدع ، مبهجاً عباء المسؤوليات السياسية . وكان رجال البلاط الدائرون في تلك الأمراء ما ينفكون محتاجين للمال ميسـس الحاجة لأنفسهم أولاً ، ولعائلاتهم وبطانـتهم ثانياً ، ومن ثم لخاشـيتـهم وحواشـي حاشـيتـهم ، ويرسم لنا

مؤرخو الحوليات العرب بلغتهم الخيالية هذا الفراغ في السلطة، وذلك الإسراف مع عدم الانضباط وخشوع الوزراء وولاة الأقاليم وسائر العمال، ناهيك بتحلل الولايات التي كان عمالها يرفضون بقحة ووقاحة دفع الضرائب، تجبرهم على الفوضى هذه الانشقاقات المستمرة في قلب الخلافة، وتلك المطالب من المغامرين. وسياسة ذاك قوامها تشجع — لا محالة — الأضطرابات حتى لتبدو كارثية.

محنة العالم الإسلامي وانقسامه عشية الحروب الصليبية

و قبل أن ت تعرض لعصر صلاح الدين ينبغي أن نقول فيه هذه الكلمات : كان الإسلام يمر بمحنة ، لحظة لم تكن السلطة الخليفية البتة منعدمة أو مشكوكاً فيها بهذا المقدار ، لحظة كان يمكن التنبؤ بانقسام العالم الإسلامي إلى مجموعتين كبيرتين تستقطبهما بغداد ، والقاهرة .

فالعباسيون ينشرون أوامرهم الثورية ، وعصابات من الرنج منتشرة في بقاع ما بين النهرين السفلى ، ناهبين المدن المزدهرة ، حتى المدينة المقدسة مكة لم تكن في منجاة من ذلك . فقد أغارت عليها جحافل القرامطة المتعصبة فقتلت عشرة آلاف من المؤمنين حوالي الكعبة .

ولأن قواfol الحجاج لم تعد تجرؤ على التوجه إلى مكة حيث كان الناس يتذاحون بضررها على مدار الأيام ، وقع حادث سيكون له تأثيره المزعج في العلاقات بين المسيحيين والمسلمين ، ذلك أن هؤلاء قرروا أن يحجوا من الآن فصاعداً إلى القدس ، حيث حل مسجد عمر محل الكعبة ، ولم يكن المسيحيون ليحصلوا على أي ريح من تفجير هذه المواكب التي لا تنتهي من المؤمنين وهي توم القدس دورياً ، والتي كانت تحت تأثير حماستها تهدد وقتل أعضاء المجتمعات المسيحية . وقد دفعت التجاوزات التي كان المسيحيون ضحاياها ، بيزنطة إلى التدخل ، إذ كانت العاصمة الكبرى للإمبراطورية الرومانية الشرقية تؤكد أنها لن تقف متفرجة على ما يجري في الأرض المقدسة ، وخاصة وهي منذ خمسة قرون تصمد لضغط العالم الإسلامي ، وكما سرى ، فقد أخذت سياسة أباطرتها السورية ، تتعش آمال مسيحيي الشرق ، إبان كانت المستوطنات المسيحية في مصر مصابة بالإرهاب من تصرفات الخليفة الحاكم .

وفي القرن الحادي عشر تم انشطار العالم الإسلامي قسمين أساسين . فالمدينتان

المقدستان أصبحتا للخلفاء الفاطميين القادمين من إفريقية الشمالية السادة الجدد لمصر، متزعين من خصوصهم خلفاء بغداد الألقاب المثيرة للحسد، ألقاب حماة الحرمين الشريفين، وكان على الخلافة الفاطمية حسب كلمة مؤسسها أن تبني على أنقاض عالم الجور والفساد مملكة العدالة، والسعادة، وكان ظهورها – ولارب – حدثاً ضخماً في تاريخ الشرق الإسلامي.

الفاطميون والحكم الإرهابي في مصر

لقد بلغت الإمبراطورية التي أقامها الفاطميون من القوة حداً جعلها تهدد تهديداً جدياً الإسلام السوري الذي أوهنته خصومات أمرائه، وبلغت هذه الإمبراطورية ذروتها حينما أفسدت الأمور، فقد ارتقى عرش مصر مهزوز، حسب رأي البعض، أو مكشوف عن بصيرته حسب قناعة الآخرين. كان عمره إحدى عشرة سنة، وكان اسمه الحاكم، هذا الملك الغريب الأطوار، وغير المستقر، والسابق لزمانه، يستحق أن شخص له بضعة أسطر لأنه صورة متميزة إذ كان – كما يشيع عنه أعداؤه – يتلهي بقطع رؤوس المنجمين، ويجلس ليلاً في الحاكم، يجندل في يوم واحد رؤوس عشرة آلاف ضحية، يحرق ليتسلى أحياء كاملة من القاهرة، يخرج الجثث من المقابر ليغذي بها كلابه الحبيبة، ويحمل عبيده الزوج على ضرب النساء العاريات بالسيف.

وفي وقت من الأوقات أغرق شعبه في ذهول قريب من البدعة، فجعل المقربون منه يررون عنه أنه تحبّل للخالق ذاته، وقد وجد أناساً مهووسين ينشرون هذه البدعة في فارس والهند وسوريا.

اضطهاد مسيحيي مصر

غير أن المسلمين لم يكونوا الوحيدين الذين آذتهم هذه الانزعاجات النفسية لل الخليفة. فبعد أن هاجم الحاكم الممارسات التقليدية للإسلام خطر له أن يضطهد المسيحيين الذين كانوا يقدمون لإدارته أفضل الموظفين، فلكي يميز المسيحيين ويذلمهم، ويعيدهم إلى منزلة داعفي الجزية جعلهم يحملون حملاً ظاهراً صليباً زنته أربع أوقية. ولم يكتمل بهدم كنائسهم

وحيهم في القاهرة ، وتوسلاً لبعض الشعيبة والدعوات في العالم الإسلامي ، .. خطر له خاطر
مجايف للحكمة ، وهو أن يقلب الأرض التي جرت عليها المأساة الأبدية ، فنقض كنيسة
القيامة حجراً حجراً ، والتهمت النار ما أخطأه يد الدمار في جبل الجلجلة .

ودعية العامة لهب الأديرة التي طرد منها قساوستها ، وبلغ الإرهاب حدّاً أخذت معه
جمهرة كبرى من المسيحيين تنسحق تزاحماً أمام أبواب الحاكم الشرعي لتشهر إسلامها تقية ..
ومن نافلة القول : إن هذا الانبطهاد أثار في الغرب ردة فعل عنيفة ، وبلغ التأثير ذروته ، عندما
ألفى الحاكم نهائياً الحماية التي أقرها شارلماן في الأرض المقدسة . ودخل النزاع بين المسيحية
والإسلام مرحلة متفاقمة .

السلجوقيون وكاثolie البيزنطيين في معركة ملاذكـرد (هنـز يـكرـت)

ولم يكن التأثير الذي أحدثه اضطهاد المسيحيين في مصر قد هداً بعد عندما علم في
أوروبا بحدوث كارثة جديدة ، إذ عمد عدد من المرتقة الأتراك القدماء الذين استدعتهم خلافة
بغداد وهم السلجوقيون الذين ما كانوا يأنسون بأنفسهم قوة الشكيمة نتيجة ما خاضوا من
مغامرات حتى اندفعوا لمهاجمة حدود بيزنطية ، وأبادوا في ١٠٧١ آب سنة ١٠٧١ في حومة
معركة ملاذكـرد المشهورة جيشاً بيزنطياً قوامه مائة ألف مقاتل . ثم استولوا على القدس
 وأنطاكـية وازمير ورودس ، ودخلت العاصمة الآسيوية ، التي اشتهرت بذكريات العهد الرسولي
الواحدة بعد الأخرى ضمن دائرة النفوذ السلوقي .

جمعـكـلـيرـمـونـ والـدـعـوـةـ إـلـىـ الـحـمـلـةـ الـصـلـيـبـيـةـ الـأـوـلـىـ

وهنا أخذت الأحداث بالتسارع ، ولم يعد بوسع روما أن تبقى غير مكتثة أمام هذا
الانهيار . ففي جمعـكـلـيرـمـونـ سنة ١٠٩٥ دعا البابا الفرنسي أوريانوس الثاني إلى الحملة
الصلـيـبـيـةـ الـأـوـلـىـ ، ولكنـ ماـ وـاطـ لـلـبـابـيـةـ مـنـ مـسـوـغـاتـ هـذـهـ الحـرـبـ المـقـدـسـةـ لمـ يـكـنـ التـهـيدـ
الـضـاغـطـ عـلـيـ بـيـزـنـطـةـ بـقـدـرـ مـاـ كـانـ مـصـيـرـ الـقـدـسـ . ويـكـنـ القـوـلـ : إـنـ هـذـهـ الحـمـلـةـ الـصـلـيـبـيـةـ
الـمـسـتوـحـاـةـ جـمـاهـيرـاـ مـنـ بـؤـسـ الـمـسـيـحـيـنـ فـيـ الشـرـقـ قـدـ عـبـرـتـ تـعـبـرـاـ عـفـوـيـاـ عـنـ غـيـرـ الـمـسـيـحـيـنـ
عـلـىـ الـأـرـضـ الـمـقـدـسـةـ الـتـيـ سـبـقـ أـنـ طـبـعـهـاـ فـيـ قـلـبـ مـسـيـحـيـيـ الـغـرـبـ قـرـنـانـ مـنـ الـحجـجـ الـمـتـوـاـصـلـةـ

ودبلوماسية شارلaman الباهرة التي حصلت على الاذن بناء الكنائس، والأديرة والمشافي في فلسطين.

ولذا لم نعرف بقيمة هذا الماضي وتأثيره فهيهات لنا أن ندرك معنى ولادة الحروب الصليبية، هذا الاندفاع الروحي لشعوب صهارها إيمانها حول قبر المعلم الإلهي — بلا تميز في القومية — في اتحاد واحد متوجه قلباً وروحًا^(٢).

واقع التجزئة والانقسام في الصف الإسلامي

وفيما كان الصليبيون الأوائل يحتشدون، كان السلاجقيون الذين ما كادوا يفرغون من إشادة صرح إمبراطوريهم المزدهرة حتى انكحروا يشهدون انهايرها دون أن يتسع لهم الوقت للتمتع بها. وهذا الحدث الذي انتاب سوريا كان بالنسبة إلى الصليبيين — حدثاً سماوياً فالوحدة الإسلامية الحقيقة بقبضة حديدية لم تقم قطعاً تجاه هذه المخنة الجديدة التي حلّت بالإسلام السوري.

أما ورثة السلاجقويين فانقلبوا إقطاعيين همهم الحافظة على مناطقهم من غارات جيرانهم، وبهذا انفصمت روابط الوحدة مرة أخرى، بوقت كانت فيه وحدة العرق والدين ضرورية لمواجهة التهديد الذي أخذ يتضاعّ في الغرب، في بلدان أوربة اللاتينية التي كان يطوف فيها الرهبان مثيرين غضباً مقدساً ضد غير المؤمنين (المسلمين). وحينما أخذت جيوش الحملة الصليبية الأولى بالتدفق على أرض آسية، لم يحفل الأمراء السوريون بالنتائج المنطقية لهذا الغزو، إذ كانت أحقادهم الأسرية والقبلية تسيطر مهيمنة على ساحر التزاع. كانوا متخصصين في عواصمهم معتقدين أنهم في منجاة وراء صحاري ما بين النهرين. وكانوا ينظرون إلى هذه الموجة تتر عرضاً بدلاً من أن يضعوا حداً لأحقادهم ضد بعضهم بعضاً، وأن يتّحدوا للدفاع عن الإسلام.

وهكذا بقيت الصليبية الأولى غير مفهومة لديهم، ولم تكن في نظر المسلمين حرّاً دينية كما سيثيرها فيما بعد صلاح الدين بعد الحركة الغربية التي قام بها رينو دي شاتيون عندما اختطف في قلب السّلّم قافلة تجارية كانت تعبر أراضيه. وفي غمرة حركة المدّ الضخمة للغرب

نحو الشواطئ الموقرة للأراضي المقدسة لم يجد أتقياء المسلمين القصيرو النظر أي سبب للقلق . وكان يجب انتظار بروز صلاح الدين الأيوبي الذي سيعرف كيف يجمع ويعُقّل حواليه الأمراء المنشقين ، كما كان يجب انتظار عبقرية بيبرس وقرنين من الصراعات لكي تتطهّر أخطاء المسؤولين المسلمين في آخر القرن الحادى عشر بدم الآلاف المؤلفة من الرجال المبادين على طريق القدس بالأوعية والجوع والظلم وال الحرب .

المالك اللاتينية في الشرق

وواثق الحظ غود فروا دي بويون ، فدحر الأتراك في بعض مراحل عبر الأناضول ، على حين كان أخوه يؤسس عبر الفرات إمارة الرها التي كان يمكن أن تهدّد الموصل وبغداد .

وبعد معركة ظافرة ضرب غود فروا دي بويون خيمته أمام القدس . وإثر حصار شهر واحد أخذت المدينة ، وذبح مائة ألف مسلم . وهكذا أُرسِيت دعائم مملكة الشرق اللاتينية وسط صرخات الابتهاج في العالم المسيحي ، وشهقات العویل في العالم الإسلامي . وأخذ الصليبيون يقتطعون لأنفسهم ولايات إمارة أنطاكية التي كانت تُظلّ برأية حمايتها أرمينية الصغرى ، وكوتنية طرابلس المحدودة شمالاً وجنوباً بقلعة المرقب المهيءة ، وجبيل الفينيقية القدية ، وأخيراً مملكة القدس التي احتوت مناطق مؤاب النبطية القدية ، والتي قسمت إدارياً أربع بارونيات كبيرة : كوتنية يافا وعسقلان ، إمارة طبرية ، بارونية صيداء ، ومشيخة الشويف في أراضي عبر الأردن . وفي كل مكان شاد الصليبيون — الذين استولوا على هذه الأرضي التي سيسيرون فيها الكثير من الدماء — القلائع والمحصون ، لكي يحموا الشاطئ السوري ، ويراقبوا طرق دمشق وحلب أو القاهرة .

حواشی الفصل الأول

١ - لم نعرف مؤرخاً اشتهر بكتيبة أبي داود الذي يعبر قوله . «لقد سعد رجال الشمال هؤلاء الرعاة...» عن نعمة العرب ضد عناصر الموالي من شعوب الأمة الإسلامية التي قفزت إلى سدة الحكم ، ولم تدع للخلفية العباسية سوى القشة الدينية الظاهرة من معالم السلطة ..

وقد تجلت تلك النقطة أبرز ما تجلت لدى المتبيأ أيام اندفاعات شبابه وتطلعات طموحة سعياً للحكم ، في

قوله:

ولكنه — عفا الله عنه — نسي هذا القول وغيره من نظائره، وقصد كافوراً الأخشidi في مصر ومدحه، كما مدرس عضد الدولة وابن العميد وأطرب ..

وإن كانت لنا الكلمة بالموضوع، فالإسلام رغم كونه غريباً عربياً خالصاً عالمي النزوع، إنساني التطبيق، وحسبنا قوله عليه السلام لأبي ذر وبالتالي ملن هم وراء أبي ذر من متعاقبي الأجيال، برواية أنس، وتخرج البخاري ومسلم: «اسمع وأطع ولو لعبد جبشي كأن رأسه زيبة» ...

وهل بمستطاعنا — وخاصة إذا أحطنا موضوعياً بالظروف التاريخية — إلا أن ننخر ونباهي بأمثال : عmad الدين ، نور الدين الزنكيين ، وشيركوه وصلاح الدين الأيوبيين ، والملوكين الظاهر بيبرس وقلادون ، وغيرهم كثيير ، وخاصة أنهم استعربوا جميعاً ، بعد أن درجوا على أرض العروبة .

والمهم وحده هو الحكم الصالح ﴿لَا تزر وزرة وزير أخرى﴾.

٢— لم تكن دوافع الحروب الصليبية— التي دامت قرابة قرنين ما بين الغرب المسيحي والشرق العربي الإسلامي—

دينية بحثة ، بل هي أصلاً دينوية ، حققت بمصل ديني لتحرير مشاعر العامة من مسيحي الغرب ، ولتشير حسب قول شاندور : « ذلك الاندفاع الديني حول قبر المعلم » .

ففي أعقاب معركة ملاذ كرد « هنريكريت » التي منيت بها بيزنطية بالهزيمة المرة أمام السلاجقة ، تعالت أصوات الدعوة الأولى للحروب الصليبية التي أطلقها إمبراطور بيزنطية الأئزدكسيه مستنجداً بأوروبا الكاثوليكية ، حين ذكرها بالثروات الطائلة التي يمكن أن يقدمها دعماً للحملات الصليبية والتي أغرت ملوك أوروبا محركة أطماعهم فضلاً عن أن المدن الأوروبية الإيطالية والفرنسية وخاصة البندقية ، التي كانت تسيطر على تجارة البحر الأبيض المتوسط ، أخذت تخشى تفاقم الخطر السلاجقي الداهم الذي شرع بهدد مصالحها الاقتصادية بعد أن تمكن السلاجقة الأتراك من بسط سلطتهم على الأناضول ، ونفذتهم إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط حين سيطروا على أنطاكية عام ١٠٨٤ م ، وأنشئوا أسطولاً ضخماً في أزمير وطفقوا يشكلون خطراً جدياً ليس على بيزنطية فحسب ، وإنما على سائر المدن التجارية الأوروبية ، ولا سيما المدن الإيطالية : البندقية وبيرة وجنة ، التي تحكمت آنذاك في التجارة العالمية بين الشرق والغرب لأنها : « الأبواب الرئيسية لأسواق الغرب وفيها وحدها تنتهي عهد ذلك طريق الصين والهند ، أو طريق الحرير والتوابيل .

ولقد درس صديقنا الباحث المرحوم قدرى قلعجي في كتابه القيم « صلاح الدين الأيوبي » كيف تناول : أشهر الباحثين من فرنجة وعزب مسألة الدوافع الاقتصادية ، والعوامل الأساسية الكامنة وراء الحروب الصليبية ، نأخذ طرفاً من أقوالهم ، اقتباساً عنه :

« ولعل أفضل من عدد الدوافع المختلفة للحروب الصليبية سواء لدى الزعماء الداعين لها أو لدى المتطوعين الذين اندفعوا في غمارها ، هو المستشرق جون لامونت ، فقد أشار إلى خطاب البابا أوريانوس في كيليمون فيران بقوله : « ولم ينس أوريانوس أن يذكر مستمعيه بالأرجح المادية والروحية التي ستجنها الصليبيون . إن من يموتون في سبيل القضية سينالون المغفرة والخلاص . أما مدن « أرض الميعاد » الغنية فستكون جزءاً من الأحياء . ولم يشر البابا إلى الفائدة العظيمة التي ستجنها السدة البابوية من قيادة جيش فخم يسرى تحت راية البابا ، كما لم يشر إلى الآخر العظيم الذي سيتركه مثل هذا الجيش البابوي في نفوس الأباطرة والملوك . ولم يشر البابا إلى النكسات التي نزلت بالكنيسة على أيدي السلطات الرمنية ، وإلى أن الحملة الصليبية ستذكر عاهل الإمبراطورية الرومانية المقدسة بأن خادم خدام الرب (البابا) ما زال قادرًا على القيادة واصدار الأوامر . » .

وأشار لامونت إلى المتقطعة أجياداً وقاده فقال : « بينما تطوع عدد كبير من القادة في « صلبيية الأمراء » مدفوعين بدوافع دينية في جوهرها ، فقد شارك آخرون في الحملة لكسب معانم الدنيا أكثر مما فعلوا في سبيل إعلاء مجد الرب . لاشك في صدق الدوافع التي حملت غودفري على الاشتراك في الحملة للتکفير عن ذنوبه السابقة ، ونيل الخلاص لنفسه . ويحتمل أن يكون روبرت أوف نورمندي وروبرت أوف فلاندرس مدفوعين إلى حد كبير ، بدوافع دينية ، وإن كنت أرى إنهمَا كانوا مدفوعين بداع آخر ، إلى جانب الدوافع الدينية ، ألا وهو أن الحملة الصليبية أثارت لهما الفرصة ليصبحا بطلين . ولكن لا يستطيع أحد أن يزعم بأن بوهيموند أوف تورنر قد ذهب لسبب غير رغبته في تأسيس إمارة في الشرق . كما كان يووند أوف سنت جيلز ، بطل الحروب الإسبانية ، يطمع في الاستيلاء على قطعة من أرض سوريا الجميلة . وأغلبظن أن اتباع هؤلاء القادة قد اشتركوا في الحملة لأسباب

عديدة . فقد ذهب بعضهم مدفوعين بمحاسنهم الدينية المخض ، وذهب بعضهم فراراً من رتابة حياتهم المملة ، أو تخلصاً من ألسنة زوجاتهم السليطة . وحمل بعضهم الصليب حباً بالمخاطرة والمخاطرة . وذهب بعضهم لمحمد ان الآخرين قد فعلوا ذلك .» .

وينفذ لامونت إلى أعمق الواقع الإنساني عندما يقول : «أني لست واثقاً من أن الحماسة الدينية التي رافقت الحملة الصليبية الأولى قد استمرت طوال حياة الرجال الذين قادوها . لقد أدرك أبناء الجيل الأول أن «بيتهم وبين جيرانهم كثيراً من الأمور المشتركة» على الرغم من أنهم «كانوا يعتزون كل سوريا الإسلامية أرضاً للمعياد لا أصحاب لها» هذا من حيث المحاولات التي كانت تجري للاستيلاء عليها ، ولست أعتقد أن الصليبيين حاولوا الاستيلاء على البلاد الإسلامية لكنها بلاد إسلامية . فالحقيقة أن الجيل الأول من الصليبيين حملوا الصليب وخرجوا ليستولوا على البلاد ويؤسسوا فيها إمارات لهم . وكانت البلاد ، بصورة عامة ، بأيدي المسلمين ، وعلى هذا فقد تعين عليهم أن يحاربوا المسلمين للاستيلاء على ما ملكت أيديهم . إن سيرة تكرييد وهو أحد عظماء الصليبية الأولى ، الذي أثلج قلب أغوير بنجمه المسلمين بشكل وحشى عندما احتل القدس واتهابها تعطينا شواهد عديدة على أن أمراء الحملة الصليبية ، عندما اندفعوا بسياستهم التوسعية ، كانوا يستهدفون غايات دنيوية محضة ، وأنهم كانوا على استعداد ، حين تدعوا الضرورة ، للتتفاهم مع أعدائهم المسلمين . فكان تكرييد مصمماً على إنشاء أكبر دولة ممكنة . وفي سبيل تحقيق هذه الغاية لم يجد أي بأس في أحد المسلمين أو اليونان أو الأرمن أو من أيدي أبناء جنسه الإفرنج .. إن الزمن والنشاط اللذين أفقهما تكرييد في محاولة الاستيلاء على اللاذقية وغيرها من المدن النصرانية من أيدي حكامها اليونان والأرمن بعدلان الزمن والنشاط اللذين أفقهما في مجازة الأتراك . أما سيرة بلدوبن دي بورغ وخاصة في أيامه بالرهاء ، فلا تنتقض هذه القاعدة العامة » (راجع - كتاب دراسات إسلامية بإشراف الدكتور نقولا زيادة ص ١٠٢ - ١١٠) .

أما محمد عبد الله عنان فهو يرى أن الحرب الصليبية لم تكن فورة فجائية أثارتها قصص الحجاج الناقمين أو دعوة بطرس الناسك ، ولكنها كانت تتمة أو ذروة للمعركة الكبرى التي كانت تضطرم منذ أربعة قرون بين الشرق والغرب ، وكان مسرح هذه المعركة حتى القرن الحادي عشر في أوروبا وفي إسبانيا بنوع خاص ، فنكلت الحرب الصليبية إلى آسيا ، ثم يقول في وصف الدوافع المباشرة والخلفية لهذه الحرب :

«ولئن جاشت أنفس الرعماء والفرسان بنوع من الحماسة الدينية ، فقد كانت الأطماع الدينية أقوى البواعث التي راحت بهم في غمار تلك المخاطرات النائية ، بل لقد شق التنافس على الملك والرياسة بينهم طريقه منذ البداية . ولنا ما يوضح ذلك في معظم الحملات الصليبية ، فقد سار جودفروا دي بويون وزملاؤه الأمراء على رأس الحملة الأولى بعد أن تهددوا بأن يحكموا البلاد المفتوحة باسم البابوية ، فلما وصلوا إلى قسطنطينية تعهدوا بأن يحكموها باسم الإمبراطور مقابل اختراق الجيوش الصليبية أراضي الدولة ، غير أنهم ما كادوا يصلون إلى طرسوس وأنطاكية حتى ثارت بينهم عاصفة شديدة من الخلاف والتنازع ، فافتقر بلدوبن عن زملائه واستقر في إمارة الراها ، واستقر بوهوند في أنطاكية وأدى السير إلى الجنوب ، واشتغل بيمون دي تولوز ببغزو طرابلس ، واستقل جودفروا بإمارة بيت المقدس . وحكم الجميع الإمارات الجديدة باسمهم ولحسابهم ، وأنشأوا القصور ، وأقطعوا القطائع . وقد رأينا أن الحملة الرابعة لم تصل إلى الأرض المقدسة بل استقرت في قسطنطينية ، وخاض أمراؤها غمار الدسائس التي

كانت تعصف حيئذ بعرش القياصرة ، وآثروا في النهاية أن يلتهموا أشاء الدولة الشرقية على أن يمحجو إلى قبر المسيح» .

(راجع كتاب مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام مؤلفه عبد الله عنان ص ٩٦) .

ويقول دكتور نقولا زيادة اعتقاداً على كثير من المصادر الغربية والشرقية : « كان في الجيوش الصليبية ومع التجار الصليبيين ، الفرنسيون من مختلف المدن ، واللومبارديون ، من مدن إيطاليا التجارية الشمالية ، والمالطيون ، والإسبان ، والإسكندرانيون ، وإنكلترا ، والمنغاريون ، والبلغار ، والجرمان من القبائل المتفرقة في أوسط أوروبا وكان عددهم كبيراً جداً حتى تألفت منهم فرقة الفرسان الترتون . وكانت قلاعهم الخاصة حصينة . وكان بين هؤلاء القادمين على رواية المؤرخين المعاصرين من الغربيين : القاتل واللص وقاطع الطريق والجرم والقرصان والسكر واللاعب والراهب والراهة والرجل والمرأة والطفل والعاهرة والمحكوم عليه بالإعدام والملك والأمير والفالح والتاجر والنبيل والغني والفقير . وباختلافهم اختلافت الغايات والأطماع ، من دينية خالصة إلى مادية بختة ، والأخيرة هي التي غلت متنسقة بالأولى . وقد كان هناك من جاء يفتش عن أميرة شرقية غنية يتزوجها » .

وصفة القول ، إن الحروب الصليبية تدرج في إطار الحروب الاستعمارية ، فهي حسب قول ج . وتمبسون : « كانت الحروب الصليبية أول تجربة في الاستعمار الغربي قامت بها الأمم الأوروبية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق » .

(قدري القلعجي : صلاح الدين الأيوبي ص ٣٩ - ٤٨) .

الفصل الثاني

سورية الفرنجية

وضع سوريا الفرنجية في مطلع القرن الثاني عشر

بإزاء وضع الإسلام السوري الذي بسطنا باختصار عوامل ضعفه، قمين بنا أن نشرح باقتضاب وضع سوريا الفرنجية وما كانت عليه في مطلع القرن الثاني عشر في أعقاب تلك النتيجة الظافرة للحملة الصليبية الأولى.

قلاع الصليبيين وحصونهم في سوريا

فبعد تأسيس مملكة القدس قام في سوريا بضع مئات من الفرسان الجسروين بتشييد هذه القلاع التي لمّا تزل — رغم ما انتابها من عوامل الخراب والدمار إذا ماتلها المرء — موضع الإجلال والإكبار في طابع مؤثر في النفس، وذلك لأن تلك العمائر العملاقة تذكرنا بماضي غنيّ بشتى ضروب الدروس لمن يريد أن يجد معنى لعظمة شهادتها، إذ تركت الصليبية الغازية بصماتها على هذه الأرض السورية العظيمة التي سحرت شبابنا، وكذلك تحت أديم هذه السماء ذات الصفاء الذي لا يحيط به وصف، حيث تباعت حضارات عديدة غير مخلفة سوى ذكرى مدنها الهاشمة، وشعوبها المندثرة، على حين أقام أولئك الرجال الوفدون من وراء

البحار في قمم جبال لبنان التي تسامر نجوم السماء بموقع عظيمة هذه الملائكة التي كانوا يستطعون منها مراقبة دار الإسلام وتهديدها . وقد أشار الرحالة العربي ابن جبير^(١) الذي تجول بسورية أيام صلاح الدين إلى ما كان يعتري المسلمين من ذعر لدى رؤيتهم هذه القلاع المستعصي بلوغها أو القائمة على جرف من المنخفضات في معتزل المرتفعات الشاهقة ، فهي رؤى كابوس لم يستطيعوا دفعه عن خيالاتهم ، إذ كانت تقوم في مواجهة الإسلام فخورة قوية رمزاً للصلبية الظافرة ، حارسة متقطعة لاتحاد الدول الفرنجية الذي كان ينتظم بعضها بعضاً راسخة في الأرض السورية^(٢) . لقد بنى الصليبيون الأوائل للمستقبل كما لو أنه جاري في قبضتهم بدائمته إلى الأبد .

كان التناقض جد مثير إذا ما قُتلوا بواقعية ، ولنذكر هنا للمقارنة أسس مملكة القدس اللاتينية ، وعدم الاعتراف الرومانطيقي لحكام بغداد .

البنية السياسية للمجتمعات اللاتينية في سوريا

لقد مارس الصليبيون في سوريا — عفواً ودونما شعور منهم — سياسة استعمارية بارعة من الغبن عدم الاعتراف باستقلاماتها الليبرالية . يقول الأب لامس في كتابه المدهش (سوريا) : «إننا لن نلقى في أية حقبة من القرون الوسطى تركيبة سياسية أوسع ، تجمع في عمل مشترك واحد جميع فئات الدولة : النبلاء ، الكهنوت ، البورجوازية ، الشعب المحلي : ووحده كان العهد الروماني يذكّرنا بازدهار اقتصادي مماثل . فالفرنجة مع الرومان كانوا أكثر البناء اجتهاداً متواصلاً بين جميع الذين مرروا بالأرض السورية» . فمنذ القرن الثاني عشر نهضت في مالك المشرق اللاتينية بورجوازية كاملة التنظيم متمسكة بامتيازاتها المحددة تحديداً دقيقاً في وثيقة تستوري ، متقدمة عدة أجيال على الغرب الإقطاعي . فعلينا هنا أن نرى تأثير أولئك الرجال المستنيرين أمثال غود فروا دي بويون وبودوان وغيرهما من الصليبيين القادمين من الفلاندر ومن الجمهوريات الإيطالية ، إذ حصلت البورجوازية عهد ذاك على الاعتراف بحقوقها ، وعلى احترام استقلالها الذاتي .

وكخصوصية لاعتراف البابوية بالملك اللاتينية في المشرق منحت الكنيسة حق الإشراف على المنشآت الفرنجية ، ومارست باستمرار رقابة لا يمكن نكران دورها المهدّء ،

الخير . ومؤكّد أن ملك القدس كان مسّكاً بإدارة بلاطه وكبار موظفيه ، وهو قادر على دعم عماله ، ومارسة سلطته التنظيمية إذا ما شغّر منصب من لا عقب له ، كما كان يفصل في النزاعات . ولكن في المقابل كانت سلطته خاضعة لرقابة بطريركية القدس وال المجالس الإكليلية ومنظمات الفرسان ، ولم يكن مسّوحاً بالاستبداد في الأرضي المقدسة ، إذ لم تكن الملكية وراثية بل انتخابية لا مجال فيها للتسلّع إلى تلك السلطة المطلقة التي طالما تمنع بها عهد ذاك أباطرة بيزنطية الذين كان عملهم إفسادي ظاهراً ظهوراً فاحشاً .

ونتيجة للدعم غير المحدود الذي قدمته البابوية للصلبيين كان في صلب غايتهم أن يؤمّنا للتنظيمات الكنسية مركزاً ممتازاً في إدارة المالك اللاتينية المشرقية . بطريرك القدس – وهذا ماله فحواء الخاص – هو الذي كان يكرّس الملك ، ولايفتاً يتدخل رسماً وعلناً في شتى القضايا التي من شأنها أن تؤثّر في مستقبل المملكة وازدهارها .

وقدّا سدنة التنظيمات الدينية بما تلقاه من هبات الأمراء ومتقى المؤمنين من كبار الملائكة العقاريين ، وبالمقابل كانت تلك التنظيمات تساهّم في الذود عن الأرض الخاضعة لسلطتها القضائية ، وتحمّل الكثير من أعباء أعمال البر . ففي مدينة القدس وحدها – كما يحكى لنا بنجامان توديل – كان ألفان من المساكين يتلقّون من الاستباريين المعونة اليومية ، وكان تنظيم القديس اليعازر الفروسي يعني بالمحظومين . ويدوره كان المطران الأرماني الشهير القديس نرسيس دي لامبرون ، يتحدث بإعجاب عن أعمال الإحسان التي شاهدها رؤي العين جارية لدى المسيحيين ، فيكتب قائلاً : ففي كل قدّاس ، بعد تلاوة الإنجيل يستدير الكاهن نحو المصليين فيضع كل منهم في يده ثمار إيمانه . كان الرجال والنساء يقدمون أعطياتهم كما يحبها الله . يقدمونها كبيرة ، يدخلون نفس كل منهم أنه بتقبّل الفقر الذي قبله المخلص سيصبح هو غنياً . فباسم المسيح ، وحسب روح الكتب المقدسة ، كانت يد العون تسدّي خالصة إلى الحجاج والمرضى ، وليس بغية تسجيل وقفه تكرم سهلة .

وفي داخل المملكة ، لم تكن سلطة الملك تمارس مباشرة إلا في بعض المدن (عكا ، صور ، القدس) وحتى هنا علينا أن نلاحظ أن هذه السلطة كانت معذلة بوجود الامتيازات الأجنبية : شأن الامتيازات الغامضة للجمهوريات الإيطالية فيما يتعلق بالسلطة الزمنية . وفي

أماكن أخرى مثل نابلس وقيسارية، وبيروت وصيادة كانت سلطة الملك خاضعة لتصديق البالة الإقطاعية التي كانت تملك إقطاعات مستقلة بشكل إمارات أو كونتيات، أو بارونيات أو مشيخات تدار وفق التقاليد العربية للقانون الإقطاعي.

منظمات الفرسان زمن الحروب الصليبية^(٣)

وكانت التنظيمات الفروسية تحقق أمن المملكة. وهذه التنظيمات جد معروفة: إنهم الاستياريون وفرسان الهيكل، وبعدها في آخر الحروب الصليبية الفرسان التوتونيون. وقد لعب الاستياريون وفرسان الهيكل دوراً أولياً في سوريا رغم صفتهم الدُّولية، والعنصر الفرنسي هو السائد فيما بينهم، وترتب على الأعضاء أن يتلقظوا بالنذور الرهبانية. وكان كل تنظيم يشتمل على ثلاث طبقات: الفرسان – وكلهم نبلاء – والرقباء، وجميعهم ينحدرون من البورجوازية، والإكليسيكون وهو الذين يضططعون بالأعمال الكنسية. وكان للتنظيمات الفروسية، جنودها المشاة والبحرية ورجال الدبلوماسية، وحاز التنظيم الأخير حق إبرام المعاهدات وفرض الضرائب على النساء وعماهم المسلمين، وبكلمة فقد شكلت تلك التنظيمات دولاً داخل الدولة وبلغت ثروات سلطتها حداً يفوق ثروات الملوك أنفسهم، وكان من شأن هذا الاستقلال وذلك الازدهار أن يؤثراً تأثيراً سيئاً في الانضباطات الأولية. ومع ذلك فميغائيل السرياني الذي كثيراً ما عايشهم في عصر صلاح الدين افترهم قدوة لرعاياه. وكان مما جرى به قلمه: «حينما يحتل الهيكليون أو الاستياريون موقعاً عسكرياً لا يتزحزحون عنه ثابتين فيه للنهاية معرضين أنفسهم للقتل حيث هم. وحيثما يموت أحد الأخوة يطعمون الفقراء إكراماً له طيلة أربعين يوماً بمعدل أربعين شخصاً في اليوم الواحد. ويعتبرون قتلى المعارك شهداء. ويوزعون على الأهالي عشر غلالاتهم من القمح والنبيذ، وكلما خبزوا في أحد بيوتهم يدعون للقراء رغيفاً من كل عشرة أرغفة، وهم رغم طائل ثرائهم متواضعون يعاملون بالحسنى كل من احترم الصليب. وأنى كانوا، شادوا المشافي والمصحات لخدمة الغرباء المرضى ومساعدتهم ..».

ومهما تكن الأخطاء التي اقترفها فيما بعد أعضاء هذه التنظيمات الفروسية بسبب قوتهم المتفاقمة فيشفع لهم أنهم أسهموا بقسط وافر ببقاء مثل مسيحيٍ أعلى في الشرق يشهد على عظمته جُمُّ أعمال إحسانهم.

المحاكم والقوانين في المجتمعات الصليبية

وكان السادة مجتمعين في هيئة يؤلفون المحكمة العليا التي لا يمكن لأي مرسوم ملكي أن يصبح قانوناً نافذاً دون موافقتها. ولم يكن التاج يرفع على هامة الملك إلا بعد أن يؤدي أمامهم القسم بأن يحترم قوانين القدس الأساسية. هذه القوانين، وهي الوثيقة الدستورية (الشرط الدستوري) كانت تلحظ جميع الحالات حتى حالة حنث الملك بيمينه، وهنا يعتبر السادة في حل من واجباتهم تجاهه، ويعلنون وبالتالي عزله لأنه غير أهل بالتاج. وتقوم تحت المحكمة العليا محكماً بورجوائين تمثل اختصاصاتهم اختصاصات السادة. وكان هؤلاء الوجهاء يتمتعون بوضع سياسي لاعده أغلب الدول الأوروبية القروسطية. وكانت المستعمرات التجارية التي هي أصلاً من بيزنطة أو جنوة أو البندقية أو مارسيلية أو مونبيليه، والتي قامت على الشواطئ السورية هي الصانعة النشطة لازدهار المملكة الاقتصادية. ولكنها أسهمت في الفتوحات الأولى بما قدمته من أساطيل فقد عرفت كيف تفرض ثمن مساهمتها، وتحصل على ضرائب من الإغاثات التي فوتت على الخزينة المركزية الكثير من الدخل ناهيك بما كانت تثيره من منازعات بشأن امتيازات أحياها في المدن ومحاكمها الخاصة الخالفة لروح قوانين القدس. وكان على الدوام يجب المناقشة والمراجعة في منازعات لا تفضل حتى تعود لنذر قبها من جديد.

التحولات الاجتماعية

أما البلاطة الفرنجية، فما إن استقرت في هذه الأرضي حتى فسحت المجال بالترحاب لينخرط في صفوفها السوريون أو الإقطاعيون الأرمن حيث ظهرت بنائهم في بلاطي القدس وأنطاكيه.

ولم تلبث أن دوّت كلمة رئيس كنيسة بودوان الأول : «لقد أصبحنا شقيقين كاملين، فالروماني أو الفرنجي تحول في بنائه الجديد إلى جليلي أو فلسطيني، وللمولود في رنس أو شاتر انقلب إلى واحد من أهالي صور أو أنطاكيه، وبنينا بنصاع لسن من بلادنا، وإنما هن سوريات أو أرمنيات، وأحياناً مسلمات متصرفات».

واحتفظت المدن التي احتلها الصليبيون بأغلب سكانها المسلمين، وكثير منهم نازحون هاربون دون موجة الغزو، ولكنهم آثروا العودة إلى مدنهم وقراهم الأصلية التي يحكمها الصليبيون بعد أن جربوا العيش في ديار الإسلام، وإنما في ظل نظام أقل حرية. ولم يستطع الرحالة الأندلسي ابن جبير أن يمنع نفسه— كمُسلم صادق— من أن يلوم هؤلاء المؤمنين الذين لم يبادوا كما يحلو التحدث لبعض المؤرخين، ولكنهم بالعكس، كانوا متمتعين بحماية امتيازات شارلمان^(٤).

العلاقات التجارية بين الفرنجة والمسلمين

وإذا كان قادة الممتلكات اللاتينية يراعون الحالة الذهنية للجماعات الإسلامية المقيمة في المدن مراقبين إياها، كان التجار السوريون بالمقابل ينعمون بحرية واسعة. فقوافلهم كانت تتجول بلا عائق من الساحل إلى داخل البلاد. ولم يكن أمنهم مهدداً، ما عدا مرة أو مرتين على التقريب بحالة الحرب في عهد صلاح الدين. وقد لاحظ ابن جبير— إبان زيارته سورية— «أن القوافل الإسلامية كانت تتغول في الأراضي الفرنجية متقطعة في الطريق مع قوافل الأسرى المسيحيين الذين كان يجب أن يباعوا بالمزاد في أسواق خاصّة دمشق»^(٥) وعلى طول الحدود، في بانياس الغنية بمرزاتها (حقول أرزها) حيث كانت تتدخل متشابكة الأملال الإسلامية والمسيحية. يقول كاتب عربي آخر: «إن قسمة الغلال كانت عادلة، وإن القطعان كانت ترعى معاً بلا مانعة ولا عنف» ويقول ابن جبير في يوميات رحلته: «لقد اجترنا سلسلة من القرى، حيث المستغلات تتبع إحداها الأخرى، يقطنها جميعاً مسلمون يعيشون في رفاهية تحت حكم المسيحيين «نعود بالله من الفتنة»^(٦). إنهم يتذرون لهم نصف الغلة إبان الحصاد مكتفين باستيفاء ضرية الأعناق ديناراً وخمسة قاريط لا أكثر، ناهيك بضريره خفيفة على الأشجار، وبال مقابل يملك المسلمون منازلهم ويدبرون شؤون أنفسهم كما يحلو لهم. وهكذا هي الحال في جميع الأراضي التي احتلتها الفرنجة على الشاطئ السوري، وفي جميع الدساكر والبروج والقرى التي يقطنها مسلمون. ولا يستطيع أحدهم أن يحبسوا النفس إغراء عن عقد المقارنة بين وضعهم ووضع إخوانهم الذين لبوا مقيمين في المناطق الخاضعة لحكم سلطان دمشق؛ لأن هذا الوضع الأخير كان نقىض البحبوحة والازدهار. واحدى محن المؤمنين الحقيقيين أنهم كانوا يتذمرون من ظلم سادتهم على حين كانوا لا يستطيعون إلا أن يتذمرون

سلوك المسيحيين أعدائهم الأبديين . أصلح الله هذه الحال^(٧) وإنها لشهادة بلية — وخاصة لا يحق لنا أن نتهم ابن جبير بمحاباة المسيحيين كل المحاباة ، لأنه كان حتماً يهتز فرحاً حينما يصفهم « بخنانيص قدرة » .

وعلى حين كان وصول الصليبيين صفر الأيدي من كل شيء ، إلا من الحماسة ، كان الأمر بالنسبة للتجار السوريين مصدراً غير مرتفع للموارد الإضافية ، ولا يخفى أن بعض هؤلاء التجار الدمشقيين أو الخلبيين جمعوا من الثروات ما بلغت معه حد الفحش ، وسرعان ما انتزع ذهبهم المترافق احترام الفرسان المسيحيين ، واحتراماً ليس دونه نفعية لدى الأمراء المسلمين .

وكان سان جيرون قد أشار إلى ما اتصف به أولئك التجار « من حماسة في أعمالهم المالية ، وحمى البحث عن الثروة حتى تحت قعقة السلاح » ، حتى أقرض بعضهم الهيكلين مبالغ ضخمة .

البنية الإدارية للممالك اللاتينية واليسوعيون الشرقيون

وكما هو الأمر في عهد العباسين ، كان المسيحيون من أهل البلاد يستخدمون في مكاتب الإدارة المحلية . فمنهم مثقفون ينشئون تفاهات المراسلات الرسمية بغير رقيق الحاشية مسجّع وبروتوكولي . وكما كان خليفة بغداد على الدوام يضمُّ في عداد إدارييه موظفين مسيحيين ، لأن وضعهم المتدني كدافعي جزية يدفع عن نفسه الشك في مرونته ولولائهم ، كانت البنية الإدارية للممالك اللاتينية في الشرق هي البنية الإدارية ذاتها لبغداد ، فهناك كتاب وموظفو ديوان ومراقبو مكوس (جمارك) وجباة ضرائب ومتربجون في المحاكم . إنهم يمثلون أمراء الداخل الذين أقام الفرنجة معهم علاقات يومية لتصفية المنازعات الحدودية المحددة تحديداً شيئاً ، وتبادل الأسرى أو اقتدائهم وإبرام المعاهدات التجارية واستيفاء الجزي . علينا أن نقول : « إن الموظفين السوريين كانوا ناعمي البال بهذه القرطاسية المغربية ؛ إذ احتل الكتبة مكانة بارزة في عداد الأقليات التي ترتب على الفرنجة أن يأخذوا جانب حذفهم منها أكثر من حذفهم من المجتمع الإسلامي » فهم سوريون غير قابلين للتتحول ، أوفياء للمطامع الإمبريالية ، ولطقوس الكنيسة البيزنطية ، كثيرو الحركة في أنطاكية ، يظهرون في كل مناسبة أحکامهم المسبقة ضد اللاتين ، ولكنهم متفسّين في مكاتب الدبلوماسية الإمبراطورية التي لم تدع

سانحة تم ، دون أن تعلن عداءها لروما . وبدورهم كان هؤلاء الكتبة أفضل عمالّتها المتأمرين في سورية ، راضين أن يعترفوا بكل فخر إلا بسلطة رأس الكنيسة الشرقية ، مما كان يصدّم شعور الغربيين سياسياً ودينياً ، ناهيك بمعاداتهم الباباوية القيصرية ، لمعرفتهم كيف جعلت بيزنطية من كهنتها آلة ضخمة للدعاوة وبالتالي للسيطرة ؛ وهذا ما حمل ميخائيل السرياني على اتهامهم بإثارة المعارك بين التنظيمات الأحوية المسيحية ، وبالتالي في صير شرقاً تماماً لدى السلطات الفرنجية لإفسادها ببيزنطيتهم الحاقدة العنيفة .

ولطالما أشار بعض المؤرخين غير المدققين أو المتأثرين بانحيازهم إلى التعصب الكاثوليكي لدى الصليبيين « الذين لم يكونوا – كما يقول أحد مؤرخيهم – يعاملون المسيحيين المحليين أفضل مما يعاملون المسلمين ». ولنقابل هنا هذا الاتهام المجافي للواقع بشهادة البطريرك ميخائيل السرياني الذي نوّه بليرالية الفرنجية وتساخّهم :

« كان أحبار كنيستنا اليعقوبية يعيشون في ظهرائهم غير مضطهدين ولا معذبين . ففي فلسطين كما في سورية لم يكن الفرنجية يقيمون أية عقبة تتعلق بالمعتقد ، كما لم يحاولوا إيجاد صيغة واحدة لجميع الشعوب أو لسائر اللغات المسيحية . بل كانوا يعتبرون بإطار عام كل من قدس الصليب مسيحياً دونما تحقيق بملته أو نخلته ». .

المبادئ الليبرالية في مجتمعات سورية الفرنجية

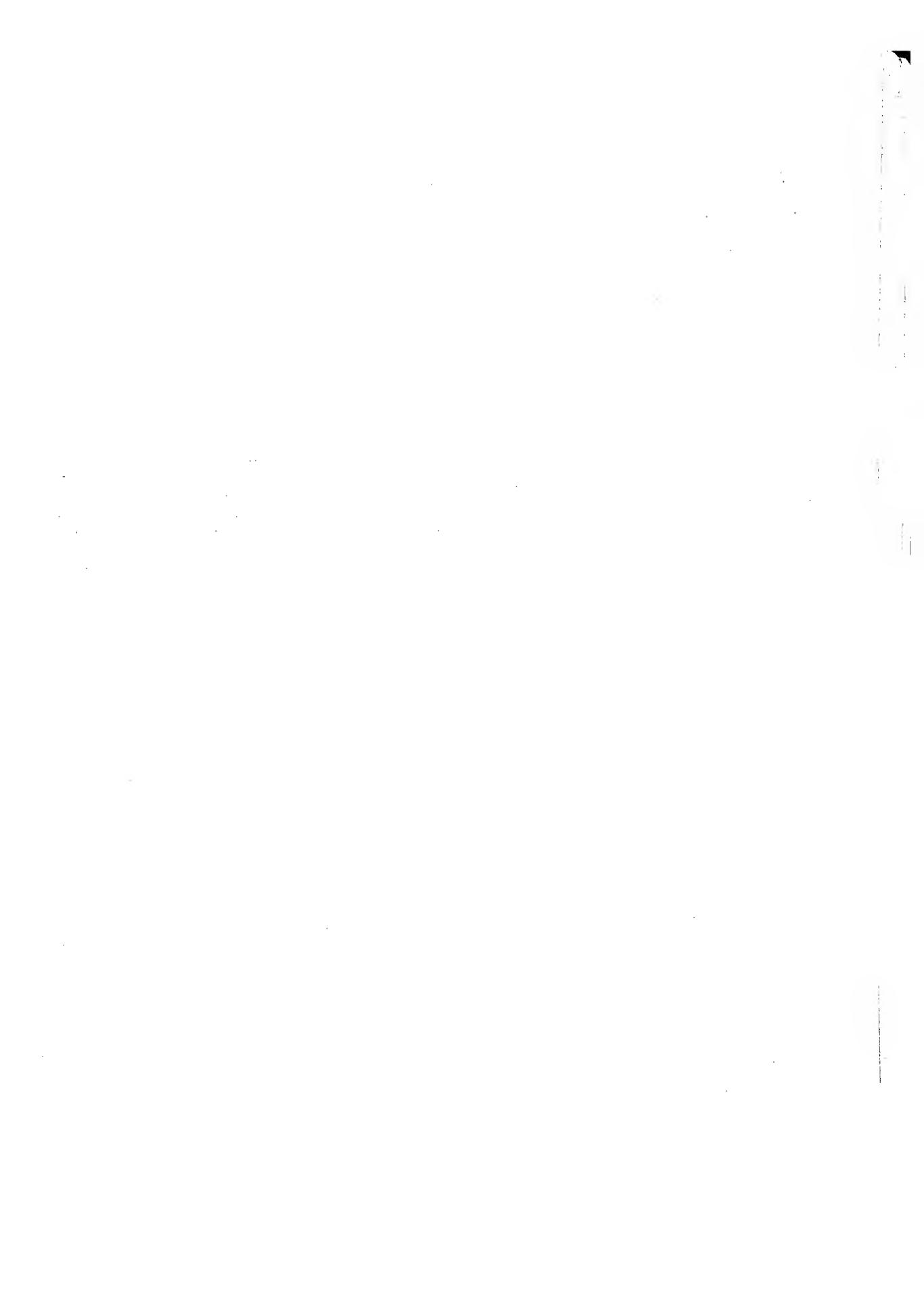
وهكذا كانت سورية الفرنجية في القرن الثاني عشر تساس وفق مبادئ مستوحاة من ليبرالية حقيقة ومتناقضه مع حالة أوروبا الإقطاعية في الحقبة ذاتها .

وتقريراً للحقيقة ؛ فإن فقدان التجربة لدى القادمين الجدد الذين كان عليهم إبان الاحتلال أن ينطّوا ارتجالاً الفصل الأول من الاستعمار الأوروبي ، والضعف الدستوري للسلطة المركزية ، وأخطاء بعض العناصر المرية وفظاظاتهم ، كان من شأنه حتماً أن يسبب سوء تفاهم ، ويفضي إلى نتائج مضرّة بسمعة الحروب الصليبية .

طبعاً لم يكن الصليبيون كلهم قدّيسين ؛ إذ كثيراً ما كان الإكليلوس المستكمر السلوك العام أو الخاص للسادة غير المحترمين يأمرهم بأن يستنزلوا الغفران ورضاء الله بالذهب

للقتال في الأرض المقدسة؛ ولم يكن هؤلاء البتة مجندين ذوي قيمة؛ وحمل بعض الكهنة الطامعين الصليب حاملين بمطرانية آسيوية مترففة. وفي خضم كل هذه الكتل التي تحركت في أوربة بعامل غيرة أساسية نقية، لامناص أن تظهر شيئاً فشيئاً دناءات الطبيعة البشرية التي هيئات مجانبها.

هذا الشرق! — ومن منا يستطيع أن ينكر أن خياله كان دمية سحره؟ — لم يكن البتة أرض التجليات الإلهية فحسب، بل غدت هذه الأرض خلال تلك المسيرة العجيبة نحو القدس أرض العجائب التي تهوي فيها النجوم من السماء، حيث تبدو نيران سماوية تهدي الحجاج إلى الأرضي المقدسة بتجلي الرب، حيث ترقّق المذنبات كالحراب الغسق من جهة مدن الإسلام. هذه الغيرة السماوية التي كانت تدفع المحالف الضخمة السائرة نحو القدس على أنغام الموسيقى والمزامير خلال المائة والخمسين والسبعين سنة التي سيستمر إبانها الصراع العلّاق بين الشرق والغرب، لتطهير في سوريا بالشقاء والمجده.



حواشى الفصل الثاني

١— ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد: (١١٤٥—١١١٧)

رحالة أندلسي، ولد في بلنسية، خرج للحج، فزار سردينيا ومصر وجزيرة العرب والعراق والشام وصقلية، ثم قام برحلتين آخرين إلى المشرق. وصف رحلاته في كتابه «رحلة ابن جبير». توفي بالاسكندرية. (الموسوعة الميسرة ص ١٢).

ويعد كتابه «رحلة ابن جبير» من المصادر الهامة اجتماعياً وسياسياً لعصر صلاح الدين عموماً، وتحديداً في دراسة العلاقات الإسلامية الصليبية».

٢— من الملاحظات التي خلفها لنا ابن جبير، والتي يمكن أن نتعتها بـ «الرسم بالكلمات» وصفه حصون الفرنسية ومنشآتهم العسكرية وكيفية اختيار مواقعها، ليقيئهم بأن الأرض التي تحدق بهم عدراً، يقول في رحلته: «فرحلنا عنها— أي بانياس— عشيّ يوم السبت المتذكور إلى قرية تعرف بالمسية بقرية من حصن الإفرنج المتذكور فكان مبيتنا بها، ثم رحلنا منها يوم الأحد سحراً، واجترنا في طريقنا بين هُونين ويتين بواط ملتف الشجر، وأكثر شجره الرِّزْنَد، بعيد العمق كأنه الخندق السَّاحِيق المَهْوِي، تلتقي حافاته، ويعملق بالسماء أحده، يعرف بالإسطبل لو وجّه العساكر لغابت فيه، لا يمحي ولا يمحى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه، المُهْبَط إليه والمَطْلُع عنه عقبتان كثُوران، فعجبنا من أمر ذلك المكان». (رحلة ابن جبير ص ٢٧٤).

٣— منظمات الفرسان إبان الحروب الصليبية:

لقد ظهر عدد من التنظيمات العسكرية الدينية الأصل زمن الحروب الصليبية، أبرزها منظمتان هما: منظمة فرسان المستشفى، أو فرسان القديس يوحنا التي أطلق عليها العرب اسم الاستبارية، ومنظمة فرسان الميكيل (وسمها العرب الداوية)، ثم أنشئت منظمة ثالثة إبان الحملة الصليبية الثالثة هي منظمة فرسان التوتون، ونقل عن الموسوعة الميسرة تعريفاتها بها:

فرسان مستشفى القديس يوحنا أو الاستبارية

أعضاء الهيئة العسكرية الدينية التابعة لمستشفى القديس يوحنا المقدسي، ويعرفون أحياناً بفرسان القديس يوحنا، أو بفرسان بيت المقدس. وبماهم العرب : الفرسان الاستبارية . وقد نشأت الهيئة من مستشفى أسس في القرن ١١ للعناية بالحجاج في الأرض المقدسة . وعندما أعيد تكوين فرقة الفرسان على أساس عسكري لم تثبت أن ازدادت ثروتها وسطوتها . وأنشئت على غرارها مؤسسات أخرى لمساعدتها في أوروبا كلها . وقد اشترك فرسانها مع زملائهم ومنافسيهم فرسان الهيكل أو الداوية في جميع حروب المملكة اللاتينية والصلبيين . وبعد استيلاء العرب على بيت المقدس ١١٨٧ انتقل الاستبارية إلى عكا ، ثم إلى قوص ١٢٩١ ، وفتحتهم جزيرة رودس ١٣١٠ ، ونتيجة لما جلب المحتال الفرسان الداوية عليهم من فوائد مادية ، بدأوا عهداً تعاظمت فيه قوتهم وسطوتها . ويدووا يعرفون بفرسان رودس ، وسيطروا على البحر المتوسط . وتمكنوا من وقف غزو المسلمين لأقطار أوروبا بل أخذوا يلجمون هم أنفسهم إلى الغزو البحري ، ودافعوا ببطولة عن رودس تحت امرة بير دوبوسون ضد محمد ٢ (١٤٨٠) ، ولكنهم اضطروا إلى الاستسلام لسليمان ١ (١٥٢٢) ، فمنهم الإمبراطور شارل ٥ (١٥٣٠) جزيرة مالطة التي أصبحت مقرهم الرئيسي . ودافعوا عن هذه الجزيرة ببطولة تحت امرة جان دي لا فالت ضد الأتراك الذين ظلوا يهددونهم تهديداً قوياً حتى معركة ليبانتو ١٥٧١ ومنذ هذا الوقت واصل فرسان مالطة أعمال الإحسان في المستشفيات . ممتعين بسلم نسي ، إلى أن استولى نابليون على مالطة ١٧٩٨ . ولا تزال بقايا من هذه الهيئة في أوروبا . وأعاد البابا ١٨٧٩ منصب الرئيس الأعلى للإرسالية ، ولكن علاقة الهيئة الجديدة بفرسان مالطة القدماء غدت واهية .

فرسان الهيكل أو فرسان الداوية

المجتمع العسكرية الدينية التابعة لفرسان المسيح الفقراء ، الذين كانوا يعرفون في العصور الوسطى أيضاً بفرسان هيكل سليمان ، نسبة إلى مقبرهم بيت المقدس . وقد عرّفوا في الكتب الدينية التي ترجع لعصر الحروب الصليبية باسم الداوية . وهي كاثليكتيات العسكرية الأخرى ، مثل فرسان القديس يوحنا (إرسالية) والتبيتون . تألفت خلال الحروب الصليبية ، وكانت النواة الأولى للهيئة فرقة تألفت من تسعة فرسان اجتمعوا ١١١٨ ببريسا هيو دي باین ، لحماية الحجاج إلى الأماكن المقدسة المسيحية . وازداد عددهم تدريجاً ، وأخذوا لأنفسهم قانون طائفة الرهبان البندكتيين ، ومنحوا مقراً في بيت المقدس يجاور البناء الذي كان يدعى هيكل سليمان . وانضم كثير من النساء الشبان إلى هذه الهيئة التي بدأت فتيرة جداً . ثم سرعان ما أخذت تتلقى منحاً من اقطاعات ومال من جميع أنحاء أوروبا . فأصبحت في مدة قصيرة من أعلى المنظمات العسكرية الأوروبية . واكتسب الداوية شهرة عظيمة بفضل إعلانهم أن هدفهم الأمثل هو حماية المسيحية ، ويفضل انتصارهم العسكري ، إذ أثبتوا شجاعتهم في جميع الحروب التي قاتلت بها المملكة اللاتينية ، ولعبوا دوراً هاماً في الصراع بين الصليبيين والمسلمين . وقد قاتلت منذ وقت مبكر منافسة مستمرة بينهم وبين الإرسالية . وكان فرسان الداوية مسئولين عن قلعة غزة التي سقطت في يد نور الدين زنكي ، ثم استعادوها منه . غير أن فتح صلاح الدين الأيوبي أكرهت الداوية ، كما أكرهت الإرسالية ، على الجلاء عن بيت المقدس .

وبعد فتح عكا ، استقر الفرسان فيها ، ولعبوا دوراً هاماً في الحروب الصليبية الثالثة . وأخذ نصيب فرسان

الداوية والاسبارتارية والبيوتون من محاربة العرب يطرد ازيداً ، حتى كادوا ينفردون به دون الصليبيين المتأخرین . لكن هذه الاهيئات وقعت فريسة التنافس المدمر فيما بينها ، كما أدى صراعها الداخلي المميت هذا إلى إضعاف قضية المسيحية في الشرق الأدنى . وأخذ المسلمون يستعيدون جميع الأرضي المقدسة ، وسقطت عكا ١٢٩١ ، وانسحب الاسبارتاريون والداوية إلى قبرص ، ثم تخلت هيئة الداوية عن صفتها الحربية الرئيسية ، وكان أفرادها قد أصبحوا حتى في القرن ١٢ صيارة أوروبا بفضل الأموال الطائلة التي أغدقوا عليهم ، وكانت مؤسساتهم في الجبلتين وفرنسا بوجه خاص عديدة ومزدهرة ، وأصبحت مقارهم بيوتات العالم المالية . وقد زادت هذه السيطرة المالية من قوتهم ، وأثارت عليهم حسد الأمراء والملوك . وما زاد الطين بلة ابعاد الداوية عن المبادئ القرمية : فساقوا أنفسهم إلى التهلكة . وحقد عليهم فيليب ٤ ملك فرنسا لسيطرتهم المالية ، وارتكابهم لجرائم عديدة ، فاضطهدتهم (١٣٠٨ - ١٣١٤) وبإعدام الرئيس الأعلى لفرسان الهيكل ، جاك دي موالي ١٣١٤ ، اصررت حياة هذه الطائفة .

فرسان تيوتون

طائفة عسكرية دينية ألمانية ، تأسست (١١٩٠ - ١١٩١) في البلاد المقدسة ، على نمط جماعتي فرسان الهيكل وفرسان المستشفى (الاسبارتارية) . ذاع أمر هذه الطائفة عندما قامت بغزو بروسيا الوثنية ١٢٢٦ ، وكانت أراضيها الواقعة على البلطيق تخضع للسيادة الأuseية للبابا في باديء الأمر ، لكن بولندا استولت على بعض مناطقهم ١٤٦٦ ، فرضخوا للسيادة البولندية . اتحدوا مع الفرسان الليليونين (١٢٣٧ - ١٥٢٥) وبعد أن أبادوا سكان بروسيا الأصليين تقريباً أسكنوا فيها جاليات ألمانية . كان المقر الأول للفرسان في مارينبورج ، ثم أبدلواها بكنينجزيرج بعد ١٤٦٦ . وفي ١٥٢٥ اعتنق رؤسهم الأعلى البرت البراندينجرجي البروتستانتية ، ونقل مقر الطائفة إلى دوقية بروسيا الوراثية . واستمرت الطائفة تقيم بألمانيا الكاثوليكية حتى ١٨٠٥ ، ثم أحياها في المسا كطائفة فخرية . ولباس الفرسان طيلس أبيض ، عليه صليب أسود مطرز بالذهب .
(الموسوعة الميسرة ص ١٢٨٨ - ١٢٨٩).

٤ - ٧ : ويتحدث ابن جبير في رحلته هذه عن طبيعة العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والفرنجية ، أي بين دار الإسلام ودار الحرب ، وعن اتفاق المسلمين والمسيحيين ، واختلاف القوافل بين مصر ودمشق ، عبر البلاد التي احتلها الصليبيون ، بقوله :

الحرب واتفاق النصارى وال المسلمين

ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفتنين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقي المجمعان ويقع المُصادف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى مختلف بينهم دون اعتراف عليهم . شاهدنا في هذا الوقت ، الذي هو شهر جمادى الأولى ، من ذلك خروج صلاح الدين بجيمع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك ، وهو من أعظم حصون النصارى ، وهو المعرض في طريق الحجاز والمأْنَع لسبيل المسلمين على البر ، بينه وبين المقدس مسيرة يوم أو أشْتَق قليلاً ، وهو سرّاجة أرض فلسطين ، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة ، يُذَكَّر أنه ينتهي إلى أربع مئة قرية . فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال حصاره .

واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع . واحتلال المسلمين من دمشق إلى

عَكَّا كَذلِكَ . وَتُجَاهُ النَّصَارَى أَيْضًا لَا يُمْنَعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ لَا يُعَتَّرُضُ . وللنَّصَارَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ ضَرِبَةٌ يُؤَدِّنُهَا فِي بَلَادِهِمْ ، وَهِيَ مِنَ الْأَمْنَةِ عَلَى خَاتَمِ ، وَتُجَاهُ النَّصَارَى أَيْضًا يُؤَدِّنُونَ فِي بَلَادِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى سَلْعَهُمْ ، وَالْإِنْفَاقُ بِنِيمَهِ وَالْاعْدَالُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ . وَأَهْلُ الْحَرْبِ مُشْتَغِلُونَ بِحَرْبِهِمْ ، وَالنَّاسُ فِي عَافِيَةٍ ، وَالْدُّنْيَا لَمْ غَلَبْ . (رَحْلَةُ ابْنِ جَبَرِ صِ ٢٦٠) .

ويتابع ابن جبير في رحلته الحديث عن طبيعة العلاقات الاقتصادية - حتى في زمن الحرب - بين دار الإسلام والبلاد التي احتلها الصليبيون، وكيف أن المسلمين يدخلون موقع الصليبيين في حين أن سببهم يدخل بلاد المسلمين، قوله :

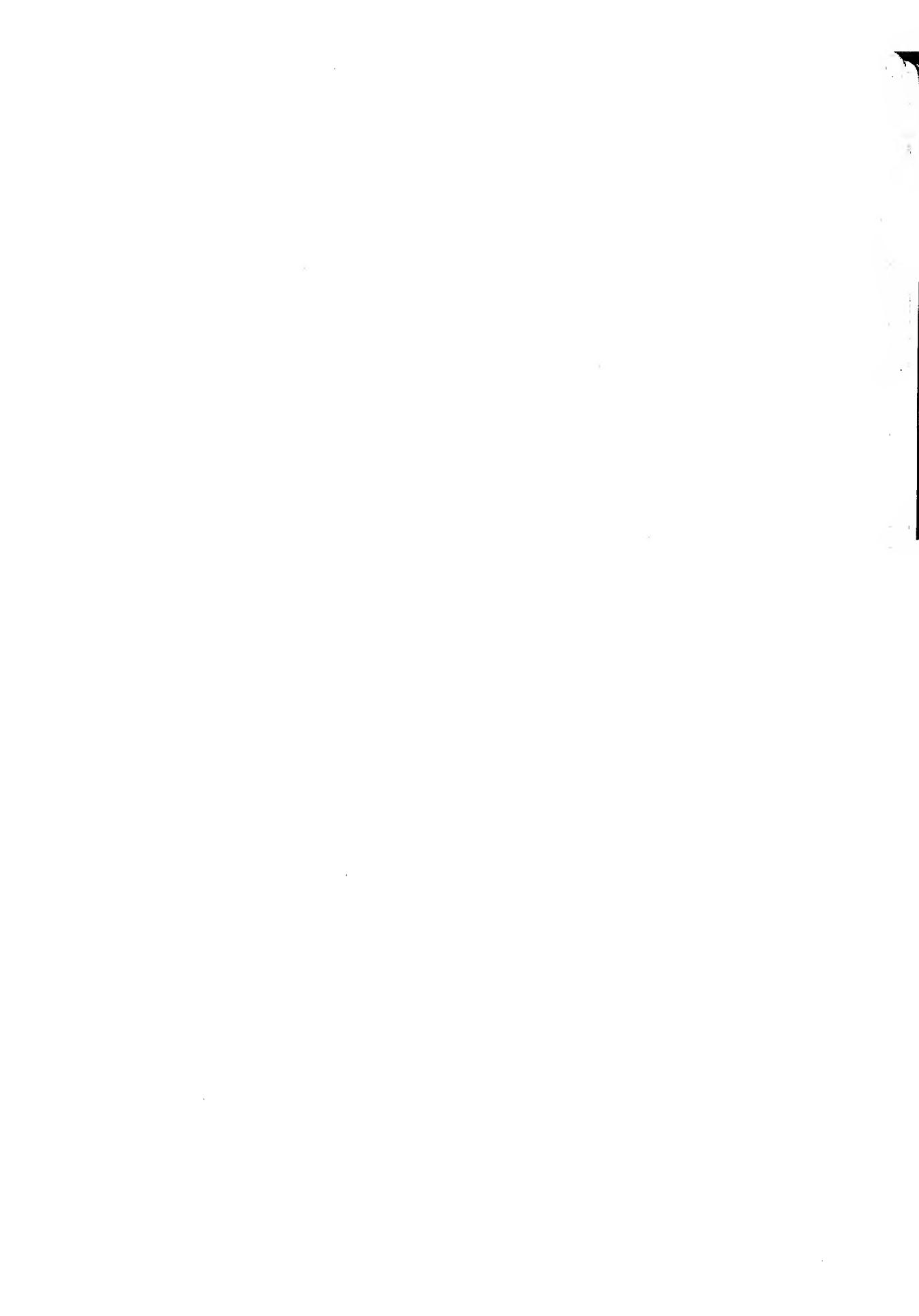
« ومن أعجب ما يُحدَثُ به في الدُّنْيَا أَنْ قَوَافِلَ الْمُسْلِمِينَ تَخْرُجُ إِلَى بَلَادِ الْإِفْرَنجِ وَسَيِّهِمْ يَدْخُلُ إِلَى بَلَادِ الْمُسْلِمِينَ ؛ شَاهِدُنَا مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ خُرُوجِنَا أَمْرًا عَجِيبًا ، وَذَلِكَ أَنْ صَلَاحَ الدِّينِ عِنْدَ مَنَازِلِهِ حَصْنَ الْكَرْكَ ، الْمَقْدُومَ الَّذِي كَرِي فِي هَذَا التَّارِيخِ ، قَصْدٌ إِلَيْهِ الْإِفْرَنجُ فِي جَمِيعِهِمْ ، وَقَدْ تَأَلَّبُوا مِنْ كُلِّ أُوبٍ وَرَامُوا أَنْ يَسْبِقُوهُ إِلَى مَوْضِعِ الْمَاءِ وَيَقْطَعُوا عَنْهُ الْمَيْرَةَ مِنْ بَلَادِ الْمُسْلِمِينَ . فَصَمَدَ لَهُمْ وَأَقْلَعُ عَنِ الْحَصْنِ بِجُمْلَتِهِ وَسَبَقُوهُمْ إِلَى مَوْضِعِ الْمَاءِ . فَحَادُوا عَنْ طَرِيقِهِ وَسَلَكُوا طَرِيقًا وَعِرًّا ذَهْبًا فِيهِ أَكْثَرُ دُوَابِّهِمْ ، وَتَوَجَّهُوا إِلَى حَصْنِ الْكَرْكِ الْمَذْكُورِ ، وَقَدْ سَدَ عَلَيْهِمْ بَيَّنَاتٍ الْطَّرِيقِ الْقَاصِدَةِ إِلَى بَلَادِهِمْ وَلَمْ يَقِنْ لَهُمْ إِلَّا طَرِيقَ عَنِ الْحَصْنِ يَأْخُذُ عَلَى الصَّحْرَاءِ وَيَبْعُدُ مَدَاهُمْ بِتَحْلِيقٍ يَعْتَرَضُ فِيهِ . فَاهْتَلَ صَلَاحُ الدِّينِ فِي بَلَادِهِمُ الْغَرَّةَ وَانْهَزَّ الْفَرْصَةُ وَقَصَدَ قَصْدَهَا عَنِ الْطَّرِيقِ الْقَاصِدَةِ ، فَدَهْمَ مَدِينَتِهِ نَابِلُوسُ وَهَجَّمُهَا بِعَسْكَرِهِ فَاسْتَولَ عَلَيْهَا وَسَيِّى كُلَّ مَنْ فِيهَا وَأَخْذَ إِلَيْهَا حَصْنَهَا وَضَيَّعَهَا . وَامْتَلَأَتِ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ سَيِّئًا لَا يَحْصِي عَدْدُهُ مِنَ الْإِفْرَنجِ ، وَمَنْ فَرَقَ مِنَ الْمَهْوِدِ تَعْرُفُ بِالسَّمَّرَةِ مِنْسُوبَةً إِلَى السَّامَرِيِّ . وَابْنَسَطَ فِيهِمُ الْقَتْلُ الْنَّرِيعُ ، وَحَصَلَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهَا عَلَى غَنَامَ يَضْيَقُ الْحَصْرُ عَنْهَا ، إِلَى مَا اكْتَفَتْ مِنَ الْأَمْنَةِ وَالذَّخَارِ وَالْأَسَابِبِ وَالْأَثَاثِ ، إِلَى التَّعْمُ وَالْكَرْكَاعِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكِ . وَكَانَ مِنْ فَعْلِ هَذَا السُّلْطَانِ الْمُوْقَنِ أَنْ أَطْلَقَ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ عَلَى جَمِيعِ مَا احْتَازَهُ ، وَسَلَمَ لَهُمْ ذَلِكَ ، فَاحْتَازَتْ كُلَّ يَدٍ مَا حَوْرَثَ وَامْتَلَأَتْ غَنَّى وَبِسَارًا . وَعَقَى الْجَيْشُ عَلَى رُسُومِ تَلْكَ الْجَهَاتِ الَّتِي مَرَّ عَلَيْهَا مِنْ بَلَادِ الْفَرْنجِ ، وَآبَا غَانِمَيْنَ فَائِزِيْنَ بِالسَّلَامَةِ وَالْغَيْمَةِ وَالْإِلَابِ ، وَخَلَّصُوا مِنْ أَسْرِ الْمُسْلِمِينَ عَدَدًا كَثِيرًا ، وَكَانَتْ غَزْوَةٌ لَمْ يَسْمَعْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَادِ .

وَخَرَجْنَا نَحْنُ مِنْ دَمْشَقَ وَأَوَّلَى الْمُسْلِمِينَ قَدْ طَرَقُوا بِالْغَنَامِ كُلَّ بَمَا احْتَوَاهُ وَحَصَلَتْ يَدُهُ عَلَيْهِ ، وَكَانَ مَبْلَغُ السَّيِّيْرِ آلاَفًا لَمْ تَتَحَقَّقْ إِحْصَاءُهَا . وَلَحِقَ السُّلْطَانُ بِدَمْشَقِ يَوْمَ السَّبْتِ بَعْدَنَا الْأَقْرَبَ لِيَوْمِ انْفَسَالِنَا ، وَأَعْلَمَنَا أَنَّهُ يُعِيمُ عَسْكَرَهُ قَلِيلًا وَيَعُودُ إِلَى الْحَصْنِ الْمَذْكُورِ ، فَاللَّهُ يُعِينُهُ وَيَفْتَحُ عَلَيْهِ بَعْزَتَهُ وَقَدْرَهُ . وَخَرَجْنَا نَحْنُ إِلَى بَلَادِ الْفَرْنجِ وَسَيِّهِمْ يَدْخُلُ بَلَادَ الْمُسْلِمِينَ ، وَنَاهِيَكَ مِنْ هَذَا الْاعْدَالِ فِي السِّيَاسَةِ ! إِنْكَ مَبِيتَنَا لِيَلَةَ الْجَمْعَةِ بِدَارِيَّةَ ، وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ دَمْشَقَ عَلَى مَقْدَارِ فَرْسَخٍ وَنَصْفِ ، ثُمَّ رَحَلَنَا مِنْهَا سَحْرَ يَوْمِ الْجَمْعَةِ بَعْدَهُ إِلَى قَرْيَةِ تَرْفَ بَيْتِ جَنِّ ، هِيَ بَيْنَ جَبَالٍ ، ثُمَّ رَحَلَنَا مِنْهَا صَبِيَّحَةَ يَوْمِ السَّبْتِ إِلَى مَدِينَةِ بَانِيَاسِ ، وَاعْرَضْنَا فِي نَصْفِ الْطَّرِيقِ شَجَرَةً بِلُوطٍ عَظِيمَةً الْجَرْمِ مُتَسْعَةً التَّذْوِيجِ ، أَعْلَمَنَا أَنَّهَا تَعْرُفُ بِشَجَرَةِ الْمِيزَانِ ، فَسَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ ، فَقَبِيلَ لَنَا : هِيَ حَدٌّ بَيْنَ الْأَمْنِ وَالْخَلْفِ فِي هَذِهِ الْطَّرِيقِ لِحَرَامِيَّةِ الْإِفْرَنجِ ، وَهُمُ الْمَحْوَسَةُ وَالْقُطَاعُ ، مَنْ أَخْذَهُو وَرَاءَهُ إِلَى جَهَةِ بَلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَلَوْ بَيَّأَ أَوْ شَبَرَ أَسِيرٌ ، وَمَنْ أَخْدَدَنَا إِلَى جَهَةِ بَلَادِ الْفَرْنجِ بِقَدْرِ ذَلِكَ أَطْلَقَ سَبِيلَهُ ، لَهُمْ فِي ذَلِكَ عَهْدٌ يَوْفَوْنُ بِهِ ، وَهُوَ مِنْ أَظْرَفِ الْإِرْبَاطَاتِ الْإِفْرَنجِيَّةِ وَأَغْرِيَهَا . (رَحْلَةُ ابْنِ جَبَرِ صِ ٢٧١ - ٢٧٢) .

وحيث يصل ابن جبیر في رحلته إلى بانياس يتحدث عن حد المقاومة بين عمالة الفرنجة وال المسلمين بقوله : « هذه المدينة — أي بانياس — ثغر بلاد المسلمين ، وهي صغيرة ، وها قلعة يستدير بها تحت السور نهر ويقضي إلى أحد أبواب المدينة ، وله مصبات تحت أرجاء . وكانت يد الإفرنج فاسترجعها نور الدين ، رحمه الله . وها محرك واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للإفرنج يسمى هونن ، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ . وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج والمسلمين ، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاومة ، فهم يشاطرون الغلة على استواء ، ومواشيهم مختلفة ، ولا حيّف يجري بينهما فيها » (رحلة ابن جبیر ص ٢٢١ - ٢٢٢) .

ويقف ابن جبیر عند واقع المسلمين الذين آثروا البقاء في قراهم وضياعهم والعيش في حماية الفرنجة ، قوله :

« ورحلنا من تبنين ، دمرها الله ، سحر يوم الاثنين ، وطريقنا كلّه على ضياع متصلة وعمائر منتظمة ، سكّانها كلّها مسلمون ، وهم مع الإفرنج على حالة ترقّه ، نعود بالله من الفتنة ، وذلك أنّهم يؤذون لهم نصف الغلة عند أوان ضمّها وجزيّة على كلّ رأس دينار وخمسة قرابط ولا يعتضون بهم في غير ذلك ، وطم على ثُر الشجر ضربة خفيفة يؤذونها أيضاً . ومساكنهم بأيديهم وجميع أحواالم متروكة لهم . وكلّ ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل ، رساتيقوهم كلّها للمسلمين ، وهي القرى والضياع ، وقد أشرت الفتنة قلوب أكثرهم لما يتصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعُتّفهم ، لأنّهم على ضدّ أحواهم من الترفه والرفق . وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين : أن يشكّي الصنف الإسلاميّ جور صيفه المالك له ، وبحمد سورة ضدّه وعدوه المالك له من الإفرنج ، ويأنس بعده ، فإنّ الله المستكفي من هذه الحال ، وحسبنا تعزية وتسلية ما جاء في الكتاب العزيز : « إنّ هي إلا فتنتك تُضلّ بها مَنْ تشاء وَتُهدي مَنْ تشاء » (رحلة ابن جبیر ص ٢٧٤ - ٢٧٥) .



الفصل الثالث

الحملة الصليبية الثانية ويقظة الإسلام السوري

سقوط القدس وردود الفعل الإسلامية الأولى

لقد أحدث سقوط القدس هزة كبرى في أرض الإسلام؛ وتسرب خليفة بغداد ثياب الحداد على المدينة المقدسة. ورفع الشعرا المستلهمون وحيم الخري عقيرتهم: إن الإسلام في خطر:

وشر سلاح المرء دمع يفيضه إذا الحرب شبّت نارها بالصوارم

ولم تلبث الدلائل الأولى لرد الفعل الإسلامي أن ظهرت في دمشق أولاً، ثم في حلب وديار بكر والموصل، وكان صنيعاً له مغاره أن يطالب الجمهور عام ١١١٠ أمم قصر الخليفة في بغداد بعميل سريع و مباشر ضد الصليبيين. وقامت وفود سورية مؤلفة من الفقهاء والتجار البارزين والجنود باقتحام الجامع وإثارة الأضطرابات فيها، قاطعين شعائر العبادة مطالبين بالرد المطلوب. واستيقظت الإسلام السوري يعني مصابيه. الجهاد! ومن أقصى المغرب إلى أعماق المشرق دوت صرخة التوحيد الرهيبة طاغية على كل ما عداها من صرخات ثانوية. الجهاد في كل مكان. في كل مسجد بعد صلاة الجمعة يستنزل الأئمة اللعنات الأبدية على أولئك

القاعدية الذين لا يؤدون فريضة الجهاد كمؤمنين صادقين ، بل القتال حتى الموت ضد أعداء الإسلام ، ذلك القتال الذي سيتهي بالشعوب العربية إلى السيطرة الكونية .

معركة الراها والدعوة إلى الحملة الصليبية الثانية

وكان استعادة إمارة الراها في ٢٥ ديسمبر (كانون الأول) ١١٤٤ على يد ابن أمير الموصل عماد الدين حدثاً ضخماً^(١) . أولاً لأن مائة ألف مسيحي قتلوا فيها ، ثم لأن هذا الحدث تسبب بشوب الحملة الصليبية الثانية التي دعا إليها القديس برنار ديه كليرفو الذي لخص خطابه الذي ألقاه في فيزيليه تلخيصاً واضحاً المصيبة التي حاقت بالنصرانية ، أمام هذه المصائب الجديدة . وجلجل صوته ، مخاطباً جموع الشعب الضخم الذي احتشدت لسماعه : « ليكن دارعوكم لا يُغلبون ، لتكن المخاطر والآلام ومشقات الحرب التالية التي يفرضها الله عليكم ، لقد اجتاح المسلمين أراضينا في الديار المقدسة . إنهم يسبون نساعنا وبناتنا ويدنسون معابدنا . ماذا تنتظرون لتدعوا هذه المصائب الرهيبة ؟ احملوا السلاح ، ولينفتح فيكم الغضب المقدس روح القتال ، ليتردد في العالم المسيحي هذا الحديث النبوي : ويل للذى لا يخضب سيفه بالدم » .

وأقبل الكل على حمل الصليب : ملك ومطارة . وجثا ذوو البُنَالَةُ الحاضرون عند قدمي الواقع ، وطاف القديس برنار فرنسا مثيراً الجماهير السائرة خلفه ، وكتب إلى أمراء إيطالية وألمانيا محضًا إياهم على حمل الصليب . واقتدى كونراد الثالث بملك فرنسا ، وكذلك فعلت البُنَالَةُ الجermanية قاطبة .

الصليبيون وصراع المصالح الخاصة

وفي مطلع عام ١١٤٧ شرع الملكان يغذان السير . وبعد صعوبات جمة ، ويسرب خيانة اليونانيين كانوا ينجونهم بعد أن يُؤذونهم بدعوات وتقنيات لا تنتهي ، وبلغت الجيوش المسيحية فلسطين في ربيع ١١٤٨ بدلاً من أن ييمموا القصد نحو الموقع الأكبر إلحاحاً ، أعني إلى استرجاع الراها ، وهي قلعة الفرنجة فيما بين النهرين ، ومنطقة حلب التي كان السلطان نور الدين قد افتتحها ، وصار بمستطاعه أن يهدد أنطاكية مباشرة . واجتمع

قادة الصليبية الثانية في عَكَّا للتشاور ، ولكن انقضى هذ المجلس الذي حضره مثلاً الكرسي الرسولي : ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا ، وكذلك بطريرك القدس وقادة الفرسان في سوريا وفرنسا وألمانيا ، مسفرًا عن خيبة أمل بالغة ، فكل من أولئك القادة كان يعمل على توظيف تجهيزات الصليبية لتطمين مصالحه الخاصة ، ولم يكن البتة هدف هذه الحملة المعلن في فيزيلاي مدار مباحثات عَكَّا ، وإنما تلك القضايا التافهة ، قضايا المصالح الشخصية التي طالما احتدم النقاش حولها ، وقرر في نهاية المطاف مهاجمة دمشق .

فشل الحملة الصليبية الثانية أمام دمشق

وبعد قطع الصحاري ، وتكسرات الحرارة المشيرة للهلوسة ؛ وتموجات الرمال ؛ واجتياز جبال الحرمون الجرداء ذات الأخداد الموحشة العدائية ... أي تأثير استحوذ على الصليبيين حينما اكتشفوا دمشق العظيمة الصامدة البيضاء التي كانت مآذنها تشمخ في انتلاقة واحدة من الحجر وسط امتداد رحب المدى من البساتين ، وأي فرح لعيونهم المرهقة بالإشعاعات القاسية عندما رأوا هذا الفردوس المنسي على الأرض ينتصب أمامهم ، وهذه المدينة الشهيرة كانت تبدو لمن يرنو إليها من التلال المجاورة سائحة في النور المبشق منها ذاتها .. غامضة ، عظيمة ، شبهة .

فدمشق كانت رمز الشرق ، وجماله وسحره ، بل كل عظمته الأسطورية التي لم تتعجب منها مخيلاتهم . وبانتظار المعركة كان الصليبيون يحملون بقصور سلطانها وبكنوزها المتراكمة في نورها المظلل ، وبأسواقها ، وبجمال جواري حريمها .

ووهبت حاكم دمشق لدى رؤيته الغضب المسيحي ينقضّ عليه ، فدافع عن نفسه ببسالة طوال خمسة أيام حاول خلالها الصليبيون عبثاً اقتحام أسوارها . ماذا حدث فعلاً بعد ذلك ؟ يزعم غيوم الصوري أن البارونات السوريين أُي سادة الفرنجية المقيمين في سوريا فاوضوا حاكم دمشق سراً على اتفاق ما ؛ ويذهب المؤرخ العربي القلانسي المذهب نفسه ، فقد عرض الدمشقيون على ملك القدس دفع مائتي ألف قطعة ذهبية مقابل رفع الحصار ، فكان العرض مغرياً ، فقبل ملك القدس هذه الصفقة الخجولة التي خدع فيها خدعة كاملة ؛ وإذا

صدقنا كاتب الحوليات السرياني أبا الفرج، فقد اكتُشف متأخراً أنَّ كثيراً من هذه القطع كان مزيَّناً.

وهكذا فشلت الصليبية الثانية فشلاً ذريعاً، ومن فوره غادر كونراد مع فرسانه سورية مشمّعاً بجر أذيال الخيبة وكذلك فعل ملك فرنسة^(٢).

وأثارت نتيجة مساومات دمشق عدم الثقة بين لاتين المشرق ولاتين المغرب الذين لم يمنعوا أنفسهم من اتهام البارونات السوريين مالكي الأراضي والمستحوذين على المนาفع بأنهم خانوا القضية المشتركة. وعلينا أن نذكر على هذه النقطة:

إن فشل حملة دمشق أثار استياءً حقيقياً، وبعد الاندفاع الكاثوليكي عام ١٠٩٧، واحتلال القدس وما أسف عنه من تبييض عزائم المسلمين، حتى «لقد عاش الإسلام السوري على الدوام — كما يقول ابن الأثير — هاجس تهديد صليبية جديدة توقع بحلب ودمشق ما أوقعه في أنطاكية والقدس»^(٣). ولكن هاهم الصليبيون يعودون إلى سوريا غازين بقيادة رئيسي دولة، وإنما ينكفؤون دونها خاسرين، وأسفرت مغبة مغامرتهم المؤمنة عن فتور حماسة النصرانية الغربية نحو الغزوات عبر البحر، على حين تأخذ الحماسة سبيلاها — في الصفة الإسلامية — إلى القلوب بغيرة أشدَّ لمنازلة أعداء دينهم، لأنهم آنسوا أن الهيبة العسكرية للصليبيين قد بهتت، وفيما كانوا يخشون جانب كبار القادة الغربيين — كما يقول غيّوم الصوري — «فهاهم يرونهم يرحلون دون أن يفعلوا أي شيء، فخامت نفوسيهم الفرحة، ولم يعد هاجس الخوف من الفرجنة يستحوذ على تفكيرهم، وتكونت لديهم آمال عريضة».

نور الدين زنكي ويقظة الإسلام المناضل

وتحققت هذه الآمال، إذ دخل تاريخ الإسلام السوري شخصٌ جديد يمكن اعتباره ملكاً بهذا الشكل أو ذاك المقدمة لملك صلاح الدين. لقد سبق أن أشرنا إليه آنفًا حينما إن منطقة حلب آلت إلى يد نور الدين، الذي كان تجسيداً للإيمان المناضل، وحاكمًا صوفياً عنيفاً، وبطلاً قومياً حقيقياً، مؤمناً بعظمية الرسالة السماوية. هذا الجندي الباسل الذي غدا بفضل سلسلة من المناورات تدعى لها التظاهرات العسكرية سيد سورية، والذي سيكرس

حياته لمارقة الفرنجة ومنازلهم، على حين كانت المالك اللاتينية في الغرب تصاب ببردة الفعل المزعجة في أعقاب فشل الحملة الصليبية الثانية. وبينما كان المسيحيون يندبون حظهم في القدس، كان الإسلام المقاتل، المستقر جيداً في قبضة نور الدين يستعيد نوعاً من الطمأنينة النفسية. ولا يخفى أن الصليبيين الأوائل كانوا قد أفادوا من الصراعات بين المالك الهشة، ومن سلسلة طويلة من الأخطاء، وعدم الكفاءة، وكثرة المالك الصغيرة، ومن ممارسات أهل البدع الذين غالباً ما كانوا معادين للفكرة العربية والإسلام الأصولي، ومن الانفصالات على الطريقة الإيرانية المشوومة الصبيانية.

أما الآن فتغيرت الصورة، فنور الدين كان يبذل قصارى جهده لتوحيد سوريا، ولأنه كان ثابتاً للإيمان بحقيقة الرسالة النبوية فقد انصبت جهوده من الآن فصاعداً نحو هدف واحد: طرد الأجانب خارج سوريا وفلسطين. وسيسهل مهمته الصليبيون أنفسهم، فالمستعمرات المسيحية الدولية طفت تتنازع على مناطق النفوذ، وحلّت روح جديدة محل الاندفادات الأولى، من حماسات عشية الزحف، ولم يكن عهد ذاك «سياسة مسيحية» يجب تحديدها واتباعها لئلا تتوزع حركة الصليبيات الأولى إلى مجھودات عقيمة. وسبق بعض المؤرخين أن كتبوا قائلين: إن ضعف دول الفرنجة بسوريا ناجم في جوهره عن كون الصليبيين جلبوا معهم النظام الإقطاعي. ولم تكن سلطة كبار البارونات لتعدي إقطاعاتهم الخصنة. وغدت القدس بيزنطية ثانية، وكانت المنظمات العسكرية التي تحتل القلاع الأهم تمارس رقابتها المستمرة على السلطة الشرعية. وهذه الأسباب من عوامل الضعف ما كان لها إلا أن تحظى بعبارة زعيم مسلم من مستوى نور الدين الذي انفرد بمهمة استغلال هذا الوضع. ولكونه جديراً بوالده الذي كان جندياً شجاعاً حسن التدبير، فقد أرسى الأسس التي سيشيد عليها صلاح الدين بناء راسخاً. فخلال الثاني والعشرين سنة التي أمسك فيها بمقاليد الحكم (١١٤٦ - ١١٧٤) أنهى الصليبيين هادماً حصونهم في كونتية طرابلس، مغرقاً بالنار والدماء ضواحي حارم، ساحقاً في معركة ضارية فرسان الأمير ريمون الأنطاكى، مكرهاً حمامة أقامية على الاستسلام. وفي أقل من سنتين احتلّ تقريراً جميع موقع الفرنجة في سوريا الشمالية، غير تارك لأعدائه لحظة راحة، داحراً إياهم في جرأة اهتزت لها القدس.

ولم يقف عند هذا الحد. فمصر، بعد حكم الحكم ذلك الخليفة العبرى الذى لم يمت شأن سائر الناس — بل اختفى بصورة غامضة — فمصر هذه عرفت أيامًا قاتمة. فلم يقىض لها حكام حقيقيون؛ بل آلت ليدين ضعيفتين لطفل لم يتخطّ التاسعة، هو الخليفة العاشر الذى كان مجرد صورة يتنازع الوزراء حولها السلطة؛ ويفرغون خزائن بيت المال، يدفعون بأذلائهم لإثارة الفتنة، وليعيشوا حياة السلب باختفاء شرقيٍّ غامض. وطبع نور الدين في سهل النيل الخصيب الذى بدا له غنية سهلة؛ وضرورياً لعظمته الإسلام؛ وذلك بأن يعيد شيئاً من النظام إلى هذا البلد بأسرع ما يستطاع، خاصة وأن المسيحيين في القاهرة الذين طالما اضطهدوا في عهد الحكم بدؤوا يظهرون جسارة وبعد همة بصورة غريبة. فحشد جيشاً ليرسله إلى مصر، وعقد لواء قيادته لشيركوه الكردي.

حواشى الفصل الثالث

١— عماد الدين زنكي : الشهيد (ت ١١٤٦) من أبرز أبطال الإسلام ، ومؤسس الدولة الزنكية في الموصل .. كان من الأمراء المقدمين في العهد السلاجقى .. بسط نفوذه على سنجران وحران وحلب ، ناضل نضالاً لا هواة فيه ضد الصليبيين ونازلاهم بمعارك كثيرة أبرزها معركة الراها ، حين استعادها منهم عام ١١٤٤ .. فكانت الذريعة لشن الحملة الصليبية الثانية ، ولقد أرخ ابن الأثير (انظر ترجمته المادة ٣ من هذا الفصل) في كتابه «الباهر» للدولة الزنكية ، الذي كان متجرياً لها .. وما سجله عن نضال عماد الدين الشهيد وفتحه الراها ، قوله :

في ذكر فتح الشهيد مدينة الراها

في جمادى الآخر من سنة تسع وتلائين وخمسماة ، فتح الشهيد رضي الله عنه مدينة الراها من الفرج ، وكانت لجوسلين عاتيم وشيطانهم ، والمقدم على رجالتهم وفرسانهم ، وكلهم قد أذعن له بال نهاية في الشجاعة ، فهم يخضعون له ببذل الطاعة . وكان مدة حصارها ثمانية وعشرين يوماً ، وأعادها إلى حكم الإسلام ، ونفذت فيها أحكام أهل الإيمان ، وهذه الراها هي من أشرف المدن عند الصيارى وأعظمها حلاً . وهي إحدى الكراسي عندهم ، فأشرفها البيت المقدس ، ثم أنطاكية ، ثم رومية والقدسية ، والراها . وكان هذا فتح الفتوح حقاً ، وأشبهها بيد صدقأ ، من شهده فقد تمشك من الجهاد بأوثق سبب ، ولو عاصمه الطالقى (أبو تمام) لعلم أنه أول بقوله : السيف أصدق أنباء من الكتب ، لأن ضرر من بهذه المدينة من الفرج على المسلمين لقربها عظيم ، وشرهم إليها جسيم . إذ كانت من الديار الجزوية عينها ، ومن البلاد الإسلامية حصنها ، وانضاف إليها عدة من البلاد فاتسعت مملكتهم ، واشتتدت على أهلها وطائفتهم فملأوا من نواحي ماردين إلى القرات . وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر ، وما زد ، ونصبيين ، ورأس عين ، والرقة . وأما حران فكانت معهم في الخزي ، كل يوم قد صبحوها بالغاراة ، فلما رأى الشهيد الحال هكذا ، أنف لدولته أن يترك من بالراها من الكفار يجوسون من مملكة الإسلام خلال الديار ، وكان يعلم أنه لا ينال منها غرضاً ، ولا يمكنه أن يمحى جوهر الكفار بها عرضاً ، مادام بها جوسلين وفرسانه ، وجنوده وأعوانه ، وأنه متى قصدتها محاصراً لها اجتمعت الفرج لحفظها منه ، فعدل إلى أعمال الحيل والخداع ، والرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي الحال الثاني . فعدل عن قصدها إلى ما يجاورها من ديار بكر التي يهد المسلمين ، كحاني ، وجبل جور ، وأمد على ما تقدم ذكره ، فكان يقاتل من بها قتالاً فيه إبقاء ، فهو يخطها وعلى

غيرها يحوم ، ويطلبها وسواها بروم ، ووكل بها من يخبره بخلو عريتها من آساده ، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده . فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ، ظن أنه لفague له إليه ، وأنه لا يمكنه الإقدام عليه ، ففارق الرها إلى بلاده الشامية ليلاحظ أعماله ، ويتمهد ذخائره وأمواله ، فأذلت الشهيد عيونه فأخبرته بمسيره مع عساكره وذويه ، وخلو البلد عن حافظه وحاميه ، فحيثند أمر بالنداء في العسكر بالتجهيز والتشمير ، والجند في المسير ، ويهدد لمن عن صحبته تأخر ، وأعلمهم أنه لا يقبل عنده من اعتذر ، وأقبل مسرعاً كالسمم الصادر عن وتره ، والسبيل الصائر إلى مستقره ، وتبعته العساكر يتلو بعضها بعضاً ، عازمين على أن يؤدوا من الجهاد سنة وفراضاً ، وأقبلوا زمراً مجدين كقطع السحاب تحتها الجنائب ، وقد استعنوا على السرعة بركوب النجائب . فلما علم من بها من العدو إقباله ، سرى الرعب في أحشائهم ، واحتللت الخوف بدمائهم وسقط في أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلوا وقالوا ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْجِعْنَا رِبَّنَا وَيَغْفِرْنَا لَنَا لَنْكُونَنَا مِنَ الْمَاسِرِينَ﴾ . فأي الله إلا أن يتყن منهم بسيف الشهيد ، ويجمع في جهنم بين الغائب منهم والشهيد ، جزاء بعيم الشنيع ، وقتلهم الفظيع ، فصبه الله عليهم عذاباً ، وساقه إليهم عقاباً فضاقت عليهم الأرض بما راحت ، وضاقت عليهم نفوسهم ، ونكست لشدة هيبة رؤوسهم ، ووافى البلد في حده وحديده ، وعده وعدده ومواكبته المنصورة ، وجموعه المنشورة ، وبنوده المنشورة .

وزحف بهم نحو البلد يقدمه ، والشجاعة تقدمه ، فكادت الأرض تزلزل . والنهر بسواد الليل يسريل ، وصار الفرج مع علمهم بأنهم صارون إلى البوار ، يهافتون إلى القتال تهافت الفراش في النار ، أخذنا بقول من يقول : **تأخرت أستيقني الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أنا**

-فما رأى الشهيد البلد ، رأى بلدًا جمع بين الحصانة والحسن ، فراسل أهله يبذل لهم الأمان والأمن ، ليسلموه سليماً من إخراج أسواره ، وإخلاء دياره ، ضيأ منه على مثله أن يصبح خاوياً على عرشه ، وأن يتحقق سعاده بفرشه ، فأبوا قبول الأمان ، وامتنعوا من الإذعان ، فاستخار الله تعالى في قتاله ، وقدم الشجاعان لنزاله ، ونصب الجانيق ، وقدم النقابين ، وألح على من به القتال ، خوفاً أن يجتمع الفرج فيحرجونه عنه ويستنقذونه منه . وبلغ الخبر إلى الفرج فقاموا وقعدوا ، وأبروا وأرعدوا ، وجمعوا فارسهم وراجلهم ، وشاهبهم وكهفهم ، وحرصوا على السرعة خوف الفوات وعاد جوسلين عند سماعه الخبر إلى شرق القرات ، لعله يجد فرصة ليدخل إليها ، أو يرسل نجدة يحافظ عليها ، فحيل بينه وبين ذلك ، وأتى يكون ما يريد وخصمه الشهيد أتابك . ولم يزل الشهيد يزحف إليها مرة بعد أخرى ، حتى وصل النقابون إلى سورها فنقبوه ، فألقوا النار فيه فأحرقوه ، وملك البلد عنوة وقهراً ، وأواسع كل من فيه نكالاً وشراً ، فلما ملكها استباحها ، وأذل لقادها ، وقتل شجاعتها وفراستها ، فهم معه بين قليل وأسير ، وجرح وكسير ، وملا الناس أيديهم من النهب والسبى ، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذَ رِبَّكَ إِذَا أَخْذَ الْقَرِىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنْ أَخْذَهُ أَلْيَمَ شَدِيدَ﴾ . ثم إنه دخل البلد فراقه منظره ، وشاقه خبره ، فأسف لمثله من الخراب ، وأن يستولي عليه في ملكه البوار والتباب ، ورأى إن أخرية وأحلاه من أهله ، غير مستحسن من مثله ، فأمر بإعادة ما أخذ منه من ثاث ومال ، وسيبي ورجال ، وجوار وأطفال ، فردوه عن آخرهم لم يفقد منهم إلا الشاذ النادر ، فعاد البلد عامراً بعد أن كان داثراً ، وآهلاً وأمناً ، ورتب فيه من العساكر من يحفظه ، وسار عنه فاستولى على ما كان ييد الفرج من هذه الناحية من المدن والحسون والقرايا ، كسررور وغيرها ، وأخلى الديار الجزيرة من معرة الفرج وشرهم ، وأراح أهلها من كيدهم وضرهم ، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين ، وعلى مهاد الأمن وادعين ، ومنادي التوحيد ينادي : جاء الحق

وزهق الباطل . وألقى الإسلام بهذه البلاد جرائه ، وبث فيها أنصاره وأعوانه ، وصدق وعد الله في قوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آتَيْنَا وَعْدَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ . فهي لهم إلى يوم العرض . وكان فتحاً عظيماً لم يتبعه المسلمون بمثله ، وطار في الآفاق ذكره ، وطاب بها نشره ، وسارت به الرفاق ، وامتلأت به المحافل في الآفاق ، وشهده خلق كثير من الصالحين والأرباء ، واستبشر به الأبرار والأسفياء .» (ابن الأثير : الباهر في التاريخ ص ٦٦ - ٦٩) .

وتقدر الإشارة هنا إلى أن الصليبيين استعادوا الراها بقيادة جوسلين الثاني ، حين علم بوفاة عماد الدين زنكي .. عندها زحف نور الدين محمود بن الشهيد عماد الدين على المدينة عام ١١٤٦ وخرها وأنزل العقاب الصارم بأهلها .. وجاء في الموسوعة الميسرة في ترجمة حياة نور الدين محمود :

« .. وكان لاستيلاء المسلمين على الراها وقع كبير في أوروبا ، لما كان لها من قداسة عند العالم النصراني ، فدعا البابا يوحين الثاني إلى حملة صليبية جديدة ، وألهب القديس برنار بيلاغنه شعور المسيحيين وحثهم على محاربة المسلمين ، فاستجاب للدعوة اثنان من كبار ملوك أوروبا ، وهما لويس السادس ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا ، وقاما بما يعرف بالحملة الصليبية الثانية التي انتهت بالفشل ، فقد حاصر دمشق ١١٤٨ ، فاستتجد صاحبها مجير الدين أبي البروي بنور الدين ، ففشل الملكان في الاستيلاء عليها » (الموسوعة الميسرة ص ١٨٥٧) .

٢ - حصار الصليبيين دمشق وارتفاعهم عن أسوارها :

كتب ابن الأثير في كتابه الباهر في التاريخ :

« في سنة ثلات وأربعين وخمسين ، خرج ملك الأлан من بلاد الفرج في جيوش عظيمة لا تحصى كثرة من الإفرنج إلى بلاد الشام ، واتفق هو ومن ساحل الشام من الفرج ، واجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلاها ولا يشك ملك الألان أنه يملكونها وغيروا لكثرة جموعه وعساكره . وهذا النوع من الفرج هم أكثر الفرج عدداً وأوسعهم بلاداً ، وملكونهم أكثرهم عدداً وعدداً ، وإن كان غير ملكونهم أشرف منه عندهم وأعظم مهلاً ، والسيف أصدق أنباء من الكتب . فلما حاصروا دمشق وبها صاحبها مجير الدين أبي بن بوري بن طغذكين ، وليس له من الأمر شيء وإنما كان الأمر إلى معين الدين أثر بن ملوك جده طغذكين ، فهو كان الحاكم والمدير للبلد والعسكر . وكان عاقلاً خيراً ديناً حسن السيرة ، فجمع العسcker وحفظ البلد ، وحضرهم الفرج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأول ، فخرج العسcker وأهل البلد لمعهم عن القرب منه ، وكان فيمن خرج معهم ، الفقيه حجة الدين يوسف بن ذي ناس الفندلاوي المغربي ، وكان شيئاً كبيراً زاهداً عابداً ، خرج راجلاً فراء معين الدين فقصدوه وسلم عليه ، وقال له : يا شيخ أنت معنور ونحن نكفيك ، وليس بك قوة على القتال . فقال : قد بعت واشتري ، فلا تقيله ولا تستقيله يعني قول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشترى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَآمَّا هُمْ فَهُوَ الْأَيْةُ﴾ . وتقدم وقاتل الإفرنج حتى قتل رضي الله عنه عند الترب شهيداً . وقوى أمر الفرج وقدموا ، فنزلوا بالميدان الأخضر وضعف أهل البلد عن ردهم عنه ، وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين يستغث به ويستتجده ، ويسأله القديم عليه ، وعلمه شدة الأمر الذي قد دفعوا إليه ، فجمع سيف الدين عساكره وحشد ، وسار مجدداً إلى مدينة حمص ، وأرسل إلى معين الدين يقول له : قد حضرت ومعي كل من يطيق حمل السلاح من بلادي ، فإن أنا جئت إليك ولقيتنا الفرج ليست دمشق بيد نوابي وأصحابي وكانت المزية علينا ، لا يسلم منا أحد بعد بلادنا عنا ، وحيثند يملك الفرج دمشق وغيرها ، فإن

أردت أن أقاهم وأقاتلهم ، فتسليم البلد إلى من أثق إليه ، وأنا أحلف لك ، إن كانت النصرة لنا على الفرج أنتي لا آخذ دمشق ، ولا أقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدو عنها وأعود إلى بلادي . فماطله معين الدين لينظر ما يكون من الفرج .

وأرسل سيف الدين إلى الفرج الغرياء يهددهم ، ويعلمهم أنه على قصدهم إن لم يرحلوا ، وأرسل معين الدين إليه أيضاً يقول لهم : قد حضر ملك الشرق وعده من العساكر مالا طاقة لكم به ، فإن أنتم رحلتم عنا والا سلتم البلد إليه ، وحيثند لا تطمعون في السلامة منه . وأرسل إلى فرج الشام يخوفهم من أولئك الفرج الخارجين إلى بلادهم ، ويقول لهم : أنتم بين أمرئين مذمومين ، إن ملك هؤلاء الفرج الغرياء دمشق لا يقون عليكم ما بأيديكم من البلاد ، وإن سلتم أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون أنكم لا تقدرون على منعه عن البيت المقدس ، ويدل لهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحلوا ملك الأлан عن دمشق ، فأجابوه إلى ذلك وعلموا صدقه ، واجتمعوا بذلك الألان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع أمداده ، وأنه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالساحل ، فأجابهم إلى الرحيل عن دمشق وسار عنها . ورحل فرج الساحل وسلمو حصن بانياس من معين الدين ، ويفي حصن بانياس مع الفرج حتى فتحه نور الدين محمود بن زنكي رحمة الله تعالى . (الباهري في التاريخ ص ٨٨ - ٨٩ .)

٣— ابن الأثير، أبو الحسن علي (١١٦٠ - ١٢٣٤)

مؤرخ عربي ، عاش بالموصى وتنقل بين دمشق والقدس واستقر أخيراً بالموصى .. عاصر صلاح الدين الأيوبي وبعد كتاباه «الكامل في التاريخ» و«الباهري في تاريخ الدولة الأتابكية» من المصادر التاريخية الهامة والأساسية لثالث المرحلة من صراع الشرق والغرب أيام الحروب الصليبية ، وكذلك لعصر صلاح الدين ..

الفصل الرابع

صراع الفرنجة والمسلمين على وادي النيل

بدايات صلاح الدين

اصطحب شيركوه معه ابن أخيه صلاح الدين؛ ذلك الفتى المنعزل الحجول الذي كان يريد أن يتحققه وبعد ملتهنة قيادة الرجال الخبيثة للأعمال، وربما لإنقاذه من التأثير السيء بلات دمشق، وحتى ذاك التاريخ لم يكن صلاح الدين قد استرعى الأنظار. فقد ولد سنة ١١٣٨ في تكريت: القرية المتواضعة القائمة على الضفة اليمنى لنهر دجلة، في قلب المنطقة الكندية، وكانت مركزاً قدرياً لمطرانية يعقوبية أغلب سكانها حتى عهد صدر الإسلام الأول مسيحيون، وقد هاجر أبوه إلى بغداد — حيث سعى له أحد أصدقائه من ذوي النفوذ في بلاط السلاغقة الأتراك ليُسند إليه منصب حاكم بعلبك، وفيها أنشأ تكية للصوفيين، وهم مسلمون أتقياء ينسبون أنفسهم إلى البدائيات الزاهدة للإسلام القائلة بفكرة «الحب في الله». في هذه المدينة القدية التي سبق فيها شاهقاً هيكل جوبير الضخم لعبادة الشمس رئيّ صلاح الدين متلقياً تعاليم الصوفية الآمرة باحتقار كل ما هو دنيوي وتوجيه النفس نحو الباقي وحده، الكائن الإلهي، والتجرد من كل مظاهر للحياة الشخصية وصولاً إلى الاتحاد بالحياة الإلهية التي هي وحدها حقيقة، و «إلى الانتشاء بالشراب الروحي من الجمال والنور الإلهيين».

وأنغمس صلاح الدين في هذه الفلسفة ، وكان عليه ما عاشه أن يتذكر التعاليم التي تلقاها في تكية بعلبك . ورغم هموم السلطة ومغرياتها سيسعى ما امتد به الأجل إلى بلوغ حالة النعمة هذه في محبة الله . وسيتبع هذا المثل الأعلى لكمال النفس الإنسانية ، الذي هو الصوفية ، وسيفرض في محيطه ممارسات التقشف درجاً على نهج تعاليم الله ، والتلاشي في الله . ودرس أشهر الشعراء العرب الصوفيين الذين كتبوا فيما نظموه « تطهّر من كل صفة ذاتية ، لكي تشاهد جوهرك الباهر . ألغ وجودي لأن اللاإلحاد يناديني على أنغام القيشارة . إنا لله وإنا إليه راجعون . انظر في قلبك معرفة النبي بلا كتاب ولا معلم ، ولا مدرب »^(١) ولن ينسى صلاح الدين سحابة عمره أن يشبع ذاته بهذه التأملات — إنه مدين للصوفية التي ستلهمه وتهديه طوال حياته السياسية .

وفي السابعة عشرة من عمره رافق صلاح الدين أبيه ، الذي سمي حاكماً للدمشق ، إلى بلاط نور الدين ، فلما يتألق له أي نجم لدى السلطان ، بل كان على درجة من خمول الذكر لم يعرفه معها عهد ذاك الأمير أسامة بن منقذ . وأتم صلاح الدين الشاب ثقافته ، واجتهد معلمو دمشق بعد معلمي بعلبك في أن يوحوا إليه مواجهة النفس بجزم بأداء شعائر دينه ، وفي بعض المسيحيين (الفرنجة) ، وسبب ميله السلمية لم يكن هنالك ما يدعو إلى التنبؤ بما ستكون عليه سيرته المدهشة . ولم يظهر على الساحة لأول مرة إلا حينما قرر عمه شيركونه اصطحابه في حملته على مصر رغم عزوفه عن ذلك^(٢) ، كما يؤكد أحد مؤرخيه أبو شامة^(٣) .

نور الدين واهتمامه بحماية مصر من الهجمات الصليبية

ولم يحمل نور الدين على التفكير في إنفاذ حملة إلى وادي النيل جاذبية الترواث الأسطورية التي كانت تتدفق على القاهرة ، ولا النداءات المتكررة لوزير معزول كان يعرض على سلطان دمشق مقابل مساعدته إياه لاستعادة سلطنته ثلث واردات مصر ، بقدر ما كان يحفزه الاهتمام بحماية الإسلام من الهجمات الصليبية على هذه البلاد . وذلك لأنه انتهى إلى علمه ، وقد أخذته الدهشة ، أن ملك القدس وقع معاهدة تحالف مع الخلافة الفاطمية في القاهرة ، وأن جيشاً لا يستهان بعده من الاستباريين كان في طريقه إلى عاصمة الفراعنة القديمة لقاء ألف دينار لكل مرحلة يقطعها . وكان ملك القدس يتبع سياسة غريبة وغبية ، مورطاً نفسه

في قضية يتطلب نجاحها وقتاً ورجالاً، بظرف هيبات له أن يأمل في الاستقرار بمصر حين كانت إمارات الصليبية في سوريا تهتز يومياً تحت متكرر ضربات نور الدين. فبأي خداع للرأوية أرسل أموري الأول المسيحيين دفاعاً عن عرش خلافة إسلامية؟ في حين كانت مملكته محتاجة للسلم لكي تتحصن.

إن سياسة النفوذ المديدة الأجل هذه ما كان لها أن تؤتي ثمارها، وكان الأجدى لو استطاع الصليبيون المتمكّنون في الأرض المقدسة أن يصلوا على خيارات مصر دونما مخاطرة نزف المجموع عليها؛ لكن الأمر لم يكن بهذه آخذة هذا السياق، وأية هيبة تبقى للصليبيين حينما يرسل ملك القدس «المسيحي جداً» فرنجية ليحاربوا ويموتوا تحت إمرة وزير مسلم كبير؟ واهتم نور الدين بإضفاء الشرعية المسوجة لعمله ضد الفاطميين، وذلك بأخذ موافقة خليفة بغداد وبماركته.

ال الخليفة العباسي يؤيد سياسة نور الدين تجاه مصر

وكان على الرسول الذي بعثه إلى الخليفة أن يرهن لأمير المؤمنين على أن شعب أرض الكثافة – وهو تحت حكم الفاطميين – ما زال سراً على مذهب السنة، وأنه يتطلع إلى العودة إلى أحضانها، وإذا ما تخلص من سلالة المرتدين هذه الذين انتهوا إلى التحالف مع أسوأ أعداء الإسلام، فسيكون له مجده المثل الأوحد للإسلام غير المنازع. وإن اسمه سيتردد في الجموع كافة، وإن العقيدة الإسلامية الحقة ستعاد سيرة تدريسها في مدارس مصر.

وأيد خليفة بغداد هذه الحجج الدامغة؛ ولا يخفى أنه كان منذ زمن بعيد يتطلع إلى استئصال شأفة هذه السلالة المنافسة التي كانت تهدد وحدة الإسلام المعنية، وتنزعه بعناد لقب الإمام الأول؛ والممثل الوحيد لخلافة النبي، وهذا ما شجّع نور الدين لكي ينفذ إلى مصر ألفي فارس من السوريين، وستة آلاف تركي واعداً إياهم بنعيم المجاهدين، فسعدوا بأن يقاتلوا مجتمعين تحت راية سلطان دمشق.

الحملة الصليبية على مصر واستجاد الخليفة الفاطمي بنور الدين
و عبر ملك القدس صحراء سيناء وانتهى – في غرة تشرين الثاني ١١٦٨ – بفرسانه

الاستباريين إلى أسوار بليبيس. وهناك سؤال قائد الموقع أين يمكن أن يضرب خيام جيشه، ويظهر أن هذا الأخير أجابه محتداً: «خَيْمٌ عَلَى رُؤُوسِ حِرَابِنَا». فأمر آموري بالهجوم، وبعد ثلاثة أيام سقطت بليبيس، فعمل السيف برؤوس أبنائها إبادة جماعية، ولم يحترم المتصرون حتى المسيحيين من السكان. ولتنقل هنا ما يقوله غيوم الصوري: «دخل جماعتنا المدينة ولم يوفروا حتى النساء والأولاد ولا الشيوخ». ويقول أبو شامة: «وإن مثل هذه الأعمال غير الضرورية أثارت ثائرة المصريين واستنكارهم، ولو سلك الفرنجية سلوكاً إنسانياً نحو سكان بليبيس لتسنى لهم بيسير الاستيلاء على القاهرة»^(٤). كانت النتيجة السياسية لهذه الجريمة مخزنة، فقد حل الرجال السلاح للدفاع عن وطنهم، وطردوا الحامية الفرنجية من القاهرة حيث كان الوزير الخائن لل الخليفة الفاطمي قد أدخلها.. وأحرق حاكم القاهرة ضاحية الفسطاط لحماية العاصمة التي شرع الفرنجية يستعدون لاحتياحها. وفي ٢٢ تشرين الثاني ١١٦٨ احترقت المدينة العسكرية القديمة واستمرت طعمة للنار أربعة وخمسين يوماً. واستطاع آموري أن يتمتع بهذا المشهد وسأله شمس الخلافة: «هل ترى اللهب الذي يرتفع نحو السماء؟ إنها الفسطاط تتحرق. فقبل أن أجيء إلى هنا أمرت بإضرام عشرين ألف وعاء من النفط، وبالقاء عشر آلاف شعلة في المدينة»^(٥). وبينما كان آموري يتنتظر اقتراب رماد المدينة ليتمكن من العبور كانت القاهرة تنظم دفاعها، وإضافة إلى ذلك، كان الخليفة الفاطمي العاضد - رغم ما أبرمه من تحالف مع ملك القدس - يساوره القلق فجأة من نوايا صديقه الذي تصرف تصريفاً همجياً بهدف حمايته. وهنا خرج من ذهوله، وكتب إلى نور الدين مرسلاً إليه شعور نساء حريميه، قائلاً له: «هذه شعور نسائي يستغثن بك لتتقذهن من الإفرنج»^(٦) ولم تكن لهجة الخليفة الإنسانية تتصف بما يجب من الحزم، ولكن سلطان دمشق أدرك أن الخطر داهم؛ وفيما كان الخليفة يطلب سراً التدخل السوري عمد كبير وزرائه المعن في الخداع إلى السعي للكسب المزيد من الزمن ومخاطب ملك القدس، ويدره على قلبه قائلاً: «إنه يفضل أن تبقى مصر بيد الفرنجية على أن تكون بيد الدين، وأضاف في استحياء: إن الشعب تألم كثيراً لما حلّ بـ بليبيس، ومن المشقة بمكان احتواء غضبه ومنعه من الاستنجاد بالسورين».

ورغم انزعاج الفرنجية، كان قميناً بهم أن يعقدوا معه اتفاقاً جديداً، وأنه كان يعرف من يخاطب وعد آموري بكل ما في مصر من ذهب، كما عرف كيف يشتري موافقة بعض البارونات البارزين، وهكذا تمت الصفقة مع ملك القدس الطامع في المال أكثر من طمعه في

المجد. فتخلى عن مشروعه في إقامة حماية فرنجية في القاهرة، وراح يعسكر في نواحي بليس مع فرسانه، بانتظار القوافل السراية الحملة ذهباً؛ وخلال ذاك كان صلاح الدين وعهـ شيركوه يصلان إلى مصر^(٧).

وخدع وزير خليفة القاهرة آموري، وفيما أخذ صبر هذا الأخير ينفد لعدم وصول القافلة الموعودة، شرع الوزير يتذرع بأنه يحتاج إلى المزيد من الوقت لفرض ضرائب على المناطق الأكثر استعصاء، وكان يرسل إلى آموري تأكيدات الصدقة مع المرطبات والمدايا الصغيرة قائلاً له: «اصبر أيها الملك النبيل، اترك الوقت لعيدي ليستخرجوا الذهب من مناجم النوبة السفلى وليسخروا الزمرد من مناجم الصحراء بين كفت وأسوان».

وصول القوات السورية إلى مصر

وبينا كان ملك القدس الواثق الغبي ينتظر القناطير المقنطرة من الذهب والحجارة الكريمة، لاهياً مع باروناته، علم أن الأسطول الذي سبق لإمبراطور بيزنطية أن وعد أن يمده به أنزل به الأسطول المصري ضربة قاصمة، وأن القاهرة تعج بالجيوش وقد دعمت حصونها، وأن جيشاً سورياً اجتاز حدود مصر. وعند ذاك أدرك آموري أن المسلمين خدعوه حين وعدوه بالقوافل، وأن هيئته وهيبة المسيحيين قد تأثرت تأثيراً جدياً بهذه المغامرة، ولم يبق له وبالتالي سوى مخرج واحد هو مغادرة مصر، لأنه ليس معقولاً أن يقاتل في آن واحد أتراب نور الدين، وسوربي صلاح الدين ومصريي صديقه خليفة القاهرة. فغادر هذا الوادي الخصيب، وادي النيل الغني الذي طالما تاق إليه، وأخذ طريق القدس متفادياً مواجهة صلاح الدين. وكان من نذالته أن ألقى بمسؤولية هذه الهزيمة على الذين نصحوه بعدم القيام بهذه الحملة. وبكل الأحوال، فقد استبعد نهائياً أمل إقامة حماية فرنجية على مصر.

شيركوه وصلاح الدين في القاهرة

وفي كانون الثاني (يناير) ١١٦٩ استقبل شيركوه في القاهرة^(٧) كمحرر، فأقيمت الاحتفالات العامة. وأظهر الخليفة الفاطمي لمبعوثي سلطان دمشق كل مودة مع أنه كان سيحاربهم إلى جانب ملك القدس لو كانوا هم الأضعف. وغمر شيركوه بضروب التكريم،

وبالطبع انعكس هذا المجد الصاحب على ابن أخيه الذي صار أقل ندماً في أيام النصر هذه على مترف بلاط دمشق ، وعلى دروسه الفقهية الغالية ، ومع ذلك ، وبعد العناقات المعتادة وخطب الصداقة التي تتجلى فيها العواطف أكثر من أي شيء آخر ، كان شاور وزير الخليفة الأول مغناطياً من نجاح الكردي لدى سيده ولدى الشعب معاً؛ وأدرك أن نجمته سينجح للأقول أمام النجم الشاب الجديد الذي بدأ يسطع في مصر ، خاصة وأن شيركوه الخلص للمهمة التي كلفه إياها سرّ نور الدين شرع يتصرف لمصالح السوريين ، ويشتري معونة ضباط الخليفة ووجهاء القاهرة وأخذ يعتني بترسيخ شعبيته وشعبيته ابن أخيه الملائم إياه على أيدي شعراء التكسب الذين كانوا يتجمعون على أبواب العظماء كجراد الصحراء.

صلاح الدين يرحل بنهاية الوزير الخائن

وأغضبت هذه الحفوات ، وتلك المهرجانات ، وهاتيك الروحات والجيعات عند الخليفة أغضبت كثيراً شاور البائس الذي كان يرى في ذلك زوال سلطته ، حتى إنّه قرر التخلص من غريمه . وقد اختار الوسيلة الأنيقة التقليدية : المأدبة . وأشرك في سرّ نوايات الخبيثة هذه ابنه البكر الذي سبق للمسيحيين أن عفوا عنه في مجرة بلبيس ، ولكن الابن رفض أن يشترك في المؤامرة ؛ ولشدة اشمئزازه من الانحدار في درك النذالة أسرع فأططلع صلاح الدين على مشروع أبيه . فقرر صلاح الدين أن يزيل نهائياً هذا الشخص المزعج ، مدركاً أن شاور هذا لا يمكن أن يكون موالياً لأحد . فتوقف بنفسه الوزير ، وكان ذلك أول عمل سلطويّ له . وما كاد نباء هذا العمل الجيد يشاع في القاهرة حتى عمّها ارتياح حقيقي ، وتزاحم خصيان القصر على قطع رأس شاور وجروه كما تجر الدمية في أسواق القاهرة . وتلك كانت نهاية هذا المأوفون الذي سلم بلاده ثلاثة مرات لأعداء سيده وأعداء دينه بغية المحافظة على وزارته .

صلاح الدين يخلف عمه وزيرًا أول لمصر

وعين الخليفة الفاطمي شيركوه وزيراً أول لكنه لم يتمتع طويلاً بالتكريمات التي استحقها بوفائه ، وبالخدمات التي أداها لنور الدين ، لأنّه مات بعد شهرين من هذا الحدث .

وقام العااضد — بناءً على نصيحة خصيّ معتوق كان شيركوه قد سماه أميراً — برفع

صلاح الدين إلى منصب الوزير الأول . صحيح أنه رفعه إلى هذا المركز ليس لأن صلاح الدين سيضطلع بهذا المنصب بصفات استثنائية يقدر ما كان يتمتع به من حدوث خيبة أمل لدى الأمراء السوريين النافسين ، حظًّا هذا الشاب المجهول ابن الاثنين والثلاثين عاماً . فكان العاشر يُسانده منصب الوزارة لصلاح الدين ينوي إثارة الخصومات ، ووضع بعض السوريين في مواجهة بعضهم الآخر ، ومن ثم طردهم . وفعلاً حصلت احتجاجات ، لكنها مرت دونما عقابيل ، لأن نور الدين اعترف فوراً بصلاح الدين قائداً أعلى وحيداً للقوات السورية في مصر إضافة إلى صفتة وزيراً أكبر ، موجهاً إليه تهانيه .

هكذا كان سيبدأ عصر مجید للإسلام . فاعتباراً من هذا اليوم سيكون الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، صلاح الدين العظيم . فالقوة التي واتته إليها ظروف ملائمة وجدت فيه رجل دولة مؤهلاً بصورة خاصة للهبوط بمثل هذا العبء المنيء وإيصاله إلى نهاية الحميدية .

صلاح الدين سيد مصر المطلق

ورغم كونه لم يظهر البطة حتى الآن ميلاً لمهنة السلاح ، ولدرجة اضطر معها عممه إلى التدخل الحازم كي يقبل بمرافقته إلى مصر ، وربما كان يفضل المناقشات الفقهية الهدأة على مشهد ساحات القتال ، وركض الفرسان المحاربين ، فقد تكشف رغم كل ذلك عن رجل عمل ، وقائد مهيب ، ومدبر ممتاز . فوهب ذاته للقضية بذلوك ومتابر . وقد تجلت له واضحة الطريق التي عليه أن يسلكها : إعادة العقيدة السنوية إلى الريوع المصرية ورد الجميع إلى جادة القانون وإطاعته إطاعة دقيقة ، ومحاربة الصليبيين دونما هواة ، وبالتالي تحقيق سلطته وسلطة عشيرته ومارسة سياسة إعادة بناء فخمة . وبفضله سيشهد الإسلام عصر ازدهار جديد يعيد إلى الذاكرة أزهى أيام العباسين أو الأموريين الذين حملوا من بغداد أو من دمشق إلى الشرق حضارة مذهلة .

وإذا كان صلاح الدين قد استطاع إداء ما عليه فيجب ألا يعزب عن البال أن نور الدين قد سهل له مهمته ، كما أفاد من اختطاط الخلافة الفاطمية ، وكذلك من انقسامات الصليبيين ، كما عرف كيف يوجه ضرباته في اللحظة المناسبة ، ويفيد من أخطاء خصوصه مستوحياً كل سياساته من هذا الشعار : العمل . سيعمل بلا توقف ولا قسوة .

ولأنسى أن الخليفة العاضد عندما رفع صلاح الدين إلى سدة الوزارة كان يأمل لا يقى الشاب السوري طويلاً في القاهرة. فالمصريون حالما هدأت حرارة حماساتهم الأولى، انقلبوا يتوجسون خوفاً من سيطرة هذا الغريب الصارم الذي كان يزعم أنه سيحكم حكماً سلطوياً، وسيسحق الفتنة، ويتوّر الجهاز الإداري، ويجعل السيادة للقانون في تلك الديار التي حالت منذ زمن طويل فردوساً للمغامرين بمختلف ضرورتهم، وقد فوجعوا مأحذين دهشة أنه يوم غداً وزيراً دون أي احتفال ابتهاج حتى مع خلصائه نشر مرسوماً يقضي بتطهير جميع الإدارات، مما يعني القضاء على المؤامرات البيروقراطية البالغة التمكّن والاستشراء، وقد أُخْنِي المستاؤون المطرودون من مناصبهم باللائمة على صلاح الدين لرغبة في تقلص نفوذ الخلافة الفاطمية؛ وتطلعه إلى الدكتاتورية. وفي حكم المؤكّد تقريباً، أنَّ الوزير الجديد لم يكن يشق في العاضد، متوقعاً بروز العقبات دونه، ولذا قرر بتصميم على الإمساك صراحة بالدفة، وأنَّه يعمل لحساب نفسه. فمصر كانت مغيرة في نظر هذا الوزير ذي الاثنين والثلاثين سنة. وما أن قبضته الحازمة ما كان لها أن تحظى برضاء رجال البلاط الذي أخضعه لرقابته الصارمة ذر قرن الفتنة بعد عدد من التوقيفات المشيرة، وثار الحرس الأسود من النوبين والأحباش بقيادة خصيٍّ يدعى المتنعم، كان يفرض القانون في القصر وفي أسواق القاهرة القديمة.

وتشجيع سري دونما ريب، من سيد القصر المقلب حُرّض المتنعم الفرنجة لأن يكونوا على أهبة الاستعداد لغزو مصر حالما يبلغهم نباء ثورة الحرس الأسود الذي يدعمه كبار الموظفين في الإدارة المركزية، وكان على النوبين — حسب الخطة — أن يبيدوا حامية القاهرة السورية، ويغتالوا الوزير الجديد، ولكن الbird الذي وجهه إلى القدس أوقف وشدد عليه بالتحقيق حتى اكتشفت الخيانة. ودحرج رأس المتنعم، وحينما ذاع النبأ بادر خمسون ألف مصرى إلى محاصرة قصر الوزارة، شمالي القاهرة رافعين عقيرتهم بشتم صلاح الدين، ولكن هذا الأخير لم يكن عابقاً بتهديد وعيدهم، فأمر بالحال قواته السورية بالهجوم، وبلا رحمة من الجانبيين استعر القتال من شارع إلى شارع، واستمرت المجزرة ثانية وأربعين ساعة. وقد ترك لنا المؤرخ العربي ابن الأثير حكاية هذه الأيام المأساوية. فكل حي لجا إليه الشاردون أحرق، وكان النسوة والأطفال يُشّرون بين الجثث التي كانت تترأكم وأحرقت أيضاً قلاع القوات الأرمنية

دافنة تحتها البوسائط الذين لم يشتركوا في هذه الفتنة . وأخيراً أعيد النظام ، ولكن إشارة الانذار بالخطر كانت مقلقة^(٨) .

وحيثنا قدم صلاح الدين تقريره إلى الخليفة الفاطمي أدرك هذا ، بعد أن بدت دهشة ، أن وزيره لم يكن ينوي أن يُدلي وإنما هو مصمم على الإقامة المتمكنة في القاهرة ، وعدم ترك الحكم لأحد غيره ، وكان الخليفة غاية في السعادة لأن أحداً لم يشر إليه بإلصاق الاتهام في هذه القضية ، ولكنه — كما قيل — هو الذي قدم الخنجر لمن كان عليه أن يغتال صلاح الدين إذا نجحت المؤامرة ، وأسند لوزيره السلطات كاملة ولم يعد يجرؤ على الإتيان بأية حركة .



حواشي الفصل الرابع

١— أغلب الظن أن هذا الشعر هو لجلال الدين الرومي ، كما أخبرنا الأستاذ الرميل عبد القادر عنداني الضابع بالتراث الصوفي ، ولكن لم نعثر على النص الأصلي .

٢— ظهور نجم صلاح الدين حين أشركه عمده شيركوه بحملته على مصر : جاء في رواية القاضي ابن شداد ، أن صلاح الدين قال له : « كنت أكره الناس للخروج في هذه الواقعة ، وما خرجت مع عمي باختياري ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿وَعُسِّىٰ أَن تَكْرِهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُم﴾ (ابن شداد : التوادر السلطانية ص ٣١ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٥٥) .

٣— أبو شامة المقدسي ، عبد الرحمن بن إسماعيل : (١٢٠٣ — ١٢٦٨). لغوي ، ومحدث ، ومؤرخ . ولد ومات بدمشق ، ودرس اللغة والفقه بها وبالسكندرية . ولد مشيخة دار الحديث للأشرفية بدمشق ، وأدى لسانه اللاذع إلى أن دخل عليه اثنان يتظاهران باستفتائه ، فضرر بهما ، فمرض ومات ، أو قتله جهور غاضب لأنهمه بإحدى الجرائم . ألف عدة كتب ، مثل : « الروضتين في أخبار الدوليين » ، ترجم فيه لصلاح الدين ونور الدين ، و « ذيل الروضتين » ، و « مختصر تاريخ دمشق » ، و « الممتع المقتضب في سيرة خير العجم والعرب » ، في التاريخ ، و « المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز » ، و « البسملة » ، و « أبرز المعاني في شرح حرز الألماني » في علوم القرآن ، و « شرح البردة » ، و « المقاصد السننية في شرح القصائد النبوية » في اللغة . (الموسوعة الميسرة ص ٣٥) .

٤— حصار الفرنجة بليبيس وأعمالهم السييف بأهلها : (راجع الكامل في التاريخ ج ١١ ص ١٥٠ — ١٥١ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٥٤) .

٥— إحراق الفسطاط : (راجع الكامل في التاريخ ج ١١ ص ١٥٤ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٥٤) .

٦— استغاثة الخليفة الفاطمي بنور الدين : (راجع الكامل في التاريخ ج ١١ ص ١٥١ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٥٤) .

٧— لقد أجمعوا المصادر العربية على أن صلاح الدين رافق عمه شيركوه إلى مصر ثلاث مرات — كل ذلك بأمر نور الدين .

الأولى : بطلب من الوزير الفاطمي شاور السعدي الذي زُيّن لنور الدين السير إلى مصر ، لإعادته إلى كرسى الوزارة ، الذي يعني سدة الحكم فعلياً ، على أن يكون لنور الدين ثلث واردات وادي النيل ، .. وكان ذلك ، .. ولكن ما إن استعاد شاور سلطاته حتى غدر بشيركوه واستنجد عليه بالفرنجية فأخبوه .. مما أجبر القوات السورية على الانسحاب من مصر ..

والثانية : كانت انتقاماً من شاور الناكث بعهده ، ولتحالف مع الفرنجية أعداء العربة والإسلام ..

والثالثة : بطلب من الخليفة الفاطمي الذي استنجد بنور الدين ، فأنفذ إليه شيركوه ورفقته صلاح الدين على رأس القوات السورية التي حطمت الحلف الصليبي المصري فكان أن قتل الخائن شاور ، وغداً أسد الدين شيركوه وزير مصر بأمر الخليفة الفاطمي العاضد ، .. (راجع ابن الأثير : الباهر ص ١١٩ - ١٤٠) .

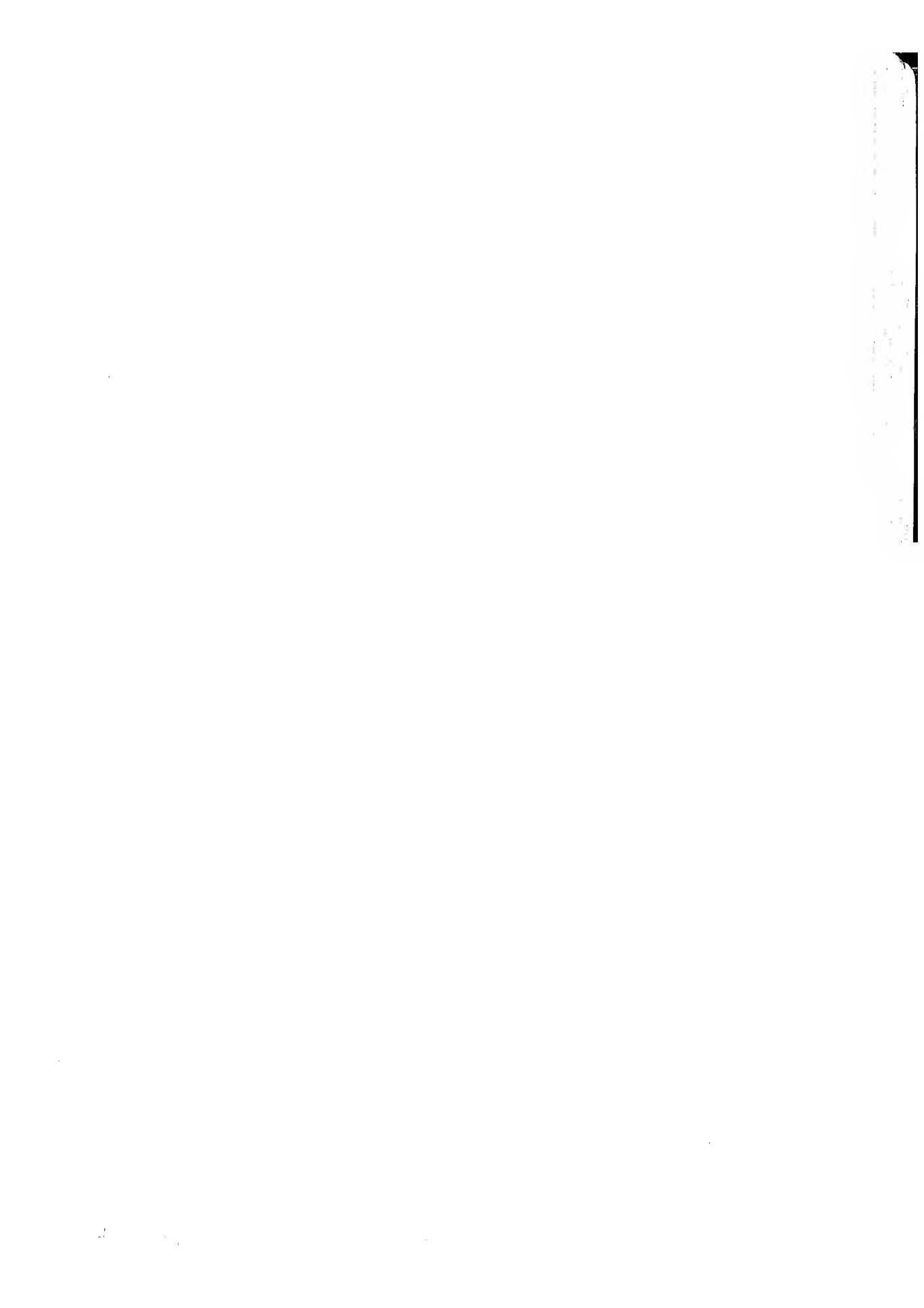
٨— صلاح الدين يخلف عمه وزير أول مصر :

جاء في كتاب الباهر لابن الأثير عن ذكر وفاة : أسد الدين شيركوه وملك صلاح الدين يوسف بن أبيوب : « حتى إذا فرحوا بما أتوا أخذناهم بفتحتهم لما ثبت قدم أسد الدين شيركوه وخلا وجهه من يخافه ، وصفت له دنياه ، وارتفع شأنه ، وخافه القاصي والداني لاسمها الفرج ، أتاه أمر الله الذي لا يحيى عنه ولا مفر منه ولا يحمى عليه ، ملك بكثرة رجال ولا يمنع عنه المعاقل والممال ، فمرض وتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسماة ، فكانت ولادته شهرين وخمسة أيام .

ولما توفي كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه نجم الدين أبيوب بن شاذى ، قد سار معه على كره منه . حكى لي عنه أنه قال : « لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه مستصرخين ومستنجددين ، أحضرني وأعلموني الحال ، وقال : تمضي إلى عملك أسد الدين بمحمد مع رسولي إليه ، يأمره بالحضور وتحمه أنت على الإسراع فما يحتمل الأمر التأخير . قال : فعلت ، فلما فارقتنا حلب على ميل منها لقيناه قادماً في هذا المعنى ، فقال له نور الدين : تجهر للمسير ، فامتنع خوفاً من غدرهم أولاً وعدم ما ينفقه في العساكر ثانياً ، فأعطيه نور الدين الأموال والرجال ، وقال له : إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر ، فالصلحة تقتضي أن أسيء أنا بنفسي إليها ، فإننا إن أهلنا أمرها ملوكها الفرج لا يبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره قال : فالتفت إلى عمي أسد الدين ، وقال تجهر يا يوسف . قال : فكأنما ضرب قلبي بسکین ، فقلت : والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق مالاً أنساه أبداً ، فقال عمي لنور الدين : لا بد من مسيرة معن فرسم له ، فأمرني نور الدين وأنا أستقبله ، فانقضى المجلس . ثم جمع أسد الدين العساكر من التركان وغيرهم ولم يبق غير المسير ، فقال لي نور الدين : لا بد من مسريك مع عملك ، فشكوت إليه الضائقه وقلة الدواب

وما أحجاج إليه ، فأعطياني ما تجهزت به فكأنما أنساق إلى الموت ، وكان نور الدين مهياً مخوفاً مع لينه ورحمته ، فسرت معه ، فلما استقر أمره وتوفي ، أعطاني الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه .

وأما كيفية ولايته ، فإن جماعة من الأمراء التورية الذين كانوا بمصر ، طلبو التقدم على العساكر ولولاية الوزارة ، منهم : الأمير عين الدولة الياقوتي ، وقطب الدين خسرو بن تليل — وهو ابن أخي أبي الهيجاء المذباني الذي كان صاحب إربيل — ومنهم : سيف الدين علي بن أحمد المكاري — وجده كان صاحب قلاع المهاكلة — ، ومنهم : شهاب الدين محمود الحارمي — وهو خال صلاح الدين — وكل من هؤلاء يخطبها وقد جمع ليغائب عليها ، فأرسل الخليفة العاضد لدين الله صاحب مصر إلى صلاح الدين وأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة وبوليه الأمر بعد عمه ، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين ، فإنه ظن أنه إذا ولّى صلاح الدين — وليس له عسكر ولا رجال — كان في ولايته مستضعفًا يحكم عليه ، ولا يجسر على الخلافة ، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستعين لهم إليه ، فإذا صار معه البعض أنخرج الباقين وتعود البلاد إليه وعنه من العساكر الشامية من يحميها من الفرج ونور الدين «أردت عمراً وأراد الله خارجاً» فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فألزمته به وأخذ كارهاً ، «إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بالسلسل» ، فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة ، الجبة والعمامه وغيرها ، ولقب الملك الناصر ، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها ، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم لا لخدموه . وكان الفقيه ضياء الدين عيسى المكاري معه ، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه ، وقال له : إن هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل ، فمال إلى صلاح الدين . ثم قصد شهاب الدين الحارمي ، وقال له : إن هذا صلاح الدين هو ابن أخيك تليل ، وقد استقام الأمر له ، فلا تكون أول من يسعى في إخراجه عنه ولا يصل إليك ، ولم يزل به حتى أحضره وملكه لك ، وقد استقام الأمر له ، فلاتكون أول من يسعى في إخراجه عنه ولا يصل إليك ، ولم يبق غيرك وغيرك أيضًا عنده وحلفه له . ثم عدل إلى قطب الدين ، وقال له : إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ، ولم يبق غيرك وغيرك اليارقى وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين أيضًا . وعدل إلى عين الدولة الياقوتي — وكان أكبر الجماعة وأكثرهم وعدده وزاد في إقطاعه فأطاع صلاح الدين أيضًا . وكان نور الدين ومعه غيره فأذكر جماعًا فلم تنفعه رقاه ولا نفقده في سحره ، وقال : أنا لا أخدم يوسف أبدًا ، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره فأذكر عليهم فراقه ، وقد فات الأمر ليقضي الله أمراً كان مفعولاً . ثبت قدم صلاح الدين ، ورسخ ملكه ، وهو نائب عن الملك العادل نور الدين ، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها ، ولا يتصرفون إلا عن أمره . وكان نور الدين يكتب صلاح الدين بالأمير الأسفهسلاج (أي مقدم العسكر) ، ويكتب علامته في الكتب تعظيمًا أن يكتب اسمه ، وكان لا يفرده في كتاب ، بل يكتب الأمير الأسفهسلاج صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا . واستحال صلاح الدين قلوب الناس وبدل لهم الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه ، وطلب من العاضد شيئاً يخرجه فلم يكن يمكنه منعه ، فمال الناس إليه وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه ، وضعف أمر العاضد ، فكان كالباحث عن حتفه بظله . (ابن الأثير : الباهر ١٤١ - ١٤٣).



الفصل الخامس

صلاح الدين يحل في القاهرة محل الفاطميين وينتسب السلالة الأيوبية

مصر صلاح الدين بؤرة الإسلام المناضل

أقض مضجعَ الصليبيين أن يروا قبضة صلاح الدين تحكم السيطرة على مصر المشتهاة، وكان على الممالك اللاتينية في المشرق التي تهددها حلب من الشمال ودمشق من الشرق أن تأخذ من الآن فصاعداً جانب الخذر من المخوب حيث غدت مملكة القدس تهدهدها مصر التي أصبحت ثانية — تحت حكم صلاح الدين — بؤرة الإسلام المناضل، خاصة وقد أحبطت منساعي آموري في محاولاته الخفقة لاحتواء وادي النيل الخصيب سواء بالخدعة أم بالسيف، وتبديّ له جدياً أن عليه — ما استطاع من سرعة — أن يحمي بطريركية القدس ومتلكات أساقفتها الواسعة؛ ولذا سارع إلى إنفاذ الرسل إلى كل من فرنسا وإنكلترا وألمانيا وبيزنطية وروما لاطلاع زعماء المسيحية على مجريات الأحداث، ولطالتهم بإثارة حملة صليبية جديدة، وقطعاً لم تكن الظروف مواتية في أوريا : فالبابا الكسندر الثالث كان على خلاف مع فريدریک باریروس، وتحدق بملك انكلترا المصاعد والمنابع للحفاظ على عرشه المهزت بعنف أمام خصمه اللدود كبير أساقفة كنتربری، وبدوره لم يكن ملك فرنسا — لویس السابع — مستعداً للقيام بتجربة جديدة بعد فشله أمام أسوار دمشق ، ولم يتحرك سوى الروم

الذين قدموا لآموري أسطولاً قوامه مائتان وعشرون مركباً، وحين تلقى ملك القدس هذه العمارة العظيمة قر أن يعمل شيئاً، فبادر إلى حاصرة دمياط مفتاح وادي النيل.

صلاح الدين يدحر في دمياط حلف بيزنطة وملكة القدس^(١)

لم يتمكن الأسطول البيزنطي من اقتحام مدخل المرفأ، وطلت المدينة مستعصية صامدة لحصار خمسين يوماً، لأن صلاح الدين أعد للنزود عنها أفضل قواته الكردية، ولم يكتفى الحاصرون بدرع الفرنجة بل لم يدعوا لهم أي متنفس للراحة منهكين إياهم، محرقين آليات الحصار الضخمة التي جلبها الروم، وقسموا من الأسطول البيزنطي الذي مازال عاجزاً عن اقتحام مدخل الميناء. واستمرت المعركة دائرة أكثر مما قدر ملك القدس، وبدأت المؤمن تنقد مما اضطر المهاجمين أن يكتفوا بزهوات التخييل وبثار الكستناء ليتغيروا، وليس هذا فحسب بل تسببت الأمطار الغزيرة بفيضان النيل، وأحالـت معسـكر الفرنـجة إلى مستـنقـع لا يمكن المـكـوثـ فيهـ.

أما المسلمين الصامدون وراء تحصيناتهم، والذين لم يكن ينقصهم شيء لأن صلاح الدين عمل بفسحة كافية من الزمن لتكديس القمح لهم، ولأنهم أفادوا من العون الإلهي: هاطل الأمطار، وعاصف الرياح، ومتفشـي الـحمـياتـ، فأوقعـوا بالـفرـنـجةـ خـسـائـرـ فـادـحةـ، فـخارـتـ عـزـائمـ هـؤـلـاءـ، وـعـرـضـواـ عـلـىـ الـسـلـمـينـ الـصـلـحـ، وـدـفـعواـ غـرـامـةـ كـبـيرـةـ، وـرـحـلـواـ كـرـةـ أـخـرىـ عـنـ الـأـرـضـ الـمـصـرـيـةـ؛ وـخـرـجـ صـلاحـ الدـينـ مـنـ هـذـهـ الـمـغـامـرـةـ أـعـظـمـ مـاـ كـانـ عـلـيـهـ، إـذـ تـمـثـلـ فـيـهـ رـوحـ صـمـودـ دـمـياـطـ؛ وـأـنـقـذـ مـصـرـ نـهـائـيـاـ رـغـمـ وجودـ عـدـوـ دـاخـلـيـ مـاـ لـبـثـ يـتـرـقـبـ فـشـلـهـ، مـتـرـبـصـاـ بـهـ لـيـجـهزـ عـلـيـهـ.

في ١٣ كانون الأول ١١٦٩، انكفا ملك القدس عائداً إلى فلسطين مع فرسانه المتضورين جوعاً، متزيزاً بعض الشيء إذ علم أنه خلال حصار دمياط السيء الطالع فاجأ الصليبيون المسلمين بمحسن عكار في نواحي حمص وأسروا حاكم المقع وأثنى عشر من المالكـ. أما ما تبقى من الأسطول البيزنطي فأقلع بدوره وتوارى عن الأنظار تحت غامر الموج رجالاً وأموالاً خلال تلك الهزة الأرضية الشهيرة التي ضربت الساحل السوري مدمرة قرى لا تُحصى ومدنَا كبيرة، مثل انطاكية وطرابلس التي وجد فيها رجل واحد حياً، وحلب

وحماه وبعلبك حيث انهارت الأعمدة المرمية هيكل جوبتر معبـد الشمس العملاق ، محدثة فرقة رؤيـة .

صلاح الدين يتـقل من الدفاع إلى الهجوم

وبعد رحيل الصليبيين أراد صلاح الدين أن يفوت عليهم فرصة معاودة تسلـلهم إلى مصر ، فتوجه — متـقلـاً من الدفاع إلى الهجوم — نحو داروـم ، وهي قلـعة أقامـها آموريـ على أنقاض دير لـحماية حدود شـرق الأردن من جهة مصر ، ولكن الخامـة الصـغـيرة صـمدـت لـجميع الهـجمـات ، فـارـتحـلـ عنها مـهـاجـماً غـزة الـواقـعة على تـقـوم الصـحـراء حيث سـبق لـأـمرـة مـسـلمـة أـنـ قـاتـلتـ قـتـالـاً ضـارـياً أـعـدـاء زـوـجـها ، وـلـاـ تـزـلـ مـتـسـرـبـة زـيـنة عـرسـها ، وـقـتـلتـ سـبـعة رـجـالـ بـعـمـودـ الخـيـمةـ . وـدـهـشـ السـكـانـ من وـصـولـ صـلاـحـ الدـيـنـ المـفـاجـيءـ ، فـأـرـادـوا اللـجوـءـ إـلـىـ القـلـعةـ ، وـلـكـنـ حـاـكـمـ المـوـقـعـ مـيـلـوـنـ دـيـ بـلـانـسـيـ أـغـلـقـ دونـهـمـ أـبـوـابـ الحـصـنـ ليـكـرـهـمـ عـلـىـ الدـفـاعـ عـنـ أـبـوـابـ المـديـنـةـ . وـحـمـلـ المـسـيـحـيـوـنـ السـلـاحـ مـسـتـيـتـيـنـ فـيـ النـذـوـدـ عـنـ أـنـفـسـهـمـ وـنسـائـهـمـ أـوـلـادـهـمـ ، وـلـكـنـ شـجـاعـتـهـمـ ذـهـبـتـ بـدـدـاًـ ، فـدـخـلـ صـلاـحـ الدـيـنـ بـذـاتهـ المـدـيـنـةـ عـلـىـ رـأـسـ قـوـةـ جـريـبةـ ؛ وـتـضـرـعـ السـكـانـ المـتـعـرـضـ لـلـضـرـبـ مـنـ جـمـيعـ الجـهـاتـ ، إـلـىـ حـمـةـ الحـصـنـ لـكـيـ يـدـعـواـ النـسـاءـ وـالـأـطـفـالـ يـدـخـلـونـ القـلـعةـ ؛ وـلـكـنـ أـبـوـابـ ظـلـتـ مـغـلـقـةـ بـإـصـرـارـ فـيـ وـجـهـ هـوـلـاءـ الـبـؤـسـ الـذـينـ تـنـاوـلـتـهـمـ سـيـوـفـ الـسـلـمـيـنـ ، وـنـهـبـتـ المـدـيـنـةـ وـأـرـقـتـ ، وـلـأـنـ القـلـعةـ صـمـدـتـ لـجـمـيعـ الـهـجـمـاتـ انـقـلـبـ صـلاـحـ الدـيـنـ ثـانـيـةـ نـحـوـ دـارـوـمـ حـيـثـ وـاتـهـ الفـرـصـةـ لـإـبـادـةـ جـيـشـ ذـيـ أـهـمـيـةـ مـنـ الفـرـنـجـةـ سـبـقـ مـلـكـ الـقـدـسـ أـنـ أـنـفـذـهـ عـلـىـ جـنـاحـ السـرـعـةـ لـإـنـجـادـ مـيـلـوـنـ دـيـ بـلـانـسـيـ ، ثـمـ أـرـسـلـ طـلـيـعـةـ بـاتـجـاهـ الرـمـلـةـ وـعـسـقـلـانـ قـبـلـ أـنـ يـعـودـواـ إـلـىـ مـصـرـ ؛ وـاستـولـيـ قـسـمـ مـنـ الـجـيـشـ السـوـرـيـ عـلـىـ مـدـيـنـةـ اـيـلـيـاءـ (ـايـلـاتـ الـكـتـبـ الـعـبـرـيـةـ) الـوـاقـعـةـ عـلـىـ الـبـحـرـ الـأـحـمـرـ عـنـدـ نـهـاـيـةـ الـطـرـيقـ التـيـ بـنـاهـاـ أـحـدـ قـوـادـ تـرـاجـانـ ، وـالـتـيـ اـزـدـهـرـتـ أـيـامـ دـاـوـدـ ، ثـمـ ضـمـّـتـ إـلـىـ الـوـلـاـيـةـ الـعـرـبـيـةـ ||ـ بـنـةـ . كـانـ اـمـتـلـاكـ هـذـهـ الـمـدـيـنـةـ التـيـ سـبـقـ أـنـ وـقـعـتـ عـامـ ١١١٦ـ فـيـ قـبـضـةـ مـتـيـنـ مـنـ الـفـرـسـانـ مـنـ شـائـنـهـ أـنـ يـتـبـعـ لـفـرـنـجـةـ عـبـرـ الـأـرـدنـ أـنـ يـفـرـضـواـ رـسـومـ مـكـوـسـ لـهـاـ شـائـنـهاـ عـلـىـ جـمـوعـ الـحـجـاجـ الـمـسـلـمـيـنـ الـمـتـجـهـينـ إـلـىـ مـكـةـ ، وـعـلـىـ قـوـافـلـ الـتـجـارـ الـمـتـنـقـلـةـ بـيـنـ مـصـرـ وـسـوـرـيـةـ وـالـمـتـاجـرـيـنـ بـمـتـجـهـاتـ الـشـرـقـ الـأـقـصـىـ وـالـهـنـدـ وـفـارـسـ . فـضـلـاًـ عـنـ كـونـ الـفـرـنـجـةـ يـمـتـلـكـونـ بـهـذـاـ قـاعـدـةـ مـتـازـةـ ، وـيـأـمـلـونـ أـنـ يـمـدـوـ عـرـبـهـاـ

سلطتهم على البحر الأحمر، وحصر نقل البضائع لصالحهم، وقطع الاتصال بين مصر والجزيرة العربية... وفي الواقع لم يكن أخذ هذا الميناء عملية سهلة.

وقد اضطر صلاح الدين إلى بناء سفن نقلت أجزاؤها على ظهور الجمال عبر الصحراء حتى شواطئ البحر الأحمر حيث تم تجميعها.

إنهاء الخلافة الفاطمية في مصر

وعندما عاد صلاح الدين إلى القاهرة علم أن نور الدين يسعى لإلغاء لقب الخليفة الفاطمي المهيمن على مصر من صلاة الجمعة، ليحل محله اسم خليفة بغداد العاسي. وكان يمكن لهذا الإصلاح الاستثنائي الذي يجرد تجريدًا عنيفًا سيد مصر من سلطته ك الخليفة للنبي أن يصادم قناعات مصر الدينية، حيث كان الفاطميون سلالة فاطمة بنت الرسول يتمهون العباسيين المتسبين إلى عم النبي باغتصابهم السلطة الدينية العليا. لقد فهم صلاح الدين مشقةً أن تغير بين ليلة وضحاها عقيدة بلد وفي لتقليده، ولذا أجاب نور الدين بأن من الأهمية بمكان إعداد النفوس وتهيئتها لقبول مثل هذا التغير الأساسي؛ ولكن خليفة بغداد بدا أقل تفهماً؛ وأنه يتضرر بفارق الصبر أن يوسع سلطته الروحية من جهة، وليصفّي لصالحه نزاعاً عائلياً قدّيماً، من جهة ثانية، ولذا أظهر شيئاً من عدم الثقة بصلاح الدين وأطلع نور الدين على ذلك؛ مضيّفاً أن سلطنة مبعوه في مصر يجب أن تؤيد تأييداً كافياً لخنق أية حركة مناوئة، وأن صلاح الدين بدا حتى الآن جندياً بأسلاً ومدبراً ذا شأن، ولم يقصر في وضع قواته في النقاط الحساسة، وتعيين الرجال الموثوق بهم في الإدارات، مما يعني بوضوح رغبته في أن يذكر اسمه فوراً في صلاة الجمعة. وإذاء هذا الضغط من الخليفة أمر نور الدين صلاح الدين، بعبارات لا ليس فيها هذه المرة، بأن يذكر بصلاة الجمعة — في القاهرة والأرياف — اسم خليفة بغداد. وقد ظهر صلاح الدين في هذه المناسبة بالغ اللباقة؛ فلم يتسرع بل أعدّ بهذه النفوس شيئاً فشيئاً، فأمر بتعليم عقيدة العباسيين السنّية في المعاهد والمدارس، وعين القضاة في المدن المصرية الكبرى، وهكذا دون أية ضجة — وقد حدثت كل هذه الدعاوة لصالح العباسيين — قام صلاح الدين بثورة حقيقة، فارضاً على رعاياه السيطرة الروحية لخلافة بغداد؛ وفي إحدى الجمعة حلّ اسم العاسي محل الفاطمي في جامع

القاهرة الكبير، ولم تضطر القوات السورية التي وضعها يومذاك على مفارق الطرق وفي الأسواق إلى التدخل، وشاهدت — وهي واسعة سلاحها عند إقدامها — جماهير المصلين الموجهة توجيهًا جيداً والقابلة باحترام ودون أي احتجاج بما جرى، وأنه لا يأتي من الله إلا الخير، وتقبل الناس الأمر الواقع. فأقيمت في بغداد مهرجانات فخمة احتفاءً بهذا الحدث. وسمى نور الدين سلطاناً، واستقبل صلاح الدين الرایات السوداء رمز الوحيدة وشعار العباسين وقد كتب عليها «إن الراية السوداء ستعيد الإنسان إلى الصراط المستقيم»، كما تقبل لقب معيد سلطة أمير المؤمنين.

وفيمما كان المسلمين الصالحون يتهجون بهذا النصر المبين للعباسيين، كان آخر خلفاء الفاطميين في القاهرة العاصد لدين الله، حفيد الحافظ يسلم الروح وسط حزمه في الوقت المناسب. ترى هل قتل كما يزعم المؤرخون المسيحيون بيد أخيه صلاح الدين ويأمر منه، ولم يكن سوى آلة فاقدة الإرادة بيد وزرائه؟ لقد مات كما عاش دونما بريق وبلا ضجة، وكان الخليفة الرابع عشر والأخير من سلالة عرفة في مصر ساعاته مجيدة.

صلاح الدين مؤسس السلالة الأيوية الحاكمة

واعتنى صلاح الدين عرش مصر وهو ابن خمس وثلاثين سنة مؤسساً بذلك سلالة الأيوبيين، وكان دم جديد، دم كردي يبعث الإسلام. كان صلاح الدين وهو يدخل التاريخ سيبرهن على أنه جدير بالاضطلاع بدور بارز على الحلبة العالمية، وفي المشرق ستواجهه الملك اللاتينية من الآن فصاعداً سياسياً بارعاً مهيباً، وليس واحداً من أولئك الملوك الشرقيين التفهين العاجزين عن إدارة الشؤون التاريخية المسندة إليهم. وانتهت الخلافة الفاطمية التي نشأت أولاً في إفريقية الشمالية. وكان العباسيون الخاضعون للمؤثرات الآسيوية ينتصرون في القاهرة، كما سيق لهم أن انتصروا على الأمويين المتعالين الذين راعي ملوكهم من مركز سلطانهم من دمشق عريق تقاليد العروبة ومثلها.

وأما مصر التي ضَلَّتْ حيناً من الدهر فقد استعادت إيمانها المتفق والسنة النبوية، وحين أصبحت تحت سلطة صلاح الدين الذي اعترفت به بغداد كفت عن اتباع حياة خاصة؛ متخالصة من يدعها، لتصبح ابنة الإسلام البكر، بعد أن كانت حتى عهد ذاك

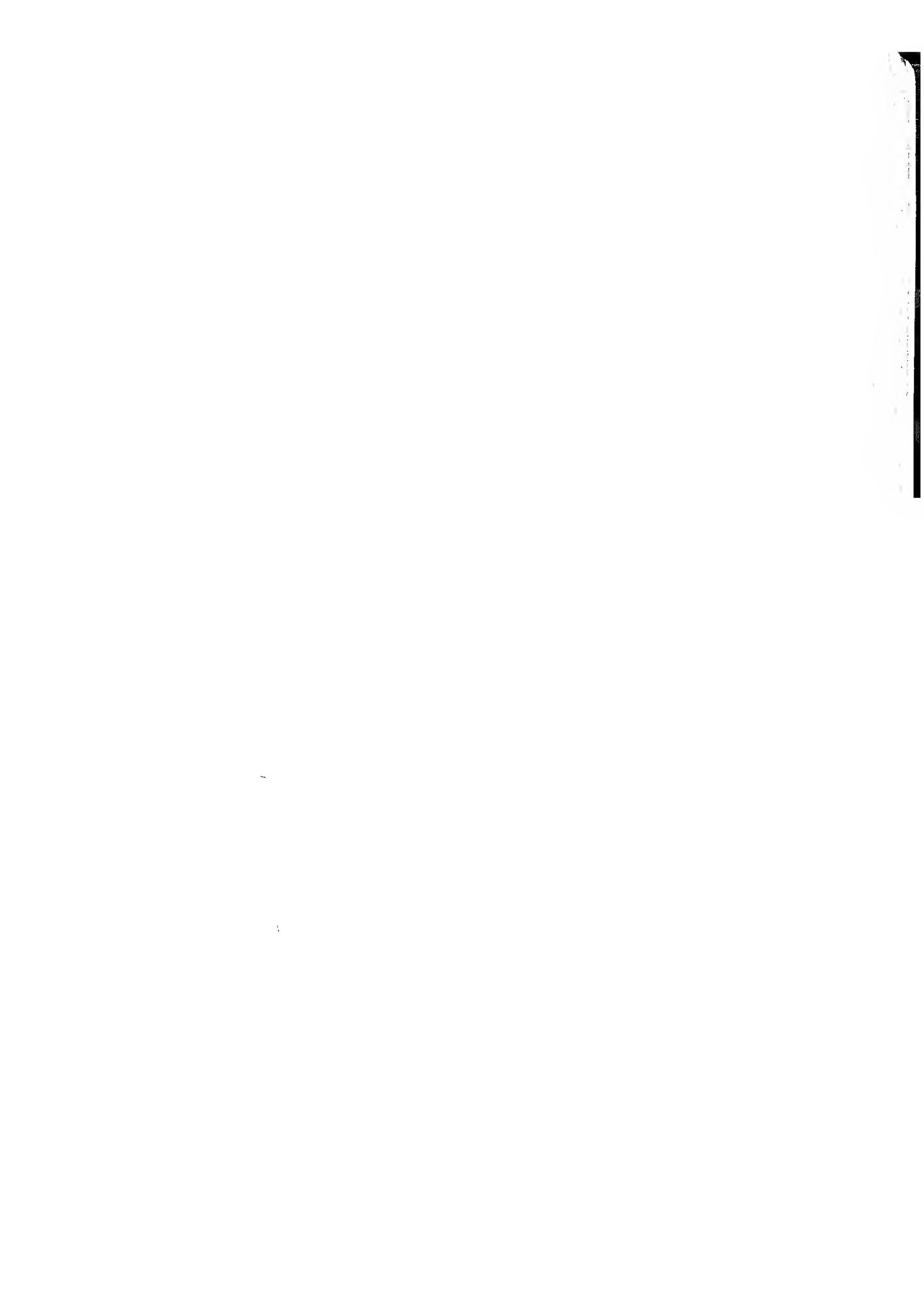
منعزلة . وقدر ما كانت الخلافة الشرعية تضعف ، وترانحى عملياً في مصر وشائع المحافظة على علاقات التابع ببغداد ، بيد أنها عادت مع صلاح الدين حجراً رئيسياً على رقعة شطرنج الإسلام السياسي الذي كان يرى في المسألة الدينية روح العالم الإسلامي وعقله . إن هذه الممارسة مثل أعلى ناهيك بشرعية الأسرة المقربة إلى النبي كانت توسع مزاعم العباسين . لكل ذلك — وهذا ما جرى في مصر على يد صلاح الدين — كان الفقهاء دارسو السنة والمطبقون مناهج علمية لإظهار روح القانون الإلهي ينبعون للإسلام أن يشهد عهد تنور في هذه البلاد . ولما كان هذا الدين ليس مجرد قواعد حياة روحية فحسب ، وإنما هو كذلك اجتهاد قضائي ترب عليه أن يلبي متطلبات القواعد الفقهية الموكول أمرها إلى الخلفاء العباسين ، وتطلب الأمر كذلك أن يفسر هذا القانون الديني (الشرع) بدقة متناهية مما يعني فيما يعيه — كما سنرى — أن يرث إلى جانب صلاح الدين — الوفي لل تعاليم التي تلقاها في بعلبك — جمع غفير من القضاة والمشرعين .

حواشى الفصل الخامس

ذكر حصر الإفرنج مدينة دمياط في سنة خمس وستين

«في سنة خمس وستين وخمسماة، في أوائل صفر، نزل الفرنج على مدينة دمياط من الديار المصرية، فكان إفرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد ساقوا وأيقنوا بالملائكة فكاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية وغيرها يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر، وأنهم خائفون على القيمة المقدسة من المسلمين، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة، فأمدوهם بالمال والرجال والسلاح، واستعدوا للنزول على دمياط ظناً منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهراً يملكون به ديار مصر **هـ** ورد الله الدين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً **هـ**. فلما نازلوها حصروها وضيقوا على من بها، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل، وحشر فيها كل من عنده وأمدتهم بالمال والسلاح والذخائر، وتتابع رسلاه إلى نور الدين يشكوا ما هو فيه من الخاوف، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الإفرنج، وإن سار إليها، خلفه المصريون في مخلفه ومثلثي عسكره بالسوء وخرجوا عن طاعته، وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه، فجهز نور الدين إليه العساكر أرسلاً، كلما تجهزت طائفة سيرها، فسارت إليه العساكر يتعلو بعضها بعضاً.

ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر، فدخل بلاد الفرنج فذهبها وأغار عليها واستباحها ووصلت الغارات إلى مالم تكون تبلغه خلوا البلاد من مانع، فلما رأى الفرنج تتبع العساcker إلى مصر، ودخل حول نور الدين إلى بلادهم وذهبها واخراها، رجعوا خائبين لم يظفروا بشيء، وهذا موضع المثل: «ذهبت العامة تطلب قرنيز فعادت بلا ذئب» . فوصلوا إلى بلادهم فرأوها خاوية على عروشها. وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوماً، أخرج فيها صلاح الدين أموالاً لا تُحصى، حكى لي عنه أنه قال: «مارأيت أكرم من العاضد، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصري، سوى الثياب وغيرها». (ابن الأثير— الباهر ص ١٤٣— ١٤٤).



الفصل السادس

القاهرة

إصلاح نظام الحكم في مصر

بعد تلك السلسلة الطويلة من الاضطرابات والمحن التي رافقت أ Fowler نجم السلالة الفاطمية ، وبعد تناوبات الجماعة والازدهار في أعقاب تسلط البيروقراطية ، وبعد سني الضياع والاستياء وثورات الضباط والمخظفين وأહبار الحرير ، وبعد ديكاتورية الخصية ، أصلاح حكم صلاح الدين الخير الفوضى : فوضى الإدارة الخلافية القديمة ، وهداً النفوس ، وطمأن طبقة المالك ، وشجع التجارة ، ولم يتردد في اتخاذ أحزم الإجراءات بهدف سلامة العاصمة ، وشجع تأسيس المدارس العديدة ، وعرفت مصر ، بفضل سلطة سيدها الجديد الآثار السعيدة لنهضة سياسة وازدهار اقتصادي ظلا مشهورين في تاريخها .

ففي مدينة القاهرة القديمة ، قرب هليو بوليس حيث يقوم أبو الهول : طائر بلاد التخيل الذي يعيid كل خمسمائة سنة رماده إلى مدينة الشمس المجيدة رامزاً بذلك إلى الآمال المعزية التي كانت تتبع للناس أن يؤمنوا بأن ما يموت وينذيل وينطفئ يلاقي حياة ازدهار وتوهج جديدين .. مدينة الجوامع التي لا تخلصي المطلقة مئات المآذن نحو السماء ، أعمجوية البلاط

الحياة المزدادة جمالاً كل قرن بفضل اهتمامات خلفائها الأسطوريين ، كان المسافر يستطيع في القرن الثاني عشر للميلاد ، أن يتذكر بيسر عظمة وحيوية هذه الحضارة الإسلامية الفتية المتفتحة على أرض الفراعنة القدماء قيد خطوتين من هذا الهرم الأكبير الذي قد يحتفظ في قلب بنائه المذهل منذ خمسة آلاف سنة بسر الأرمنة الآتية ، وب رسالة القرون المنصرمة .

القاهرة... هذا الاسم المهيب الذي ما يزال حتى الآن ينبعنا بملاد الشّرق وسحره وجماله . هذا الاسم الذي يجتمع وقوعه جميل ذكرياتنا ، هذه المدينة المقدسة — التي شأنها شأن دمشق الصامتة البيضاء الكبيرة — والتي كانت تعبر أمس كما تعبر على الدوام بشعر قصورها وترف أسواقها عن مجد الإسلام وسيفه . والحياة الطبيعية لسكانها القادمين إليها من كل حدب وصوب ، بنقش مضاء إضاءة فخمة . فجارة مفيس ، هذه المدينة الملكية حقاً ، والمشهورة بموضع احترام جميع المسلمين في سائر أنحاء العالم . كان شعراً لها بلغتهم الغنائية المميزة ، المسارعون إلى إبداء حماساتهم المركبة التي تجعلنا نضحك ونحلم في آن واحد ، قد تعنوا كما يليق بهم أن يفعلوا بشائعات مدينة الخلفاء وأصواتها ، وبعدوية لياليها المفردة ، ومياه النيل ، وبفيسيقياتها ، حيث كانت الدبابير البناء تشهد بوقاحة أعشاشها في تجويفات هيروغليفياتها المقدسة . فكل إنسان في الشرق شاعر بمقدار ما . حتى إن إسكافيًّاً من الموصل تجرأ فرعم لكي ييدد كآبات خليفة عبوس أن بغداد هي مدينة السرور الوحيدة : فرد عليه شاعر آخر ، تائب ونبيل بأن من لم ير مصر أعني ، لأن تربتها من تير ، وأن منظر نساء هذا الفردوس يعيش نظر المؤمن كأناء العذب . وأن نيلها كالأنهار الجارية في جنة الخلد . وفي إحدى حكايات ألف ليلة وليلة تصف شهرزاد المضطربة المدينة بعيدة بهذه العبارات : «أين سعادة الافتتان بالأشكال الكاملة لجسد الحبيبة من سعادة التقطع بمشاهد القاهرة (مصر) ! ومن شاهد هذه المدينة الشهيرة بين المدن فلن يقدر على نسيانها ، وإذا فكرنا بليلة وفاء النيل الذي يغطي الأرض بطميته الخصب أعدنا الكأس إلى الساق غير مفكرين إلا بهذه المدينة العجيبة الفريدة» . وتضيف شهرزاد ، فيما هي ذاهبة بوصيفها : «يا أمير المؤمنين الحكم لو كنت في القاهرة قرب النيل حين تغمر الشمس الغاوية المدينة بغلالتها النورانية لاحتقرت عرشك وعيديك ، ونسقطت بغداد ولعشت على ضفة النهر المقدس» ... هكذا تكلمت شهرزاد واصفة القاهرة : بابل مصر القديمة التي عسكرت فيها الكتاب الرومانية قروناً عديدة ، ساحرة على

ضفاف النيل ؛ حيث كانت تتدفق المراكب النوبية حاملة ثروات السودان . وكان السامعون يرون مسحورين مسجد عمرو تاج المساجد ، وأحد أقدم الجوامع في الإسلام المقام على أنقاض كنيسة قبطية إبان الفتح العربي ، والذي أعاد صلاح الدين بناءه عام ١١٧٢ بسوءه المنقوش باللون براقة مذهبة ، وبمصاحفه الألف والمائتين والتسعين المزينة ، وبالثانية عشر ألفاً من المصايبخ المنارة عند اقتراب الليل ، بحيث يظل هذا المسجد أحد أجمل أبنية الفن العربي ، حتى إن جميع المؤمنين يإله واحد ، من مختلف أصقاع العمورة وسائر الأديان كانوا يستطيعون التجمع والصلوة الجامعة فيه أيام البوس والحصول بتقواهم على فيضان النيل الضروري .

أي مشهد مدهش كان يمكن رؤيته ، مشهد المسلمين وراء علمائهم والمسيحيين من كل مذهب ، واليهود مع قرائهم ورباتهم مجتمعين اجتماعاً آخر في الساحة الكبرى لمسجد عمرو قبل أن يتوجهوا لأداء الصلاة معاً بعد الوضوء ، أمام الكائن الأعلى في المعبذ ذي الثلاثمائة وستين عميداً من الرخام التي حملت من معابد وكنائس متقدمة ، والمتوجة بتيجان يختلط فيها الفن الكورنثي النباتي والاستدارة اليونانية ، والتاج البيزنطي المكعب ، وتاج عهد البطالسة . وفي الأسفل حيث يحمل الضوء الخفيف محل النور الباهر في الخارج نجد المحراب المزين بالפסيفسae وبالترصيعات الدقيقة المعقدة من الحجارة الكريمة . وهذا المحراب الذي يتوجه نحو مكة المدينة الكبرى المقدسة البراقة كحلية في رمال العربية السعيدة . أيها الجامع ، ينابيع البناء ، رموز الارتفاعات الروحية ، انطلاقات الحجر المتباينة من هذا المقدار من القوى ، ومن هذا القدر من الصبر ، أنت الأمانة الحالية حيث تمتزج في شاعرية صوفية حارة ، هذه المراكب للجنود المجندة من الأرواح الوافدة من جميع الأزمنة حاملة الرسائل الإلهية .

أما جامع ابن طولون فمبني قرب التل حيث — كما تذهب إحدى الروايات — أرسل الله إلى إبراهيم الكبش ليفتدي به اسحق حينما هم بذبحه . وقد أسسه عالم لم يكن يفوت يوم جمعة واحداً دون أن يعود المرضى والمجانين . هذا الأمير الليزاري الذي حينما شعر بدُنُونَ أجله دعا رعاياه للتجمع والصلوة من أجله : المسلمين حسب القرآن ، واليهود حسب التلمود والمزامير ، والنصارى حسب الإنجيل . وبين هناك أحد أروع أبنية القاهرة . فجامع ابن طولون هذا يذكر المؤمنين بهذا الأمير الذي خلف بعده / ١٥ / ابنًا و / ١٦ / بنتاً و / ٢٥ / ميلاراً ، وأنفق

طوال مدة ملكه على /١٠٠٠/ مملوك و /٣٠٠/ فرس أصيل و /٢٤٠٠٠/ عبد و /١٠/ مراكب حرية.

بناء قلعة القاهرة

والقلعة العالية المشرفة على القاهرة التي أرسى قواعدها ورفع بناءها صلاح الدين، هادفاً من وراء ذلك ، بعد أن أصبح سيد مصر الجديد أن يجعل فيها مسكنه . ويروي المقريزي أن صلاح الدين اختار هذا المكان لأن اللحم كان يبقى فيه طازجاً يومين وليلتين ، بينما هو يفسد في المدينة يوم واحد .

كان صلاح الدين قد أقام من قبل في قصر الوزراء ، ومنح أمراءه قصر الخلفاء؛ ولكن بعد سقوط الفاطميين وإعادة المذهب السنوي الذي ما انفك تهده الشيعة الأصولية ، ما انفك يخشي القاهرة: فتَّتها الغوغائية ، وحقد الموظفين المعزولين ، ولم يكن بمستطاعه أن يختار قصراً يستطيع منه فرض الطاعة على المدينة ، فكلف الخصي قراقوش بناء القلعة . هذا الوزير المدهش نصف الجنون ، ونصف العاقل^(١) الذي خفض الميزانية المخصصة للبناء بهدم الأهرام الصغير في الجيزة ، وباستعمال ثالث الأهرام الكبيرة أي هرم ميكانيوس كقلع ، وباستخدام كتل الحجارة الفخمة المنحوتة المأخوذة من قبور الفراعنة أساساً لقلعة صلاح الدين . وبقي ذكر قراقوش حياً في مصر بصورة معنة في الخصوصية . حتى إن المهرج ، وهو الشخصية الكلاسيكية في كل تمثيل مسرحي يحمل اسم وزير صلاح الدين . ويظهر أنه استحق هذه الشهرة استحقاقاً – إذا أخذنا بأقوال المؤرخين المسلمين – الذين احتفظوا لنا بكثير من صفات هذه الشخصية ، فقد كتبت أرملة أحد هؤلاء أنها طلبت من قراقوش كفناً لتلف به جثمان زوجها فأجابها : «إن صندوق الحسنات فارغ الآن ، فعودي في السنة القادمة حيث أستطيع بإذن الله أن أعطيك كفناً». وحكاية أخرى شائعة جداً في عهد صلاح الدين ، وهي أكثر موامة لشهرة قراقوش : أن سرقة كبيرة حدثت في القاهرة اضطررت لها المدينة . فسأل قراقوش المسروق لهم هل زفافهم مسدود النهاية كما كانت الشوارع آنذاك فأجابوا : نعم . فأمر بجلب الباب وجميع سكان الرقاد ، ووضع أذنه على الباب متظاهراً بالإصغاء وقال : «أخبرني الباب بأن السارق يضع في عمامته ريشة» فكان ، وبصورة لا شعورية أن وضع السارق يده على رأسه ، فكشف نفسه .

تراث الخليفة الفاطمي الأسطوري

وأطلق العرب على القلعة الجديدة اسم «قصر الجبل». وكان طريق صاعد محاط بالأسوار العالية يوصل إليها. وكان غيّوم الصوري منبراً بالتراث الضخمة والمحاسن الفاتحة، والملذات الآخذة التي كانت في القاهرة فوصف الاستقبال الذي حظي به رسول ملك بيت المقدس (في قصر الخليفة الفاطمي : العاضد الذي آتى إلى صلاح الدين) ^(٢) بقوله: «لما كان قصر هذا الأمير مغموراً بمتارف خاصة للغاية حتى إنه لم يُرَ مثلها في زماننا، سنقول هنا في دقة ما علمناه من التقارير الصادقة الصادرة عن الذين كانوا لدى هذا الأمير العظيم عن عظمته وثراته وفخامته غير العاديّة. لما وصل هوغ دي سيزاريه (قيسارية) ومعه فارس الهيكل غود فروا إلى القاهرة، سير بهما لباطل الخليفة العاضد (والذي غدا من أملاك صلاح الدين) ^(٣) يصحبهما جمع غفير من الخدم كانوا يتقدمونهما في صحب بسيوفهم المجردة عبر مرات ضيقة وغرف مظلمة يحرسها أحباش مسلحون، وبعد اجتياز الحارسين الأول والثاني وصلا إلى قاعات مبلطة بالرخام المتعدد الألوان، فوجدا فيه مرات ذات أعمدة رخامية. كانت سقوفها الفخمة المنحوتة والمرصعة بالذهب تلمع في الظل. كل هذا كان له من جمال المادة والعمل الفني مما أوقع أميري الفرنجية في دهش لا يملكان معه نسبيهما أن تنتبه عن التحديق، وأن عيونهما لم تكن لتكتف عن التأمل في هذه الأعمال التي كانت تتجاوز في كلها كل ما شاهداه حتى الآن. كان ثمة نوافير تتدفق منها المياه من أنابيب من الذهب والفضة، وعصافير من كل الأنواع غير معروفة أسماؤها عندنا، ذات تغريد متتنوع وأشكال وألوان غريبة، ومن هناك قاد الخصيان الرافلون بالثياب المزركشة الفرنجيين إلى قاعات أخرى تفوق الأولى جمالاً.

كان هناك الكثير من مختلف أنواع الحيوان التي لا يُمثل لها إلا أن يأتِ بمثلها ريشة الرسام، واستعارة الشاعر والروح المائمة في أحلام الليل، ووصل بعد جولات عديدة عبر الكثير من القاعات التي تستوقف أشد الناس عجلة من أمره ومشاغله، ووصل أخيراً إلى القصر الملكي ذاته حيث كانت مجموعات من الناس المسلحين، وحشد من الأتباع الذين يدلّون بكثتهم وفخامة أسلحتهم وهي حلّ لهم على مجد سيدهم، وحيث كانت الأماكن ذاتها تنطق بما كان عليه المالك من طائل الثراء وعظيم الكنوز، وحينما أذن لهم وأدخلوا القسم

الداخلي من القصر ، قدم الوزير لسيده الاحترام المعتاد ، ساجداً على الأرض مرتبين بمجلاً إياه بطريقة لم يتعدّ أحد أن يدلّ على احترامه بها ، وحينما جثا الوزير للمرة الثالثة ووضع سيفه المعلق في عنقه انزاحت ستائر المطرزة بالذهب والجاجة العرش في وسط القاعة المزينة بالذهب والجواهر المنتقاة ، وأصبح الخليفة منظوراً . كان وجهه مكشوفاً ، وكان جالساً - بفخامة من الثياب هي أكثر من ملوكيّة - على عرش من الذهب »^(٤) .

قلعة قصر الجبل

والذي يزور اليوم هذه القلعة الفسيحة التي بناها صلاح الدين يتأثر تأثيراً لا يُنسى . إنها خليط من الساحات والحدائق والدهاليز المتعرجة والقلاع والقصور والأسوار الصخرية المستقيمة والعقبات ، وبرى فيها المشاهد أعلى ما ذكرها القاهرة وأباراً أخفض من مستوى مجرى النيل . وفي ظل هذه القلعة الفخمة كانت تقام في شهر شوال قبل سفر الحجاج إلى مكة أسواق مشهورة في الشرق كله . وكم من مرة كان صلاح الدين متخلياً من هموم الحكم في الساعات العذبة من ليالي الشرق ، هذه التي لا ينساها من عرفها ، يجدق ملياناً من أعلى هذه القلعة ، مفكراً في هذه المدينة الشهيرة النابضة بضجيج ضخم ، في السلام الذي لا يمكن تحديد نهاياته لهذه العشيّات التي تحول الأشكال إلى تعدد غير متناهي الألوان ، في هذا الاشتعال المفاجيء لملائكة القباب والماذن ، ومن الممكن أن أدرك أن أبهة الجد والعظمة هي أكثر وهماً من شعارات المساء المنبثقة من شفق الآفاق المتوجهة . وكم من مرة الحنى سيد الإسلام على هذه المدينة الباهرة الأسطورية الحافلة بالضجيج والأنوار والخلط من الشعوب المختلفة والتي كان اسمها وحده يسحر بورجوانيي دمشق أو غرناطة الحالين في أروقتهم المعطرة بعبير أشجار البرتقال بملكة النيل الخصب هذه . ومن أعلى القلعة يمتد النظر بعيداً جداً : إلى الغرب ، إلى هذه الغلالة الرحبة الامتداد والمادئة للنهر والأراضي المزروعة التي يرويها .. وفي الأفق على مشارف الجبل الليبي ، والتركم الهرمي لقبور الفراعنة ، وهي الكتل السرية الخالدة . وإلى الجنوب مشهد غريب للأراضي التي تغطيها الطواحيين الهوائية وتلال من الأنقااض ومقابر واسعة ... مدن القبور ذات القباب المزدحمة حوالي مدافن الخلفاء الفخمة .

وما دامت الشمس متربعة قبة السماء يبقى هذا المشهد الرائع كما لو كان مجردأ من

سحره ... من الرمادي إلى الأصفر إلى الأبيض الباهر، فقليل من الأخضر المخفف بشار الغبار أو بالبعد، تلك هي الألوان الوحيدة التي نصادفها، ولكن عندما تشرق الشمس، والأفضل عند الأصيل قبل أن يتوارى الكوكب الوهاب وراء الجبل الليبي، عندما تغرس الشمس الأرض بيهائها تولد مدينة غريبة جديرة بمشلاها الشرقية، إذ ذاك تصبح المدينة غارقة في البرفير، فالليل يحمل في أعماق مياهه ذهباً براقاً، فتلتهب الحقول وتنفصل الجبال البعيدة عن الأفق ملوّنة بلون البنفسج. ذاك هو وجه القاهرة. وإلى هذه المدينة المحظوظة كانت تتدفق ثروات العالم في عهد صلاح الدين. كان أمير سيلان يكتب إلى الخليفة الفاطمي «إنني أرغب في عقد معاهدة تجارية معك. فأنا أملك كمية مذهلة من الحجارة الكريمة، واللؤلؤ، ولدي سفن وفيّة وأقمصة من كل نوع وخشب الصندل، والقرفة يحملها إليك تجار ريانيون (فرقة من البراهمة). وفي أرض مملكتي تقوم أشجار تصنع منها أقنية الرماح، فإذا طلبت مني حمولة عشرين سفينه كل سنة أستطيع أن أرسلها إليك، ويستطيع المصريون أن يأتوا للممتاجرة بأمان في ممالكي، لأن أمير اليمن طلب إلى أن يبرم معه معاهدة تحالف، فصرفته بسبب محبي مصر. إنني أملك سبعة وعشرين قصراً مفعمة أقيمتها بالحجارة الكريمة، أما مصايد اللؤلؤ فهي جزء من ممالكي».

ووصل إلى القاهرة مبعوثون صينيون كانت مراكبهم الضخمة تعمل منذ زمن بعيد في تجارة الحيط الهندي. وقد طالب مؤرخي العصر الذين تعودوا أن يروا في كل سفارةقادمة من بلاد مجھولة نوعاً من الخضوع للإسلام، طالب لهم أن يروا — ربما مخطئين — أن للدين دوره الذي يعادل الدور التجاري في السلوك غير العادي لبعض حكام الشرق الأقصى. وكما يروي المقريزي «فإن بعض سفراء ملك الصين حملوا إلى القاهرة رسائل موجهة إلى الخليفة ورد فيها أن داعية ورعاً شخص إلى ريوغ الصين وأقام فيها رذحاً طويلاً يعمل جهده لصرف السكان عن عبادتهم الشمس المشرقة؛ وإن دخلهم في دينه. وقد سمع به الملك وأراد أن يتحدث إليه فاقتنع بحججه واعتنق الإسلام. وما مات الداعية أرسل الملك مبعوثين إلى مصر طالباً بعض الكتب الفقهية، وفقيهاً قادرًا على تعلم رعاياه الشعائر الإسلامية تعليماً صحيحاً. فاستقبل الخليفة المبعوثين استقبلاً لائقاً، وأمر أن تخلع عليهم خلع التكريم وسلم المبعوثين عدداً مختاراً من الكتب التي من شأنها أن تتفهم ثقافة دينية راسخة». وقد كانت نتائج مثل هذه

البعثات الزمنية ذات فوائد جمة لمصر . فأصبحت طريق القوافل القديمة مسلكاً مستمراً لقوافل طويلة من الجمال المشقلة بالنفائس . ولم يكن سهلاً أن يحصى عدد المراكب المحملة أو المفرغة . وكان عددها في النيل أيام صلاح الدين ستة وثلاثين ألفاً ، وأكَد أحد الفلورنسين الذي مر بالقاهرة أنه كان في مئاتها من المراكب أكثر مما كان في جنوة والبنديقية ، ويصف لنا وانكون نصاً عن ابن خرداذبة ازدهار مصر : « كان التجار اليهود المتكلمون باللغات العربية والفارسية ، واليونانية وكذلك الفرنجية والإسبانية ، والصقلبية يحملون من الغرب إلى القاهرة نساء إماء وغلماناً ، وبروكاراً ، وجلود الكستور وفراء التّمّوس والسيوف . كانوا يركبون البحر في بلاد الفرنجية ويتجهون نحو القاهرة وهم يحملون بضائعهم على ظهور الجمال ، ويسيرون إلى موانئ البحر الأحمر ليطلقوا منها إلى الهند والصين ولدى عودتهم من الأخيرة كانوا يحملون المسك وخشب الخيزران والكافور إلى القاهرة »^(٥) . كانت الطرق آمنة للغاية ، ونقاط الاتصال مجهزة بالمؤن ، حتى إنه كان بمستطاع ظعينة وحدها أن ت safِر على مطيّة ، أو سائرة على قدميها من القاهرة إلى دمشق دون أن تتزود بما أو طعام . كانت قلعة القاهرة منطلق هذه الطرق التي تشعب إحداها باتجاه كوس حيث تتفرع فرعين يتجه أحدهما إلى أسوان والنوبة ، ويصل الثاني العاصمة بدبياط حيث يجري الانتقال إلى سوريا .

ثروات القاهرة في عهد صلاح الدين

ويتفق كل المسافرين الذين زاروا القاهرة في عهد صلاح الدين على ما تنعم فيه من بمحبحة ، يقول المقرizi : «رأيت ثروات هي من الضخامة بحيث لو أردت أن أحصيها أو أصفها لما صدق كلامي أحد في بلاد العجم» . ويقول لنا ابن ميسّر : «استمر نقل الكتوز من قصر الفضل إلى قصر الخلافة على ظهور الجمال أو البغال شهرين كاملين» . وإذا حاولنا إحصاء هذه الثروات لأصحابنا بدودحة الأقام : «ثمانمائة مليون قطعة ذهبية ، سبعمائة صينية من الذهب والفضة ، مئات من آنية البورسان الصيني مملوقة حجارة كريمة ومكداشة بلا ترتيب . تسعون ألف ثوب من البروكار المتنوع أو من حرير بغداد . خزان عطور محشوة بعلب الخيزران ، آلاف الصناديق الملائى بأقمشة دابق ، والكتان الحيك في تينيس أو في دبياط . اثنتا عشرة غرفة مملوقة حتى السقف بالسجاد وأقمشة الخيام والمساند من كتان دابق تتخلله خيوط من الحرير أو الذهب ، وصناديق محشوة بصناديق صغيرة من السبائك الذهبية

من العراق . ثمانمائة صبية منها خمسون محظية لكل منها غرفة خاصة . أطنان من القطن والكتان والشمع والحديد والخشب ، أربعة آلاف حصير من القش المنسوج ، ستمائة قطعة من البليور الصخري ، خمسمائة رحل للنقل ، ألف بالة من بضائع اليمن ، سبعة آلاف سرج » ..

ولم يكن العامة أنفسهم محرومين شيئاً : شراب مثلج بثلج لبنان ؛ وإليكم وصفة مطبخ حفظها لنا أحد مؤلفي الحلويات من حاشية صلاح الدين تتعلق بإعداد إحدى المعجنات : « إعداد العجين من ثلاثة أوقية من الدقيق البالغ النعومة ، يضاف إليه خمس أوقان ونصف من الطحينة (زيت السمسم) ، يقسم العجين إلى قسمين يرقق الأول جداً ؛ ويوضع في مقدار كبير من النحاس ، وثمد عليه حشوة من اللحم فوقها ثلاثة حملاً مشوياً ومحشوياً بمحشوة معطرة من الفستق المكسر ، والقليل والزنجبيل والقرفة والآنисون وجوزة الطيب ، يرش الكل بعاء الورد المزوج بالملسك . ويوضع فوق الحملان ، وبينها عشرون فروجاً ؛ ومثلها من الفراخ وخمسون عصفوراً صغيراً ، بعضها محشو وبعضها الآخر مقلبي بعصير الليمون ، ويغطى الجميع بمعجنات صغيرة من اللحم ومعها صبحون صغيرة من الحلويات تضاف إليها أجبان مقلية ، وحينما يأخذ المجموع شكل القبة يصب عليه زيت الورد . ويغطى بالقسم الآخر من العجين ثم يوضع الطبق بالفرن » .

صحيح أن هذا كان طبق الملك أو أحد أصحاب المناصب الرفيعة ، أما العامة في القاهرة كإسكنافي والشوير فحسب أحدهم سيخ من الشحم مع ماء السبيل ؛ مما هو مبذول في الأسواق أو يسيطره أمام الجامع واحد من الخمسة عشر ألفاً من الطباخين المتحولين الذين كانوا ينادون بمزايا أطعمتهم غير ناسين أن يتداولوا الكلمات القارصة أخوياً فيما بينهم .

وعما أن للأرقام أحياناً مذاقاً خاصاً فلنذكر بعض الثروات المشهورة في القاهرة . كان الإيراد السنوي لكتام أسرار المجلس الاستشاري لصلاح الدين ، القاضي الفاضل ٦٢٥،٠٠٠ فرنك ذهباً ، فضلاً عن دخله من المعاملات التي كان يجريها تجارة الهند والمغرب . وخلف الأمير تورونتاي — الذي ماتزال قبته تستحوذ الاعجاب حتى الآن — لورثته / ١٠٠٠ من سبائك الفضة وقطعها .

ونهب العسكر قصر أحد الأمراء خلال إحدى الفتنة ، فبلغت حصيلة النهب بين

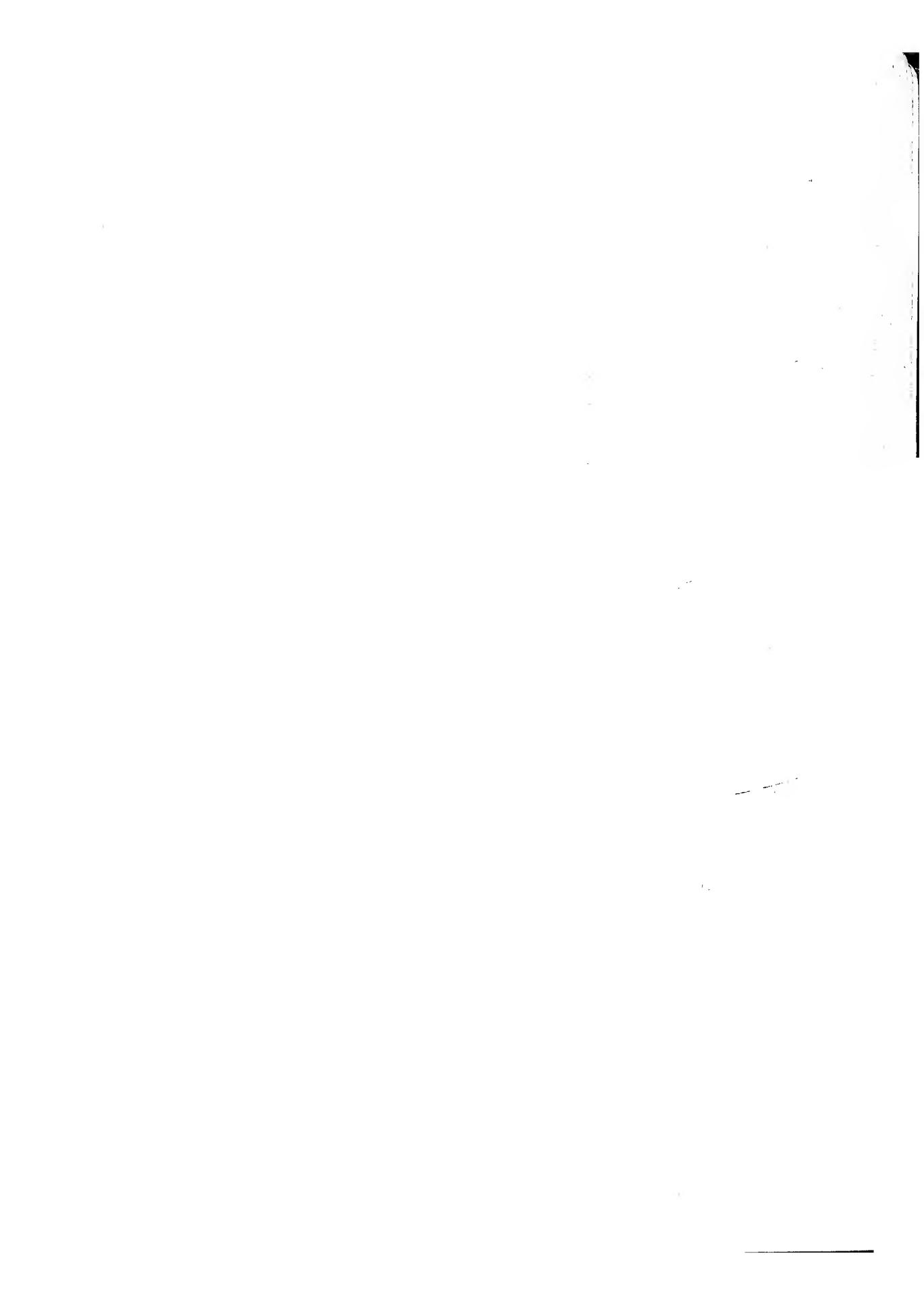
أيدي سكان القاهرة مبلغًا من الضخامة بحيث هبط سعر الذهب في لحظة بنسبة خمسين بالمائة.

الازدهار التجاري لمصر والمبادلات الاقتصادية مع الفرنجة
وافتتح ملك صلاح الدين في القاهرة عهداً من الازدهار التجاري؛ ولم يتردد الصليبيون أنفسهم في إقامة علاقات اقتصادية هامة مع عدو عقيدتهم.

وكما كتب صلاح الدين عام ١١٨٣، «كان أهالي جنوة وبيزه والبندقية يجلبون إلى مصر منتجات مختلفة من الغرب، وخاصة الأسلحة والمعدات الحربية، وهذا ما يشكل فائدتين للإسلام وخسارة للنصرانية». ونرى من هذه الوثيقة أن حالة الحرب بين المسلمين ودول الفرنجة، لم تكن تعيق العلاقات التجارية، رغم انتقادات بغداد من جهة، ومقررات الجامع الكنسية من جهة ثانية، ومع صراحة النص لمقررات تلك الجامع: «كل من يتاجر ويبيع المسلمين أسلحة أو حديداً أو أحشاماً للبناء البحري أو مراكب جاهزة أو يدخل في خدمة المسلمين بصفة قائد مركب أو نوتي يعرض نفسه للحرم، وهو عقاب يستوجب لمرتكبه مصادرة أمواله وقدمان حرفيته الشخصية». وصحح أن البابا منع أي اتفاق مع صلاح الدين، لكنه أمام مدد الاحتجاجات التي تعالت هنا وهناك اضطر إلى إعطاء تنازلات، مكتفياً بمنع بيع المواد التي يمكن أن تخدم مباشرة قوة مصر العسكرية. وكان الصليبيون بتوسيعهم علاقات أوربة التجارية مع مصر يحصلون على فائدة كبيرة للحرب المقدسة ضد المسلمين. فمنذ النصف الأول من القرن الثاني عشر أخذت الأغاني الشعبية تصفع أعادجيب أرض الإسلام، ودخلت أوربة في مدرسة الخطابة الشرقية، وتتطور الإنتاج فيها؛ ففي الشرق تعلم أجدادنا نسج الأقمشة الفاخرة التي كُوِّنت شطراً كبيراً من ثروة البندقية، وبعد ذلك جلب إلينا في جزء من فرنسا المشرقية فن صناعة الساتان والمتحمل والأقمشة المقصبة بالذهب أو الفضة أو الأقمشة الخفيفة مثل المسلمين (الموصلي) والخنزير والصنديل والتافتا. ومنذ القدم كان الشرق يمتاز بإنتاج فاخر السجاد، وحاول الصناع الأوربيون تمثيل هذه المهارة.

وإذا كانت البندقية لم تثبت أن شهدت سكب الزجاج وصناعة المرايا فقد انتهى إليها ذلك بفضل معرفتها التقنيات المستعملة في أسواق الشرق الأدنى.

وأخذ الغرب كذلك عن الحرفيين السوريين فن صناعة الورق ، وحتى معرفة فن الطهو وإعداد الشراب . وكان لهذا الدخول السلمي نتائج ذات آثار باقية في التجارة والصناعة الناشئة حديثاً في أوروبا : صناعة الجوخ المتطورة ، وتعليم أوروبا صناعة الألبسة ، والصناعات المترفة التي استقرت وتطورت في الغرب ، وصار الإنتاج يتتنوع ، والتكنية تتكامل . وفي الحقيقة .. كانت ثورة اقتصادية تقلب مجتمعاً كاملاً وقارّة كاملة .



حواشى الفصل السادس

١— قراقوش ، بهاء الدين أبو سعيد :

(قراقوش بالتركية : العقاب ، أو النسر الأسود). (ت ١٢٠١) ، نشأ في خدمة صلاح الدين الأيوبي ، وناب عنه في بعض الأحيان ، وخاض معه المعارك ، بنى سور القاهرة وقلعة الجبل وقنطرة الجبزة . ولـ عـ كـ بـ عـ أـ حـ ذـ هـ صـ لـ اـ حـ الـ دـ يـ نـ مـ نـ إـ لـ فـ رـ جـ . فـ عـ اـ دـ وـ اـ سـ تـ لـ وـ لـ عـ لـ يـ هـ ، فـ أـ سـ رـ وـ هـ ، فـ اـ فـ دـ اـ هـ صـ لـ اـ حـ الـ دـ يـ نـ بـ عـ شـ رـ ئـ ةـ آـ لـ اـ فـ دـ يـ نـ . تـ وـ فـ يـ بالـ قـاهـرـةـ . يـ تـ سـ بـ إـ لـ يـ الـ عـامـةـ أـ حـ كـامـاـ مـ تـعـسـفـةـ عـجـيـةـ ، هـ يـ حـلـ شـكـ ، لـ ماـ كـانـ عـلـيـهـ مـنـ ثـقـةـ صـلـاحـ الـ دـيـنـ بـهـ . أـ لـ فـ اـ بـنـ مـمـاـيـ كـتـابـاـ جـعـ فـيهـ بـعـضـ نـوـادـرـ الـعـامـةـ عـنـ ظـلـمـهـ ، وـأـسـمـاءـ «ـالـقاـقاـوـشـ»ـ ، يـعـتـبرـهـ بـعـضـهـمـ جـمـرـ تـفـيـسـ الـعـامـةـ عـنـ شـعـورـهـ بـظـلـمـ الـمـالـيـكـ ، فـاتـخـلـدـواـ قـراـقاـوـشـ الـمـشـهـورـ بـجـزـمـهـ شـخـصـيـةـ يـعـرـونـ إـلـيـهـ كـلـ حـكـمـ جـائـرـ . (المـوسـوعـةـ الـمـيـسـرـةـ صـ ١٣٧٣) .

٢ ، ٣ — الزيادة ما ضمن القوس ، لرفع اللبس بين الخليفة العاضد وصلاح الدين.

٤ — لقد وصف مؤرخو الفرنجة اللقاء التاريخي الذي جرى بين الخليفة الفاطمي العاضد وبين رسولي ملك المقدس أموري وقد كتب ستانلي لين بول عن هذا اللقاء :

«اختير هيرو حاكم قيسارية وجوفوري فارس المعبد رسولي من الملك أموري ، وقد سار بهم الوزير بنفسه (شاور) يجعل يقتصر بهم كل رسوم الأوضاع السرية . فسار بهم في مرات خفية وأبواب عليها حراس من أقواء السودان ، وكانوا يحيونهم بسيوفهم المجردة ، حتى يلغوا صحتنا فسيحًا لا سقف له إلا السماء وحوله أقبية قائمة على عمدة من الرخام ، وكان السقف المزخرف مرصعاً بالذهب مزيناً بيديع الألوان ، وأما الأرض فكانت من الفسيفساء البدية ، وقد أخذت تلك المناظر بعيون الفارسين اللذين لم يتعذر نظرهما أن يقع على مثل هذا الجمال ، فكانا يريان هنا فواره من الرخام تحيط بها الطيور الزاهية التي لا نظير لها في بلاد الغرب ، ثم يريان هناك أنواعاً من الحيوان لا مثيل لها إلا أن يصور ألوانها مصور بارع ، أو يختبر صورتها شاعر ماهر ، أو يحلم بها حالم في عالم الخيال . وهكذا كانا يريان أشياء لا يريان مثلها في بلادها إذ هي مما لا يوجد إلا في بلاد الشرق والجنوب .

وبعد سير طويل في تماريج وتلقييف وصلا إلى مكان العرش ، فأعلن قدومهما عدد عظيم من الحشـمـ

يلبسون حلاً بهية ، ثم تقدم الوزير خالعاً سيفه وقبل الأرض ثلاث مرات كأنما يسجد لله ، ثم أعقب ذلك أن انكشفت الستاير الثقيلة فجأة وهي تلمع بما عليها من ذهب ولوتو ، ولاح من خلفهما الخليفة وعليه حل وزيمة تزري بما يتحلى به الملوك . فقدم إليه الوزير بمخصوص الرسلين الفارسيين ، وبين بصوت منخفض ما كانت عليه البلاد من خطر ، وما كان من شأن صدقة ملك بيت المقدس له . وكان الخليفة شاباً أسر اللون قد خطط الخطوات الأولى خارجاً من عهد الصبا ، فقال إنه يرغب أن يواافق على معاهدة صديقه العزيز ملك بيت المقدس ، ولكنه تردد في أن يمدد يده عندما طلب الرسول منه أن يمدد يده دليلاً على صدق عهده ، وقد غضبت حاشيته من ذلك الطلب ، غير أن الخليفة مد يده بعد قليل إلى السير هيو ، ولكن هذا وجد عليها قفازاً فقال : « مولاي إن الحق لا غطاء له ، وإن كل شيء مكشوف في عهود الأرباء » فتبسم الخليفة برغمه وخلع قفازه كارهاً ، ثم مد يده إلى هيو وحلف اليدين على انفاذ المعاهدة بصدق وإخلاص » (ستانلي لين بول — نقلًا عن كتاب قدرى قلعيجي صلاح الدين الأيوبي ص ١٧٢ - ١٧٣) .

٥ — جاء في كتاب المسالك والممالك لابن خردادة . عن ازدهار تجارة مصر ومسلك التجار اليهود الراذانية ، قوله :

مسلك التجار اليهود الراذانية

« الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلية ، ولائهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبمراً يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الحنّ والفراء والسمور والسيوف ، ويركبون من فيخة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجاراتهم على الظهر إلى القلزم (البحر الأحمر) وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً ، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجار وجدة ثم يمضون إلى السندي والمهد ، الصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدراسيتي وغير ذلك فيما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم » (ابن خردادة : المسالك والممالك . ص ١٥٣ - ١٥٤) .

الفصل السابع

نور الدين ضد صلاح الدين

قلق نور الدين من نشاط صلاح الدين

أخذ السلطان نور الدين يقلق لنشاط صلاح الدين ونجاحاته الشخصية . وطبق الساعات يدخلون في روعه أن صلاح الدين يتحين الفرصة المواتية ليتحرر من وصايتها عليه ، فقرر وضعه تحت رقابة الأمراء المستائين الذين كانوا يتلقون سلطان مصر ؛ وطلب منهم أن يزودوه بتقارير عن سياسة صلاح الدين ، وعامله صراحة في رسائله الرسمية كما لو يعامل الخادم البارز .. مما يعني في نظر صلاح الدين أنه لم يكن صاحب السلطة ، بل مستودع مصالح الإسلام السوري في مصر .

وعليه — بهذه الصفة — لا يتصرف من لدنه ، بل يتقيّد بالتوجيهات التي ترده من دمشق . وبحكم المؤكّد فإن نور الدين كان يتوق إلى امتلاك مصر وإعادة صلاح الدين إلى مشاغله القديمة غير المؤذية أي المسائل الفقهية . ولكن لديه الآن الكثير من المهموم الشخصية ، فالفرنجة ينشطون على أبواب مملكته ، ومن الشرق شرع بقايا الأمراء الصغار الصالحين فيما بين النهرين ينزعونه سلطته ويتخذون طريقهم بحراً إلى العصيان .

الفرنجة يحلمون بالاستيلاء على مصر

وكان الصليبيون بعد الاستئثار الصاحب في الداروم يبحثون عن منافسات جديدة ، وشخص آموري ملك القدس الذي بني بمحبة أندرونيك كومين شقيق امبراطور بيزنطية ،.. متوجهاً إلى تلك المدينة التي تكلّوها رعاية الله ، وحكم تلك القرابة شخص ملك القدس إلى الامبراطور الذي كان في نظر جميع الشعوب المسيحية لا يجد وهو على عرشه الذي لا يتناهى إليه إلا كتجّل حي للألوهه ؛ ساكناً في ثوبه الباهر من الجواهر مثل أيقونة مقدسة . وهو شخصية رهيبة ، ملك عشرين أمة ، فهو تجسيد القيصرية التقليدية ، ملك الأرض بعد الله ، مسلط ، سيد مطلق ، لا يدنو منه أعظم الناس إلا مطاعين ، سيد المعتقدات ، المطلق المانع ، المطلق للثاني عشرة سلطة استشارية للإمبراطورية .

كان مانويل كومين ما يزال حاكماً مخالفاً وراءه ماضياً مثلاً بالخيانات والانتصارات والهزائم ، موزعاً وقته بين توضيح العقيدة الجديدة التي يشتم منها تأثير عقيدة محمد ، وساعات التعهّر مع ابنته تيودورا ، راماً بالحرّم كلّ من جرأ على انتقاد سلوكه ، مضطهدًا رجال الكنيسة البارزين الذين كانوا يجهرون بخطباه . واستقبل ملك القدس وفق العادة التقليدية لأسلافه . هذا وقد روى لنا غيّوم الصوري بالتفصيل المهرجانات التي جرت على شرف آموري ، والمراسم الفخمة للحفاوة التي استقبل بها .

ومع ذلك ، وفي خضم هذه الحفلات الراقصة لم ينس آموري البتة هدف رحلته ، فقد تحدث إلى الامبراطور عن ضرورة شن حرب لا رحمة فيها على صلاح الدين الذي أخذت قوته المتعاظمة تقلق الفرنجة ، وذكره بأنّ الربّ قادر أن يحارب ويذمر إلحاد الأمم بيد أباطرة بيزنطية ، لكي يتحد بالإيمان أولئك المختلفون بالعرق . وعرض عليه مطلقاً وضع المالك الفرنجية البائسة في سوريا ، المهددة بالدمار بسبب ما شجر من خلاف بين البارونات والمنظمات الإكليلية الكبرى والملك ، والمهددة بقيام كتلة إسلامية ضخمة ممتدة من الفرات إلى ليبيا ، موحدة سياسياً ودينياً .

وأدرك ملك القدس بوضوح أن الوحدة الإسلامية ستعود على أنقاض الفرنجة ، واقتراح على مانويل كومين طرد صلاح الدين من مصر وإقامة دولة فرنجية فيها يشاشه إياها ، ولم يكن

آموري بحاجة إلى إظهار فصاحة غير عادية لإقناع حمّيَّه برأيه؛ لأنَّ مانويل كومين الوفي لتقاليد الدبلوماسية البيزنطية كان يعتبر الاستيلاء على وادي النيل ليس مجروراً بما تدره من موارد فحسب ، بل لأنَّ ذلك سيتيح لنصرانية المشرق أن تمدُّ الطرف أبعد قليلاً من حدود إقطاعاتها، وتستعيد وبالتالي حيوية جديدة ، تحفزاًها جاذبية الكنوز المكدسة في أسواق القاهرة ، ولم يستطع إلا أن يتبني منطق نسيبه ملك القدس سياسياً واقتصادياً ، فوعده بدعمه.

نور الدين يستولي على قلعة الشوبك (مونتريال)

وبينا كان آموري يتباخت مع أميراطور بيزنطية ، ويفكّر في حملاته المقبلة ، طفق نور الدين يستولي على قلعة الشوبك قرب البحر الميت في قلب هذه الأرض (عبر الأردن) التي استصلاحها يصبر وجلد المؤسّسون الأوائل لمملكة القدس . كانت تلك خسارة مؤثرة لدى فرنجية شرق الأردن ، لأنَّ موارد هذه الإمارة المتفرقة حققت لهم دُخولاً (جمع دخل) لها شأنها اقتصادياً. فعلَّ هذا الشريط من هضاب موآب ، كان يغرس شجر العنب والزيتون ، وتزرع الحبوب وتعمّر حقول قصب السكر . وكان هذا السكر يصدر إلى بعيد . ففي جزيرة قبرص كان التجار يبيعون سكرًا ناعماً يدعى سكر قلعة الشوبك . واشتهرت تلك القلعة الهامة ذات السور الثلاثي بمناعتها وأيّتها لا تقهـر . وقد بناها بدويون لضبط حركة الطريق الشرقية لمملكة القدس ؛ ولمارسة رقابة حركية على القوافل المتنقلة على الدرب الكبير المسمى درب الحج ، ولحماية السكان المزارعين من غارات الأعراب النهـايين ، لأنَّ عمل المزارعين كان يُثير المستعمرة الفرنجية عبر الأردن .

الصراع الخفي بين نور الدين وصلاح الدين

وبعد أن استقر نور الدين في الشوبك طلب إلى صلاح الدين أن يضم إليه قائلأً له: لقد بات ضرورياً إزالة هذه القطعة المتقدمة من مملكة القدس ، تلك القطعة العدوانية بقلاعها المنيعة المتسلسلة على امتداد ثلاثة كيلومتر ، ولاشك في أنه صاغ مشروع التخلص من أرض عبر الأردن هذه بمساعدة قوات حاكم القاهرة المصرية . فأخذ صلاح الدين الطريق ، لكن هل تراه اطلع على نوايا نور الدين؟ لا نعرف ذلك ، ييد أنه كان عالماً بخيبة الأمراء السوريين ، وكم هم ينفسون عليه تألق نجمه ، بل كم هم مستعدون لخذلانه ، لذا وخشيـة أن يعتقل ويجرد

من ملك مصر ، ولكنها خاصة غير راغب في فتح طريق وادي النيل أمام أصدقائه المريين في دمشق ، فقد غير رأيه وهو في الطريق ، وانقلب عائداً إلى القاهرة ، متذرعاً بأنه علم فجأة بوجود مؤامرة كانت تدبر في العاصمة ، ضدّ أمن الدولة .

واستاء نور الدين من تصرف صلاح الدين ووعد بجلب رأسه في كيس ، وأقسم أن يشخص بنفسه على رأس قواته السورية لمبااغته العاصي .

صلاح الدين يتتجنب الصراع الأخوي مع نور الدين

وحدثت ضجة في القاهرة ، فأنصار صلاح الدين منهمكون في العمل ، على حين اجتمع مناوئوه ، واتخذوا كل التدابير لاستقبال نور الدين ، وتحدى بعضهم عن مقاومة هذا الأخير بالسلاح ، وأحصوا عدد قادة الحامية الموثق بولائهم . وينذهب مؤرخ سيرة صلاح الدين الذي كان يشغل عنده وظيفة كاتم سره إلى أن سيد مصر كان الوحيد الذي لم يخطر بباله هذا العمل ؛ وقد أجاب من كانوا يودون المقاومة والقتال : علينا ألا نفك في هذه الأمور . قال مؤرخون آخرون : إن وزراءه نصحوه بعدم اقتراف مالا يمكن إصلاحه ؛ لأن نور الدين حسب رأيهما صاحب مصر الحقيقي . وأن له عليه أيادي بيضاء ، وأنهم إذا ما خيروا بين صلاح الدين ونور الدين فلن يترددوا ، وبادره أحدهم بالقول : « بم تفك » حينما تأسّلنا عن موقفنا ؟ ألا تعلم أنّ نور الدين حائز ثقة الخليفة ؟ وأنه إذا ما علم بعزمنا الدفاع عن قضيتك حرفاً ، فهو من جهته قادر على السعي فوراً إلى محالفتك الفرنجية — لعنهم الله ! — والتخلّي عن كل حرب ليهرع إلى مصر ليجد فيها فوق كل ذلك كثيراً من التفهم في صفوف الجيش ، والإدارة ، وحتى في محيطك ذاته ؟ أتصحّ لك أن تتصرّف كما يلي : دفعاً لغضب نور الدين توجّه إليه برسالة قل لها فيها : « لقد ترافق إلى ذلك قادم إلى هنا لتنتزع مصر مني ، ما الحاجة إلى كل ذلك ؟ ليرسل إلى مولاي أحد ضباطه بدلاً من ذلك ليقودني إليه والمحبل في عققي . ولن يجد مني أية ممانعة »^(١) . وهذا هو النص المنقول حرفياً عن المؤرخ العربي ابن الأثير من كتابه تاريخ الأتابكة . ويبدو أن هذا الناصح قد أقنع صلاح الدين بعدم الجدوى من صراع أخوي لن يكون فيه إلى جانبه لا الرأي العام غير المهم بهذه المنازعات على السلطة ، ولا جنده الذين يوالون من يدفع أكثر ، ولا وزراؤه الخذرون المستعدون للتخلّي عنه .

صلاح الدين يعزز موقفه ويستند لأنبياء فتح برقة والنوبة واليمن

لقد كان وحيداً، ولم يحن الأوان ليتعدد موقفاً حاسماً؛ وكان أذكى من أن يعتقد بأن وضعه في القاهرة مكين وطيد، ومع ذلك أراد أن يظهر أنه ما يزال السيد المطاع، فتخلص من أمرائه المريبين الذين كانوا يزجون أوقات فراغهم في حبك المؤامرات وتدمير الفتنة ضدّه، فأرسلهم إلى أعمال بعيدة يصابون فيها بالحميات. وأسند لابن أخيه قيادة عدد من السوريين وأرسله ليحتل برقة، وليكتشف قسماً من ساحل المتوسط، كما أوكل إليه مهمة أخرى هي فتح النوبة الغربية بالخيول. فأصاب هذا الأخير مجدًا واحتل عنوة الأماكن الكبرى، وفرض الجزية، واجتاز البحر الأحمر إلى اليمن حيث أسس سلالة أيوبية.

وفاة نور الدين المفاجعة واعتلاء الملك الصالح عرش مصر

ولكن أيام صلاح الدين غدت كـ تراءى للتأمل معدودة، إذ استقدم نور الدين قوات مهمة من ما بين النهرين إلى الشوبك، وأنه — دفعاً لتأجيل مقابلة صلاح الدين — أسرع بالتوجه نحو القاهرة ذات الكنوز الأسطورية، لكن، وفيما هو يتأهب لاجتياز حدود امبراطورية الفراعنة القديمة وإفاه أجله يوم الأربعاء ١٥ مايو (أيار) ١١٧٣ بسبب ألم ثقيه بالحنجرة. واعتلى عرش دمشق الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين.

سيرة نور الدين الكفاحية

ليس من نافلة القول أن تقف هنا عند شخصية نور الدين^(٢)، الذي كان جندياً عظيماً، وبناءً كبيراً، وفاهر الفرنجة في مائة معركة، وأستشهد أولأ بمؤرخ عربي شهير هو ابن الأثير الذي كتب ما يلي: «لقد درست جيداً سير ملوك الزمن القديم، ولكنني منذ الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز لم أجده واحداً في حياته أتقى، وحبه للعدل أشدّ. مسلم تقىً ومؤمن إيماناً عميقاً بعظمية الرسالة النبوية وحقيقةها. وقد بذل قصارى جهده لكي يتبع اتباعاً دقيقاً في كل الحالات — في حياته الخاصة وفي ممارسة السلطات العامة — أحكام القرآن والسنّة في سلوك المؤمنين، كان يخصص غنائم الحرب لإقامة المؤسسات الخيرية، وللقيام بأعمال الصالح العام».

لقد دعم تحصينات جميع المدن السورية : دمشق ، حمص ، حماة ، حلب ، بعلبك ، وفي كل مكان ارتفعت في عهده المساجد والمدارس والخانات وكان العلماء موضع عنائه واهتماماته وتضحياته . ولم يكن مجاهيده من هدف سوى طرد الفرنجة من سوريا وفلسطين وحاول أن يؤودي بأمانة هذه الرسالة^(٣) . هذا هو نور الدين أصغر أولاد زنكي ، وأشهر أمراء العصر السلاجقى الجيد الذى لقبه الفرنجة بالسفاح ، لقد أظهر منذ خطواته الأولى في الحياة العامة ، أنه لم ينس دروس والده الذى علمه كيف يحكم الناس ، ويغض الفرنجة ، ذلك اليافع الذى انغرى في الحياة العامة منذ طراوة عوده . ترك أخاه الأكبر يحكم بهدوء أرض أبيه - الموصل - مفضلاً الإقامة في حلب لكي يكون أقرب إلى حدود أعداء دينه . لقد كان - حسب شهادة معاصريه - مدبراً مدهشاً لبيت المال فنظر بريبة في الثروات الفاحشة للأمراء المتعلمين بال MAS ، وللموظفين الشديدي الطاعة . جهز دمشق بدار العدل التي ما انفك الحكام العثمانيون يستخدمونها حتى القرن الماضي ، وبالبيمارستان . وجد تجديداً كاملاً جامع حلب من ماله الخاص ، وهو أول من أنشأ في سوريا المحكمة العليا التي أصبحت محكمة استئناف حقيقة لأحكام قضاة الدرجة الأولى ، ثُبِّر فيها نهائياً جميع القضايا دون أن يكون على القضاة مراعاة مركز المتخاصمين أو صفتهم ، وكان أحياناً يحضر المحكمة لعقد الجلسات . واضعاً ثقل سلطنته الشرعية بخدمة العدالة متبرزاً عن الانتفاع أو جنوح التحيز ؛ أمر بأن توضع غنائم الحرب كلها في خزائن بيت المال بدلاً من أن توزع - كسابق العادة - على القادة والأمراء الذين كانوا على الدوام ينحوون أنفسهم نوعاً من الحق الإلهي ، كان لا ينفك يكرر القول على مسامع مستمعيه المذهولين بأنه لم يكن المحاسب لأموال المسلمين ، وليس من حقه أن يستعملها إلا في مصالحهم . ولم تكن هذه اللغة دارجة في بلاط الأمراء البارزين المتأثرين بمثل هذا الزهد الأخلاقى ، ولكن غير الراغبين في الاقتداء به . لم يسع إلى الثروة ولا إلى الأبهة ؛ فعاش عيشة متواضعة مجتهداً إلا يكون مبدراً ولا مقترأ ، وقد وضع قاعدة غريبة في ذلك العصر ، فكان أول من استعمل حمام الرجل لكي يتلقى بريده بأسرع ما يستطيع ، ولكي يبلغ قادته أوامره في المعركة ، ولمفاجأة تحركات العدو . وبفضل هذا التجديد ، كثيراً ما فاجأ الفرنجة ومزقهم مفوتاً عليهم الوقت الكافي ليفهموا بأي سحر كان على علي بتحركاتهم بهذه السرعة .

ولكن الأمر الذي ييرز نور الدين قبل غيره، كإحدى الصور الأشد تأثيراً بين صور الإسلام هو استئاته في محاربة مستعمرات الفرنجية في سوريا، فقد نذر حياته لهذا الكفاح المتجدد باستمرار ضد أعداء دينه.

ولم يكن بغضبه فرنجية المشرق بغضباً سياسياً، وإنما كان بغضباً بارداً متجدداً، محسوباً، بغضباً دينياً حقيقياً. كان شغوفاً بالجهاد، ولا يخطئه غيوم الصوري الذي يعرف زمانه كل المعرفة عندما يصفه بأنه عدو الفرنجية القاسي. فبالنسبة إليه لم تكن القضية مسألة صراع عرقي، ولا استعادة الأرضي العربية، ولا النزاع على الحدود، بل هي مسألة المصالح الروحية، مصالح الإسلام المقدسة؛ ولإنفاذ هذا الهدف، وبالتالي لفرض سياسته، كان يتصرفه عدة الدعم شبه المضمون، إذ كان له — من جهة — جيشه الذي لا يشك في إخلاصه، لكنه مؤلفاً من المالك والعبد المعتوين الذين كانت تربطهم بسيادتهم روابط قانونية ومعنوية؛ ومن جهة ثانية كان المعممون من العلماء والمتصوفة المكلفين بالدعوة الدينية، والذين ما فتشوا — وهم في خدمة السلطان — يكونون لصالحه تياراً جارفاً من الرأي العام. وحين وافته المنية، كان يحوز تأييد السود الأعظم من المسلمين السوريين للرسالة التي خدمها بكثير من الشبات.

ولكل هذا كان عظيماً ذلك الذي كانت سلطنته تمتد «من أعماق النوبة حتى أبواب
همدان»، ولذا كان المؤمنون يذكرون اسمه في صلواتهم في مكة والمدينة، وكما كتب رونيه
غروسية: «لقد أكمَل نور الدين عمل أبيه، بما يماثل بعض الشيء إكمال القديس لويس عمل
فيليب أوغست، فالسياسي والفاتح يختليان المكان للقديس. وبالتأكيد لم يكن الأمر كذلك،
فنور الدين شأنه شأن لويس التاسع لم يتخل عن التقليد العسكري لأجداده، بل العكس
صحيح، إذ نذر حياته للجهاد، إنما بجلاء مفاده أن الحرب المقدسة هي كل مبرر وجوده».
متفانياً فيها بحماسة الصوفي العنيفة، فهو من هذه الزاوية الملك القديس، إذ كان منذ أصبح
سيد سورياً المسلمة يحيى في حاضريه حلب ودمشق حياةً مدهشةً في بساطتها، حياةً تداني
أيام الجهاد، حياة زاهِد مرهقة بالصوم، متقدة بالصلوة؛ حتى لقد استطاع ذروه أن ينقشوا
على قبره بعض مؤثِّر قول أحد الصحابة قبيل وفاته: «مرحباً بك أيها الموت، مرحباً بك أيها
الزائر الصديق الذي ينضم إلىّي في الفقر وفي الصلوة؛ إلهي أنت تعلم أنني خشيتك دائمًا. أما

اليوم فإني عظيم الرجاء فيك . لم أحب الدنيا ولا طول العمر في هذه الدنيا لغير الأقنية وغرس الأشجار ، ولكن لأنّها في هب الماجرة ، وألسمع العلماء في حلقات الذكر » .

كان مجده صافياً من آية شائبة ، وبعد اليوم في آداب المسلمين المقدسة من الأولياء الصالحين . فهو مع صلاح الدين الذي يتبوأ أحدى أرفع الدرجات في التسلسل الهرمي لأولياء الإسلام . يزور قبره في دمشق كل سنة آلاف المؤمنين ، حيث يرقد بهذه البنية المهيبة التي طالما أحبّها : المدرسة النوريّة .

وواجهت وفاة نور الدين صلاح الدين مفاجأة سارة . لقد كانت سعادته بالنسبة إليه .

القضاء على ثورة الفاطميين

كان على صلاح الدين الآن أن يواجه أزمة داخلية باللغة الخطورة ؛ ولا تنسَ أن الاعتراف باسم خليفة بغداد في صلاة الجمعة مرّ بسلام ، وكل ما في الأمر أن سكان العاصمة تذمروا بعض التذمر ولكنهم تأثروا بروبية بعض القوات الكردية التي عرضها صلاح الدين في الأسواق ، فاتأثروا الامتناع عن آية تظاهرة معادية ؛ ولكن الريف كان أقل تورية تجاه سلطة بغداد ؛ إذ ما انفكـت أغلبية المصريين موالية سراً لحكامها القدماء الفاطميين ، فابن العاضد كان مايزال حياً ، وهو الوريث الشرعي لهذه السلالة ، لذا حاول شاعر يبني هو عمارة بن أبي الحسن ، يعاونه كاتم سره ، وبعض القادة السودانيين السعیدين بالمحاذاة بحياتهم ، وكذلك بعض خدم العصر الخليفي المجردين من الضمير ومن المكانة ، حاول أن يعيد ابن العاضد إلى عرش آبائه ، فألف حكومة ثورية كان عليها أن تمسك بزمام السلطة في موعد متفق عليه ، وأوفد المتآمرون أحد رؤوسهم لطلب عن الفرنجية مقابل أراضي جيدة وأموال طائلة ، وأبرم اتفاق في القدس بين الثائرين المصريين والملك آمورى الذى أوفد إلى القاهرة أحد أتباعه مكلفاً في الظاهر أن يُسلم على صلاح الدين ، ولكن حقيقة مهمته هي الاطلاع على مدى تقدم هذه المؤامرة . وعلم صلاح الدين من شرطته بما يبيت ضده ، فكان القمع بلا رحمة . فأعدم كل الذين كانوا ينتمون من قريب أو بعيد لعائلة العاضد ، كما شنق قادة الفتنة ، والذين ثبتت عليهم الشبهة . وهرع بعض الأشخاص من ذوي المكانة الذين أقسموا على نهاية صلاح الدين

إلى المساجد لأداء فريضة الصلاة جهراً باسم عباسى بغداد، متخلين بذلك عن الشاعر اليمني وعن مشاريعه لإعادة الفاطميين. ولكن النظام لم يعد مطلقاً. فالنار التي أُخمدت هنا عادت للاشتعال في مكان آخر أشد ضرماً.

ففي ٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٤ أي بعد ستة أشهر من اكتشاف المؤامرة الأولى، قام قائد فاطمي هو كنز الدولة من قبيلة بني الكنز الشديدة البأس، وحشد قوات سوداء في أسوان ووعدها بنهب القاهرة ويرأس صلاح الدين. وعزل حكام مدن مصر العليا، ورأى جيشه يكبر بانضمام المستائين والجنود النظاميين الفارين من الجيش للاشتراك في نهب أسواق العاصمة، فاجتاز بلاد طيبة مستولياً على كنوزها الشهيرة، ولم يكن صلاح الدين هذه المرة يواجه عصابة مثقفة من العصابة، بل يواجه قائد بارع لقوات متৎمسة بالحرب، وكيلاً يغادر القاهرة في هذه الساعات الحرجة كلف صلاح الدين أخاه أن يعيد سلطنته إلى الريف المتفجر، فقام هذا الأخير يصحبه بعض الأمراء الذين استخلصهم صلاح الدين لنفسه باهبات والخطوات، وبالثروات التي أخذوها عليهم، والمناصب الحجرية مالياً التي أسدلها إليهم. لقد اختارهم عن عمد من بين الذين تذوقوا رغد العيش في القاهرة فصاروا يفضلون الموت على أن يحرّمهم منها زعيم قبيلة وسودانه؛ ونجح ماليك أخيه في مbagحة الشّائرين فأسر القائد الفاطمي وأرسل رأسه إلى القاهرة. وصلب ثلاثة آلاف من رجاله حيث دعي جميع سكان عروس النيل لمشاهدة هذا المشهد الدامي.

لكن فشل هذه المؤامرات يجب ألا يجعلنا نتجاهل أهميتها؛ لقد هزّ التأثرون البلاد هزاً، واستندجدا بالفرنجية الذين تعودوا منذ زمن بعيد بهذه اللعبة، وكتبوا إلى زعيم هذه الفتنة السورية المدهشة فئة الحشاشين سنان المشهور شارحين له أن العقيدة الفاطمية تمثل عقيدته ولا خلاف بينهما إلا على نقاط لا تشكل بدعة ولا تمنعه من تجديدهم؛ وطلبوا منه أن يعيّن فدائياً لقتل صلاح الدين غيلة، أو ينصب له فخاخاً وكمائن. وكان صلاح الدين سيكرّس نفسه لأعمال عظيمة. كان موت نور الدين يطمحنه من جهة دمشق، فخلفية بغداد المتقلب بعض الشيء لم يكن يريده — بعد أن شجع نور الدين ضد صلاح الدين — أن يعقد الأمور، وأنخذ يتكيف مع الوضع الجديد؛ فقد أعيد الأمن إلى نصايه في مصر بإعدام المتآمرين، وانتهى

الفاطميون بتصفيه آخر فرد من سلالتهم. وأخذ وضع صلاح الدين يترسخ، وبات في مستطاعه أن يفكر غير قلق في المستقبل الزاهي الموعود لسلالته.

صلاح الدين والتنظيم الإداري في مصر

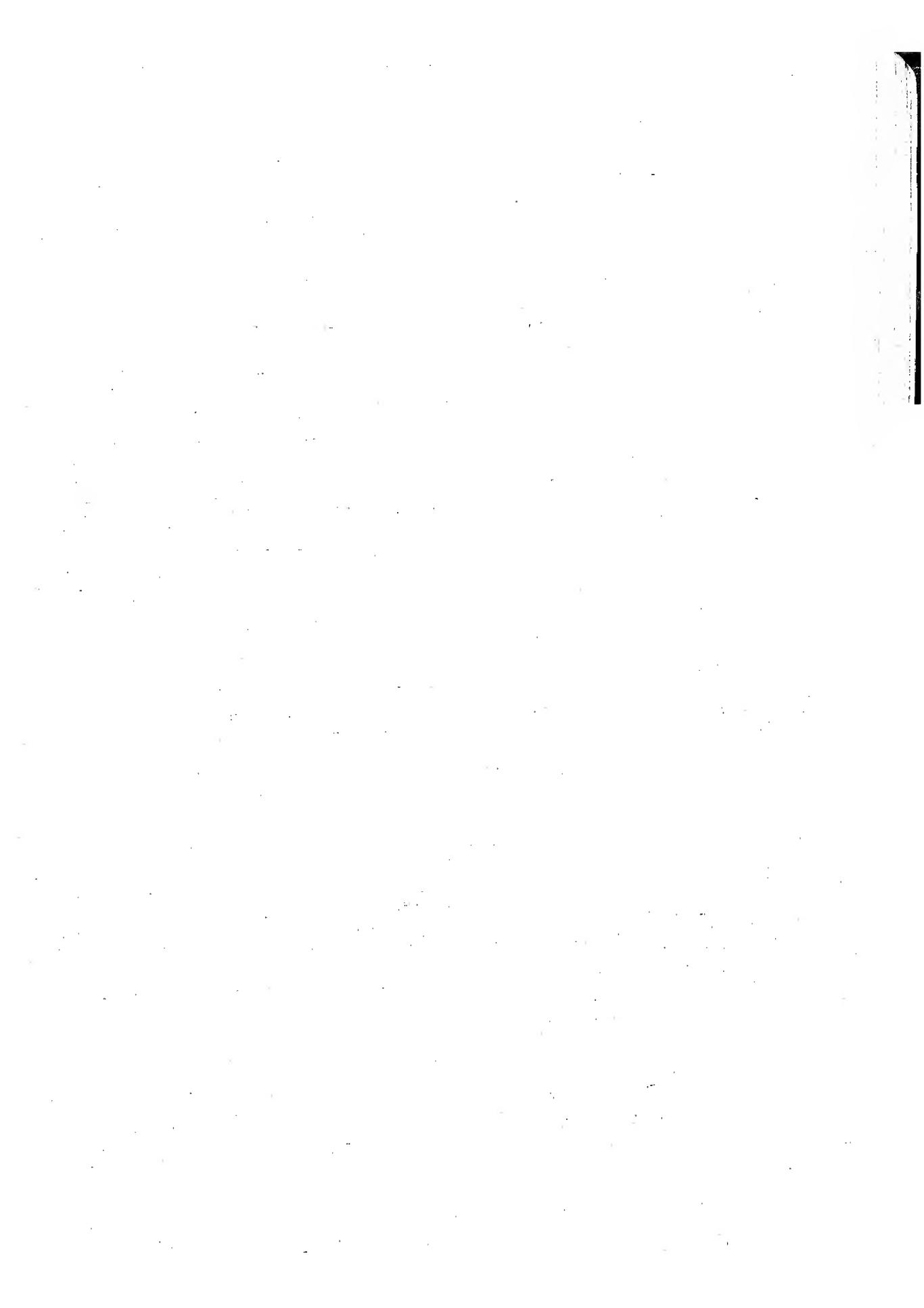
وحيث استتب المدود في القاهرة وعاد الأمن لنصابه، انصب اهتمام صلاح الدين لإعادة التنظيم الإداري إلى مصر، وعرفت البلاد حينذاك حقبة من النهضة الاقتصادية والروحية، إذ كان يتخرج من جامعة الأزهر أعداد غفيرة: شعراء ونحويون وأطباء، وازدهرت الحياة الدينية إذ أسس صلاح الدين مدارس للمذاهب الإسلامية الأربع الكبرى. يدرس في أبنيتها الشائحة الفقه، وعلما الشرع والتصوف مما تتيح تعاليها الرهادية الصارمة لمريديه الذين ينظرون إلى الحياة كخطيئة مالم يستغفروا كلية في تأمل آلة الله.

الوزير الفاضل الأنا الآخر لصلاح الدين

وأحاط صلاح الدين نفسه بمستشارين أذكياء نشيطين قادرين على تنفيذ إصلاحاته المتعلقة بالإداراتين المدنية والعسكرية، ومن أبرزهم وزير الفاضل^(٤) المولود في عسقلان الذي لعب دوراً متميزاً في الإدارة الأيوبية بمصر. وبعد أن اشتهر بأناقة تقاريره وإيجازها، عين في القاهرة حيث تولى رئاسة ديوان الجيش، وحينما تربع صلاح الدين دست السلطة أصبح الفاضل الأنا الآخر لصلاح الدين، فأعاد تنظيم الشؤون المالية والأسطول والجيش. وحرر جريدة رسمية (المتجدد) وهي لا تتضمن الملاحظات التلمينة عن إصلاحاته فحسب، بل كذلك الأحداث الهامة الجارية في مصر خلال حكم صلاح الدين. «فكان — كما يكتب المؤمني — يعيش في القاهرة عهد ذلك رجل جم النشاط يصعب تصوّر نظير له. كان يستطيع في جلسة واحدة أن يكتب بآن معًا رسالة ويللي رسالتين أخرىن» كانت شهرته خارج مصر مثلما هي فيها. فقد صبَّ جُلُّ اهتمامه طوال حياته لأن يحيط يديه بالخيرات التي آتاه الله إليها، ففتح خزائن ثروته لإنقاذ الملهوفين، وتعليم الأيتام، وزيادة عدد العلماء، لقد كان موضع ثقة صلاح الدين الذي قدم له مكتبة الخلفاء الفاطميين الشهيرة لما يعهدوه فيه من شغف بالكتب النادرة.

الحكم المستير

وهكذا عرف مصر في ظل الحكم المستير مؤسس السلالة الأيوية عصر اشعاع متوجّج ثقافياً ودينياً . وساعد إرساء قواعد السلم أعمال العلماء ، وتطورت الفنون تطواراً حراً ، وحمل استئناف الأعمال التجارية إلى المصريين الغنى ، ووفرة المنتجات الواردة من كل حدب وصوب . وحل عهد الازدهار محل سنوات الاضطرابات الاجتماعية والمجاعة ، والفوضى ، والاضطهاد والمصادرة ، التي أفسدت حياة مصر في عهد الخليفة الفاطمي العاجز العايند .



حواشي الفصل السابع

١— جاء في كتاب الباهر لابن الأثير عن ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين :

«وفي سنة سبع وستين أيضاً، جرى ما أوجب نفقة نور الدين من صلاح الدين. وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلد الفرنج، والتزول على الكرك وبمحاصرته، ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه، ويجتمعوا هناك على حرب الفرنج والإستيلاء على بلادهم، فierz صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم، وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رحيله لا يتأخر، وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحله ليرحل هو، فلما أتاه الخبر بذلك، رحل عن دمشق عازماً على قصد الكرك فوصل إليه، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه، فاتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول إليه باختلال البلاد، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد إليها، فلم يقبل نور الدين عذرها.

وكان سبب تقاعده أن أصحابه وحواضه خوفوه من الاجتماع بنور الدين، فحيث لم يمثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده، وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها، فبلغ الخبر إلى صلاح الدين، فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين أبوب وحاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بله من عنم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه، فاستشارهم فلم يجيئ أحد منهم بشيء، فقام تقى الدين عمر - ابن أخي صلاح الدين - وقال : إذا جاءتنا قاتلناه وصادناه عن البلاد، ووافقه غيره من أهله. فشتمهم نجم الدين أبوب وأنكر ذلك واستعظامه - وكان ذا رأي ومكر وعقل - وقال تقى الدين : أقد ، وسبه ، وقال لصلاح الدين : أنا أبوبك ، وهذا شهاب الدين خالك ، أظن أن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا ، فقال : لا . فقال : والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل له ونقيل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، فإذا كنا نحن هكذا ، كيف يكون غيرنا ، فكل من تراه من الأمراء والعساكر ، لو رأى نور الدين وحده ، لم يتجرس على التبات على سرجه ولا وسعه إلا التزول وتقبيل الأرض بين يديه ، وهذه البلاد له وقد أقامك فيها ، وإن أراد عزلك فأي حاجة به إلى الحمى ، يأمرك بكتاب مع نحاب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد . وقال للجماعة كلهم : قوموا عنا ، فنحن مثاليك نور الدين وعيشه يفعل بما يريد ، فتفرقوا على هذا ،

وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر . ولما خلا أيبوب بابنه صلاح الدين ، قال له : أنت جاهل قليل المعرفة ، تجمع هذا الجموع الكثير وتطلعهم على ما في نفسك ، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه عن البلاد ، جعلك أهنّ الأئور إليه وأولاها بالقصد ، ولو قصلك لم تر معلم أحداً من هذا العسكر ، وكانوا أسلموك إليه ، وأما الآن بعد هذا المجلس ، فسيكتبون إليه ويعرفونه قوله ، وتكلب أنت إليه وترسل في هذا المعنى وتقول : «أي حاجة إلى قصدي ، يحيى نجاح ياخذني بحمل يضمنه في عني » فهو إذا سمع هذا عدل عن قصلك ، واشتغل بما هو أهنّ عنه ، والأئام تدرج والله كل وقت في شأن . ففعل صلاح الدين ما أشار به والده ، فلما رأى نور الدين الأمر هكذا ، عدل عن قصده ، وكان الأمر كما قال نجم الدين ، توقي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله ، وهذا كان من أحسن الآراء وأ偈ودها . (ابن الأثير : الباهر ص ١٥٨ - ١٥٩).

٢ - نور الدين محمود الزنكي (١١١٨ - ١١٧٤) من أعظم قادة الإسلام وأبطالهم ،تابع مسيرة والده الناضالية ضد الوجود الصليبي في بلاد الشام .. وهو كما يقول كاتبنا شاندور عن ملكه ، «بأنه يمكن اعتباره بهذا الشكل أو غيره المقدمة لملك صلاح الدين» ...

ويتحدث المستشرق الألماني الشهير كارل بروكلمان في كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية بإعجاب بطل الشخصية المناضلة الفذة ، بقوله : «والواقع أن نور الدين ورث عن أبيه صفات الحكم الفاضل إلى حد بعيد جداً . فيما كانت الكثرة المطلقة من الحكام الذين تصدروا لسياسة المسلمين ، طوال أجيال عدة ، يعتبرون ، مالكهم إقطاعات واسعة يستغلوها لمصالحهم الخاصة ، كان هو أول من استشعر أنه مسؤول تجاه الله عن رفاهية رعيته . ومن هنا لم ينفق موارد الدولة الغزيرة ، التي تمت له بالإدارة البارعة والتي لم تُشق على كاهل رعيته على تحصين بلاده وتوطيد مركزه الحربي في عالم زاخر بالأعداء . وهو ما اقضاها نفقات ضخمة . فحسب ، بل أفقها في العمل الأول على الشؤون الثقافية والمساجد وزوايا الدراوיש ، ومحانات المسافرين ، والمستشفيات ، ودور العلم . ولقد أنشأ في دمشق دار الحديث وهي أقدم مدرسة لهذا العلم ، والبيمارستان (المستشفى) الذي يحمل اسمه ، والذي لم يلبث أن ثما وتطور إلى مدرسة طيبة راقية . ودفن نور الدين في المدرسة المعرفة باسمه .

وكانت سياسة نور الدين تهدف قبل كل شيء إلى طرد الفرنجة» . (كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٤٨).

٣ - وما سجله ابن الأثير في كتاب الباهر عن بعض سيرة الملك العادل نور الدين محمود ، قوله :

«قد طالعت تواریخ الملوك المتقديمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزير ، ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحريراً للعدل والإنصاف منه ، قد قصر ليه ونهاه على عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، وإنسان يوليه ، وإنعام يسديه . وقد تقدم من أحواله في مملكته ما يستدل به على ما ذكرنا . ونحن نذكر ههنا ما تعلم به حمله في أمر دنياه وأخراه ، فلو كان في أمّة لافتخرت به ، فكيف في بيت واحد» . (ابن الأثير : الباهر ص ١٦٣).

وتناول ابن الأثير في كتابه المذكور ثلاثة من أخبار الملك العادل نور الدين تحدث فيها عن زهده وعلمه وعدله ، وكان يعتبر أن الأموال التي بين يديه «هي أموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم ، ومعدة لفتق إن كان من

عدو الإسلام» (ص ١٦٤)، «وكان عارفاً، بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، ليس عنده فيه تعصب بل الإنصاف سجيته في كل شيء» (ص ١٦٥)، ويتحدث عن عدله فيقول: «فإنه كان من أحسن الملوك ميرة، وأعدلهم حكماً، لم يترك في البلاد التي حكمها ضرورة ولا مكساً ولا عشرة بل أطلقها جميعها. وكان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان، القوي والضعف عنده في الحق سواء» (١٦٦) وكان هو أول من بني داراً لكشف المظلم وسماها دار العدل». (ص ١٦٧).

«وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيما ، فإنه كان أصير الناس في الحرب وأحسنتهم مكيدة ورأياً، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم ، وبه كان يضرب المثل في ذلك ..
.. وكان رحمة الله يكثراً إعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرج خذلهم الله تعالى ، وأكثر ما ملكه من بلادهم به .» (١٦٨ - ١٦٩).

وحين ضربت الزرارة بلاد الشام عام ٥٦٥ هـ فنهمت مدنه وخربت أسوارها ، «فأنخرج من الأموال مالا يقدر قدره» ، ولقد باشر بنفسه عمارة مدينة حلب ، وأحكم أسوار جميع المدن .. (١٤٥)
وحين اتسعت رقعة بلاده ، اخذه الحمام المواتي ، لتبادل الرسائل بهدف حفظ الشغور» (ص ١٥٩).

٤ - القاضي الفاضل ، عبد الرحيم بن علي (١١٣٥ - ١٢٠٠)

كاتب . ولد بعسقلان ، ومات بالقاهرة . نشأ بيisan ، ثم حضر إلى القاهرة ، والتحق بديوان الإنشاء ثم كتب لابن حميد قاضي الاسكندرية ، إلى أن أعجب به الخليفة الحافظ الفاطمي ، فاستقدمه إلى ديوانه . اتصل بأسد الدين شيركوه عند مقدمه ، ثم صلاح الدين الأيوبى ، وترقى عنده حتى صار وزيراً ووزيراً العزيز والمنصور بعده . وكان سريع الخاطر ، غير الإنتاج ، تکاد تبلغ مسودات رسائله مائة مجلد . واشتهر بأنه صاحب مذهب في التأثر يعتمد على التزام السجع ، والإكثار من ألوان البديع ، والجناس تامة وناقصه ، والاقتباس من القرآن ، وتضمين الأشعار ، والتلاعيب بمصطلحات العلوم . وله شعر يماثل نثر في التكليف والتصنيع . (الموسوعة الميسرة ص ١٣٦١).



الفصل الثامن

فتح سوريا

آموري ملك القدس يحاصر بانياس

حينما علم آموري بوفاة نور الدين اعتقد أن الفرصة سانحة لمحاجة المسلمين الذين حُرموا فجأة أحد أشجع قادتهم.

ففي ربيع ١١٧٤ حاصر آموري على الطريق الكبري بين دمشق وصور، وكانت تحمي في القرن الثاني عشر تخوم الجليل الفرنجية، ولم يتمكن من اقتحام مدخل القلعة التي تزدود عنها حامية تركية تقودها امرأة كان أحد الأباء الدمشقيين هو ابن المقدم وضعها فيها. وكان هذا الأخير يعرف ميل آموري إلى المال وتصرّفه خلال المساومات، فأسرع إلى مقر القيادة الفرنجية، واقترح على ملك القدس أن يتخل عن مشروع اقتحام بانياس، باذلا له تعويضاً ملوكياً مقابل نفقاته الحربية، زحفاً وعدوة إلى بلاده، وكذلك فك إسار آلاف الفرنجية وتحريرهم من أن يظلوا في أعماق سجون دمشق الباردة.

فاتفق المتأذران، ورفع آموري الحصار عن بانياس وبضم المال بكثير من التهديب. وبعد أن وقع هدنة غير مشروفة مع المسلمين السوريين عاد إلى القدس ليحل فيها مشكلة قائمة

بين سنان شيخ الحشاشين الإسماعيليين الذي تحدثنا عن شخصيته المقلقة، والمعلم الأكبر للهيكليين.

الصراع بين الإسماعيلية والهيكليين

ذلك أن الشيخ سنان الذي كان قد زود أتباعه المتخصصين بجهاز إرهابي خيف، أخبر آموري أن أتباعه لا يجدون شيئاً أفضل من اعتناقهم النصرانية وارتدادهم عن الإسلام شرط إعفائهم من ضريبة الألفي دينار ذهباً التي كانوا يدفعونها سنوياً لهيكلبي طرطوس بموجب معاهدة حسن جوار. وارتاح آموري مطمئناً مثل هذه القرارات الجيدة المفاجئة وأطلع عليها الهيكليين مقترباً عليهم إبرام الصفقة على أن يعوضهم من ماله الخاص دخل الألفي دينار، وحين بلغت الأمور هذه النقطة، أخرب آموري سفير الإسماعيليين بجوابه الإيجابي للشيخ الطاعن في السن. إلا أن الهيكليين — خاضعين للدافع غير معروفة — عملوا على قتل المبعوث الإسماعيلي مع الضابط الفرنسي المكلف بحمايته. فأثارت هذه الجريمة الشديدة غضب المسلمين والسيحيين على حد سواء. ولكن الملك قد أهين طلب معاقبة المذنب بالموت شنقاً، ولكن الهيكليين رفضوا تسليمه واعدين بإرساله إلى روما ليحصل على الحلال من خطيبته، مضيفين إلى ذلك أنهم ليسوا مسؤولين عن سلوك رجال الدين في منظمتهم إلا أمام الله وتجاه البابا.

انقسام المالك اللاتينية في الشرق

ولكن آموري صمد جيداً، وشخص إلى صيادة حيث كان يقيم سيد الهيكل ومجلسه، واستولى على قصر الهيكل عنوة وفِقد غوتبيه دي مينيل مفترض الجريمة أو الموحى بها، وبلغ الغليان ذروته، إذ قابل الهيكليون والاسباريون وسائر المنظمات البالغة الحرص على لا تمس امتيازاتها القديمة، وعلى أن يكونوا وحدهم سادة المناطق الخاضعة لقضائهم، قابلاً بالاستياء هذا التصرف السلطوي الملكي. وامتد النزاع بعيداً، فانقسمت المالك اللاتينية في المشرق مرة أخرى دون أن تهتم بمعبة العاقب الوحشية لهذا الانقسام غير المناسب. حينذاك سقط آموري في ١١ تموز (يوليو) ١١٧٤ متأثراً بحمى زحارية انتابه خلال حصار بانياس، مخلفاً وراءه — في الواقع — وضعماً داخلياً مرتبكاً، إنما يجب الاعتراف بحزمه وبجرأة آرائه فيما يتعلق بالسياسة الخارجية.

سياسة آموري الخارجية في الشرق

لم يكن آموري ينقصه المفهوم السياسي في الشرق ، فقد سبق لنا أن رأينا كيف شجع فاطمي مصر المعادين لصلاح الدين . وكان اسماعيليو سوريا مخلصين له بسبب موقفه في قضية الهيكلين ؛ كما وقع في بانياس هدنة مع سلطنة دمشق . وأخيراً أقنع امبراطور بيزنطية بضرورة استعادة مصر وإقامة مملكة فرجية فيها ؛ وعرف كيف يقيم لنفسه نقطة ارتكاز عند المسلمين . صحيح أن اللعبة لم تكن سهلة ، ولكن من الممكن جداً أنه لو عاش مدة أطول لوجد فيه صلاح الدين لاعباً قادراً على إفساد نجاحه ، وخاصة أن يمنع عليه سوريا .

بلدوين الرابع ملكاً للقدس

وارتقى ابن نور الدين اليافع عرش دمشق ، ودفعت مقاليد حكم مملكة القدس
لبلدوين الرابع ابن آموري من زواجه الأول بائنيس بنت جوسلان دي كورتناي . ومنذ التاسعة
من عمره أصيب هذا الصبي بالجذام ؛ وكان ملكه التعيس القصير الأمد — إذ مات في الرابعة
والعشرين من عمره — احتضاراً طويلاً، احتضاراً متواصلاً وهو على صهوة جواده يُصارع
المسلمين .

لقد كان تجسيداً مثيراً للشفقة وإدارياً جديراً بالعظمة الملكية، التي طالما أسيء استعمالها. فضل هذا الملك الناحل الجذوم طوال حياته عبد واجباته المسيحية في حقبة مأساوية من تاريخ المالك اللاتينية في سوريا. في الصورته المدهشة ! فهذا اللهب الذي كان ينسنه آلام جسده المضنى المسكين، أوحى الثقة إلى محبيه، فكان حقيقة بطلأً أسطوريأً. فملك القدس الصغير هذا، هذا الطفل البطولي، الذي كان يفترسه ألمٌ مضى يجعله يتعرفن حياً، كان من رسوخ المشيئه— وقد عجز عن الثبات على سرج جواهه— بحيث يتبع راقداً في سريره البائس مراحل المعارك التي ستدور رحاها في مواجهة صلاح الدين. فكان وهو يختضر مشحوذ الإرادة يقود فرسانه في المعركة منهكاً أعداء دينه، ويرثان الداء ناشبة فيه تنهكه.

الصراع على الوصاية

ومنذ أن اعتلى عرش القدس، اجتمع البارونات ليعينوا له وصيًّا، فتقدم مرشحان: مليون دي بلانسي وهو فارس وقع بلا فضيلة، ولا وزع من ضمير، وكانت طرابلس زيون الثالث الذي يرتقي نسبه مباشرة إلى الكونت دي سان جيل الذي اشتهر إبان الحملة الصليبية الأولى، ووالي الحظ مليون دي بلانسي فعين وصيًّا على المملكة، فشحن الجو بالبغضاء فيما حوله لزعمه بأنه سيحمي السلطة الملكية، غير عابئ بامتيازات ذوي الحقوق المكتسبة. فذر على الفور قرن المعارضة ممثلة برأسها كونت طرابلس زيون الثالث المغضب لاستبعاده من الوصاية؛ وكان هذا الأخير يتمتع بشعبية في صفوف البارونات الفلسطينيين، بل هو أكثرهم نفوذاً لأنه ضم إمارة طبرية إلى كونتيته الوراثية طرابلس، وليس هذا فحسب، بل تقدم — أمام مجلس بارونات مختارين من بين أصدقائه — يطعن بذلك القرار الذي أعطى حق الوصاية خصمه. وكانت القضية ماتزال عالقة، حينما ورد نباءً مفاده أن مليون دي بلانسي وجد في أحد أزقة عكا تخترق جسده الخنجر بعد صلاة العصر، فأُنسدَت الوصاية فوراً لزيون الثالث.

كانت المهمة شاقة، ففي مملكة فلسطين الجميلة هذه، كان البارونات المتهربون والوحوش لا يعيرون بأمر الملك، وانصرفوا يشيدون القلاع بهدف حماية إقطاعاتهم من المسلمين، وللاستقلال تجاه السلطة المركزية على حد سواء، ولم يكونوا يقاتلون إلا توسلاً لتوسيع ممتلكاتهم، ينفسون على أندادهم سلطتهم، ويطمحون إلى الانتصاص منها توسيعاً لدائرة نفوذهם. ترى أين غدت — في خضم خلافاتهم المادية العديدة هذه — مبادئ أجدادهم، وذلك الإيمان المتوجه بالبالغ القاء لدى الصليبيين الأوائل الذين كانوا يلفظون راكعين اسم القدس هذه البعيدة التي كانوا يحلمون بها في كل بلاد الغرب، والتي رووا أرضها المقدسة بسمخي دمائهم.

والتنظيمات الدينية ذاتها بدلاً من أن تستنكر نشاط البارونات المشؤوم هذا، وتكتَبَ من جوح مطامعهم في السلطة، وتشهّر بذناعتهم، كانت هي بالذات قدوة سيئة في تدني القيم المعنية تدنياً حقيقياً. فهؤلاء الاستباريون وهؤلاء الهيكليون الذين التحفوا بالأجحاد عهد

حماسة الصليبيات الأولى وخضباتها ، والذين برهنوا على تناهي البذل والإخلاص والإيثار غدوا الآن يتأثرون بالوسط المفسد ، فانقلبوا مخادعين ، أنانيين ، مفترضين . فشرعوا برفضون دفع ضريبة (عشر) الغنائم التي تؤخذ من المسلمين ، وصاروا من القحة بحيث يجرؤون على معارضه القرارات الكنسية لبطيريك القدس « حتى إنهم — كما يكتب جاك دي فيتري في كتابه تاريخ القدس — دنسوا الأماكن المقدسة ، وارتقت جلبة أسلحتهم بقعقتها تخفت من الأغاني الكهنوتية في كنيسة القيامة ؛ فلم يكن يشغل بالهم إلا الثراء ، والثراء وحده ؛ وتعدوا أن يطالوا بنصف المدن أو المناطق التي كانت تستمد عونهم ». تلك هي حالة مملكة القدس حيناً ورثها بدلوين الرابع .

فشل الفرنجة أمام أسوار الاسكندرية

وبينا كان الملك المجدوم والوصي يعملان على توطيد النظام في مملكتهما ، كان صلاح الدين يتلقى أول هجوم جدي للفرنجة . ففي ٢٨ تموز (يوليو) ١١٧٤ ظهر أمام الاسكندرية أسطول غيم الصقلي يقل ثلاثين ألف رجل ، والوفير من آلات الحرب وعدتها ، وكان الأمر كما يقول صلاح الدين « لقد قلق سكان الاسكندرية على مصيرهم ، حالما شاهدوا وصول هذا الأسطول البالغ الخطورة والقوى التسلیح . وألقى الأسطول بمراسيه قرب المنارة . وخرج فرسان الفرنجة من المراكب يتبعهم المشاة ، وما إن وطئت أقدامهم البر حتى هاجموا حامية المدينة هجوماً هو من الشرasse بمكان ، ودفعوهم حتى أسفل أسوارها . وبعدها عبرت مراكبهم بالمجاذيف إلى المرفأ . وأحرقت بعض سفن المسلمين التجارية ، واستمرت المعركة محتدمة حتى المساء . وفي صباح اليوم التالي شدد الفرنجة الحصار على الاسكندرية ورجموها بالقذائف ، وحاولوا ثلاثة مرات اقتحام أبوابها لكنهم ردوا على أعقابهم .. وانتقموا من شجاعة جنودنا بذبح الأسرى وإحراق الحقول المجاورة . وكان رجالنا — بدورهم — يذبحون الفرنجة الذين يقعنون في أيديهم ويقتلون بهم » .

هذا وقد أنقذ الميناء المصري الكبير من السقوط بفضل النجدة السريعة التي استدعاهها صلاح الدين ؛ فما إن شاهد غيم الصقلي طلائع قوات صلاح الدين حتى أصدر أوامره إلى جيشه بالعودة إلى مراكبه ، وبعد بضعة أيام كانوا يقلعون شمالاً .

الانقسامات الداخلية في الدولة الزنكية

أما في دمشق فكانت الفوضى مماثلة لتلك السائدات في القدس وللأسباب ذاتها ، إذ كانت تثار حول ابن نور الدين — الذي ورث سلطنته أبيه وهو دون الحادية عشرة — المنازعات بين أقاربه وأمرائه ومستشاريه الذين شرعوا يكتسون أنفاس المزعجين من غرامائهم ، ويقلبون الملوكات الإدارية في البلاد ، ويجزئون هذه المملكة الزنكية لسوريا التي حصلها بصبر وأناء نور الدين الوالد الذي لم يجف ثرى قبره بعد . وكانوا يعنون في خيانة الفتى الذي كان له على حد قول أحد معاصريه — من السادة أكثر ما له من الرعایا الخلصين . وراح بعض الرجالات من أصحاب العقول الراجحة والبصائر النيرة ، من ألقائهم مغبة العواقب المحتملة لتلك الفوضى ، راحوا يتساءلون عمّا سيؤول إليه مصير سوريا المسلمة — وتلك حالتها — إذا ما واجهت المالك الفرنجية في المشرق التي يمكن أن تضع في المرتبة الثانية منازعاتها الداخلية إذا تراءت لها إمكانية تحقيق النصر بالمجوم على دمشق المفككة ، وليس هذا فحسب بل شرحوا لصلاح الدين حرارة الوضع في سوريا طالبين رأيه دون أن يخفا رغبتهم في أن يروه يلعب دوره السياسي بطلاً للإسلام في سوريا — كما هو في مصر .

وكان تصرف صلاح الدين إزاء تلك العروض حذراً ، فطلب مهلة للتفكير بغية أن يأخذ على عاتقه مجدداً تحقيق المطمح الكبير لنور الدين : طرد الفرنجية من سوريا .

صلاح الدين يدخل دمشق

ومن المثير للإثارة — في الواقع — أن تعدد المؤامرات المعقّدة التي حيكت في كل من دمشق والقاهرة ضد هذا المشروع ، وما تتصف به مغامرات الأمراء من نوازع الغيرة والحسد التي لا يعرفون سبيلاً لدفعها ، أو مغامرات الوزراء الذين يخشون جانب صلاح الدين قدر خشيتهم ملك القدس ، ناهيك بقلقهم من روحات وجیهات هؤلاء وأولئك ، فتلزمهم هواجس القلق الممض ، غير عارفين وهم في مناصبهم أيّ توقيّ يوالون لشدة ما يكتنف المستقبل من غموض . ولم يكن صلاح الدين على عجلة من أمره في قبول سلطنة دمشق لثلا يُظن أنه يسعى إلى الحلول محل ابن سيده السابق نور الدين . كان يُفضل أن يتوجه إليه بالرجاء ، ولم يأخذ طريقه إلى دمشق إلا بعد النداءات الحارة التي بعثها إليه أنصاره فيها ،

فغادر القاهرة على رأس سبعمائة من فرسانه الأكراد متوجهاً صوب خليج العقبة . لتفتيش قلاع سيناء ، واجتاز دونما ضجة وادي عربة عبر الواقع الفرنجية ، ثم مرّ ببصري ودخل دمشق ، يوم الثلاثاء ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٧٤ ؛ وسط ترحيب الشعب المسرع إلى تحية هذا الرجل الذي شرع يعتربو منذ الآن بطلاً . وكم كانت فرحة صلاح الدين غامرة بأن عاد إلى تلك المدينة المقدسة ذات المائتين وخمسين جامعاً حيث قضى فترة يفاعته ، وأن يتملى سحر هذه الواحة التي كانت تعد في الآداب العربية إحدى أربع أجمل بقاع الأرض ، وفردوس الشعراة الذي تسقيه مياه بردى المتزرقة ، ذلك النهر الموزع على الحمّامات والجوامع وساحات البيوت ، في خيرٍ أبدى للسوق التي نجدها لدى كل خطوة . لقد تذكّر المدارس الشهيرة التي كم تردد إلى صفوفها أو كتاتيب الجماع الحادئة حيث درس بحماسة في مصاحفها الفخمة المزينة ، لقد رأى ثانية ذلك البلد المزدحم بالحشود المتعددة الجنسيات ، وشهد تلك الحركة البطيئة لسير القوافل المثقلة بكتوز الأرض منتهية إلى تلك الأسواق الضيقة لتتكدس فيها منتجات جميع الأنصار تذكّر ما سي تارikhه ، والحرائق وأعمال النهب ، وعظمة دمشق في عهد العباسين ، ولم يكن يشعر بالغرابة في هذه المدينة ، وما دام الله قد أخذ بيده إلى ذروة السُّودَّ والعظمة ، ووضع بين يديه سيف الإسلام ، فقد قطع على نفسه عهداً بتوحيد سوريا وتجميع قبائلها في سبيل الجهاد المقدس^(١) .

وأعلم صلاح الدين السوريين ، في بيان له بأنه لم يأت إلا لإنقاذ ابن نور الدين ، السجين في حلب وتخلصه من قبضة وزير تركي في القصر ، ومراقبة تربيته السياسية . وبالتالي كيد كان لإلغاء عدد من الرسوم الجمركية أثر أعمق .

استيلاء صلاح الدين على المدن السورية عنوة

بعد أن أعاد صلاح الدين تنظيم المصالح الإدارية في دمشق توجه إلى الشمال السوري صوب حلب الشهيرة بقلعتها القديمة التي بناها الحشّيون . وكان يفترض أن يشرع له حكام المدن التي سيمر بها الأبواب على مصاريعها حالما يظهر في الأفق ، ولكن الأمر لم يجر على هذا النحو ؛ مما دفعه لأنْخذ هذه المدن عنوة الواحدة بعد الأخرى . ففي كانون الأول (ديسمبر) ١١٧٤ استولى على حمص (أيضاً القديمة) التي أسسها في زمن سالف سلوقيس نيكاتور

المشهور ، حينما استُدعي «الياغابال» الكاهن الأكبر الشاب لعبد الشمس ليتولى سدة حكم الامبراطورية . وعلى أبواب هذه المدينة أباد «أوريان» في معركة لاتنسى جيش الملكة زنوبيا مكللاً نفسه بالأجحاد بمهدًا أمامه طريق تدمر .

وسلك صلاح الدين صعوداً طريق وادي العاصي حيث تكثر الحُميات ، والذباب ذو الرأس الزمردي وأسراب البعوض التي لا تحصى ، مما يجعل الإقامة مستحيلة . ودخل حماة المدينة المعرفة في القدم التي نجد اسمها في النصوص الآشورية وفي العهد القديم ، وكانت تدعى أfähمية في عهد أنطيوخوس الرابع ابيفانوس ، وظلت بعد الفتح العربي رداً طويلاً مركزاً هاماً للدين المسيحي . «وكان سكان حماة — حسب قول أحد المعاصرین — يحتفلون بعيد الفصح ستة أيام . وترتدي النساء حينذاك الثياب الأنثية ، ويصبغن البيض ويُعددن الكعك والبسكويت . ويؤم سكان الضواحي حماة وينزلون ضفاف العاصي حيث ينصب الحمويون الخيام ، ويجربون المغنيات محمولات في السفن ، ومن ثم يبدأ الرجال والنساء الرقص طوال الأيام الستة ، وتحدث خلال هذه الرقصات مشاهد من التجاوزات التي تذكر بمارسات طقس أدونيس ، كما يحتفلون بدخول الشمس برج الجدي ، وهذا مالملاحظه في أية مدينة سورية أخرى ، وفي ليلة الميلاد يزقدون المشاعل على الأجاجير ، ويحرقون البارود والنفط ، ويتراکض البدو من أعماق الباية الخيطية لمشاهدة هذه المدينة التي تبدو وكأنها تحرق وتنطفئ تحت جناح الليل الصافي لسمواتنا» .

أمام أسوار حلب

وفي ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) ١١٧٤ عسكرت قوات صلاح الدين أمام حلب ، أقدم مدينة في العالم ، وما زالت قائمة في أيامنا ، مسكنة مزدهرة ، بعد أن شهدت تحت أسوارها أوسع هجرات شعوب العالم القديم ، منهم الحثيون القادمون من الأناضول منذ ما يزيد على أربعة آلاف سنة ، أولئك المؤسسوں لإمبراطورية ذات حضارة راقية ، التي انهارت بصورة بالغة القسوة والتي لم نعرف إلاّ لاماً عن مجدها أو مدة ديمومتها . والخوريون Khourrites المتحدرون من القفقاس المتوجهون جنوباً نحو مصر ليغتروها بموجة بشرية عارمة ، والميتانيون المنفصلون في سورية عن قومهم الهندو— أوريين — والآشوريون ذوو القوة العسكرية التي

لا مثيل لها في سالف العصور ، والذين سلكوا سياسة منهجية لاستبعاد الشعوب بتوسلهم بالإرهاب ، سبب لهم إلى ذلك ، مما أتاح لهم أن يخضعوا جميع الامبراطوريات المجاورة . والفرس الأشمونيون الذين طردتهم مقدونيو الاسكندر الأكبر الذي كان سيفتح في المشرق عهداً تاريخياً جديداً باتجاه لا يدرك تطور مسيرته . والمستعمرات اليونانية لسلوقس نيكاتور الذي أسس بمفرده خمسين مدينة ، كانت نوى لزروبية من الدول الذاتية الحكم . وكان هذا الانفجار من الشعوب الفاتحة ما يزال قائماً في حلب الراسخة على صدر المعمرة ، بينما انهار حولها الكثير من العواصم مثل نينوى وبابل . وغدت حلب التي أحاطت نفسها بالأسور العديدة أهم مركز سوري للهيلينية التي عممت تقريباً مختلف شعوب الشرق التي أخذت بسحر نفوذه ، والتي ما يزال تارikhها مرتبطة بتاريخ الحضارات المتوسطية . إنها تسمع الضجيج المكتوم لكتائب بومبي وديوقليسيان الحاملة معها عهداً من السلم والازدهار تحت حكم مندوبي مجلس الشيوخ الرومانيين المقيمين في أنطاكية الذين طوروا إنجازات السلوقيين ، فتتج عن ذلك هلةً للبلاد بصورة أوسع وأعمق . وكان لانهيار روما صدأه وانعكاسه في حلب . فالفوضى التي كانت تدمّر الولايات الأمورية من الامبراطورية الرومانية أمنت للتجار الحلبين مصدرًا إضافياً للأرباح فأثروا من جرائهما إثراءً فاحشاً . ثم وجهتهم أيام من المحن على أيدي العرب الجنديين لدى الفرس الساسانيين ، وسبب الهزّات الأرضية ورجال قبائل الهون الذين أجلوا السكان وأحرقوا حلب ودكّوها رأساً على عقب ، وأخيراً ، أفاد العرب من انهيار العالم القديم فانتزعوا سوريا وفتحوا حلب بلا قتال . لم يتغير عامل تطور المدينة إلا بصورة تدريجية ، وبانتقال غير محسوس . وفي ظل الحكم العربي ، ظلت حلب تتداولاً الأيدي انتقالاً من يد إلى يد حتى إنها — ذات مرة — بدللت سيدتها ثلاث مرات في ثلاثة أيام . وكانت الفوضى تعمها في أعقاب الحروب الأهلية . ومن ثم عرفت عهداً من مؤامرات البلاط ، وزحفت إليها عصابات من الأتراك لتقيم فيها ، عارضة خدماتها المركبة القاسية على أمراء الإسلام . مقتوفة الجرائم ، ومخلفة وراءها المأساة ، مما حمل أعداداً غفيرة من السكان على الهجرة إلى موارع الفرات ، مختلفين وراءهم مدینتهم لتكون عرضة للهجوم أو المحصار الثني عشرين مرة في أقل من قرن واحد .

وهكذا فإن مركز حلب ، الواقعة على ملتقى تقاطع وحدات جغرافية واسعة وتجمعات

بشرية كبيرة؛ كان وراء حسن حظها أو سوء طالعها اللذين هما على الدوام صنُّع طرق المواصلات التي تكون هي مفترقها. وكانت الأعجوبة تكمن في قدرتها على البقاء عبر هذه الإمبراطوريات العديدة، وأن تزدهر رغم غزوارات الشعوب التي عفت — في كل مكان آخر — على حضارات كاملة، وأن تنمو طوال أربعة آلاف سنة على تحفون هذه الإمبراطوريات الآسيوية، هذه البناءات السياسية المؤقتة التي شهدت ولادتها ونهايتها وسط قعقة أسلحة الجيوش. كما شهدت الحشود البشرية الهائلة من كل جنس تمّ بسهولها ، من رماة السهام الآشوريين حتى صليبيي الغرب. أية آلة إذاً حملت حلب عبر هذه السلسلة الطويلة من القرون؟ هذه المدينة التي رأت الكثير من الآلهة ، وظلت حية متتجدة الشباب ، بينما انهارت نينوى في اللهب ، واحت بابل في الصحراء ، وغدت مدن شهيبة غيرها لا تكاد تخطر بذاكره البشر.

وحينا ظهر صلاح الدين مع أكراده أمام أبواب حلب كانت المدينة في إحدى حقب ازدهارها . ففي الخمسين سنة كانت الانقضاض المادي التي ركمها الأتراك قد أعيد بناؤها ، إذ جدد نور الدين بناء الجامع الكبير الذي أحرق عام ١١٦٩ ، ورمم القلعة والأسواق . كانت الأبنية الجديدة ترتفع بكثرة والدخول السنوية الوفيرة للمدينة تدل على نشاطها العام . وتتيح لنا هذه المداخيل أن نحكم بأن تجارةها كانت مزدهرة بقوافل جهالها وبأسواقها المالية وبداغاتها وأسواق نخاستها ، وخاناتها المترعة بملح بحيرة الجبول ، وخمورها وحريرها وتوابعها ، وأدوات زيتها المصرية ، ونباتاتها الصينية وجلودها وخلاصات الخشب الثمين والأفيون والعطور والأقمشة العجمية منها والهندي والموصليّة ، والمتارف والأدوية والأسلحة . وكان إشعاعها الديني يؤمّن لها مكانة مميزة في سوريا . كان مجتمعها الإسلامي السنّي واعياً ما هو عليه من مكانة ، فكان نضاله ضد البدعة وانتصاره النهائي ، ودعم الأمراء الرسّي إياه ، وانتشار التعليم الديني ، وصعود موجة التصوف والتشدد في وحدة العقيدة المستعادة ، جميع هذه الأمور كانت بمثابة براهين لكل مسلم على المتنزّلة الأولى للإيمان ، كما كانت — وبالقدر ذاته — أسباباً لتأجّج الشعور الديني . وفي حلب غداً الإسلام السائد أكثر تعالياً وأشد تصلباً منه في أيّ مكان آخر في سوريا ، فكان نزاعاً على الدوام لاتخاذ موقف كفاحي ، ولو وحده حق المواطن في المدينة التي غدت — بكل ما في الكلمة من قوة المعنى — مدينة مسلمة ، والبؤرة المتأجّجة للإسلام

المناضل ، المتشدد والمنهجي . هذا وإلى جانب الجامع الكبير الذي أعاد بناءه بفخامة نور الدين النقّي شيدت مدارس قرآنية وتكميلية دراويش وأخذت الأمكانية الدينية تتضاعف كل يوم .

وبدوره كان القانون صارماً ، فكل من يحيى في ظل المجتمع الإسلامي — من الذميين — عليه أن يحيى حياته بصمتٍ ومتوجه الخشية .

وحيينا شاهد سكان حلب قوات صلاح الدين تتمرّكز على أبواب مدینتهم لم يعرفوا أيّ موقف يتخذون .. فالوجهاء وأكثربن من التجار أخذوا يتخيّلون الحزب وأهواها والمحصار ونهب الأسواق المقدسة بالبصائر . وقاربوا بين قوة صلاح الدين وقوة ابن نور الدين ، وفضلوا الخضوع لسيّد ماهر قادر على إدارة مصالحهم إدارةً شريفة ، بدلاً من أن يخضعوا لحكم غلام يديره وصيّ ناشيء في القصر ، فاقتربوا التسلیم . أما الأمراء فكانوا متربدين ، واعمال السلطان الشاب من ثرثرة الأولين ، وتردد الآخرين فقرر مخاطبة الحلبين مباشرة ، فتوجّه إليهم بخطابٍ ، لا ينفعه الحزم مبرزاً رأيه في صلاح الدين إبرازاً استثنائياً : «أيها الحلبيون الذين أحجمهم والدي دائمًا ، لا تخلوا عن ابنه الذي يطلب تأييدهم . وخائن ذلك الذي انتشله نور الدين من الخضيض ، فلم يكتف بأن اغتصب مني أملاكي ، وه فهو ذا اليوم يريد أن يطردني من ملاذي الوحيد المتبقّي لي . إنه يطاردني حتى الموت كيلا يحول حائل دون مطامعه ، أيها الحلبيون أنتم أمل الوحد . دافعوا عنني ضد خدمي الذين أصبحوا أعدائي ؛ إلا إذا كنتم تفضلون أن تلقوا بي عند أقدام هذا الكردي المتوحش»^(٢) .

وعندما سمع الجمهور هذه الكلمات أخذته الشفقة بالأمير الصغير ، وتمكنـت من جرّ جماهير الأسواق المتجمّسة إلى حد الجنود المتربدين للدفاع عن المدينة . واضطـر صلاح الدين أمام صمود حلب ، والصعوبات التي أثارها الفرنجية في مؤخرة جيشه أن يرفع عنها الحصار .

العودة إلى حص

وحين شرع صلاح الدين يفكـر في الانتقام وحشد قواته ، علم بأن حـاكم حـصـنـ المسلم يتفاوضـ من وراء ظـهـرـهـ معـ الفـرنـجـةـ ، بـمبـادـرـةـ رـيمـونـ الثالثـ كـوـنـتـ طـرابـلسـ الذيـ أـدرـكـ أنـ وجودـ سـيـدـ مصرـ فيـ سـورـيـةـ يـهدـدـ فـرنـجـةـ المـشـرقـ . وـكانـ الـوضـعـ جـلـيـاـ ، وـغـداـ منـ الأـهـمـيـةـ بـمـكـانـ وضعـ

العرقيل أمّا قوة صلاح الدين الصاعدة بأن يعلن كونت طرابلس نفسه حامياً لابن نور الدين
الضعيف وتأييده مزاعم هذا الأخير الشرعية ضد مزاعم ابن أخي شيركوه .

ولهذا جمع ريون الثالث قوة من المتطوّعة ، وظهر أمّا حمص حيث كان له عدد من
الأصدقاء داخل الموقع فجروهم على إعادة تسلیم المدينة لحكامها السابقين ، وكان يريد بهذا
أن يقطع الطريق على قوات صلاح المنسحبة من حلب . وهكذا أحبط فتح مدينة حلب ،
ولكن ظهر صلاح الدين أمّا حمص بعد يومين من وصول كونت طرابلس ، فطرد فرسان
الفرنجة كما يُطرد سرب من عصافير الدوري . وشخص إلى أنطاكية فدمّر نواحيها انتقاماً من
نوايا الفرنجة المعادية . أمّا كونت طرابلس فانكفأ إلى معقله يختفي وراء أسواره : قلعة الحصن
المنيعة ، محققاً بذلك هدفه حين أجبر صلاح الدين على رفع الحصار عن حلب ، وعلى التخلّي
عن فكرة الاستيلاء على المملكة الزنكيّة ، مملكة ابن نور الدين ، وبالتالي دعم أميراطوريته
المصرية — الشامية على المحور السياسي حلب — الموصل . وكان هذا التحرّك — الذي قام به
كونت طرابلس يمثل بدقة تحقيقاً للسياسة المقدسة التي دشنها فيما مضى فولك ، والتي تقتضي
أن تتحقّق الغايات بأقل ما يمكن من الوسائل بحمايةه أمراء دمشق ضد تطلعات نور الدين
زنكي ؛ للحيلة — وبأي ثمن كان — دون قيام تحالف بين الأمراء المسلمين ضد الممالك
اللاتينية على الشاطئ اللبناني .

الفرنجة يهددون جنوبي سوريا

هذا وتزامنت محاولة حمص مع تدخلات أخرى للفرنجة في الأراضي الإسلاميّة ، إذ عبروا
الأردن وأحرقوا غالباً المسلمين وأغتصبوا نسائهم ، ودمروا عدداً من قراهم ، وبعد ارتکابهم هذه
الأعمال الفظيعة عادوا ليتمتعوا بقسط من الراحة ولينعموا بملذات القدس قبل أن يستأنفوا —
على نطاق أوسع — حرب الغنائم تلك . كما اتجه بلدوين الرابع — وكان في الخامسة عشرة من
عمره — نحو صيادة وتقدم صوب البقاع ، هذا الوادي الرائع الجمال حتى ليخيل للمرء
حسب ما كتب غيّوم الصوري : « أنه يرى فيه نهراً من اللبن والعسل ». وانتقل الوصيّ من
جبيل عابراً جبل لبنان والتلقى ملك القدس في سهول دمشق ، وبعد أن هزم بلدوين الرابع أخاه
صلاح الدين وصل إلى مسافة خمسة كيلو مترات من المدينة الشهيرة ، وتحديداً إلى قرية

داريا، لكنه لم يتمكن من دخول دمشق، وعاد إلى مملكته، وهكذا بينما كانت العقبات تُعرض مسيرة صلاح الدين في شمالي سوريا، كانت مملكته مهددة في الجنوب.

في ظل أعمدة بعلبك

وانحدر صلاح الدين في وادي العاصي واستعاد بعلبك التي قضى فيها رحراً من سنى شبابه برفقة والده. وفي ظل الأعمدة العملاقة هيكل جوبيتر كان يستطيع أن يرى بشيء من الفخر، الطريق التي سلكها منذ ضحى عمّه مرغماً إلى مصر؛ وذهب في موكب احتفالٍ إلى خرائب المعبد الفخم. ترى ماذا كان يدور في خلده أمام هذا الإنجاز البشري العملاق؟ رمز عظمة البشر وأوهامهم. أين أصبحت بعد كل هذه الاضطرابات، تلك الشعوب الأسطورية التي توهمت أنها تبني للخلود، وتحقق في الرخام والصوان الحلم السرمدي لوجودها المستحيل. وأمام مذابح الهياكل هذه المفقرة الآن حيث كان مقدمو الأضاحي القدماء ينذرون أضاحيهم العذراء دفعاً لغضب الآلهة أو استئنالاً لرحمتها. ترى هل رأى صلاح الدين في هذه الخرائب الشهيرة للمدينة القديمة مواكب الملوك والمحارين. والأباطرة الزاحفين من الشمال والشرق والغرب أو القدمين من وراء البحار أو مقبلين خروجاً من أعماق الصحراء، أولئك الذين لا يُقهرُون من ذوي الأمجاد الصابحين تيهًا بآناشيد انتصارتهم في ظل هذه الزينة الملوسة لتلك الهياكل التي شيدها شعب من الآلهة؟ أوَاه يا جوبيتر الهيليوبوليتي حامل الصاعقة رمز الشمس، وسبيل القمع رمز الوطن الأم.

وهل أفلقت تلك النيران الدائمة الاشتعمال في هذه المدينة المبنية من أجل مجد جوبيتر، نفس صلاح الدين؟ ياله من درس تاريخي قاس اندثار هذه المدن الآسيوية: عمرت وحضارتها المشحونة بالأسرار (حضارة البحارة). طرابلس ومعابدها، صور وأعمدتها الزمردية، صيادة وميناؤها البحري، وأبعد منها جبيل وأنائى كذلك نيري، وأبعد مطروحاً برسبيولييس (مدينة فارس)، وغيرها وغيرها كثير، ليس لها أوابد تشهد على عظمتها بل هي مجرد خرائب مبعثرة كثرب الموقى اندرست وأماحت لتحول محلها مدن أخرى مبنية من الليل، أو غابات وكثبان ورمال. هل دار بخلده أن الشعوب في سباقيها الجهنمي المتجدد على الدوام تعيد الآن تاريخ الإنسانية في مسيرة عبئها هذه.

الحلف الجديد ضد صلاح الدين

وظهرت أمام صلاح الدين تعقيدات أخرى. وبعد اخفاقه في حملة حلب ، وظهور الفرنجية عند أبواب دمشق ، كان عليه أن يعترف بأن وضعه في سوريا غير مستقر . فالمملك الصالح ابن نور الدين يود بغية ترسیخ مملكة حلب ، أن يتحالف سيف الدين غاري ، حاكم الموصل ؛ وكان غرض هذا التحالف مصوغاً صراحة في ثلاثة نقاط : التخلص من صلاح الدين ، وإعادة سلطنة دمشق إلى أصحابها الشرعي الملك الصالح ، واقتسم مصر وواردات المكوس . وكان الوقت يbedo لهما جد مناسب لترجمة هذه النوايا السياسية إلى وقائع ، ذلك لأنّ قوات صلاح الدين — بسبب تركه حاميّات لها شأنها في وادي النيل — قليلة في سوريا ، لكنها بالمقابل قوات موالية لإياده ولاءً أعمى .

وبحكم المؤكّد ، لم يكن صلاح الدين يستطيع القتال بأن معًا ضد الأمراء السوريين المخلصين لابن نور الدين ضد حاكم الموصل وبلاط ما بين النهرين التي هي مستودع زاخر بالرجال ، ضد الفرنجية القادرين على الإفادة من إرياكه .

وبالتأكيد فإنه سيهار أمام هذا الحشد من الأعداء لو أن سلطان حلب مجرد من سلطته استند إلى مستشار حاذق ، وكان حاميّه سوء طالعه يخشى جانب صلاح الدين قدر ما يخاف حاكم الموصل ، والذي لم يشا خشية أن يفقد مركزه الممتاز أن يتورّط مع حليف قادر على تحريره من الحكم . ولذا كثيراً ما كانت المفاوضات تنقطع بسببه ليعاد استئنافها من جديد ، وكان سوء طويته من الجلاء حتى قرر سلطان الموصل الشخصوص إلى حلب لمقابلة الملك الصالح ؛ ولكنه لم يذهب وحده ، بل اصطحب معه حاشية مهيبة تضم أميري الجزيرة العليا وديار بكر وقوات ممّا بين النهرين حشدتها ارتقّيّو كيما وماردين ، وتوجه كل هذا الحشد الجيد التسلیح في صخب صوب حلب .

هزيمة قوات أمير الموصل وأريحية المتصر

وحين أصبح على بعد خمسين كيلو متراً من المدينة هاجمه قوات صلاح الدين ، ولتساوي شجاعة الفريقين ظلت المعركة طويلاً سجالاً ، وبدلًا من أن يسارع ابن نور الدين

وزيره لشد أزر سلطان الموصل آثرا الاختباء في مكمنهما، وكانت النتيجة أن هُزمت قوات الخليفة واستولى المتصر على أمتعتها وخيمها الفخمة، ووقع عدد من أمراء ما بين النهرين أسرى، لكن صلاح الدين عاملهم بمنتهى الأريحية، وأرسلهم معززين إلى قبائلهم البعيدة، وأمر بأن يعالج على حسابه المرضى والجرحى الذين تخلى عنهم سيدهم، وبهذا اكتسب شعبية واسعة ظلت أمداً طويلاً تردد على ألسنة شعراء الbadia.

الاستيلاء على حلب وشمال سوريا

ولكيلا يفقد ثمن انتصاره اخضع صلاح الدين جزءاً من سوريا العليا فاحتل منبع الشهيرة قدماً بعادتها الإلهين السوريين حدد وأثار غاطسـ، وبرزة التي تسسيطر بقلعتها البيزنطية على طريق اللاذقية، وإعزاز التي شهدت مور غربات آشور بانيبالـ. وأمام هذه البلدة الأخيرة، كاد أن يذهب ضحية جريمة سياسية أعدّتها ضدّه حركة الحشاشين أو الاسماعيليين التي يتزعمها شيخها سنان الذي سبق أن تحدثنا عن شخصيته المقلقة، إذ أرسّل هذا الأخير إلى نجم صلاح الدين لاغتياله عصبة من أتباعه المتعصبينـ، وقد تمكّنوا من الاقتراب من خيمتهـ، حينما عرف الأمير حمّارتكين أحدّهم ناداهـ، بينما تسلّل الآخر إلى خيمة صلاح الدين لطعنهـ، وشاءت الإرادة الإلهية أن يكون هناك أحد الحراسـ، فسارع إلى اختراق جسده بالسيفـ، وبذا نجا صلاح الدين بأعجوبةـ، فتالك نفسه مؤجلـ معاقبة شيخ هذه الفتنةـ. وعاد أدراجه ثانية إلى حلب آملاً أن تكون قد سبقته أخبار المزينة التي حاقت بحلفاء ابن نور الدينـ، وتكون بالتالي عبرة لهذا الأخيرـ ولوزيرهـ، فيصير أكثر استعداداً للمصالحةـ. وتم الاتفاق بين الطرفين بعد عدة مناقشات ومساومات كان الملك الصالح سعيداً للغايةـ بإنقاذ رأسه الذي لم يكن مستعداً لرؤيته يُحمل كإندار لسلطان الموصلـ، فسلم الملك الصالح حلب لصلاح الدين الذي كفأه على خيانة أصحابهـ في ساعات مختتمـ وأسند إليه حاكمية بعض الواقع الثانوية مثل حمص وحمّة والمعرة وكفر طابـ، مثبتاً بضئيعه هذا بأنه لم يكن ينوي أن يجرّدـه من السلطة بل أن يشرفـه بثقتهـ.

السلطة الأيوية من حلب إلى القاهرة

وطبيعي أن ابن نور الدين الذي انضوى في ظل صلاح الدين بعد أن كان تحت حماية

القدس والموصى لم يعد يفكّر في التمسك بحقه في سلطنة دمشق. وهكذا بعد نجاحات متعددة كانت سلطة مؤسس السلالة الأيوبيّة تترسّخ ويعترف بها من حلب إلى القاهرة. وكتب غيّوم الصوري يقول: «لقد انتشرت تلك الأنباء في أراضي الفرنجة الذين انتابهم جرّاءها الرعب، لأنّها كانت دائمًا موضع تخوّفهم، لإدراكيّهم تمامًا أنّهم سيطّوقون من جميع الجهات إذا استولى صلاح الدين على حلب».

واغتنم صلاح الدين وجوده في حلب، فقام بزيارة الشّيخ الصّوفي يحيى المغربي وحجّ إلى قبر عمر بن عبد العزيز. ولكونه قدّاً سيد ثلاثة أرباع سوريا الإسلامية نقل مقره إلى دمشق، وبذلًا ملکاً فعلًا، وأطلّع بلاط بغداد على ما حازه من نجاح، وبالمقابل وفّد عليه سفير الخليفة وخلع عليه خلع التّكريم ومنحه صكّ تولية يعترف به فيه سلطاناً على مصر وسوريا الوسطى والنوبة واليمن.

مُجَدُ صَلَاحُ الدِّينِ وَالْقَابَةِ

وهكذا أصبح السلطان صلاح الدين — بما يحمل من نعوت تاج الأمراء، وقائد الجيوش، والمتصرّ فخر الدولة، وعماد الإمام، وسيف الإسلام، ومجد الأسرة العباسية وسندّها، وصاحب مقامها الأعلى، كما صكّت التّقدّس باسمه الذي صار يذكر في خطبة صلاة الجمعة — وألغي اسم ابن نور الدين من الصّكوك الرسميّ في كلّ من مصر وسوريا.

صَلَاحُ الدِّينِ وَشِيخُ الْجَبَلِ

وبعد الاحتفالات بهذه الأحداث، ترتّب على صلاح الدين، أن يطلب من الشّيخ سنان تفسيرًا لمحاولته اغتياله في إعزاز على يد أتباعه المتعصّبين وشرحًا لهذه الإخوانية الغامضة للحشاشين التي طلما تحدّث عنها الناس في الشرق القروسطي؟ كان الإسلام ما يزال في اندفاعه وقد انتشر بسرعة فائقة بين شعوب متباينة ثقافةً وديانةً وعرقاً، بحيث أثار ردود فعل صامتة. وكان التسامح الإسلامي المستمد من روح الآية القرآنية: ﴿لَا إِكْرَاهٌ فِي الدِّينِ﴾ تدبّرًا سياسياً ممتازاً..

ولم يكن بمقدور صلاح الدين وقد استتب له الأمر في سوريا أن يعجّل شيخ الجبل،

فماذا كان موقفه بالضبط؟ كان عليه مآخذ تجلبها محاولة الاغتيال التي كاد أن يذهب ضحيتها في إعزاز. ولكنه لم يستطع أن يصادم مواجهة تنظيمًا لا يمثل قوةً مقلقة بعد أتباعه فحسب، بل يتعصّبهم وولائهم البطولي. وكانت المصلحة تقضي بأن يتصرف بحذر. والآن يضُن في إظهار حسن نواياه وأن يداري شيخ الجبل معترفًا له بسلطته الروحية دون أن يرتج باب المستقبل. ويزعم بعض مؤلفي الحوليات أنه حاصر مصياف في انتشار ظاهر للجيوش، وأنه فرض على الشيخ سنان معايدة صداقه، ويؤكد بعضهم أن صلاح الدين — بعد كثير من المفاوضات السرية — أصبح مقابل تنازلات غير معروفة في حماية الحشاشين. على كل حال لم يعد صلاح الدين بعد الآن يزعجه شيخ الجبل ومريده.

العودة إلى مصر وإنجازات صلاح الدين العسكرية والفنية والفقهية

في خريف ١١٧٦ عاد صلاح الدين إلى مصر تاركًا حكم سوريا لأنجيه طوران شاه خلال غيابه. ويقول الطبيب عبد اللطيف الذي عرفه عن كثب: كان بناءً عظيمًا عالماً بكيفية تشييد الأسوار وحفر الخنادق، وتابع في القاهرة سياسة العمل التي بدأها قبل عدة سنوات ، وكانت السلالة الأيوبية — التي يعد صلاح الدين رأس مؤسسيها وأكثراهم نشاطاً — ستبدأ بها مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام ، وستترجم أعمالها وإنجازات موقعة في المضمار العسكري ، وذلك بتوظيف جميع واردات الدولة لطرد الفرنجة من الأرض المقدسة ، وفي المجال الفني ، بخلق طرز معمارية جديدة وتبني أساليب تزيينية مبتكرة فضلاً عن إزالة الخط الكوفي من الكتابة على الأبنية ، وأخيراً في المضمار الديني ، بطبعه البدع ، وتأسيس المدرسة الشرعية التي أصبحت — حسب قول ابن إياس — مؤسسة سياسية ، وقلعة للفقهاء.

هذا، وإن صلاح الدين الذي وطد دعائم حكمه ، بتأسيسه في مصر مدارس يدرس فيها مدرسوون على المذهب السنّي ، أوجد أيضًا الخانقاه ، وهو تكية للمتعبدين التأمليين ، وقد شاع هذا النوع من بيوت العبادة حتى صار الأمراء في القاهرة يتسابقون إلى إقامة المزيد منها.

وأمر صلاح الدين بصن النقود التي تحمل صورته ، ويظهر عليها السلطان معتماً (صورة وجهية) جالساً على العرش على الطريقة الشرقية طاوياً ساقيه تحت جسمه . ولم تضر هذه النقود الصلاحية في مصر بل في ما بين النهرين .

محمد صلاح الدين

وهكذا بدأ صلاح الدين — وهو في التاسعة والثلاثين من عمره — يؤثث مجده بمهابة، انطلاقاً من مدينة القاهرة التي سبق له أن قدم إليها مجهولاً، فغدا سلطاناً لسورية ، والنوبة ، وسلطان اليمن الأسطوري ، هذا البلد الذي تعاقبت فيه الملوك المزدهرة التي ربطها الإسلام بحكاية سليمان وملكة سبأ ، وازهرت به حضارات لم تكتشف أبنيتها بعد .. مؤسساً المدارس والتكايا ، مقيناً في بلاط خليفة بغداد العباسي سفارة دائمة .

وبذا غدا صلاح الدين من أشهر شخصيات الإسلام .. ثُرى هل تراءى له مستقبله في قاعة ديوانه في قلعة القاهرة حيث كان يعقد مجلسه ، ويصدر أحكامه القضائية ، وهو يشاهد أحد أجمل مناظر مصر ، حيث العاصمة بجوارها القديمة ، ووادي النيل بحقوله الخصبة التي يرويها ، وغنى هذه الأرض وروعة تلك السماء حيث تلعب في تنوع لانهائي تناغمات النور الصابحة .

حواشي الفصل الثامن

د الواقع صلاح الدين في بسط نفوذه على بلاد الشام

٩ — كان لاضطراب حبل الأمن في بلاد الشام ، في صراع الأمراء السوريين ، حول الوصاية التي غدت موضع نزاع بين دمشق وحلب ، وتصدع الوحدة السورية التي وطد دعائمها نور الدين زنكي ، والخطر البالغ الخطورة الذي أخذ يذر قرنه ، مع توغل الصليبيين في بلاد الشام ، كل هذه الأمور ، دفعت صلاح الدين الأيوبي إلى التفكير جدياً ، بالسير على خطأ بطل الإسلام الراحل نور الدين .. في خلق جهة عربية واسعة صلبة ، للوقوف أمام الخطير الصليبي الكبير يقول الباحث قدرى قلعي:

«وأمام هذه الفوضى العاصفة ، أخذ الحلم الذي كان يراود صلاح الدين يعاوده بإلحاح ، بل تحول في نظره إلى واجب ينبغي له القيام به ورسالة من الحتم عليه أداؤها ، فهو يعتقد بأنه الوارث الحقيقي لمملكة نور الدين ولسياسته في الجهاد ، وقد انشقت أمامه الطريق لإنشاء إمبراطورية كبرى يبعث بها إمبراطورية بغداد ، بتوحيد البلاد الناطقة بالضاد ، وانتزاع أراضيها من أيدي الفرنجة .

ولقد كان واثقاً من أن ملايين العرب سيناصرونه في تحقيق هذا الحلم العظيم ، وأنهم سيشعرون كما يشعر هو ، بأنه واحد منهم ليس غريباً عن الأرض العربية التي ولد عليها وتغنى منها ودرج في فلوتها ، أو عن التقاليد العربية التي نشأ عليها وتأصلت في نفسه مذ كان في المهد صبياً ، أو عن اللغة والآداب العربية التي ازدهرت في قصره وعهده أيا ازدهار ، ومن ثم فليس هو غريباً أيضاً عما يشجعه العرب وعما يطمحون إليه ، ولا بد في أن يتخذ الأمل الذي تجيش به نفوسهم هدفاً ينزع إليه مع جنوده المتعدد القوميات ولكنهم في كثرةهم عرب من سكان البلاد ، واللغة العربية هي اللغة الجامحة لهم ، والثقافة العربية والشريعة الإسلامية هي البوتقة التي صهرتهم والرابطة التي وحدتهم ، فعدوا يُعرفون بها وفي ظلها يجاهدون .

وكان أول ما فكر فيه ، وأراد أن يخطو به الخطوة الأولى نحو تحقيق هدفه ، الانتصار للملك الصالح اسماويل ابن نور الدين ، ووضعه تحت كنفه ، ليتسنى له بذلك توحيد بلاد الشام وضمها إلى مملكته في مصر . فكتب إليه ولـى الأمراء الذين يحيطون به ويتنازعون على ملکه ، كتاباً أعلن فيه ولاءه له وعزمـه على نصرـه والانتصـاف له من كل من ، يـنـاوـه ، لـإنـقـاذـ الـبـلـادـ مـنـ التـفـرـقـةـ وـدـفـعـاـ لـخـطـرـ الـفـرنـجـةـ ، وـقـدـ قـالـ فـيـهـ : «ـخـتـلـفـ الـقـلـوبـ وـالـأـيـدـيـ فـبـلـغـ الـأـعـدـاءـ

مرادها وتعدم الآراء رشادها، وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها إلى أن أعطت قيادها، فكونوا يداً واحدة، وأعضاداً متساعدة ، وقلوياً يجمعها ود ، وسيوفاً يضمها غمد ، ولا تختلفوا فتتكلوا ، ولا تنازعوا فتنشلوا ، وقوموا على أمشاط الأرجل ، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأتمل ، فالعداوة محدقة بكم من كل مكان .» إلى أن يقول بقصد الملك الراحل وولده القاصر : « وهذا البيت منا ناصر لا تخذله وقائم لا نسلمه . وقد كانت وصيته إلينا سبقت ، ورسالته عندنا تتحققت ، بأن ولده القائم على الأمر ، وسعد الدين كمشتكيين الأتابك بين يديه ، فإن كانت الوصية ظهرت وفُكِّلت والطاعة في الغيبة والحاضر أدت وفعلت ، وإلا فتحن لهذا الولد يد على من ناؤه وسيف على من عاداه .. ابلغ » (مفرج الكروب ج ٢ ص ٧) ولم يقتصر صلاح الدين على هذا بل ضرب التقدّم المصرية باسم الملك الصالح ، وأمر بأن يُخطب له على المنابر بعد الخليفة العباسي ، ولم يدع مناسبة إلا اغتنمها كيما يبين فيها للسوريين غيرته على الملك الصغير ، واهتمامه بأمره واستعداده لبذل وسعه في سبيله .

ثم أرسل إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله كتاباً يوغر صدره فيه على ما آلت إليه الحال في بلاد الشام ، ويعلن استعداده للعمل على تغييرها بتحرير البلاد وتوحيدها في ظل خلافته ، مذكرًا إياه من طرف خفي بأنه هو الذي جعل منابر مصر واليمن والمغرب تتلاجأ ب باسم الخليفة العباسي مع منابر الشام وبغداد ، بعد أن انقطعت عن ذلك نحوًا من مئتي سنة ، وقد بدأ هذه الرسالة ، وهي من إنشاء القاضي الفاضل ونخشه ، بذكر ما كان لأفراد أسرته من أثر في جهاد الصليبيين وتأسيس المملكة النورية ، فقال : « كان أول أمرنا أنا كنا بالشام لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا ، وبجاهد الكفار متقدمين لعساكرنا ، لحن ووالدنا وعمينا في أي مدينة فتحت ، أو معقل ملك ، أو عسکر للعدو كسر ، أو مصاف للإسلام معه ضرب ، فما يجهل أحد صنعتنا ، ولا يمجد عدونا أنا نصطي الجمرة ، ونمكك الكرّة ، ونتقدم الجماعة ، ونرتّب المقاتلة ، وندير التعبية ، إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها ، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرها .» .

ثم ذكر رحيله إلى مصر وما تم من فتحها وإبعاد الخطر الفرنجي عنها وإلغاء الخلافة الفاطمية فيها : « فهنالك قمت لإنقاذ الكلمة ، والجهر بالخطبة ، والرفع للواء السواد الأعظم ، والجمع لكلمة السواد الأعظم ، وعاجل الله الطاغية الأكبر بفتائه ، وبرأنا من عهدة يمين كان إثم حنثها أبى من إثم بقائه ، إلا أنه عوجل لفروط روعته ، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته » وانتقل إلى فتح العقبة وحملة التوبية والبن والإستيلاء على قسم كبير من شمال إفريقيا « ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير : لك ، وبرقة ، وقفصة ، وقسطنطيلية ، وتوزر . كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا الإمام المستضيء بالله سلام الله عليه ! » .

وينتقل إلى وصف الأوضاع المؤسفة التي سادت بلاد الشام بعد وفاة نور الدين ، قائلاً : « .. وتوافت إلينا الأسباب بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها ، وتشتت الأمور وتقطّعها ، وإن كل قلعة حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمع إليه طالب ، والإفرنج قد بنوا قلاعًا يتخونون بها الأطراف الإسلامية ، ومضايقون بها البلاد الشامية ، وأمراء الدولة النورية قد سُجن كبارهم وعوقيباً وصودروا ، وإن المالك قد تموا الأيدي والأعين والسيوف ، وسارط سيرتهم في الأمر المنكر والنبي عن المعروف ، وكل واحد يتخذ عند الإفرنج يدًا ويجعلهم لنظرة سندًا » .

ثم يقول بعد أن يشير إلى مطامع الفرنجية واستعدادهم المتواصل : « وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تتبسر

الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر إن لم يتجه العزم في قلبه ، وإلا نبتت عروقه ، واتسعت على أهل الدين خروقه ، وكانت الحجة لله قائمة ، وهو القادرين بالقعود آثمة ، وإنما لا نتمكن بمصر منه ، مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة ، وكثرة الدواب التي بها على الجهد القوة . فإذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامحة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزو ممكناً ، والميراث متعددة ، والخليل مستريح ، والعساكر كثيرة الجموع ، والأوقات معاونة ، وأصلحنا ما في الشام من عقائد مختلفة وأمور مختلفة ، وآراء فاسدة ، وأمراء متحاسدة ، وأطماع غالبة ، وعقول غائبة ، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه ، فأنا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويظهرون الوفاء في خدمته ، وهم عاملون بظلمه» .

ويصرّح صلاح الدين أخيراً بطلبه ، معتبراً إياه مطلبًا قومياً وليس مطلبًا شخصياً : «والمراد الآن هو كل ما يقوى الدولة ويؤكد الدعوة ، ويجمع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويضمن الرأفة ، ويفتح بقية البلاد» إلى أن يقول مفصحاً عما يريد : «وهو تقليد جامع مصر والعن والغرب والشام وكل ما تشمل عليه الولاية التورية ، وكل ما يفتحه الله للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا» . (السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٠ ، صبح الأعشى ج ١٣ ص ٨١ — ٩٠ ، كتاب الروضتين ج ١ ص ٣٤١ — ٣٤٤) .

ويقول الدكتور نظير سعداوي في التعليق على هذه الرسالة : إنها تبرهن أوضح برهان «على سعة أطماء صلاح الدين ، كما تشرح موقفه من مشروع توحيد القوى الإسلامية استعداداً للجهاد ضد الصليبيين ، فضلاًًّاً عما فيها من شرح لحقيقة القوى الأوروبية ، وما فيها من إشارة إلى ما سببه من حركات استراتيجية عندما يقتطف ثمار الحوادث بتلبية دعوة الدمشقية إلى نجدهم . وكيفما كان الأمر من تلك الرسالة ، فمن العسير على الباحث العربي أن يدرك تماماً كيف فكر صلاح الدين تلك السنة (١١٧٤) في ضرورة الاستيلاء على دمشق وحلب والموصى جديعاً للقضاء على الصليبيين ، إلا أن يرجع الباحث البصر إلى كاتب الرسالة ، وهو القاضي الفاضل العارف بخطبة تطبيق الصليبيين من ناحيتين ، وهي الخطبة التي وضعها بدر الجمالى الوزير الفاطمي ، واتبعها من بعده نور الدين نفسه بالاستيلاء على دمشق والقاهرة ، ومن ذلك يتضح أن اهتمام صلاح الدين بدمشق وحلب والموصى ، لم يكن للاستيلاء على أملاك نور الدين والبيت الزنكي فحسب ، بل لتطبيق الصليبيين بالشام من جميع الجهات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً» . (التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٥٦ . .) (وراجع كتاب قدرى، قلعيجى ٢٢٨ — ٢٣٣) .

٢ — جاء في كتاب الروضتين لأبي شامة عن مسیر صلاح الدين إلى حلب وحصاره إليها ، وعن محاولة الملك الصالح ابن نور الدين كسب قلوب الحلبين ، قوله :

«وسار السلطان إلى حلب ، ونزل على أنف جبل جوشن فوق مشهد الدكتة ثالث الشهر ، وامتدت عساكره إلى الخنائية وإلى السعدي . وكان من بحلب يطلبون أن السلطان لا يقدم عليهم ، فلم ير لهم إلا وعساكره قد نازلت حلب ، وخيمه تضرب على جبل جوشن ، وأعلامه قد نشرت ، فخافوا من الحلبين أن يسلموا البلد كما فعل أهل دمشق ، فأرادوا تطليب قلوب العامة ، فأشار على ابن نور الدين أن يجمعهم في الميدان ، ويقبل عليهم بنفسه وبخاطبهم بنفسه أنهم الوزر والملجأ . فأمر أن ينادي باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق ، فاجتمعوا حتى غص الميدان بالناس ، فنزل الصالح من باب الدرجة وصعد من الخندق ووقف في رأس الميدان من الشمال ، وقال لهم : يا أهل حلب ، أنا ربكم وزبلكم وللأرجىء إليكم ، كبيركم عندي بمنزلة الأب وشابكم عندي بمنزلة الأخ

وصغيركم عندي يحمل محل الولد . قال وخفقته العبرة وبقائه الدمعة وعلا نشيجه ، فافتتن الناس ، وصاحوا صيحة واحدة ورموا بعماهم وضجوا بالبكاء والعويل . وقالوا : نحن عبادك ، وعبدك أبيك ، نقاتل بين يديك ونبذل أموالنا وأنفسنا لك . وأقبلوا على الدعاء له والترحم على أبيه » (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٣٨) .

الفصل التاسع

كارثة الأيوبيين في سهل عسقلان

الفرنجة وأحلام اقتسام وادي النيل

لم يكن بلد़وين الرابع المجدوم ليحيد نظره عن مصر ، متطلعاً إلى إقامة دولة فرنجية تكون امتداداً طبيعياً لمملكة القدس في وادي النيل الخصيب ، ينبع الغلات ومصدر الواردات . هذا ، وقد عرف الإقطاعي الكبير ، فيليب كونت الفلاندر - الذي وصل حديثاً إلى الأرض المقدسة على رأس قوة من الفرسان لها شأنها - عرف كيف ينعش الحماسة الخرية في حيـط الملك وأن يزيـن لحـاشيته فخـامة أسوـاق القـاهرة ، ولكن هذا الأمير الموزع إمارات لـما تـقتل ، والراغب في محـاربة المسلمين شـرع يفرض على من يـسير بـركابـه شـروطاً قـاسـية ، لأنـه كـرجل واسـع الضـمـوح ، لم يـشاـأ أن يـحارـب إـلا لـحسابـه الخـاص ، وـلم يـنـخدـع بلـدوـين الـرابـع الـبتـة بـحـمـاسـة هـذـه الشـخـصـية ، لأنـ إـمـبرـاطـور بـيزـنـطة وـعـده بالـمسـاعـدة ، ولـذـا طـلـب مـنـه أنـ يـوـفـد إـلـيـه سـفـارة لـلـاتفاق نـهـائـياً عـلـى اـقـتسـام وـادـي النـيل وـالـتـصـرـف فـيـه ، قـبـل الشـروع بـفـتحـه .

وـأـرـسل مـانـوـيل كـوـمـين إـلـى الـقـدـس وـفـداً يـمـثلـه وـأنـفـذ بـعـده أـسـطـولـاً قـويـاً مـحملـاً بـالـجـنـود وـمـعـدـات الـحـرب أـرـسى أـمـام عـكـا . يـيدـ أنـ آمـال مـلـك الـقـدـس تـبـخـرت هـباء ، لأنـ المـفاـوضـات لـم

تسفر عن أية نتيجة ، إذ كان . كلا الفريقين يظهران حسن النية ، لكن لم يشاًأ أيّ منهما أن يبادر إلى المفاوضات التقليدية في سياسة الضمّ والتقسيم الكلية ، لأن هنالك مسائل شائكة حول السلطات ومناطق النفوذ حالت دون مرونة المحادثات . وكما يحدث دائمًا لم يتمكن مسؤولو السياسة الفرنجية في المشرق أن يتتفقوا على احتلالات عمل مشترك ، وجلّ ما فعلوه أنهم كانوا يطلّقون التهبيات من أطراف شفاههم عبر المفاوضين بغير ما كانت تكنّ صدورهم . وفي آخر المطاف غادر يونانيو مانويل كومين القدس ، بينما عاد أسطولهم الفخم إلى بيروت . أما كونت الفلاندر الذي احتمم غضباً — هذا القاتل غير المحتمل لل المسلمين ، وضارب السيف المتفوق — فأعلنها صراحةً ملك القدس أنه يخشى على رفاقه في السلاح فيضانات النيل وحرارة الشمس ونقص اللحوم . لقد فَكَرَ — حسب قول غيّوم الصوري — الذي كتب في عدوية — « انه ليقترب خطيبة لا تغترف إذا ما سار برجاته نحو بلاد يحمل أن يموتها فيها جوعاً » . وأبرز هذا الخلاف الناشب بين الفرنجية الضعّف المتأهي للسلطة الملكية بعصاباتها المأساوية .

صلاح الدين يحاصر عسقلان

واستعاذه كونت الفلاندر عن خسائره بأن قام بغزو سهول سوريا الشمالية على رأس مائة من الهيكليين وألفين من الرقباء المسلمين . وحينما علم صلاح الدين بهذا التسلل الفرنجي إلى أراضي المسلمين غادر القاهرة ووصل إلى فلسطين في تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٧٧ . فخفّ بلهوين الرابع يجمع الفرسان الخمسين المتبقين لديه لحماية مملكته ، وهُرِعَ إلى عسقلان (عروس سوريا) لسدّ الطريق في وجه الغازي ، فتحصّن داخل أسوارها متظلاً نجدة أودون دي سانتامان وهيكلييه وهيكليي أمير أنطاكية رينو دي شاتيون^(١) ، المشهور في تاريخ الحملات الصليبية بحماسته في القتال وعدم تفرّقه بين حلّل أو حرام ، ذلك المغامر المتهور الذي جعلته السنون الست عشرة التي أمضاها في سجن حلب أكثر اندفاعاً . كان ابن سيد جين ، هذا الرجل ذو العينين المتقدتين بالشهوة ، والذي وصل إلى سوريا قبل ثلاثين سنة بعد لويس السابع إبان الحملة الصليبية الثانية . وقد عُين أميراً لأنطاكية بسبب نشاطه وإندفاعاته وعملياته نهيه . فجعل من اقطاعيته منطقة متقدمة مخيفة للفرنجية في بلاد الإسلام ، ورفع عالياً شهراً الفرنجية ؛ فلم يكتف بقر بطن المسلمين طوال أيامه ، ويتقدّس الكنوز في

فلاعه ، بل غزا قبرص متزعاً إياها من يد ملكها الشرعي إمبراطور بيزنطة ، فاغتاظ الأخير من إساءات هذا المغامر وهدد بإعلان الحرب على ملك القدس ، مالم تُعد إليه جزيرته . تلك هي صورة هذا الفارس الذي لا يعرف الخوف والمجرد من الضمير ، الذي سيقود المملكة اللاتينية إلى أسوأ المغامرات ، وسيتحمل أمام التاريخ مسؤوليات جساماً رغم أعماله الذائعة الصيت في الآداب القروسطية .

خطأ صلاح الدين أمام عسقلان

هذا ، وقد اقترف صلاح الدين خطأً ، إذ لم يحفل بالحامية الصغيرة المحاصرة داخل عسقلان ؛ وكان باستطاعته أن يأخذها سلماً بعد حصار بضعة أيام ، لأنها خاوية من أي احتياطي للمؤمن ، وأثر أن يترك جيشه ينتشر عبر السهول المجاورة ، ويحرق الرملة ويخاصر اللد ويتنزه على طول الشاطئ حتى أرسوف ، ولم يصادف في طريقه فرنجياً واحداً .

كانت البلاد تبدو مقفرة خاوية ، وراح ماليك صلاح الدين ينشرون الذعر على هواهم في قرى صغيرة تسكنها عائلات فلاجية هادئة ، إذ شرعوا ينهبون ويحرقون ويقتلون حيالاً ساروا ، وأخذ الذعر يسود مدينة داود التي بدأ سكانها يتوقعون أن يروا العناصر الأولى من طليعة العدو ، فطفقاً يغادرون المدينة الواطئة ، ويلجؤون إلى الأبراج ، وكان بمقدور الملك بلدوين السيء الحظ أن يرى من أعلى أسوار عسقلان في الليالي الصافية ، قري رعاياه تحترق الواحدة تلو الأخرى ، فعقد اجتماعاً مع فرسانه وأكد لهم بأنه ليس في وسعهم أن يبقوا مكتوفي الأيدي أمام مشهد تدمير المملكة . وعليهم أن يحاولوا المستحيل ضد صلاح الدين قائلاً لهم : «إن عدونا لا يحرس نفسه ، ووزع قواته ، ولم يبق حواليه إلا ماليكه ، وبعض القوات الخفيفة . فإذا استطعنا أن نباغته فسنوقع به الهزيمة . وعندها سيكون بمستطاعنا أن نبيد المجموعات التي تدمر أريافنا الواحدة بعد الأخرى ، وإذا لم نكن نملك التفوق العددي وتفوق الظروف فقمين بنا أن نموت بدلاً من أن نملك بلا جد تتحول إلى رماد أمام أعيننا» .

كان هذا المراهق الجذوم الوحيد الذي لم يطش رشه في الساعات المأساوية ، وذكر أتباعه — وهو الفتى الذي يكاد يعجز عن الحركة — بواجباتهم ، وحقق لنفسه مجدًا أبدياً في إحدى أشهر المعارك التي انتصر فيها الفرنجية بمحنة من الرجال .

نصر الفرنجية في معركة عسقلان (الرملة)

وفي ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) حين وصل صلاح الدين مع حرسه من المماليك إلى تل هو على مسافة خمسة أميال جنوب شرق الرملة ساحباً وراءه قوافل الأسرى، بهت دهشة إذ ظهرت أمامهم فجأة هذه القوة الفرنجية التي احتقرواها في عسقلان؛ وقد تولى بلد貌 القيادة، وهو محمول على نقالة وعيناه مغمومتان، يرافقه أودون دي سانتامان مع ثمانين إخوانياً مسلحين، ورينو دي شاتيون الذي يساوي وحده كتيبة من الرقباء. وسارع صلاح الدين إلى إرسال بعض من فرسانه لتجمیع ما تفرق من كتائب وصار يقاتل بحدٍ متراجعاً، إلى أن أنهك وفرضت عليه المعركة في نواحي وادي الدهر، حيث كان يحاول أن يحاذي المجري الحمي للوادي. وفَّر عدد من ماليكه أمام الهجوم الشرس للأعداء، وقتل ملك القدس بعضهم، وهو يشق خلاهم الطريق مع فرسانه الثلاثمائة الشجعان.

ويقول أبو شامة: «إن جميع الذين نجوا من القتل في هذه المعركة لقوا حتفهم في الصحراء الموحشة».

إن معركة عسقلان هذه التي يطلق عليها المؤرخون الغرب اسم معركة الرملة تعتبر أحد أكبر انتصارات الفرنجية في الديار المقدسة.

حصار حارم

وبينا كان الملك المجدوم يكلل أحد أكبر انتصارات الفرنجية في الديار المقدسة كان الوصي على مملكته كونت طرابلس وكونت الفلاندر — الرقيق الحاشية الذي كان يخشى على رفاقه قسوة مناخ مصر — يحاصران بلدة حارم شمالي سوريا.

ويعد هذا الموقع الخصين الرابض بين حلب وأنطاكية عن هاتين المدينتين مسيرة يوم واحد للفارس، وهو من أملاك ابن نور الدين التسس، ويتدبر شؤونه وزير الأمني الذي تكشف مغامراته المعقدة عن المؤامرات العديدة التي تحدق بالملوك الشرقيين الصغار، يحييك حيوطها أتباعهم المعممون. وحينما ظهر الفرنجية أمام أبواب حارم سحبوا من جيوبهم — بكل تهذيب — معاهدة صداقة قديمة تعترف لهم بالسيادة على حارم، فأغلق السكان دونهم

الأبواب وأحكموا إيقادها، مما اضطر الفرنجة إلى مباشرة الحصار،.. ويظهر من قراءة ما كتبه مؤرخو حولياتنا، أن المهاجرين تعاملوا مع القضية وكأنها لعبة تسلية مكتفين – حسب قول غيوم الصوري – باللعب بالمكعبات العظمية الصغيرة، وبالتنزه شبه عراة تحت خيامهم، وبكثرة التردد على أنطاكية للهُوَ في المداخير وقضاء ليالٍ ماجنة في مدينة اللهو المتعهّرة بصحة الماجنين العابثين ، وكانوا – بدلاً من أن يقاتلوا – يُزجون أوقاتهم في التعطّر . وبينما كانت غالبية رجال كونت الفلاندر وكانت طرابلس داخل حمامات انطاكية وصل ابن نور الدين بدوره إلى أمام حارم ، ولكن لم تفتح له الأبواب كذلك ، وصار وضع كل من الفريقين شائكاً.

كان الرجال يقومون بالحراسة على صهوات جيادهم ينشرون الرايات والبارق أو يتبادلون التحية عن بعد تحت النظارات الجائعة لسكان حارم الذين يراقبونهم من أعلى أسوارهم ، دون أن يوافق أذواقهم سلوك أولئك العابثين ، لأن الخانات كانت فارغة والبطون خاوية . وبعد عدد من المفاوضات غير الهدافة تمنى الفريقيان المهاصران لو يتفقان ، وبهدف البدء بالحاديات أرسل ابن نور الدين سرّاً قافلة محملة بالهدايا إلى كونت طرابلس ، تجاوزت أمانيه ، فأمر بطيء خيامه ، وانسحب إلى إمارته ، تاركاً رفاقه في مواقعهم . وقد شلّ البارونات الآخرون بالهدف الحقيقي للانسحاب ، فلم يكن في نيتهم أن يكونوا مضرب المثل بالسذاجة ، وأفهموا ابن نور الدين أنهم قابلون للإغراء في سهولة ورحلوا بدورهم ، وانسحب كونت الفلاندر إلى مراكبه وعاد أدراجها في طريق أوربا . وأمّا الصالح فدخل حارم وأمر بقطع بعض الرؤوس وأعاد النظام إلى سابق عهده .

صلاح الدين وسحق الهيكليين في مرجعيون

وبعد سنة من المدّوء سبيه الطاعون المتّفشي لدى هؤلاء وأولئك استؤنفت الأعمال العدائية بين المسلمين والفرنجة . وفي نيسان (أبريل) ١١٧٩ حدّثت المسألة المسماة قضية وادي العيون التي أساء فيها ملك القدس معاملة بعض الرعاة المسلمين ، واستولى على قطعائهم ، فقام صلاح الدين بعد شهر من ذلك بمحاصرة قلعة عبر يعقوب ، وأتلف غلات المستعمرات الفرنجية ، وسحق الهيكليين في مرجعيون ، ورغم ما بذله بدوين الرابع من جهد فائق الحد لمساعدة هذا الموقع سقط عنوة ، وهلكت حاميته في هب الحرائق ، وأسر صلاح

الدين عدداً من الرجالات البارزين بينهم سيد الهيكل ، وشدد المتصرون يد القسوة انتقاماً لكارثة عسقلان .. ويتحدث ابن الأثير عن تلك الواقعة بقوله : « كانت رائحة الجثث التي خلفناها هنا وهناك من الشدة بحيث تسببت برباء مات من جرائه عشرة أمراء من بطانة صلاح الدين »^(٢) . ويضيف المقريزي : « إن المسلمين استولوا على مائة ألف قطعة من السلاح وكمية وافرة من المؤن . وهدم صلاح الدين الموقع ورمم ما فيه من آثار »^(٣) .

وقد شاهد بلدوين الرابع من أعلى أسوار طبرية ، احتراق هذه القلعة التي سببت له الكثير من المتاعب ، إذ تعتبر من أفضل دفاعات الجليل ، فاشتدت عليه وطأة المرض أكثر من أي وقت مضى ، ولأن عنته كانت تأكله حياً فاوض صلاح الدين على هدنة سنتين ، لكنها لا تسرى إلا على مملكة القدس . ولأن كونت طرابلس وقادة التنظيمات العسكرية الأخرى رفضوا شروطها فقد غزا صلاح الدين بكل هدوء إقطاعاتهم في فلسطين . « وكان — كما يقول غيّوم الصوري — يُجري خيوله على أعتنه تأخذ من أطراف البلاد ، على مراحل قصيرة . » .

حواشي الفصل التاسع

٩ — رينو دي شاتيون (ت ١٠٨٧) Renault de chatillon ويعرف باسم أرنات عند المؤرخين العرب . من القادة الصليبيين اتصف بالتعصب والرعونة والعجرفة ، اعتبره المؤرخ م ج كينيغ «نموذجاً للفارس اللص في عصره » بينما عده أبو شامة : « أغدر الفرنجية وأخبثها ، وأنقضها للمواثيق الحكمة والأيمان المبرمة » .. كان أميراً لانطاكية ، أسره محمد الدين بن الراية أحد أمراء نور الدين زنكي عام ١١٦٠ وظل سجيناً في قلعة حلب إلى أن أطلق كمشت肯ين سراحه عام ١١٧٧ م متحالفاً بذلك مع الفرنجية ضد صلاح الدين بذلك .

وأصبح سيداً للكرك بزواجه السياسي من ابنته دي ميل ، فلذا أميراً على تلك المنطقة الهامة من جنوب بلاد الشام لتحكمها بطرق القوافل بين مصر والشام . فكان يعرض للقوافل الآمنة ، ناقضاً بذلك المعاهدة التي أبرمها الصليبيون مع صلاح الدين الذي أقسم ليقتلته ، لاسيما بعد مغامرته الطائشة قرب شواطئ الحجاز ، ومحاولته الاستيلاء على قبر الرسول (عليه السلام) .

قاد بأعماله الرعناء « مملكة الفرنجية إلى أسوأ المغامرات » — حسب قول شاندور — إذ عجل بصدام المسلمين والصليبيين في معركة حطين ، فوقع أسيراً لدى صلاح الدين الذي وفي بندره وقته بيده .

٢ — ابن الأثير ج ١١ ص ٣٠١ - ٣٠٣

وجاء في كتاب الروضتين في فصل تزيير بيت الأحزان ، (قلعة معبر يعقوب) نقلاً عن العmad الأصفهاني قوله :

« جمع السلطان جموعاً كثيرة من الخيالة والرجال ، فوصل إلى الخاضة يوم السبت تاسع عشر الشهر ، والمحصن مبني دونها من الغرب ، فخيم منها بالقرب ، وضاق ذلك المرج عن العسكر ، واحتاج إلى نصب ستائر لأجل المنجنيقات ، فركب السلطان بكرة الأحد إلى ضياع صفد ، وكانت قلعة صفد يومئذ للداودية ، وهو عشر البلية ، وأمر بقطع كرومها وحمل أخشابها ، فأخذ كل ما احتاج إليه . ورجع بعد الظهر ، وزحفوا إلى المحصن بعد العصر ، فما أمسى المساء إلا وهم قد استولوا على البашورة ، وانتقلوا بكلتهم إليها ، وباتوا طوال الليل يحرسون ، وخافوا أن يفتح الفرنج الأبواب ويعبروا عليهم على غرة . وإذا بالفرنج قد أوقدوا خلف كل باب ناراً ليأموا من المسلمين اغتصاراً ، فاطمأن المسلمين ، وقالوا : ما بقي إلا نقب البرج ، ففرقه السلطان على المرأة فأخذ فرششهاء

الجانب القبلي ، وأخذ السلطان الجانب الشمالي ، وقصد ناصر الدين بن شيركوه بقرره نقباً ؛ وكذلك تقي الدين وكلّ كبير في الدولة جعل له قسماً . وكان البرج محكم البناء فصعب نقبه ، لكن ما انقضى يوم الأحد إلا وقد تم نقب السلطان وعلق ، وحشى بالخطب ليلة الاثنين وحرق . وكان النقب في طول ثلاثة ذراعاً في عرض ثلاث أذرع ، وكان عرض السور تسع أذرع ، فما تأثر بذلك ، فاحتاج السلطان صبيحة يوم الاثنين إلى إطفاء النيران ليتم نقبه . وقال من جاء بقرية ماء فله دينار . قال العمام : فرأيت الناس للقرب حاملين ، ولوعية الماء ناقلين ، حتى أغرقوا تلك الثقوب فخدمت فعاد نقاوها وقد بردت . فخرقوه وعمقوه ، وفتحوه وشقوا ، وشقوا حجره وقلقه ، ثم حشوه وعلقوه ، واستظهروا فيه يوم الثلاثاء والأربعاء ثم أحرقوه واشتد الحرص عليه ، لأن الخبر أتاهم بأن الفرج قد اجتمعوا بطريقه في جمع كثير . فلما أصبح يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيع الأول وتعالى النهار انقض الجدار ، وتبشرت الأبرار . وكان الفرج قد جمعوا وراء ذلك الواقع خطباً ، فلما وقع الجدار ، دخلت الرياح فردت النار عليهم ، وأحرقت بيوتهم وطائفة منهم ، فاجتمعوا إلى الجانب البعيد من النار ، وطلبوا الأمان . فلما خمدت النيران ، دخل الناس وقتلوا وأسرموا ، وغنموا مائة ألف قطعة من الحديد من جميع أنواع الأسلحة ، وشيئاً كثيراً من الأقوات وغيرها وجيء بالأسرى إلى السلطان ، فمن كان مرتدًا أو رامياً ضربت عنقه ، وأكثر من أسر قتله في الطريق الغزارة المطوعة . وكان عدد الأسرى نحو سبعمائة . وخلص من الأسر أكثر من مائة سليم ، وسير باقي الأسرى إلى دمشق . وأقام السلطان في منزلته حتى هدوا الحصن إلى الأساس ، وطم جب ماء معين كانوا حفروه في وسطه ورمي فيه القتلى . وكان عند السلطان رسول القنصن معاف ، وهو يشاهد بليلة أهل ملته . وقد كان السلطان بذل لهم في هدمه ، ستين ألف دينار فلم يفعلوا ، فزادهم حتى بلغ مائة ألف فأبوا . وكان مدة المقام على الحصن في أيام فتحه وبعدها أربعة عشر يوماً ، وبعد ذلك سار السلطان إلى أعمال طيبة وصور وبيروت وغيرها فأغار عليها ، وأرجف قلعتهم بوصوله إليها . (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١١).

٣ — المريزي : السلوك ج ص ٦٧ — ٦٩ .

الفصل العاشر

من ضفاف الفرات إلى ضفاف الأردن

ملكة أرمينية الصغرى وتحالفها مع مالك الفرنجية

عند الخروج من إمارة أنطاكية من جهة الشمال الغربي تقوم أرمينية الصغرى ، التي كان يحكمها عهد ذاك الأمير روين الثالث الذي أعاد التحالف التقليدي بين فرنسا والأرمن نتيجة لزواجها من إيزابيل ابنة أونفروا الثالث دي تورون واتينيت دي ميلي . وكان نزاعاً إلى تأجيج الخصومة مع جاره القوي السلطان في آسيا الصغرى .

كان يكن الكراهة للسلجوقيين الأتراك الذين أذلوا أجدادهم ضربة مميتة بالحياة السياسية والثقافية للأرمن في عقر وطنهم ، ويدرك جيداً أن أولئك السلجوقيين المتعصبين القساة القلوب قد أجبروا شعبه على الهرب نحو الغرب لتفادي مجاهاتهم ويطشئهم قبل قرن خلا من تاريخ ارتقائه سدة الحكم وبدت كيليكية الوعرة المسالك للأرمن مكاناً مناسباً لتأسيس وتكون مملكة قومية . و الحكم ذلك الواقع ، وجد الأرمن أنفسهم بالضرورة – وهم الأعداء التقليديون وراثياً للأتراك – حلفاء للملوك الفرنجية الذين أسسوا الدول الفرنجية في سوريا

الشمالية ، وانحدروا معهم اتحاداً صميمياً بقدر ما أدركوا أن معركة وجودهم في مواجهة الإسلام المناضل ترتبط بتضامنهم مع بقاء الدول الفرنجية في سوريا .

وهكذا كان الأرمن يؤلفون الامتداد لهذا السد الذي أقامه الفرنجية في وجه موجات العمق الإسلامية ، التي كادت — أكثر من مرة — أن تغرق العالم القديم الذي كان ما يزال فاقداً التوازن بسبب صدمات الهجمات الصاربة ، وكان روين الثالث قد أغار على مملكة قونية واستولى على بعض قراها التركية .

صلاح الدين يغزو أرمينية

وطلب قلع أرسلان من صلاح الدين إسداء يد عونه لطرد الغزاة من بلاده ؛ لكن هذا الأخير — وهو السياسي البعيد النظر — حرص جيداً على ألا يعمل لحساب غيره ، وفضل أن يباشر حسابه حريراً ضد ملك أرمينية الصغرى ، المذنب في إقامته علاقات ودية مع أعداء الإسلام . فغزا بلاده وسحق جيشه وحاصر عاصمتها وأخذها عنوةً ونهبها وفرض شروط الصلح التي أملأها . واضطرب روين الثالث إلى إعادة ما كان أخذه وشرع يطلق سراح الأسرى الذين كانوا لديه ، وأن يدفع فوق ذلك نفقات الحرب .

زعامة صلاح الدين وميثاق الصداقة

وشكر سلطان قونية صلاح الدين حار الشكر ، وقنى عليه باسم جميع الدول الصغيرة في تلك المناطق ، أن يكون من الآن فصاعداً الوسيط في مصالحها ، لتسهيل إبرام اتفاقية صلح عام ؛ يكون هو فيه بمثابة راعيها الأعلى . وبهذا أصبح صلاح الدين حكماً في النزاعات الخالية المختللة التي قد تقع بين الأمراء الكثر في هذا الجزء من آسية الصغرى على حساب وحدة الشعوب المسلمة . وهكذا عظم نفوذه في العالم الإسلامي ، وائلق نجمه ، وأصبح في مقدوره — مستنداً إلى القاهرة ودمشق وحلب وحلفائه الجدد في مابين النهرين السعداء بالدوران في فلكله — أن ينتهج سياسة بارعةً رائعة . وفي ٢٠ تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٠ أُبرم في تظاهرة احتفالية على ضفة الفرات قرب جرابلس ميثاق صداقة — أو معاهدة عدم اعتداء كما نقول اليوم — بينه وبين قلع أرسلان وسلطانين قونية وسنجار وأربيل وماردin

وديار بكر وروين الثالث ملك أرمينية الصغرى — آخر الذين هزمهم الجندي الكردي العظيم — وأقيمت الولائم لدى جميع قبائل ماين النهرين، احتفالاً بهذا الصلح العام.

وعاد صلاح الدين إلى مصر، بعد أن سرح جنده بين مدح الشعراة الذين شرعوا يتحدثون من الآن فصاعداً عن الأسطورة المدهشة التي بطلها فارس الرحمن الخيف الجديد.

وكان عام ١١٨٠ سنة شَوْم بالنسبة لكثير من الملوك : إذ فقدت فرنسا لويس السابع، وروما البابا الكسندر الثالث ، وبينزطة مانويل كومين ، وبدورها فقدت بغداد الخليفة العباسي المستضيء ، والموصل حاكمها سيف الدين غاري . وخلف فيليب أوغست لويس السابع ، ولوسيوس الثالث البابا الكسندر الثالث ، والكسي الثاني مانويل كومين ؛ والناصر المستضيء .

وما إن تسلّم أمير المؤمنين الجديد بردة النبي وقضيه ، حتى سارع إلى مراسلة صلاح الدين بكتاب مهورة بخاتمه تؤكّد الألقاب التي سقى أن منحه إليها سلفه .

حلب بؤرة صراع جديد

وفي السنة الثانية ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٨١ أقعد المرض ابن نور الدين ، وبعد أربعة أيام بلغت حاليه من السوء بحيث أغلقت أبواب قلعة حلب إذ كان يُحتضر ؛ وجمع أمراءه وجعلهم يقسمون على التخلص من وصاية صلاح الدين ، وأن يبقوا موالين لسلطان الموصى الذي عينه خليفة له .

كان هذا الإجراء يعني فسخ المعاهدة التي سبق أن أبرمها مع صلاح الدين ، وتعرض مدينة حلب لشروط فظيعة لم تكن في الحسبان . وما إن دفن ابن نور الدين حتى قدم سلطان الموصى إلى حلب . لكن ، وتفادياً للصعوبات التي كان سيواجهها مع الأيوبيين ، وبناءً على نصيحة وزيره المتزمر الثقيل الظل ، فضل أن ييادل أخاه عماد الدين سلطنة سنمار الأقل بريقاً ، ولكن الأكثر هدوءاً بسلطنة حلب . وحين استقر في حلب في ١٩ أيار (مايو) ١١٨٢ أطلق على نفسه لقب « سلطان سوريا ». وهكذا عادت حلب — كرة أخرى — بؤرة للاضطراب .

إعادة اليمن إلى الخظيرة الأيوية

وفيما كان كل شيء يعاد بحثه في شمالي سوريا ، شرع صلاح الدين يعيد فتح اليمن ، وسيذكر قرأونا أن تلك المناطق القصبية اعترفت بسلطنة صلاح الدين الذي أذاب عنه فيها أحناه طوران شاه ، وأوكل إليه أمر إدارتها .

لكن طوران شاه لم يعجبه مقامه الجديد ، فعاد إلى سوريا وحصل على حاكمية دمشق التي تهفو إليها القلوب ، ثم حاكمية بعلبك وأخيراً حاكمية الاسكندرية حيث فضل أن يموت دونما بريق مجد ، مؤثراً بذبح الطعام وداعم أجواء الحرير .

وبعد وفاته رفض الأمراء الذين ترك لهم إدارة اليمن أن يرسلوا إلى صلاح الدين الخارج ، وتبوأ كل منهم مقامه حيث هو ، تماماً أذنيه عن طلبات أمناء الخزينة في القاهرة . وعزل صلاح الدين الأمراء المتمردين ، وعيّن مكانهم سيف الإسلام الذي شخص إلى اليمن على رأس جيشه فقاتل العصاة بعض الوقت ، وتمكن من طردتهم ، ودفع بانتظام المستحقات للإدارة المركزية في مصر .

مغامرة رينو دي شاتيون وخرق الهدنة بين الفرنجة والمسلمين

وفجأة طاف الشرق نباً مذهلاً كان له وقع الصاعقة : كان رينو دي شاتيون يتأهب لضرب الإسلام في أقدس مقدساته ، في مكة المكرمة ، وتدمير قبر الرسول في المدينة ، وإرهاب المسلمين بهذا المشروع الذي لم يسمع قط بهله ، ولا سابقة له في التاريخ . كان ينوي أن يمحو الكعبة بلهيب النيران ، وأن يحتاج المدينة المنورة ومكة المكرمة أولى الحرمين الشريفين ، والتي يتوجه المؤمنون يومياً نحوها خمس مرات في صلاة يؤذيها مائتا مليون من البشر ، والتي تعجّ - كل عام - بخشود قادمة من أصقاع المعمورة للحج وللتبرك بلمس الحجر الأسود الشهير المغلف بغضائه الفضيّ ، ولوؤة الحرم الشريف يرتفع في الأفق ، والسير فوق الأرض الملتهبة تحت شمس الجزيرة العربية التي لا تحتمل ... مكة جنة المؤمنين ، وموئل الصرافين من أصحاب الملايين .

وببدأ رينو دي شاتيون حملته . كان هدفه الأول المدينة . وبعد مسيرة غربية اجتاز فيها

مسافة حوالي ثمانمائة كيلو متر عبر الصحراء، دخل الحجاز وأحرق تبوك وتيماء – التي اعتبرها كما يقول صلاح الدين في رسالته الموجهة إلى خليفة المسلمين ببغداد قاعة الانتظار بالنسبة إلى المدينة – ثم اتجه نحو المدينة المقدسة. ولكن حاكم دمشق المذهول دخل أراضي الكرك والشوبك، واضطرب بحركته السريعة هذه رينو دي شاتيون إلى إرجاء تنفيذ مشاريعه. ومع ذلك استولى في طريق عودته السريع نحو الجليل على قافلة للحجاج عظيمة الثراء كانت متوجهةً من دمشق جنوباً في طريقها إلى مكة، مع صياداتها وأطباء عيونها وغاسلي أمواتها، والمحمل السوري، وهو هودج هرمي يجلله الجوخ الأخضر المطرز بالذهب. لقد جلب له هذه العملية مائتي ألف مثقال من الذهب، بيد أنه ستعقبها متابع استخف بها، ولكن إذا لم يأبه رينو دي شاتيون بالنتائج السياسية لهذه العملية، فلم يكن الأمر كذلك في بلاط القدس؛ ذلك أن هذه القافلة من الحجاج الواثقين بالهدنة النافذة بين بلدوين الرابع وصلاح الدين لم تتردد في عبور الأراضي الخاضعة للفرنجة، وكان رينو دي شاتيون قد حان تعهد ملكه، وهو يسوق هؤلاء الحجاج أسرى إلى حصنه في الكرك، ويستولي على أموالهم والأراضي الخصصة للكعبة. وكان يمكن لهذه الخالفة أن تؤدي إلى إلغاء الهدنة. ووجه صلاح الدين احتجاجاً شديداً للهجهة إلى ملك القدس طالباً منه إطلاق سراح الدمشقيين فوراً وإعادة القافلة وحملتها من المسجادات والذهب وخمسة وعشرين قطعاً من الشموع المنحوية. وعلى جناح السرعة أرسل بلدوين المتعاضد من هذه الفعلة إلى عامله فرساناً من الهيكل والاسبارتار ليلومه على موقفه الخادع، ويأمره بأن يعيد كل ما أخذه، ولكن الجرم لم يتصدّع بالأمر وأجاب الرسل الأتقياء المكلفين بمعاقبته، بكل وقارحة: «ماذا لو حنث الملك بوعده؟» متوجهاً سلطة سيده المُضْعَف بفعل مرضه الخبيث. كان رينو دي شاتيون القائم عند إحدى النقاط الأكثر حساسية من الحد الاتفاقى الفاصل بين الإسلام والفرنجة لا يتزدد البتة في الاشتباك مع السلطة الملكية التي كان شعورها المؤقت يتيح له كل المجازفات.

صلاح الدين يهاجم مملكة القدس

واعتذر الملك المذوم لصلاح الدين؛ لكن أفتت عاصفة عهد ذاك على الشاطئ المصري مركباً كبيراً قادماً من أبولية، وعلى متنه ألف وخمسمائة راكب. فأسر صلاح الدين الفرنجة الذين قيضهم له القدر، وأعد العدة لهاجمة مملكة القدس. وفي 11 أيار (مايو)

غادر القاهرة مرةً أخرى وتوقف قليلاً في قصره الجديد (الصدر)، وشارف خلال ستة أيام إيلات، فعقد ملك القدس مجلسه الحري الذي قرر حشد جميع القوات الجاهزة في فلسطين في منطقة الكرك لسدّ الطريق أمام تقدم صلاح الدين. ولكن الفرنجة لم يتمكنا من اللحاق بالجيش الإسلامي الذي انطلق من العقبة سالكاً درب الحج، أي الطريق الكبري الممتد بين مصر والشام والموازية للطريق الرومانية القديمة. وعسکر المسلمين في الحسام في الجريا. ولما وصل فرسان صلاح الدين إلى قرب الشويف أحرقوا سائر الغلال واستأصلوا الكرمة. وكتب صلاح الدين إلى خليفة بغداد: «لقد وصل خادمك إلى هذه الأشقاء، فأتت النار على نسخ النخيل، وطبق حكم السيف شيئاً فشيئاً».

ثم استدار صلاح الدين شرقاً سالكاً طريق الأزرق وبصري في جبل حوران، المشهورة بذكرى يوضاس ومكابي الذي حملها احتل هذه المدينة عرض كل ذكرها على حد سيفه.

سقوط قلعة حبس جلداق

ووصل صلاح الدين إلى دمشق في شهر حزيران (يونيو)، وبينما كان يتجه شمالاً جنوب العاصمة السورية كان ابن أخيه يغزو الجليل ويستولي على القلعة التي توصف بأنها لا تقهـر، قلعة حبس جلداق المشرفة من الجنوب الشرقي لبحيرة طبرية على الضفة الشمالية لنهر اليرموك، ومنها تراقب أرض سويت التابعة لإمارة الجليل. وكانت هذه القلعة الخاضعة لقيادة فولك الطبرى محفورة في الصخر وتتألف من ثلاثة طوابق للسكن، بعضها فوق بعض، وتتصل فيما بينها بمبرّ ضيق على حافة الهوّات، لا يتسع إلا لمرور شخص واحد. ولم يكلف احتلال القلعة المسلمين سوى خمسة أيام.

وقد فسر سقوط هذا الحصن الهام تفسيراً جائراً في القدس. إذ ذهبت بعض الأقاويل الخامسة إلى حدّ القول إن فولك الطبرى باع المسلمين الحصن.

والحقيقة أن الحامية لم تكن تضم سوى القليل من الفرسان والرقباء الفرنجة الذين يعملون على تجنيد عددٍ من المرتزقة المحليين لحساب المملكة. وبعد هذا الانحراف السريع داخل أراضي العدو، أخذ صلاح الدين طريق دمشق جارياً وراءه ألف أسير يبعوا في سوق النخاسة، وعشرين ألف رأس من الماشية.

ظهور المسلمين أمام بيروت وصمود الفرنجية

وأثر استراحة بضعة أسابيع في دمشق، انطلق صلاح الدين إلى الجهاد كرّة ثانية، وهدفه فتح ساريا والخليل؛ ولكن لعدم تمكّنه من اختراق دفاعات الفرنجية حوالي افرايلا إلى الجنوب الشرقي من القاصدة، لشدة ما استبس المدافعون عنها، إذ قاتلوا قتالاً مجيداً، وأثروا الموت في مواقعهم على مغادرة الموقع، انطلق صلاح الدين شمالاً والتحق بقليل جيشه بين رياق وجبل جنين، ثم عبر لبنان وظهر أمام بيروت. وتتابعت المجممات على المدينة طوال ثلاثة أيام في تواتر كان من الدقة بحيث لم يجد معه المهاصرون وقتاً للنوم والطعام.

ولم يتمكن صلاح الدين رغم تصميمه من دخول المرفأ اللبناني الكبير. واعتبر هذا الفشل دليلاً على أن المملكة الفرنجية في القدس ما زالت قادرة على الصمود، وعليه وبالتالي لا يعتقد بأن في وسعه تصفيتها من الوجود بمجرد قيامه بتنزهات عسكرية.

كانت إرادة الصمود لدى بلد़وين الرابع وأتباعه الأوفياء حقيقة واقعة — لقد لعبت هذه الأسرة الأنجوية — حتى وهي ممثلة ببراهم مجذوم — دورها بمحىويه كحامية للدول الفرنجية في سوريا.

رينو دي شاتيون ومشاريعه للاستيلاء على المقدسات الإسلامية

وفيما كان الأسقف أود Euodes يطرد المسلمين من الساحل اللبناني، كان رينو دي شاتيون — الذي لم يتخلّ قط عن مشروعه في تحويل الكعبة ومكة إلى هباء وجعل الإسلام يرتجف بالاستيلاء على قبر النبي المقدس — يحشد في قلعته الشامخة بكرياء الرفاق المعذبين لهذه الملحة، والذين لم تغفهم الناحية الفكرية لهذه المغامرة الفريدة وحسب، وإنما أخذت ألبابهم كذلك الكنوز المقدسة منذ قرون في المدينة المقدسة المترفة. كان رينو دي شاتيون يلزم رجال من معدنه قساة، شجاعان عديمو الشرف... وقد وجد من طرفه بارونات يبحثون عن إمارة، وفرنجية مغامرين مربين يعرفون كيف يتحدون الخير والشرّ، يتحدون الملك وعرافيه السيئي الحظ الذين لم يقدموا لهم ثروة؛ ولم يقطعوهم الأرضي، فهربوا لوضع أنفسهم تحت تصرف هذا «السماري» رينو دي شاتيون، الذي كان يهدّه أحلامهم بأمجاد البطولة كشركاء في انتصاره.

وجمع سيد الكرك رجاله وغادر إقطاعيته، وإذ سبق له أن فشل في عبور الصحراء ومهاجمة المدينة عزم هذه المرة على مداهمة الأماكن الإسلامية المقدسة بحراً عبر الساحل الغربي بوضعه أسطولاً في البحر الأحمر.

وهكذا، فإنّ الأفاق، الذي سبق له أن قام بمسيرات كبرى على صهوات الخيل في كيليكية وما بين النهرين، وفلسطين. وسهوب وادي عربة، لم يتردد في تحويل فرسانه إلى قراصنة، وحملهم على مهاجمة السفن الإسلامية الماخرة عباب البحر الأحمر، معقلين تجارةها، قاطعين طريق الحجيج بين إفريقية وأسية، مندفعين من شاطئه إلى آخر، محرقين الموانيء، لينزلوا أخيراً إلى اليابسة في نقطة ختارة لينقضوا على مكة المبورة ببيوق انتصارتهم. وبلغت هذه الحملة التي كانت تثير شهية أكثر المتخوفين حافة النجاح، وينذهب ابن جبير إلى أن رينودي شاتيون كان يريد الاستيلاء على رفات النبي محمد (عليه السلام) ونقلها إلى أراضيه ليحج المسلمون إليه ويدفعوا له رسم المرور والحماية^(١).

وقبل بضع سنوات خلت جهزت حكومة القاهرة أسطولاً صغيراً من القرابين بقيادة ضباط يعرفون لهجة اللاتين متذمرين بشباب الفرنجة، وتمكنوا من دخول مرفأ صور فنبووا وأحرقوا بعض السفن واستولوا وهم في طريق عودتهم على بعض المراكب الشراعية المحملة بالحجاج الذين يبعوا كعبيد. أما رينو دي شاتيون فقد تخيل ما هو أفضل. إذ بنى، في الكرك (بلاشك) خمس سفن كبيرة للنقل ومراكب خفيفة وسريعة، حملت أجزاؤها على ظهور الجمال إلى شواطئ البحر الأحمر، وهناك جمعت وشحنت بالذخائر والمؤن والرجال، وبعد أن سلحت بدأت أعمال الصيد. فطوال عدة أشهر كان القرابين يندفعون عبر البحر الأحمر على متن أسطولهم الشبيح، محرقين موانيء الحجاز والمدين وسفن المسلمين، مكدين الغنائم والهؤلي المخصوص لمكة، قاتلين الحجاج وهم في لباس الإحرام... لقد شوهدوا على طول الشاطئ التوبي، ونزلوا في عيادات، ميناء عبر القوافل القادمة من أسوان وأدفو وكوس، وأحرقوا ما فيه من سفن، ونهبوا أكداش الأغذية المعدّة لتمويل المدينة ومكة. لقد شوهدوا في كل مكان، مُزيدين البحر، قاطعين كل ملاحة، باثن الدذر في نفوس القوافل المقدسة، التي كانت تسرع هرباً من الموانيء والشواطئ التي يرتادها الأسطول الفرنجي..

وأخيراً، نزل رينو دي شاتيون ورجاله بين المدينة ومكة، في رابع والحوارة. هذا، وبالحظ

أن سيد الكرك كان يعرف معرفة عجيبة طوبوغرافية هذه الأماكن المحرمة على غير المسلمين ، إذ سلك برفاقه طريق قوافل الحجاج التي كانت تنطلق من رايغ ، وتعبر وادياً ف versa يبعث على اليأس ، تحيط به الجبال والصخور البازلتية السوداء الصالحة للكمائن ؛ ذلك الطريق المللهم بما تدل عليه القبور والمعظام ، والذي يقود إلى الأماكن الإسلامية المقدسة ، حتى غدا على مسيرة يوم واحد للراكب الخيال من المدينة وواحتها .

وتطلع بعض الأعراب المتسرعين إلى النهب ، ليدلوا الغزاة على المدينتين المقدستين . وقد قالوا لهم « نحن لا نزرع القمح ولا الدخن (الذرة البيضاء) غلتنا هي من عائدات الحج » وذُعر الإسلام وصار سكان المدينة ومكة يتوجسون خيفة من أن يظهر — في أية لحظة — الفرسان الملعونون . ووصف المؤرخون العرب الذعر الذي انتاب مصر ولاد العرب كلها . وكما كتب أبو شامة : « لقد كانت رهبة سكان هذه المناطق رهبة مفاجئة ، لقد كانوا يرون ما يشبه بروق الشؤم الخاطفة نتيجة لهذا الغزو المباغت . ولم يسمع قط في ديار الإسلام مثل هذا النباء ، وقطعاً لم يذكر أحد أن مسيحيين ما وصلوا إلى هذه الديار . واعتقد الناس في كل مكان أنه أزف موعد قيام الساعة »^(٢) .

تدابير الأئبيين المضادة وسقوط المغامرة

ومع ذلك فالتدابير المضادة لم يطل انتظارها ، ففي القاهرة ، اتخذ الملك العادل أخو صلاح الدين قرارات حازمة ، آمراً أن تفكك فوراً السفن المائتان التي كانت تحمي مدخل ميناء دمياط ، وأن تنقل برياً إلى القلزم (البحر الأحمر) حيث أعيد تركيبها وتسلیحها ووضعت في البحر ، وجمع في الوقت ذاته بحرارة شديددي البأس بالغي الشجاعة من المغاربة بقيادة حسام الدين لؤلؤ ، وحالما تم تجهيز الأسطول المصري انطلق ، وأدرك السفن الافرنجية في الحورة ، ولم يجد الفرنجية أية مقاومة أو شجاعة تذكر ، فأكثروا على مغادرة سفنهم وللنجوء إلى الجبال الساحلية ، ثم حصروا في أحد الشعاب التي تقود إلى مكة . وهناك ألغوا أنفسهم مرهقين ، بلا ماء ، مصابين بالحمى وسط هذا المناخ الحار القاسي ، وتهاجمهم من الخلف القبائل البدوية — نفسها التي عرضت عليهم إيصالهم إلى الكعبة ؛ مدحورين بلا زاد ولا موارد ، فذبح أكثرهم ووقع من سلم بالأسر . ووحده رينودي شاتيون استطاع الإفلات

والهرب ، دون أن يعرف أحد كيف تنسى له ذلك ، واقتيد بعض الأسرى إلى المدينة ليُرجعوا يوم عيد الأضحى ، بينما سيق الآخرون إلى القاهرة أو الإسكندرية . ومن المؤثر أن تقرأ رواية ابن جبير في وصف وصول هؤلاء الأسرى إلى مصر . « بينما كنا في الإسكندرية في شهر نيسان (أبريل) ١١٨٣ شهدنا تجمع جمهور فاقح الحد؛ قادماً لرؤبة الأسرى الفرنج الذين كانوا سيمرون في المدينة وهم مُعتلون الجمال ووجوههم إلى الخلف ، على نفح الأبواق وفرع الصنوج . وحينما سألنا أجينا بمحكاية تشير الشفقة أو الرعب في آن معاً . كان فريق من الفرنجية قد بنى في أرضه القرية من بحر القلزم (البحر الأحمر) عدداً من السفن ، فككوها ونقلوها عبر الصحراء على جمال البدو ، إلى الساحل حيث أعيد تركيبها ، وأعدت للإبحار . لقد خر هذا الأسطول عباب البحر الأحمر ، واقترب الفرنجية الكثير من الجرائم النكراء ، التي لم يسمع بثلها قط منذ ظهور الإسلام ، وأسوأ ما ارتكبوه من فعل — تألي أسماعنا أن تلقطه — هو التجربة على التقدم نحو مكة والمدينة ... »^(٣) .

وبعد أن عرض رجال رينو دي شاتيون الأسرى على الشعب جندلت رؤوسهم علينا يوم عيد الأضحى كيلا يبقى منهم أحد — كا نص قرار الإعدام — ولি�كونوا عبرة للفرنجية ، إذا خطر ببالهم أن يعاودوا الكرة ، على طرق البحر الأحمر والديار المقدسة . وهكذا انتهت تلك المغامرة التي قادت عدداً مغامراً من المسيحيين حتى أبواب مكة . ولكن رينو دي شاتيون لم يمت . ولن يجد صلاح الدين بعد الآن عدواً أعنده منه .

الحلف الإسلامي الفرنجي غير المقدس

وحينما عاد صلاح الدين إلى دمشق علم بنبأ فاجع ، وهو أن الموصل تتفاوض مع القدس ، لتنسيق جهودها وسياستها بهدف انتزاع سوريا من الأيوبيين . وكتب صلاح الدين إلى خليفة بغداد : « لقد تأكدت أن أهل الموصل اتفقوا مع أعدى أعداء المؤمنين ، وقد حاولوا عبثاً إبقاء اتفاقهم سراً ، ولكن كتابات العصابة تشهد عليهم — فضلاً عن شهادة الذين حضروا كتابة المعاهدة — فقد تعهد سلطان الموصل بأن يسلم الفرنجية حصون المسلمين في تبنين وبانياس ، وبأن يعيدها لهم أسراهـم ، ليس فقط في المدن الواقعة تحت أيديهم ، بل كذلك في المدن التي يأملون الحصول عليها بمعونة ملك القدس »^(٤) . وهذا الاتفاق ساري المفعول

لمدة إحدى عشرة سنة .. هكذا كان حاكم الموصل يعرض على بلد़وين الرابع ميشاق مساعدة متبادلة ، لأنَّه كان يخشى السيطرة السياسية التي يمارسها صلاح الدين — كما رأينا — على أمراء ما بين النهرين الثانويين ... وكان حاكم حلب ابن نور الدين بدوره — وهو آخر مدافع عن الصالح الزنكية في سوريا — وفيماً للوعود التي قطعها على نفسه وهو على فراش الموت ، فإذا هو يقطع علاقاته رسمياً مع دمشق ، ويُضع نفسه تحت تصرف هذا الحلف الإسلامي — الفرنجي المذهل . كان هدف الحلفاء واضحاً : الانقضاض على دمشق في وقت واحد عبر وادي العاصي والأردن .

صلاح الدين يوجه ضربته الأولى للأعداء

ووجه صلاح الدين دون أن يتضرر نتائج المفاوضات القائمة بين الموصل وحلب والقدس الضريبة الأولى إلى أعدائه ، فاخترق ما بين النهرين وعبر الفرات في بيرجق ، وانضم إليه عدد من مراكب بعض المماليك الذين ما زالوا أوفياء له في ما بين النهرين .. وفتح الراها ، وهي القطب القديم للمشروع الروماني الاستراتيجي ، فسقط في يده موقع واحد قائم في حوض الخابور ، ودون أن يدع لقواته وقتاً للراحة سارع فأخذ الرقة ، وسار في الفرات حتى الخابور ذي المياه الجميلة الصافية ، وأخضع الحسكة وكل وادي الخابور الخصيب ، وتعدُّ هذه المنطقة أكبر منتج للقطن في العصر الوسيط ؛ وتحتفظ طيًّا ثراها باثار الكثير من الحضارات المندثرة . وعمل صلاح الدين على تقسيمها اقطاعات عسكرية .

حصار الموصل

وفي ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) حط رحاله أمام الموصل التي تشاهد من أعلى قلعتها خرائب نينوى المؤثرة . كان سلطان الموصل على أبهة الاستعداد للقاء ، إذ كدس — في هذه المدينة الشهيرة بال المسلمين أو القماش المطرز بالذهب والحرير — الكثير من الأطعمة والأسلحة وكان في مستطاعه أن يصمد أكثر من صلاح الدين بعيد عن قواعد قمونيه . والمضطر إلى الاكتفاء بموارد ضئيلة من جبل سنجار القاحل . كان في نيته — على الأكثر — أن ينهك عدوه بلا قتال ، وأن يتحداه على هواه وهو قابع وراء أسواره الصفيقة الجدران ، وأن يراه يستغيث يتآكله الحقد والألم . الواقع فإن الجيش السوري الذي أرهقته هذه المسيرات

المتابعة غير المنقطعة عبر هذا العدد من الصحاري أخافه أن يرى في الموصل معسكرًا حقيقياً محصناً واللات حرية مقلقة كانت تهدف حمم النفط من أشداها . فـأيقظ صلاح الدين في جيشه روح الشجاعة ، وذكره بانتصاراته الماضية ، ولم ينس كذلك أن يعد رفقاء بنبه أسواق هذه المدينة المترفة وتتابع الأسابيع . وقرر مصير الحرب نعل وجد هناك نتيجة مصادفة مشوّومة ، فيما كان صلاح الدين يفتّش الواقع المحسنة مع أمرائه غامر مقترناً أكثر من اللازم من أسوار المدينة ، إذ قام أحد المحاصرين الناقمين بقذف سيل من الشتائم ورمى بنعله المغطى بالمسامير نحو المتقدمين ، فأصاب به بطنه أحد شيوخبني أسد القبيلة العربية المشهود لها بالشجاعة . والتقط الشیخ النعل وأراه صلاح الدين قائلاً : « انظر بماذا يعتقد هؤلاء الناس أنهم سيصدوننا . إنهم يعاملوننا على ما ييدو كما لو أنها مجموعة من العبيد ، فإنما لم أتعود مثل هذه الإهانات . قدني نحو أعداء جديرين بشجاعتي ، وإلا فأفضل الانسحاب » .

وغادر تاركاً صلاح الدين هناك ، إلى خيمته حيث روى للشيوخ الآخرين الذين تبعوا صلاح الدين مع قبائلهم حتى أسوار الموصل .. روى لهم الحادث الذي لا يحتمل ... واعتبر النعل الذي كان ينتقل من يد إلى يد سبباً شخصية موجهة إلى كل من هؤلاء القادة الذين لا يشك في شجاعتهم . وكم ودوا ألا تنتقل الحكاية بعد تزيينها وتضخيمها على ألسنة شعراء الباذية لتطوف جميع قبائل مابين النهرين والعربية السعيدة ، وأن يشار إلى استقبال صاحبها أمام أسوار الموصل بصفق النعال وهو في صحبة صلاح الدين .. وإثر هذا الحادث رفع صلاح الدين الحصار متفادياً — بسبب هذا الحادث التفه — مجازر وحرائق ورمى تدمير الموصل .

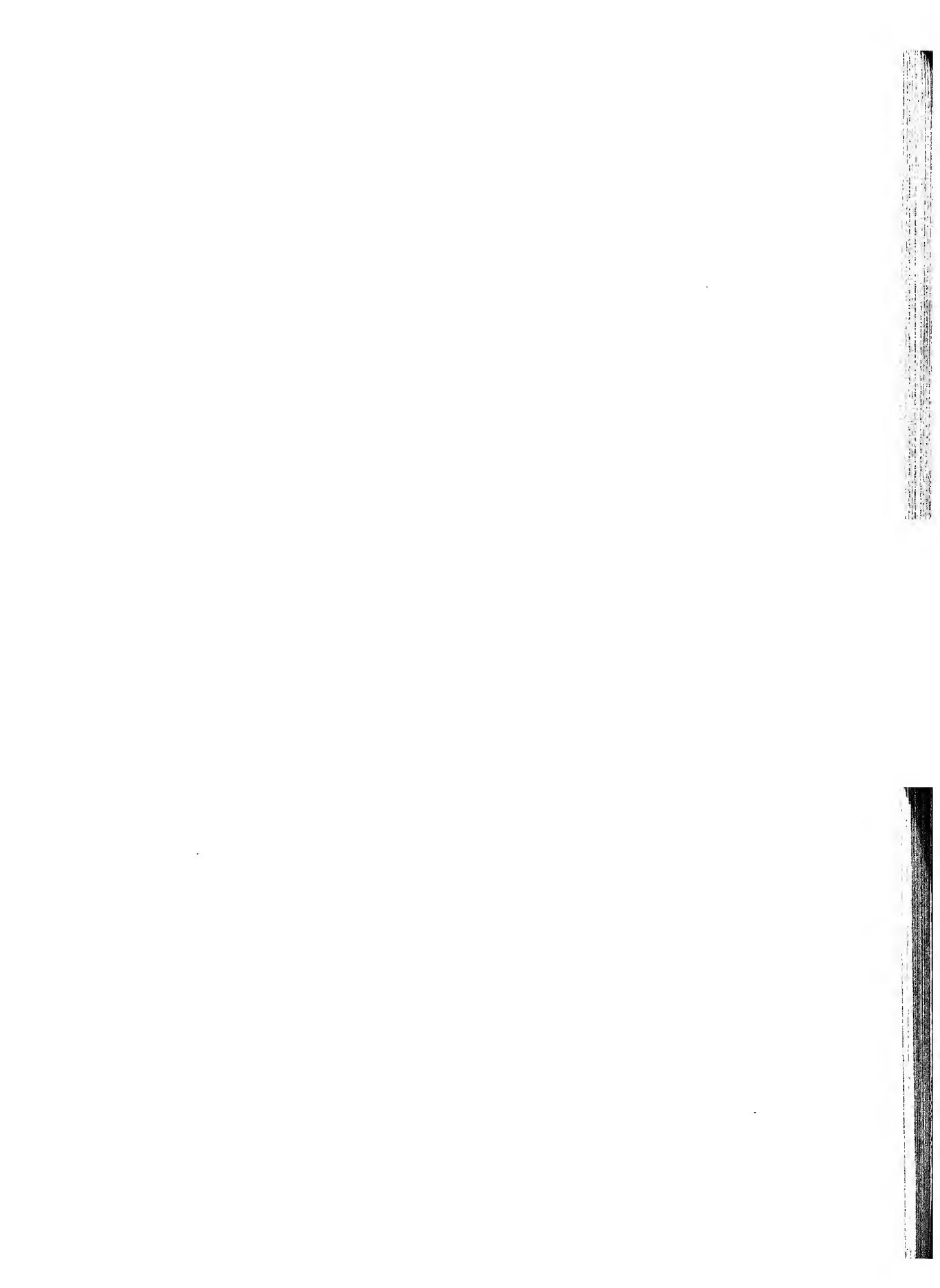
عودة حلب إلى سلطة الأيويين

وبعد فشل صلاح الدين أمام الموصل ظهر للمرة الخامسة وراء أسوار حلب ؛ لمعاقبة حاكمها على خيانته . فـكانت المهمة سهلة ؛ إذ تعب التجار الحلبيون من هذه المعارك الداخلية ، والخصومات بين السلاطين التي ما تنتهي تقطع مجرى الأحداث ، وتتسقط أسعار الحرير والتوازن من يوم لآخر ، خاصة وأن ابن نور الدين مات على حين كانت شخصية صلاح الدين تترسخ ، ولم يعد في نظرهم ذلك التابع الجاحد الذي اغتصب السلطنة من صاحبها الشرعي الزنكي .. بل كان مجده يكبر في المشرق ، من وادي النيل إلى وادي الفرات ،

ومن حدود النوبة إلى جبال أرمينية ، كما بربرت مآثره في القدس على وجه التحديد ، ولم يعد بمقدور أحد أن ينكر عظمته التي كان الإسلام — في آخر المطاف — المستفيد الوحيد منها . وكان عقّم نزاعات العاملين للاستثمار بالسلطة قد أضرّ حتى الآن بوحدة الإسلام السوري .

لكل ذلك قام الوجهاء الحلبيون بالضغط على حاكم مديتها ، فأدرك أن الأجدى له أن يتخلّى عن سلطته ، وكان قراره هذا بالغ الحكمة . خاصة وأن مبعوثين سريين من لدن صلاح سبروا له غور الخامسة والشعب ، واشتروا جزئياً خصوصهما . ودخل صلاح الدين حلب دخول المتصرّ ، وهتف له الجمّهور ، وطفق الشّعّراء يدّبّجون قصائدهم ب مدحه ، حتى إن قاضي دمشق محبي الدين بن الزّركي امتدّحه بقصيدة من الشعر العاطفي قال له فيما قال :

وتحكّمْ حلبًا بالسيف في صفير مبشرٌ بفتح القدس في رجب



حواشى الفصل العاشر

١ ، ٣ — ما جاء في رحلة ابن جبیر عن مغامرة رینو دي شاتيون وعزمه على دخول المدينة المنورة ، وإخراج رفاته عليه السلام من ضريحه المقدس وكيف أخذ رجاله أسرى إلى الإسكندرية :

«وذلك أتا لـنا حلـنا الإسكندرية في الشـهر المـؤرـخ أـولاً عـاينـا مجـتمـعاً من النـاس عـظـيـماً بـروـزاً لـمـاعـيـنة أـسـرى مـن الرـوم أـدـخـلـوا الـبلـد رـاكـبـين عـلـى الجـمـال وـوـجـوهـهـم إـلـى أـذـنـابـهـا وـوـحـوـطـمـهـا وـطـبـولـهـا وـأـبـوـاقـهـا . فـسـأـلـنا عـن قـصـتـهـم ، فـأـخـبـرـنـا بـأـمـرـ تـفـطـرـ لـهـ الـأـكـبـاد إـشـفـاقـاً وـجـزـعاً . وـذـلـك أـنـ جـمـلة مـنـ نـصـارـى الشـام اجـتـمـعـوا وـأـنـشـأـوا مـرـاكـبـ فيـ أـقـربـ المـواـضـعـ التيـ هـمـ مـنـ بـحـرـ القـلـمـ، ثـمـ حـلـوا أـنـقـاضـهـا عـلـى جـمـالـهـا عـرـبـاً طـاـرـيـاً لـمـعـهـمـ عـلـيـهـ، فـلـمـ حـصـلـوا بـسـاحـلـ الـبـحـرـ سـمـرـوا مـرـاكـبـهـمـ وـأـكـمـلـوا إـنـشـاءـهـا وـتـأـلـيفـهـا وـدـفـعـوهـا فـيـ الـبـحـرـ وـرـكـبـوهـا قـاطـعـيـنـ بـالـحجـاجـ ، وـانـتـهـيـا إـلـى بـحـرـ النـعـمـ فـأـحـرـقـوا فـيـهـ نـحـوـ سـتـةـ عـشـرـ مـرـكـباً . وـانـتـهـيـا إـلـى عـيـنـابـ فـأـخـدـلـوا فـيـهـا مـرـكـباً كـانـ يـأـتـيـ بـالـحجـاجـ مـنـ جـدـداً ، وـأـخـدـلـوا أـيـضاً فـيـ الـبـرـ قـافـلـةـ كـبـيرـةـ ثـانـيـاً مـنـ قـوـصـ إـلـى عـيـنـابـ ، وـقـتـلـوا جـمـيعـهـا وـلـمـ يـخـيـرـهـمـ أـحـدـاً . وـأـخـدـلـوا مـرـكـبـينـ كـانـا مـقـبـلـيـنـ بـتـجـارـ منـ الـيـنـ ، وـأـحـرـقـوا أـطـعـمـةـ كـثـيرـةـ عـلـى ذـلـكـ السـاحـلـ كـانـتـ مـعـتـدـلاً مـلـيـةـ مـكـةـ وـالـمـدـيـنـةـ أـعـرـهـمـ اللهـ ، وـأـسـدـلـوا حـوـادـثـ شـنـيـعـةـ لـمـ يـسـمـعـ مـثـلـهـا فـيـ إـسـلـامـ ، وـلـاـنـتـيـ روـمـيـ إـلـى ذـلـكـ المـوـضـعـ قـطـّـ .

وـمـنـ أـعـظـمـهـا حـادـثـةـ تـسـدـ المسـامـعـ شـنـاعـةـ وـبـشـاعـةـ ، وـذـلـكـ أـنـهـمـ كـانـوا عـازـمـينـ عـلـى دـخـولـ مـدـيـنـةـ الرـسـوـلـ (صـلـيـلـهـ عـلـىـهـ وـسـلـيـلـهـ) ، وـإـخـرـاجـهـ مـنـ الضـرـيـحـ المـقـدـسـ أـشـاعـوا ذـلـكـ وـأـجـرـوا ذـكـرـهـ عـلـىـ الـسـتـبـهـ ، فـأـخـدـهـمـ اللهـ باـجـتـراـئـهـمـ عـلـيـهـ وـتـعـاطـهـمـ مـاـتـحـوـلـ عـنـيـةـ الـقـلـمـ بـيـنـهـمـ وـبـيـنـهـ . وـلـمـ يـكـنـ بـيـنـهـمـ وـبـيـنـ الـمـدـيـنـةـ أـكـبـرـ مـنـ مـسـيـرـ يـوـمـ . فـدـفـعـ اللهـ عـادـيـهـمـ بـمـرـاكـبـ عـمـرـتـ مـنـ مـصـرـ وـإـسـكـنـدـرـيـةـ دـخـلـ فـيـهـا الـحـاجـبـ الـمـعـرـفـ بـهـلـوـلـ مـعـ أـنـجـادـ مـنـ الـمـغـارـيـةـ الـبـحـرـيـنـ . فـلـحـقـوا الـعـدـوـ وـهـوـ قـدـ قـارـبـ النـجـاةـ بـنـفـسـهـ فـأـخـدـلـوا عـنـ آخـرـهـمـ . وـكـانـتـ آيـةـ مـنـ آيـاتـ الـعـنـيـاتـ الـجـبـارـيـةـ ، وـأـدـرـكـوـهـمـ عـنـ مـدـةـ طـوـيـلـةـ كـانـتـ بـيـنـهـمـ مـنـ الزـمانـ نـيـفـ عـلـىـ شـهـرـ وـنـصـفـ أـوـ حـوـلـهـ . وـقـتـلـوا وـأـسـرـوا ، وـفـرـقـ مـنـ الـأـسـارـىـ عـلـىـ الـبـلـادـ لـيـقـتـلـوا بـهـا ، وـوـجـهـ مـنـهـمـ إـلـىـ مـكـةـ وـالـمـدـيـنـةـ . وـكـفـىـ اللهـ بـجـمـيلـ صـنـعـهـ إـسـلـامـ وـالـمـسـلـمـينـ أـمـرـاً عـظـيـماً ، وـالـحـمـدـ اللهـ رـبـ الـعـالـمـينـ» . (رـحـلـةـ ابنـ جـبـيرـ صـ٣ـ٤ـ - ٣ـ٥ـ)

٢ — ذـكـرـ مـطـارـدـةـ الـقـوـاتـ إـسـلـامـيـةـ الـقـوـىـ الـصـلـيـبـيـةـ الـتـىـ قـادـهـاـ رـيـنـوـ دـيـ شـاتـيـونـ (أـنـاطـ) ، وـكـيفـ أـنـ الـمـسـلـمـينـ

طفقوا يتحدثون عن اقتراب الساعة؛ في رسالة بعثها صلاح الدين إلى الخليفة العباسى في بغداد نقلًا عن كتاب الروضتين :

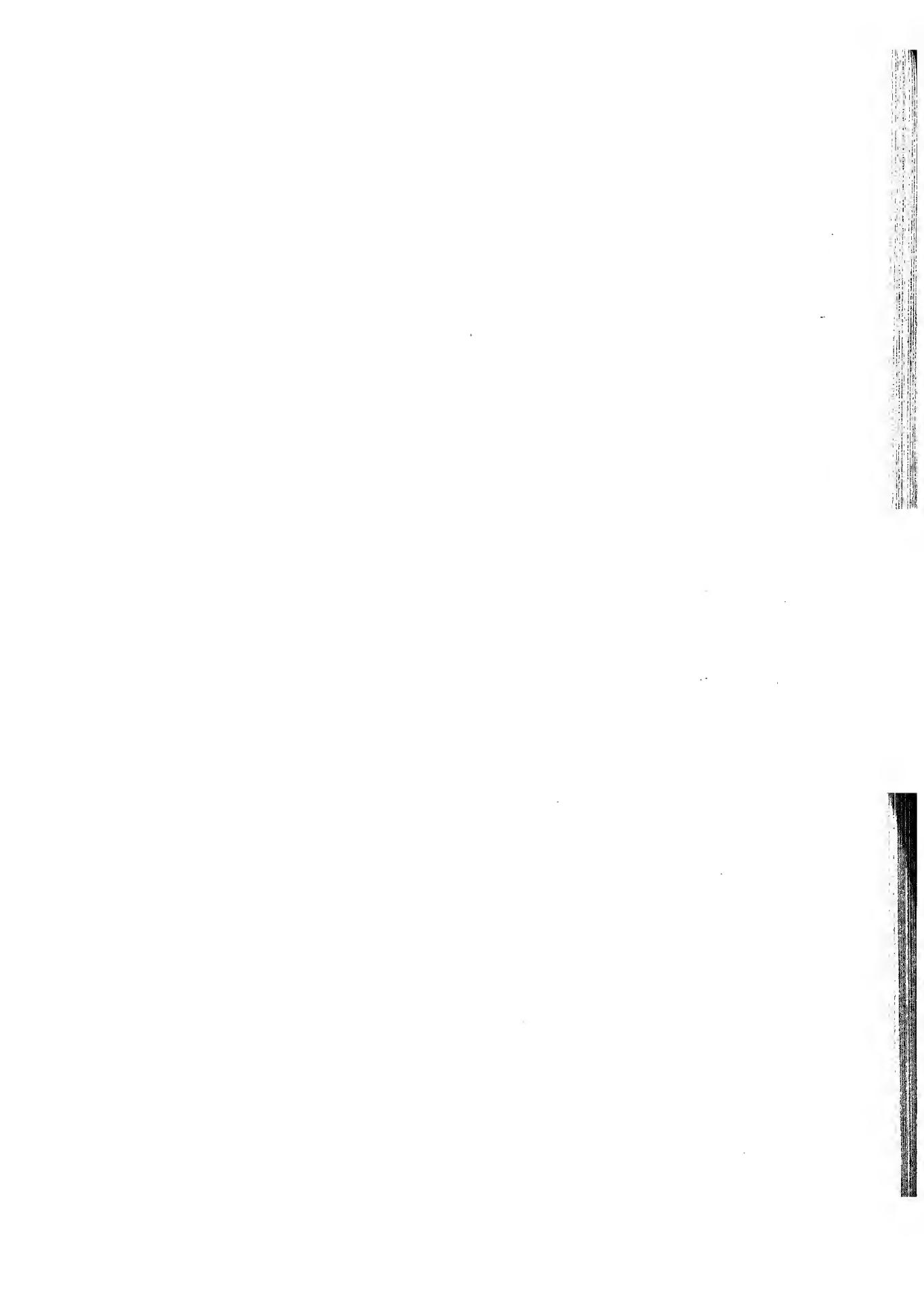
«كان الفرج قد ركبوا من الأمر نكراً، وافتضوا من البحر بكرًا. وعمروا مراكب حرية شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأرواد، وضريروا بها سواحل اليمن والحجاج، وأثخنوا وأوغلوا في البلاد. واشتكت مخافة أهل تلك الجوانب، بل أهل القبلة لما أومض إليهم من خلل العواقب. ومازن المسلمين إلا أنها الساعة وقد نشر مطوي أشراطها، والدنيا وقد طوى منشور بساطتها. وانتظر غضب الله لفناء بيته الخرم، ومقام خليله الأكرم، وتراث أنبائه الأقدم، وضربي نبيه الأعظم (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). ورجوا أن تشخذ البصائر آية كافية هذا البيت إذ قصده أصحاب الفيل، ووكلوا إلى الله الأمر وكان حسهم ونعم الوكيل. وكان للفرج مقصدان أحدهما قلعة إيلة التي هي على فوهة بحر الحجاج ومداخله، والآخر الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بладهم من ساحله. وانقسموا فريقين، وسلكوا طريقين. فاما الفريق الذي قصد قلعة إيلة فإنه قدر أن يمنع أهلها من مورد الماء الذي به قوام الحياة، ويقاتلهم بنار العطش المشبوب الشباء. وأما الفريق القاصد سواحل الحجاج والبيزن فقدر أن يمنع طريق الحاج عن حجه، ومحول بينه وبين فجه، ويأخذ تجارة اليمن، وأقام عدن، ويلم بسواحل الحجاج فيستحيي والعياذ بالله المحرم، ويبهج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظام. وكان الأخ سييف الدين بمصر قد عمر مراكب وفرقها على الفرقتين، وأمرها بأن تطوي وراءهم الشنتين. فاما السائرة إلى قلعة إيلة فإنها انقضت على مرابطي الماء، انقضاض الجوارح على بنات الماء، وقدفتها قذف شهب السماء، مسترقى سمع الظلماء. فأخذت مراكب العدو برمتها، وقتل أكثر مقاتلاتها، إلا من تعلق بهبطة وما كاد، أو دخل في شعب وما عاد. فإن العريان اقتصوا آثارهم، والتزموا إحصارهم. فلم ينج منهم إلا من ينجي عن العاوده، ومن قد علم أن أمر الساعة واحده. وأما السائرة إلى بحر الحجاز فنادت في الساحل الحجازي إلى رايغ سواحل الموراء فأخذت تجارة، وأخافت رفاقاً، ودهما على غوارب البلاد من الأعراوب من هوأشد كفراً ونفاقاً. وهناك وقع عليها أصحابنا، وأخذت المراكب بأسرها، وفرّ فرنجها بعد إسلام المراكب، وسلكوا في الجبال مهاري المهالك ومعاطن المعاطب. وركب أصحابنا ورائهم خيل العرب يشنلونهم شلاً، ويقتصونهم أثراً وقتللاً، وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلاً ورجالاً، نهاراً وليلاً، حتى لم يتركوا عنهم خيراً ولم يبقوا لهم ثراً، وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً، وقيد منهم مائة وسبعين أسيراً» (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٣٧).

٤ - ومن كتاب فاضلي : عند دخول صاحب الموصى حلب واستيلائه عليها وكانت داخلة في تقلييد السلطان السابق جاء فيه :

«دخل حلب مستولياً، وحصل بها معتدياً، وعقد الخلفاء لاتخذه، والسيوف في أوجه أوليائهم لا تسقط. وإنه إن فتح باب المنازعه أدى من ندامه، وأبعد من سلامه، وخرق ما يعيى على الواقع، وجذب الرداء فلم تغرن فيه إلا حيلة الحال. وليس الاستيلاء بمحنة في الولايات لطالها، ولا الدخول إلى الدار بوجب ملك غاصبها؛ إلا أن تكون البلاد كالديار المصرية حين فتحها الخادم وأهله حيث الجمعة مستربة والخلافة في غير أهلها غريبة ، والعقائد لغير الحق مستحبة . فتلક الولاية أولى من منتها من فتحها ، وكان سلطانها من أدخل في كان شيطانها، وأما حلب فإن الكلمة فيها عالية والمنابر فيها بالاسم الشريف حالية ، فإئتها تكون لمن قلدتها لام توردها ، ولن بالحق تسللها لام من بالباطل تسنمها . ولو كانت حلب كما كانت مصر لدخلتها الخادم ولم يشاور ، ولوجلها ولم ينظر ، ولكنه أتى البيوت من أبوابها ، واستমطر القطار من سحابها ».

«ثم ذكر أن المواصلة راسلوا الملاحدة الحشيشية واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين ، وواسطة بينهم وبين الفرج الكافرين ، ووعدوهم بقلع من يد الإسلام تقلع ، وضياع من في المسلمين توضع ، ويدار دعوة بحلب ينصب فيها علم الضلاله فيرفع . وباللعجب من الحصم يهدم دولة حق وهي تبنيه ، ومن العبد يبني ملوكها بنفسه وما له وذوه ، وهي تراقب أعلاه فيه . ودعواه في رسائلهم وغوايدهم ليست بدعوى لا يقوم شاهدها ، ولا هي بشناعة لا يهتدى قائدتها . بل هذا رسولهم عند سنان صاحب الملاحدة ورسولهم عند القمح ملك الفرج ، وهذه الكتب المواصلة بذلك قد سيرت ، ولاستيغاب الولاية طرق ، أما السبق إلى التقليد فللخادم السابق ، وأما العدالة والعدل فهو وقع الفرق لوقع الحق ، وأما بالآثار بالطاعة فله فيها ما لا يعونة الخالق فيه لقصرت عنده أيديي الخلق ومتى استمرت المشاركة في الشام أفضت إلى ضعف التوحيد وقوة الإشراك ، وترا مت إلى أخطار يعجز عنها خواطر الاستدراك ، وأحوجت قابض الأعناء إلى أن يعليها الجدد ، ويرسلها العراك ، وطريق الصلاح والمصالحت الأيمان . والمشارك لهم لا يلتزمون ريقتها ولا يوجبون صفتتها . وكفى بالتجريب ناهياً عن الغره ، ولا يلدغ المؤمن إلا مره . وإذا اجتمعت في الشام أيد ثلث ، يد عادية ويد ملحدة ويد كافرة ، نهض الكفر بتلبيته ، وقصرت عن الإسلام يد مفيشه ، ولم ينفع الخادم حينئذ تصحيح حسابه وتصديق حدبه . وما يزيد الخادم إلا من تكون عليه يد الله وهي الجماعة ، ولا يؤثر إلا ما يتقرب به إليه وهو الطاعة ، ولا يتونح إلا ما يقوم به الحاجة اليوم ويوم تقوم الساعة ». (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣—٢٤).

٥ — أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٤٦.



الفصل الحادي عشر

سید الكرك

استيلاء الفرنجية على حبس جلداق

بينما كان صلاح الدين على أبواب الموصل ، لم يكن الفرنجية في موقف المترفج بل ظلوا على عهدهم ماضين في سياسة الإنهاك ، وغزو الأراضي الإسلامية ، والإخلال بنظام طرق القوافل . واستأنفوا أعمالهم الهجومية مضاعفين الغارات حتى أبواب دمشق . مرهين الشعب بل يردون كيل الصاع صاعين .

وفي أيلول (سبتمبر) ١١٨٢ نهبوا منطقة بصرى مفسدين مياه الآبار على طريق الحج بما راكموه فيها من مختلف أنواع الجيف وانقضوا كالجراد على أراضي السوتين الخصبة التي سبق أن انتزعت منهم ، والتي يصف غيوم الصوري وصفاً بلغاً كرومها وزيتونها ومروجها كمراعٍ خصبة للمواشي . واستعادوا قصر حبس جلداق الذي فقدوه قبل شهر .

وقدمن بالذكر أن نقل هنا المعلومات التي سجلها غيمون الصوري عن هذا الموقع الذي تبودل عدة مرات ، قال : «وصل الفرنجية مع قاطعي الحجارة الذين حفروا قمة الجبل ، وكان ثلة عمال آخرون يلقون في قعر الوادي كتلاً كبيرة من الصخور التي تقطع من مكانها مجهد

جهيد. وكان يعرقل العمل مكامن الصخر البلوري التي تقطع هذا السهل الكلسي، وذلك لأن معالو العمال كانت تتلثم على هذه الصخور. بينما كان عمال آخرون إلى جانبهم يصلحون فوراً الآلات المعطلة، متداوين العمل ليل نهار. وأقام قسم من المقاتلين المعسرك على قمة الجبل لحماية قطاع الحجارة؛ بينما رابط الآخرون في الوادي لمنع أية محاولة لخروج العدو. وغامر بعض الفرسان الشبان زحفاً إلى الممر الضيق، واقتربوا من مدخل الكهوف. بينما كان المحاصرون وعدتهم سبعون مملوكاً اختارهم صلاح الدين من بين خيرة جنوده منهكين القوى بالغي الإعياء لعدم تحكمهم من التمتع بأية نأمة استراحة تحت مستمر ضربات المعالو التي تدق الصخر فوق رؤوسهم، وقد شل الذعر تفكيرهم في أن يسحقهم انهيار القناطر، أكثر مما يرعبهم احتلال ظهور الفرنجة في أية لحظة. وليقينهم بعدم جدواي انتظار أية نجدة يدهم بها صلاح الدين الذي ذهب بعيداً مع جيوشه، قرروا تسليم الحصن بعد حصار دام ثلاثة أسابيع».

صلاح الدين ينهي للاقاء الفرنجة

ولما علم صلاح الدين بسقوط حبس جلداق أثناء عودته من حلب إلى دمشق التي وصلها في ٢٤ آب (اغسطس) ١١٨٣، استأنف مسيره للاقاء العدو. فعبر الأردن مرة أخرى ونهب وأحرق قرية بيسان التي سارع مستوطنوها فنزحوا عنها. وفاجأ بالقرب من عين جالوت قوة فرنجية بقيادة الجميل غير اللامع أونفرروا الرابع دي تورون ابن إيتنيت دي ميلي أميرة أراضي عبر الأردن سيدة الكرك الشهيرة في مملكة القدس، وقتل المسلمون جموعاً غفيرة من الفرنجة وأسرعوا حوالي مائة يبعوا في سوق النخاسة بدمشق. ولم يفقدوا في هذه المعركة سوى رجل واحد خلّد اسمه بهاء الدين، مؤرخ صلاح الدين.

وعلم صلاح الدين في أول تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٣ بزحف الفرنجة على حصن الفولة المشرف على سهل أسدرلون فهاجم طلائعهم عند الينابيع المسماة عين الطباينية. واشترك رينو دي ساجيت – الذي كان يلعب دوراً مهماً في إدارة شؤون المملكة – في هذه المعركة الدامية. لقد قاتل الرجال في معركة التحامية مصارعةً، الجسد على الجسد والعين بالعين^(١) كما يقول بهاء الدين^(٢). وكانت القرى تُمحى حيثما مر صلاح الدين حتى حاول أن

يدمر دير القديس ايليا اليوناني على جبل الطور . وسبب اقتراب فصل الشتاء سرّح من رجاله ، أولئك الذين كانوا يريدون العودة إلى منازلهم للتمتع فيها بشمرات أسلفهم . وعاد إلى دمشق في ١٤ تشرين الأول (اكتوبر) .

حصار الكرك

أما رينو دي شاتيون الشجاع المشهوم ، بعد ملحنته المزورية أمام مكة ، وتهيه عدة أشهر لتعيس بائس ، إثر نجاته بفضل تطابق ظروف لم يسمع بمثلها ، رجع إلى أراضيه واستعاد صحته وقواه وراح يقيم الحفلات الماجنة في حصن الرهيب : الكرك ، في حاشية كثيرة العدد متربصاً بقوافل المسلمين الطائلة الثراء التي كان يمكر بها إذا ما جازفت ومررت قرب ممتلكاته ولكونه غدا سيداً عظيماً ، أسطورياً عرف كيف يستقبل بهذا البذخ القروسطي الذي يسحر أبابنا ؛ وشرع الناس يفدون إليه من بعيد لمشاهدة ذلك الذي تصور أن يستطاعه تغيير كل شيء في الأماكن الإسلامية المقدسة . وما أسرع ما كان يُنسى — إلى جانب ذلك — ما اتخذه من مواقف وقحة حيال بودوان لي ميسيل ، هذا الأمير التاعس الخظ الذي أعماه الجذام .

وقرر رينو دي شاتيون آنذاك أن يختفي بعرس صهره وأنفروا الرابع دي تورون وإيزابيل أخت ملك القدس . وحين علم صلاح الدين بالأمر وجد مناسباً أن يشارك في الحفل لأنه لم يُنس السجاجيد الجميلة المسروقة ولا الإهانات التي كاها له سيد أراضي عبر الأردن ، فضلاً عن أن حصن الكرك هذا أحد أهم ممتلكات ملك القدس لسيطرته على الشريان المصري — السوري الذي تسلكه القوافل . وكانت هذه الطريق سبب قلق صلاح الدين الدائم ، وذلك لأنه منذ أن تولى رينو دي شاتيون حكم الكرك تأثرت حركة التجارة بين دمشق والقاهرة نتيجة حالة فقدان الأمن المستمرة على أيدي أسير حلب القديم ، وغدا المرور عسيراً بالخطورة مالم يصحب قوافل التجار حرس عسكري ، وأضررت تلك الفوضى بمصالح التجار السوريين والمصريين معاً . ولذا قام صلاح الدين برافقه أخيه الملك العادل وقواته المصرية ، وابن أخيه تقى الدين ، وقوة من الأكراد الشديدية الشكيمة ، وألة حرب مهيبة بضرب الحصار على قلعة الكرك ، حيث كان جمهور مبت Hwy من البارونات والنبلاء والسيدات ، والمهرجين ، والموسيقيين .

والشعراء، وبالعي السكاكيين القادمين من القدس، يحتفلون بالآباءهم وحركاتهم ومديح أقوالهم بعرض الأميرة.

وأسهم الفن والطبيعة معاً في جعل هذه القلعة منيعة (لاتؤخذ). فقد بنيت عام ١١٤٢ بصخور بركانية فاسية حمراء وسوداء، ولم يستطع بيان لوبيتيه Payan le Boteiller تشدديها إلا بجهد جهيد. لقد كانت إحدى أفضل دفاعات المملكة، متتصبة على هضبة واسعة (جبل الثلج). بمنأى عن أي مركز، مشرفة على صحراء شرق الأردن، وأراضي البحر الميت القاحلة. كانت هذه القلعة المهيءة تتصل عبر دهليز واحد بمدينة الكرك التي يرق تارikhها إلى زمن متناه في القديم، فمن هنا انطلقت روث المؤابية إلى بيت لحم حيث تزوجت بوز Booz جد داود.

وإلى الكرك (كير مو آب أو كير حراسة التوراتية)، قدم داود بأهله ليحميه من اضطهاد شاول. وفي قلعتها اختباً ميسا Mesa ملك مؤاب وهزم حيرام ملك إسرائيل ويوبث فاط ملك يهودا، كما تحدث كل من أشعيا وإرميا عن الكرك في نبوءاتهما الخالدة.

ولما رأى كشافو رينو دي شاتيون الجيش الإسلامي يتبدى من بعيد، احتمى أصحابه في ملجة منع أن يدخله أي من الفرنجة الفارين سواء سكان المدينة السفلى، أو الأطفال والنساء. واستطاع صلاح الدين وبعض المالك أن يفتحوا مدخل الحصن عنوةً وأن يفتکوا ببعض الحرمس والسكان، ولولا شجاعة فارس فرنجي واحد لبلغوا قلب القلعة فبينما خف المدافعون لرفع الجسر المتحرك تصدى ذلك الفارس وحده لهجوم المالك الذين وصلوا إلى هناك؛ ويدعى الكونت ايفين الذي شرع يوجه ضرباته الموقعة ذات العين وذات اليسار متخططاً في مشيته على جثث القتلى وأجساد المشرفين على الموت، دافعاً حياته ثمن عمله البطولي الذي أنقذ القلعة. ولقد كتب السيد بول ديشام في مؤلفه المدهش : «الدفاع عن القدس». كتب قائلاً: « هنا يجد مكانه عمل ساحر من أعمال العشق والفروسيّة ، عمل يؤكد جيداً العلاقات الغزلية التي يمكن أن يقيّمها الأمراء الفرنجة والمسلمون حتى في أزمة الحرب .. فقد أرسلت إيتينيت دي ميلي العروس الصبية إلى صلاح الدين الذي كان يحاصر المكان شيئاً من وليمة العرس ، وأبلغته سلامها مع مبعوثها مذكرة إياه بالزمن السالف أيام

طفولتها (وكيف كان يحملها بين ذراعيه وهي مع ذورها سجينة) وتأثر صلاح الدين بالغ التأثر بهذه الذكرى، وسأل عن البرج الذي يقيم فيه العروسان فدلوه عليه، فأمر بالامتناع عن قصصه بأي حالٍ من الأحوال».

كان صنيع صلاح الدين هذا ساحراً، ولكنه لم يمنع المماليك من بقى بطنون سكان مدينة الكرك الواطعة المزدحرين أمام باب الحصن وقطع رؤوسهم حتى كُلّت أيديهم، ثم أمر بنصب ثمانية مجانيق ضخمة راحت ترمي ليلاً نهار قذائفها الثقيلة على القلعة، وحاول المهاجمون أن يقيموا قاذفة حجارة ضخمة لكي يُفشلوا مجانيق صلاح الدين، ولكن نبالته هاجموا العمال المكلفين بنصبها فاضطروا إلى العدول عن إتمام العمل. وكان المهاجمون مزودين بكثيمات من الذخيرة بلغت من الغزارة بحيث كان مستحيلاً أن يطل أحد برأسه من إحدى الكوى. دون أن يتلقى من فوره وابلاً من القذائف. وكان لدى رينو دي شاتيون جمع غيري من المدعين والمُسلّين داخل القصر، وسرعان ما أتت هذه الأفواه — التي لا فائدة منها إبان الحرب — على جميع الأذنيدية المخرونة. وصار الجائعون بثيابهم المزركشة يتقطعون الهمم بهاجس ولائهم الماضية وبكائهم، وهو يتضرعون إلى سيد الكرك بأن يتصالح مع صلاح الدين. ولكن رينو دي شاتيون الواقع بصلة دفاعاته قلعته الخائف من آية مقابلة مع صلاح الدين بسبب قضية قافلة حجاج دمشق، ومحاوراته أمام مكة كان ينوي الصمود للنهاية حتى لو بقى وحده، وأرسل في الوقت نفسه بطلب النجدة من الخارج، وقد تمكّن أحد عملائه من الإفلات فخف إلى الملك يلتسم قوة غوث، كما أمر بأن معًا بإضرام نارٍ هائلة على أحد أعلى أبراج الكرك لعدة ليالٍ متتابعة علامة المصيبة... نار يمكن مشاهدتها من بعيد رغم أن القدس تبعد عن الكرك مسافة ثمانين كيلو متراً على خط مستقيم (خط طيران العصفور)... وكان ممكناً إبان الصحو مشاهدة جبل الزيتون وراء امتداد زرقة البحر الميت. وحينما علم صلاح الدين باقتراب الجيش الفرنجي دمر آلاته ورفع الحصار عن القلعة. واستقبل حماة الكرك الذين ظلوا على قيد الحياة بلدوبن الرابع الأعمى المشلول بابتهاج غامر. وأمر الملك بتمويل القصر وإصلاح ما حصل فيه من أضرار ورجع إلى القدس.. وأما صلاح الدين «فعاد ظافراً إلى دمشق» كما كتب بهذه الدين، تماماً في الوقت المناسب إذ تلقى خلعة أتحفه بها خليفة بغداد، بيد أنه عاد في الصيف التالي وضرب الحصار أمام الكرك مع التصميم هذه المرة

للاستيلاء عليها مهما كلف الأمر، إذ بدأت صيحات التذمر ترتفع في أسواق دمشق من عدم أمان طريق القاهرة الذي كان يهدد الأعمال. ولدينا معلومات كافية ودقيقة حول هذا الحصار الثاني، من خلال رسالة وجهها بدوين الرابع إلى البطريرك هيراقليوس وكبار قادة الميكيل والاسبارتار، الذين كانوا حينذاك في الغرب طالباً فيها القيام بحملة صلبيّة جديدة. ويقدم لنا المؤرخون العرب: ابن الأثير وبهاء الدين وأبو الفرج وأبو شامة تفاصيل كثيرة. واحتل صلاح الدين في ١٠ تموز (يوليو) ١١٨٤ مدينة الكرك السُّفلَى. إذ تدفقت جيوشه من دمشق، ومصر، وحلب وأمد وماردين وسنجار، ولم يُرِّ البتة مثل هذا الحشد البشري في المنطقة، وقد دافع الفرنجة عن أنفسهم بعناد أكثر من المرة الماضية، ولم يكتفوا بالبقاء وراء الأسوار بل بدوا عدواً مرهقين العدو. ودام الحصار شهراً دامياً. ولكن يضع صلاح الدين نهاية لرينو دي شاتيون بنى إنشاءات عسكرية ومجانيف وأبراجاً متحركة وأبهاء مغطاة تصل حتى خندق القصر. وتوضح رسالة بديعية سطحها القاضي الفاضل الأهمية التي كان المسلمون يعلقونها على سقوط هذا الموقع، يقول: «هو شجا في الخناجر، وقدا في المحاجر، قد أخذ من الآمال بمحنتهها، وقد بأرصاد العزائم وطرقها، وصار ذئباً للدهر في ذلك الفج، وعدراً لتأرك فريضة الله من الحج، وهو وحصن الشوبك يسِّرُ الله الآخر كبيت الواصف للأُسدِين»:

ما مَرَّ يَوْمٌ إِلَّا وَعِنْهُمَا لَحْمُ رِجَالٍ أَوْ يَوْلَغُانِ دَمًا^(٣)

ويروي أبو شامة: «إنّ الحجارة المنطلقة كانت تقع مجتمعة على قمة الأبراج وعلى رؤوس الأشرار، كانت تصيب الأفاريز وحماتها. ولا يطأ أحد برأسه إلا ويقع نصل حديدي في عينه ولا يتمشق سيف الإسلام من غمده إلا ليتخد من عنق الكفار غمداً آخر، وكانت الحجارة تصل بسخاء ولا يعيقها شيء، وكان لمع الحراب يحدث بين غبار النقع المثار من ركض فرسانا فجراً في قلب الظلام. لقد دحرنا العدو حتى شفير الهاوية وببدأت أسوار الكرك تهدم، وتنقضّ المصيبة على الكفار. ولم تعد دروعهم التي مزقت سيوفنا حلقاتها تغطي غير الجراح»^(٤).

ولكن الأسوار لم تهدم، وظلّ المهاجمون صامدين، رغم حماسات أبي شامة الشعرية وتنبؤاته الفهلوية، وكما حدث في المرة الأولى ظهر جيش ملك القدس الذي تحرك بخطى حشيشة

صوب الكرك العصبية . ومرة أخرى رفع صلاح الدين الحصار ليلاً في بلدوزين المريض المتخصص في تعرجات الطريق إلى الشمال الشرقي من البحر الميت . كان يريد أن يجهزه إلى ساحة قتال مؤاتية ، إلى حسبان وماعين . ولكن الفرنجة لم يقبلوا التغريب بهم . وبقي الجيشان يراقب أحدهما الآخر من بعيد ، ثم يتوارى كلاهما خلف الآفاق الجليلة .

الخلاف الشائك بين الدولتين الزنكية والأيوبية

وفيما كان صلاح الدين يرعب سكان الجليل انتقاماً لفشلهم أمام قلعة رينو دي شاتيون ، كان سلطان الموصل المرّيب يتبع طرق أبواب الأمراء المحاورين رامياً إلى إثارة الخصومات العائلية القديمة وإقامة تحالف ضد سيد الإسلام الجديد .

ورغم الخليفة العباسي الناصر في التوسط بين الموصل ودمشق حل الخلاف بينهما بالتي هي أحسن . وحين أصر الزنكيون على عدم الاعتراف بشرعية صلاح الدين على سوريا الشمالية وما بين النهرين أوكل الخليفة إلى الطبيب المشهور بدر الدين مهمة إيجاد الحل المناسب ؛ وكان هذا وحده قادر على الإضطلاع بحل هذه القضية الشائكة بفضل ما يتحلى به من لباقه ، وما كان له من عظيم التقدير لدى سائر الأوساط . وكان بهاء الدين يراقه في مهمته هذه ، واستقبل المبعوثان استقبلاً ترحيباً في دمشق التي وصلاها في ٢٤ شباط (فبراير) ١١٨٤ ، ولم يدخل صلاح الدين وسعاً في تكريمهما التكريم اللائق بمركتهما . وفني عليهمما بعد عودتهما إلى بغداد أن يطمئنا الخليفة إلى احترامه وإجلاله شخص أمير المؤمنين . لقد خرج لاستقباهما عند أبواب دمشق ، وأعدّ لهم استقبلاً حاراً في العاصمة . وغمرهما بالتكريم والتجلة خلال إقامتهما في قصره الخاص .

وحينا انتهت مراسيم الاستقبال والحفاوة تطرق القادمان لمناقشة بنود الصلح الذي سيُسوى بموجبه الخلاف الشائك على مناطق النفوذ ، وظل صلاح الدين حاسماً في موقفه ، فيما كانت الموصل تتمسّك بحقوق زنكية شرعية على سوريا الشمالية ووادي الفرات . وهدف صلاح الدين إلى الاحتفاظ بمحلب ووادي الخابور وحمياته فيما بين النهرين ، واشترط لفتح مباحثات الصلح أن يُحل سلطان الموصل أمراء المنطقة وعمالها من ميين الولاء . كان يقدم نفسه بصفته مدعياً وليس مفاوضاً فهل كان ينوي وهو يحرم سلطان الموصل من رعياته أن

يحرمه من جنده؟ أم هل كان يسعى فقط إلى إفشال وساطة الخليفة لعلمه بأن الشرط غير مقبول؟ فهو يعلم أن أغلب المدن الصغيرة فيما بين النهرين كانت إقطاعات للموصل ، وأنها في حال استقلالها ستتجذب حتماً إلى القطب السياسي للدمشق ، وهذا ما أدركه مبعوث سلطان الموصل الوزير قيماز الذي قطع المباحثات قطعاً مهذباً ، وعاد مفوضاً الخليفة المطلقاً الصلاحية إلى بغداد دون أن يتوصلاً إلى ثني إرادته صلاح الدين .

حواشي الفصل الحادي عشر

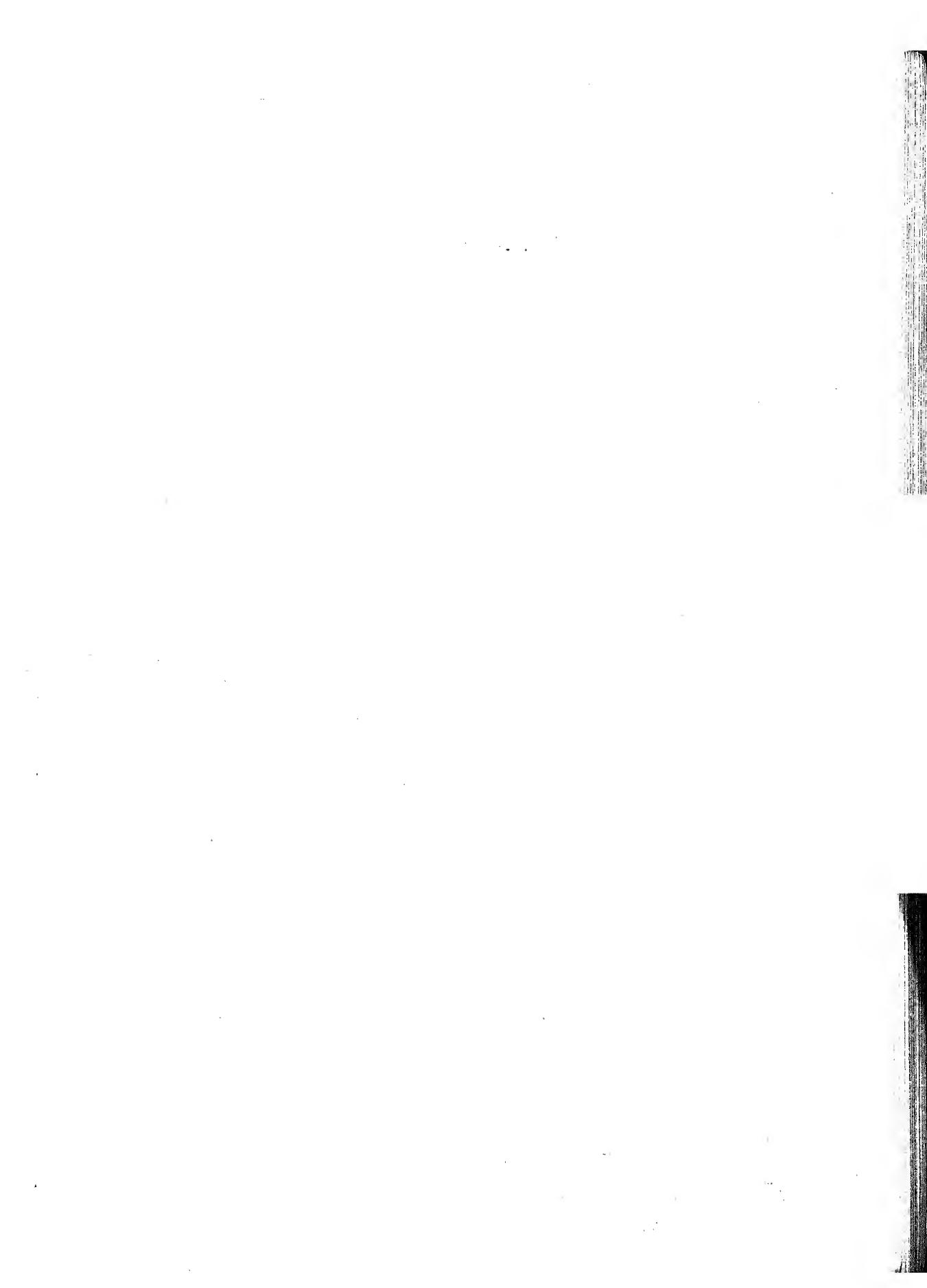
١ - ابن شداد : النواذر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٦١ .

٢ - ابن شداد : بهاء الدين أبو المحاسن (١١٤٥ - ١٢٣٤)

مؤرخ معاصر لصلاح الدين الأيوبي ، وعلم من أعلام علماء الموصل المرموقين ، برع دوره السياسي في مساعيه لتقارب وجهات النظر بين الزنكيين والأيوبيين ..

يعد مؤلفه النواذر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، من أهم المصادر التاريخية وأوثقها التي درست سيرة صلاح الدين ، وقصة نضاله لتوحيد بلاد الشام وأرض الكثانة في واحدة كفاحية ضد الوجود الصليبي في المشرق العربي ؛ وذلك اعتماداً على مشاهداته الشخصية ، ومتابعاته للأحداث الجارية وما سمعه شخصياً عن صلاح الدين الذي ولاه قضاء العسكر عام ١١٨٨ م ..

٣ ، ٤ - جاء في كتاب الروضتين لأبي شامة عن مسيرة صلاح الدين للكرك وضرب الحصار حوله .. ووصف القاضي الفاضل ذلك الموقع كشجا في حاجز المسلمين ما نقلناه مباشرة عن النص العربي الذي ترجمه المؤلف للفرنسية . كتاب الروضتين ج ٢ ص ٥٥ .



الفصل الثاني عشر

مسألة الموصل

الاضطرابات الداخلية في إمارة الموصل

دفع الوزير قيمار المسكين ، الذي دفع جهد ما استطاع عن مصالح الموصل كاً لو كانت مصالحه الخاصة ، دفع من شخصه ثمن فشل مفاوضات دمشق .

فما إن رجع إلى الموصل حتى جُرد من منصب الوزارة ومن أملاكه ونسائه ، وأنقل بالقيود دون أن يوجه إليه أي اتهام بذنب .. إلا أنه كان ذا أنصارٍ مخلصين ، وتكشف ظلمُ السلطان واضحًا للعيان ولم تثبت الموصل أن غرفت بالغبران والدماء ، وامتدت الاضطرابات إلى مدن الإمارة الريفية ، وأعلن الأمراء هنا وهناك العصيان ، واستولى خليفة بغداد نفسه على إحدى اقطاعات الموصل ؛ معلنًا بذلك الحرب على أميرها ، في حين كان يلتزم من صلاح الدين أن يصالحه . وأمام اتساع هذه الفتنة وخشية معبة ذيولها السياسية ، أصدر أمير الموصل عز الدين مسعود العفو عن وزيره ، وأعاد إليه سلطاته ، وأمر بتعذيب الأمراء الذين استقتلوا في المطالبة نهاية قيمار .

ولم يلبث هذا الأخير أن انتقم من الأمراء الذين شقوا عليه عصا الطاعة من أولئك

الملوك الصغار الذين يعملون بالخفاء خلق التزاعات السلالية، وحبك المؤامرات السرية للممحظيين، ولكي يشعرون بغضبه أحرق أملاك أحدهم: مظفر الدين أمير أربيل الذي قام من فوره بتوجيهه رسول إلى صلاح الدين طالباً دعمه بصدقته وتأييده بأسلحته؛ عارضاً عليه بالمقابل دفع مبلغ خمسة آلاف دينار مساهمة منه في تمويل حملة جديدة على الموصل.

الجيش السوري في وادي الفرات

ولم يتأنّ خ صلاح الدين عن أحد طريق الفرات ، مقدراً الفوائد التي يمكن أن يجنيها من الخلافات المزمنة بين الموصل والسلطانات الدائرة في فلكلها . وفي ٢٥ أيار (مايو) ١١٨٥ بلغ حرّان ؛ وبعد أربعة أيام أمر بتوفيق أمير أربيل بحجّة أنه تفوّه بكلام مقدّع بحقه وحق الأيوبيين . ولكن الحقيقة أن الخمسة آلاف دينار مهما تكون شدة إغرائها لم تكن أكثر من سراب السحاب الخلب الذي يكثر في تلك المناطق ... فجرّده من سلطنته ومن وارداته حرّان والرا .. ولكن سرعان ما عاد فأطلق سراحه وغمّره بالتكريم وربط مصيره بهصيروه ، وقد يكون الذهب وصله خلال تلك الفترة ، ومن ثم صادف في رأس العين سفيراً من أحد محمّيه في بلاد ما بين النهرين ، يعلمه بقلق أمراء الروم وفارس وكردستان وأرمينية ومديّة من وجود الجيش السوري في وادي الفرات ؛ وأنهم أقسموا على أن يزحفوا لملاقاته على رأس قواتهم المشتركة ما لم يتخلّ عن مشاريعه ضد الموصل .

أمام أسوار الموصل

كان الأمراء يخشون أن يكون سقوط هذه المدينة مقدمة لغزو ديارهم ، لكن تهديداتهم لم تكن ذات جدوى ، إذ أحرق صلاح الدين المراحل ليظهر من جديد أمام أسوار الموصل . وحاول عز الدين مسعود أن يثير رحمة صلاح الدين فوجّه إليه أمّه تصحّبها نخبة مختارة من الصبايا لاستدرار عطفه والحصول على السلام ، فأظهر صلاح الدين الكثير من اللياقة ، وغمر الوفد النسائي بظاهر الترحيب واللطف ، لكنه لم ينحّه شيئاً مما كان يلتمسه . وحينما حاولت أم أمير الموصل أن تؤثّر فيه بقولها: «نحن لا نطالب مطلقاً بحقوق في سوريا أو مصر . وسع حدودها من جهة الفرنجة أعداء ديننا ، ولكن ليق الفرات حداً شرقاً لك على الأقل .. أعد إليها مدن ما بين النهرين واسمح بأن يحكم الأمراء الزنكيون أسيادك فيما مضى ، وأرباب نعمتك

في هذه المناطق». فبدا صلاح الدين متصلباً لا يتزعزع، فصرف هؤلاء النساء ونصب آلات الحصار حوالي الموصل، ولكي يحرم سكانها الماء أراد أن يحول مجرى دجلة.

استغاثة ملك أرمينية بصلاح الدين

وفيما كان جنود صلاح الدين منهكين بهذه الأعمال الضخمة حصل حديث غير مرتفق أمل من ورائه أن يستولي على أرمينية؛ ففي تقویز (يوليو) ١١٨٥ مات ملك الدولة المسيحية، وخلفه على العرش أحد قواده المدعو بكتمور. ولكن ملك أذربيجان – إحدى أجمل ولايات فارس – طمع في إرث الملك بكتمور الذي وصفه بالغاصب وبإسر رحفه نحو خلاط المدينة الأرمنية الصغيرة الواقعة على نبع الفرات، مستهدفاً عزل بكتمور والاستيلاء على أراضيه.. فاستنجد الأخير رغم مسيحيته بصلاح الدين، معيناً له بلهجة لا لبس فيها أنه يفضل تسليمه أرمينية، وأن يصبح هو أحد خدمه على أن يرى دياره تقع تحت نير الفرس.

وتأثر سلطان دمشق بهذا العرض، وحيث أنه غدا الحكم في التزاعات، وحامى مصالح العديد من الأمراء الصغار بيت أن يستخدم كل هذه الخصومات التي اقتضتها الأقدار لصالح عمله السياسي.. وعلى ذلك بادر إلى إرسال الفقيه عيسى إلى عاصمة أرمينية يصحبه عدد من الكتبة، ليسجل خطياً هذه المقترفات الرائعة، ورفع بنفاذ صبر الحصار عن الموصل لكي يتسلم هذه الملكة الجديدة، لكن ملك أذربيجان سبقه وبلغ أبواب خلاط قبل مبعوثي صلاح الدين. واضطر بكتمور الذي كان قد تزوج إحدى بناته أن يختار بين حميـه (والد زوجته) وصلاح الدين، وكان هذا الأخير ما يزال بعيداً، ولذا لم يكن مجال للتردد، فاللهم هدد بقطع رأس صهره مالم يستسلم. وهذا أعطى بكتمور ملك أذربيجان كل ما طلبـه. ولم يصل المبعوثون السوريون إلا بعد فوات الأوان، وقد وجدـت أرمينية سيدـها.

الصلح بين الزنكـيين والأـيوبيـين

وعلم صلاح الدين بهذا الأمر في ميافارقـين، التي أخذـها بعد معارك طاحنة فرجعـ على أعقابـه للمرة الثالثـة، ورتـب قواـته أمامـ الموصل، والوقـت إذ ذاكـ في منتصف الصيف والحرارة بالغـة الشدـة في تلكـ المناطقـ، فمرضـ صلاحـ الدين مرضـاً خطـيراً وأخذـت حالـته تسوءـ من يومـ إلى يومـ، فنصـحـه الأطبـاء الذينـ هرـعوا إلـيهـ وقدـ يئـسـواـ منـ إنـقاـذهـ بـأنـ يـتـقلـلـ منـ فـورـهـ إـلـىـ حـرـانـ

حيث يمكن للمناخ المعتمد والهواء النقي أن يلطفا نهايته . وحمل على نقالة ، وقد بدأ يهدي غاب عدة مرات عن وعيه في الطريق ، ولم يعتقد أصحابه بأنه سيصل حيّا إلى أبواب المدينة . وسرعان ما انتشر خبر احتضاره في سوريا والموصى ، وبدهي أن يتهج سكانها واحتفلوا بهذا الحدث . لكن الوزير قيمار وحده الذي ظل يفكر تفكيراً مناسباً في مصالح الدولة ، فأقنع عز الدين مسعود بـألا يأبه لتظاهرات الدهماء ، ويجدر به أن يفيد من الصحوات الأخيرة للمحتضر ، فيتترع منه التوقيع على الصلح . قال الوزير لسيده : «إذا مات صلاح الدين فلن يكون لتوقيعه أية قيمة ، لأنّه ما إن يواري ثراه حتى يسارع الأيوبيون إلى اقسام مملكته . وسيفترس الأخوة الأولاد ، وسيهرع أبناء العمومة كذلك . وعد ذلك يمكنك الإفادة من هذه النزاعات العائلية وتستعيد ما كنت مجبراً على التخلي عنه تحت ضغط الضرورات . وإذا لم يسلم صلاح الدين الروح إلى ربيه ، وهذا ما يليدو مستحيلاً فلن تجد فيه عند ذاك عدواً متهالكاً على هلاكك ، بل حليفاً قوياً يخطئه من ينكر مزاياه ، وهكذا تحافظ على ما تبقى من ولائك وتومن لرعايتك — الذين أرهقتم الحرب المستمرة — الراحة التي يتوقون إليها» .

وحظي هذا الرأي بموافقة السلطان فأرسل سفاراً إلى صلاح الدين مهمتها التفاوض على الصلح في أقصى سرعة . وتغلب صلاح الدين على ضعفه الجسدي فاستقبل البعثة بحزن ووافق على الصلح وهو على عتبة الموت . بيد أنّ الشروط كانت من القسوة بحيث لم يكن في وسعه أن يفرضها حتى لو سيطر على الموصى ، ووضع عز الدين مسعود في الأغلال .. إذ طالب بعاصمة كردستان وبالاد ما بين النهرين وبفرض السيادة الأيوبية على المناطق التي كان ينوي إبقاءها تحت الرقابة الإدارية للموصى . وأن يذكر اسمه في خطبة الجمعة في الموصى . ووقع عز الدين هذا الصلح وهو واثق بأن صلاح الدين لن يلبث حتى يتوفاه الله ، وأنه عند ذاك يحيل هذا الاتفاق إلى مجرد قصاصه ورق ؟ هذا الاتفاق الذي جعل منه عاماً لدمشق .

أمير حص يدفع حياته ثناً لقراره الاستيلاء على سوريا

لكن صلاح الدين الذي كان المحظوظون به لا يتحدثون إلا همساً ، تمثل شيئاً فشيئاً للشفاء أمام دهشة المقربين منه ، وإن كان نباً وفاته كان قد شاع في طرق القوافل قبل الأوان فاجعاً الشعب السوري ، فبكاه الأبناء والأخوة ، وصاروا يفكرون في ميراثه السياسي . فقرر

أمير حمص ناصر الدين محمد بن شيركوه الشهير الذي اصطحب ابن أخيه المشاكس في طريق مصر وسبيل المجد، قرر أن يستولي على سوريا، وأن ينادي به سلطاناً. وحاول أن يضم إلى جانبه حكام المدن الرئيسية، .. فدفع غالياً ثمن قلة حذره، فقتل مسموماً بأمر من صلاح الدين الذي أوكل حكم حماة إلى أسد الدين شيركوه حفيده عمه، والبالغ من العمر اثنتي عشر عاماً. ويروي المؤرخون العرب أن صلاح الدين أحبه كثيراً. وقد سأله يوماً عن دروسه وخاصة معارفه القرآنية فأجابه الولد «يا سيدي إني وصلت الآن إلى هذه الآية : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظَلَمًاٰ، إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بَطْوَنِهِمْ نَارًاٰ وَسِيَصْلُوْنَ سَعِيرًاٰ﴾» ويضيفون أن صلاح الدين ابتسם وتظاهر بعدم فهم مقاصد الفتوى الذي كان يعبر عن رأي كل من كانوا يعتقدون أن ثروة صلاح الدين السياسية كانت سلباً من ابن نور الدين.

سيد المشرق الإسلامي وصراعات المستقبل

في ٢٣ أيار (مايو) ١١٨٦ عاد صلاح الدين إلى دمشق. وقد أصبح سيد حلب — التي أوكل إدارتها إلى ابنه الملك الظاهر — والموصى، وما بين النهرين، وسوريا ومصر. كان قوياً أكثر منه في أي وقت مضى. واستقبل المتصرف وسط مظاهر الابتهاج العام. فلقد أعاد إلى الإسلام قوته. وكانت مجموعة من الدول العربية تحيط بثلاثة أرباع مملكة القدس الفرنجية. ومن الآن فصاعداً أصبح صلاح الدين — صانع هذا العمل — قادرًا على استشاف المستقبل ولا كمال بناء هذه الإمبراطورية التي ستمتد من ضفاف النيل إلى ضفاف دجلة، وذلك بإيزاله الضريبة القاضية بالولايات الفرنجية التي هزّتها خصومات أمرائها الذين أمعنوا في غيهم، بل لم يشاووا أن يروا أن الأرض كانت تغدو تحت أقدامهم.

هذا، وإن طاقات الدولة الإسلامية ستستنفر، والإرادات ستتحدد في أكثر الحروب المقدسة دموية، وستظهر حروب صلاح الدين الماضية بأزيائها مجرد نزهات عسكرية. وسيكون هناك صراع يمكن اعتباره مقدمةً لصراعات المستقبل بين الإسلام والغرب، بين عالمين لا يرحم أحدهما الآخر.



الفصل الثالث عشر

النقطة الخامسة في الحروب الصليبية

الانقسام داخل صف الفرنجة

كيف كان وضع الفرنجة في المشرق في تلك المرحلة . لقد غدت غابرةً عهود البطولات الصليبية الشعبية التي قادها رجال من أمثال بطرس الناسك وغوتبيه سانزافوار وجيرار دي ماريغيز وغودفروا ويلدوين وفولك الإنجولي الذي استطاعوا — رغم الصعوبات الجمة — قيادة الجماهير المتحمسة نحو المشرق التوراتي والإنجيلي . مشرق البطاركة والرسل ، نحو أرض فلسطين ، نحو القدس التي تتدفق منها الأنوار التي طالما حلموا بها ، وهم في أعماق الغرب .. لقد انطوى في الماضي الغابر (نحو قرن كامل) مجمع كليرمون وانضباط الحملات الصليبية الأولى .

والمملوك الشاب ، الذي يمقدوره وحده أن يفعل شيئاً في همة تكفي لحماية القدس ، كان يذوي شيئاً فشيئاً ، فداء العضال يتآكله ، فكان — رغم ما يتلظى به قلبه — يشاهد تفاقم الأمور حوله ، والتدميرات التي يحدثها مرض آخر غير مرضه ، فتجتاحه الرغبة في أن يكون على رأس جيشه في الساعات الحرجة المأساوية التي أخذ يشعر مسبقاً بانباثها . لقد

اضطر إلى التخلي عن السلطة لتأمين ميراث عرش القدس فروج أخيه الكبىء غي دي لوزينيان دافعاً إليه بمقاييس الحكم وصاية، ولكن هذا الاختيار لم يحظ برضى ريمون الثالث كونت طرابلس فرئاس حزب الناقمين زاعماً لنفسه حقوقاً في الوصاية أكثر من غي دي لوزينيان. وغادر البلاط وحمل السلاح ضده وانحاز إلى جانبه جمع غير من الاقطاعيين العصاة. وسرعان ما تكشفت "مناوراته عن عدم جدارة غي دي لوزينيان العسكرية، إذ عدّ هذا الأخير المسؤول عن نجاحات صلاح الدين وأخذت الأمور تتفاقم جدياً، ولم يكن بدلوين الرابع، يريد بأي ثمن أن يكون صانع دمار المجتمع الفرنجي في سوريا، ولذا رضخ أمام تحالف عماله، ف مجرد صهره من السلطات التي أولاها إياها نازعاً عنه الوصاية، وفاسحاً زواجه بأخته.

وحيثند جاء دور غي دي لوزينيان ليثور، فغادر ناقماً واعتضم وراء أبواب عسقلان، وسلح حامية المدينة ضد الملك، فأنذره بدلوين الرابع ودعاه للمثول أمام مجلس من الفرسان وكبار الكهنة ليحاكم على خيانته. وكان ردّ فعل غي دي لوزينيان تدمير منطقة الداروم وقتل البدو المسلمين الذين كانوا يرعون قطعائهم تحت الحماية الملكية، فزحف ملك القدس على عسقلان فوجدها موصدة الأبواب دونه، محكمة الأقوال، فنادى من في الداخل وأمرهم بأن يفتحوا له - حسب رواية غيوم الصوري - وطرق الباب الرئيسي ثلاثة مرات، ولكن أحداً لم يجب. بينما اعنى بورجوازيو المدينة الأسوار وهم في حالة تأهب.

وكان حظ بدلوين الرابع أفضل في يافا التي انتزعها من صهره السابق، وجمع البيلان في عكا ليحكم على الكونت الثائر الذي لاقت قضيته السيئة - على غير المتوقع - من يدافع عنها في شخصيات بطريق القدس وسيدي فرانس الهيكل والأسبار الكبارين.

وكانت نهاية هذا الملك الكبير توشك على خاتمتها، ولكونه غير راغب في أن تسبب وفاته باندلاع معارك عنيفة بهدف الاستيلاء على العرش أوكل الوصاية على المملكة إلى كونت طرابلس على أن يخلفه بدلوين الخامس، وهو طفل في الخامسة من عمره، وابن أخيه سبييل من زوجها الأول المركيز دي مونفرا الثاني. وتقرر أمام المحضر أنه في حال وفاة الولد قبل العاشرة من عمره يحتفظ ريمون الثالث بالوصاية عشر سنوات، لكي يتأهّل للبابا وإمبراطور ألمانيا وملكي فرنسا وإنكلترا أن يحكموها في الحقوق المقابلة، حقوق إحدى ابنتي أموري،

سييل وإيزابيل . ومات الملك المجنون في آذار ١١٨٥ بعيد اتخاذه القرارات الخامسة فيما يؤمن الشرعية للسلالة الأنجوية ، وكان أول الأعمال التي قام بها الوصي — كسباً للوقت — توقيع هدنة لأربع سنوات مع صلاح الدين .

بعثة القدس إلى أوروبا والدعوة إلى صليبية جديدة

ولم يلبث الوصي أن وجه بعثة إلى أوروبا مؤلفة من سيدи الهيكل والاسبtar الكبارين ، وبطريق القدس لطلب المعونة ووصف الخطورة القصوى لوضع الدول اللاتينية في الشرق . وركب المبعوثون البحر من يافا ووصلوا بأمان إلى مرفأ برنديزي في إيطاليا .

وكان البابا لوسيوس الثالث وفريديريك باريروس في فيرونة حينذاك . ووعد الجرماني بأن يرسل ما يطلب منه ، لكنه لم يرسل راحماً واحداً . أما خليفة المسيح فوزع عدداً من صكوك الغفران وكتب التوصية ، بعد أن أقام جنازاً لسيد الهيكل الأكبر الذي مات في فيرونة ، مصاباً بأحد الأوبئة . ولم يفقد المبعوثان الآخرين شجاعتهما وسافرا إلى فرنسا التي كان يحكمها عهد ذلك الملك فيليب أوغست ، فقابلاه في باريس وقدما له مفاتيح مدينة القدس ورج داود ، والقبر المقدس مع رسائل الخبر الأعظم . وتاثر فيليب أوغست تأثراً حقيقياً بما سمع ، وأراد أن يتلفظ بنذر الصليبيين ويسم شطر الأرضي المقدس ، بيد أن المقربين منه أشاروا عليه بعدم اتخاذ مثل هذا القرار المتسرع . وسافر مبعوث القدس بعد ذلك إلى إنكلترا ليقابل هنري الثاني ، فاستقبل هذا الأخير بطريق القدس ورفيقه بكثير من التكريم .

ولكن بطريق القدس هيراقليوس الثاني خطرت له السائحة السيئة بأن ينحى على الملك بقاسي اللوم ويرفعه على سلوكه تجاه الكنيسة الكاثوليكية ، ولدرجة تجرأ فيها على اتهامه باغتيال أسقف كونتريري ، كما لم ينس أن يلومه على القوانين الأساسية لكلارندون التي تحذر من اختصاص المحاكم الكنسية . ولكن الملك بطبعه حاد المزاج ، فقد لفت نظر بطريق القدس بطريقة غير دبلوماسية إلى أنه دهش كثيراً لرؤيته ينشر مثل هذه الأفكار ، ولكنّ الخبر الواقع الذي أوصلته عشيقته إلى بطريقية القدس ، أجابه : «يمكنك أن تطلق على حماقاتك العادية ، وأن تعاملني كما سبق أن عاملت أخي توماس بيكيت ؛ وفي محصلة الأمر سيان لدلي

بين أن أموت في القدس بأيدي المسلمين أو أن أقتل هنا يدك أنت، فأنت الأسوأ من أي واحد من أولئك البرابرة».

ويعنّ أن نخمن دونما كبير عناء أن ملك إنكلترا الذي لم يكن البتة قديساً لم يشعر مطلقاً أنه مستعد لمنع مثل هذا المبعوث المساعدات التي جاء يطلبها حسب توصية الرسالة البابوية. وهكذا عاد بطريرك القدس كما ذهب بعد أن كان يفتخر بأنه سيقود ورائه منكي فرنسا وإنكلترا، عاد كما ذهب وقدت مملكة القدس كل أمل بمعونة الغرب، باستثناء صكوك الغفران البابوية، وأذهل فشل سفارة بطريرك المجتمع الفرنسي في المشرق.

الاضطرابات الجديدة في مملكة القدس

ووقع حادث غير مرغوب أغرق فلسطين مجدداً في اضطرابات عتيدة: ففي عام ١١٨٦ مات بودينيه فجأة في عكا، ووري جثمانه قرب جثمان غودفروا، وكان قبره آخر قبر ملكي أسفل الجلجلة، وزعمت بعض الألسنة المفترية أن سبييل دست السُّم لابنه، لكنه تنصب زوجها الثاني غي دي لوزينيان على العرش. بينما اتهم آخرون كونت طرابلس باغتيال الطفل الملكي. ومهما يكن أمر هذه الشائعات فإن قضية واحدة كانت تطرح نفسها على فكر المرشحين الرئيسيين للنتائج: من الذي سيصبح ملكاً؟.. وتأمرت سبييل، وسارعت من فورها بالانتقال إلى القدس حيث جلست على عرش أبياتها، قاطعة الطريق على كونت طرابلس، الذي هرع بدوره مرحياً أعنجه جياده، إلا أنه وبناء على نصيحة جوسلين الثالث دي كورتناي، عم بدلوين الرابع، والوصي على الملك الراحل، جمع صنائعه في نابلس، وناور للحصول على أصواتهم ليصبح ملكاً. وفيما كان البارونات يتذاكرون وصل رسول سبييل يعلمهم بأنها البنت البكر للملك أموري، وأنها أخت وأم الملوك الآخرين، وبذلك فإنها قطعاً الوريثة الشرعية للعرش، مطلاعاً إياهم على رغبة مملكة القدس المقبلة، التي ترجو منهم أن يحضروا احتفالات تتويجها، فأجاب كونت طرابلس بأنه هو والسادة الرئيسيون من حزبه يقبلون الاعتراف بها مملكة إذا طلقت غي دي لوزينيان، وتزوجت بعد ذلك رجلاً قادراً على قيادة الجيش الفرنسي والدفاع جدياً عن مملكة القدس. فقبلت سبييل الخادفة هذا الشرط، وحلفت السادة البارزين بأن يقبلوا ملكاً الرجل الذي ستختاره زوجاً لها. ولفظ هيراقليوس

الذي كان يعرف خبيء نواياها الحقيقة قرار الطلاق . فإذا غي دي لوزينيان مطلق . وراحت سبيل التي حملت لقب ملكة القدس تعد للاحفلات باعتلائها العرش ، وتقبلت التاج ، في كنيسة القبر المقدس من يدي البطريرك الذي أقسم لها على الولاء والطاعة باسم الإكليلروس والشعب ، وطلب إليها أن تقسم شرف الملك مع الرجل الذي تعتبره الأجرد فقالت : « لقد تم اختياري » ، ورفعت التاج واضعة إياه على هامة غي دي لوزينيان ، وأضافت مخاطبة هذا الأخير : « إنني اختارك ملكي وسيدي ، وملكاً وسيداً للقدس ، لأن على الإنسان ألا يفرق ما جمعه الله ». فأثار يوم الخديعة هذا فضيحة ، يمكن العثور على صداتها في الجواب الذي تلفظ به أخو غي دي لوزينيان عندما أطلع على هذا النباء : « هؤلاء الذين نصبوا أخي ملكاً كان يمكنهم أن يجعلوني إلهًا لو عرفوني ». ولم يتأنّر كونت طرابلس في إظهار غضبه ، فانسحب إلى إمارته ، وباتت الحرب ، منذ الآن ، معلنة سراً بينه وبين غي دي لوزينيان العديم المواهب ، والذي لا يمت بأية آصرة تربطه بالبنية السورية ، ومع ذلك يوضع في خط النار تجاه العدو مخيف وطموح استطاع أن يعيد لشرق العالم الإسلامي وحدته ، بينما كان فرنجية منقسمين إلى مسكونيين حاقددين يستعد أحدهما للانقضاض على الآخر ، تحت أنظار المسلمين المبت Hwyin ، وغدا من حق صلاح الدين أن يعلن عن فرجه حينما علم بهذا الخبر الجيد ، وترتب عليه كسياسي بعيد النظر أن يحرص بالغ الحرث علىبقاء هذا العداء مستمراً ، ولم يتوان في أن يعرض على كونت طرابلس التحالف معه واعداً إياه ، كثمن لخيانته ، بعرش القدس ؛ ولكي يقدم له الطعام وضع ابنه الأفضل على ضفة الأردن على رأس سبعة آلاف رجل . وأدرك غي دي لوزينيان أن من الأفضل وتحقيقاً للصالح العام ، الاتفاق مع عامله الخطير ، وبعث إليه يسأله الصلح وفق مشيئته هو ، وطال انتظار إبرام الاتفاق .

رينو دي شاتيون يتتصدر الواجهة السياسية مرة أخرى

وسواء أكان فرنجية القدس مع غي دي لوزينيان أم مع كونت طرابلس ، فقد وجّب عليهم أن يواجهوا هوماً أخرى ، ذلك أنّ رئيس العصابة الذي لا يُنسى : رينو دي شاتيون قام بأحد أعماله المشهورة ، وتصدر بالتالي الواجهة السياسية ، إذ عمل على تسريع الأمور التي كانت تختتم ، وذلك بموافقته على نهب قافلة شامية جديدة هامة فوق أرضه ، في طريق عودتها من مصر . وذهب أبعد مذهب في الفظاظة وعدم اللباقة عندما أجاب التجار الأغنياء

الذين قادهم أسرى إلى وكره في الكرك ، بعد أن احتجوا على موقفه متذرعين بالصلح القائم بين المسلمين والفرنجية بقوله : «لينقذكم الآن محمد». وكان في عداد الأسرى حسب رواية مُكمل تاريخ غيّوم الصوري ، شقيقة صلاح الدين نفسها^(١) .

وبعث صلاح الدين بموجب قاعدة الأخلاقية الإسلامية التي تقضي بالحكم على الخيانة حتى لدى غير المسلمين ، بعث من فوره برسالة زاجرة إلى رينو دي شاتيون يأمره بإطلاق سراح تجارت دمشق وإعادة أموالهم إليهم فوراً. وردّ سيد الكرك الذي كان ثملاً دونماً ريب ، بأنه سيحتفظ بأسراه حتى يخرج ذهبهم من أبدانهم عَرْقاً. فطلب صلاح الدين من ملك القدس إصلاح هذا الإخلال بشروط الصلح ؛ فسارع الأخير إلى إلقاء الحرم على عامله الذي لم يكن يحفل بالله ، ولا يهتم بالشيطان ، ويدعى أنه سيد أرضه ، كما أن الملك سيد مملكته ؛ وهو من جهته لم يوقع على هدنة مع المسلمين .

الدعوة إلى الجهاد المقدس في دار الإسلام

ومع الأسف فإن نهب هذه القافلة — كما يقول مكمل تاريخ غيّوم الصوري فيما بعد — كان سبب ضياع مملكة القدس ؛ لأن صلاح الدين دعا بناءً على أمر من خليفة بغداد ، إلى الجهاد المقدس في جميع الديار الإسلامية . واعتبرت أراضي الفرنجة دار حرب . ومنذ إعلان الجهاد المقدس فلّك أمير انطاكية بوهيموند الثالث ارتبطه بالولايات اللاتينية في المشرق ، كيلا يكون على علاقة بتدمير مملكة القدس ، كما وقع اتفاقية حياد مع صلاح الدين ، تلك الاتفاقية التي ظلّ وفياً لها . وحينما اطمأن سلطان دمشق إلى هذه الناحية ، أعد أهبيه لغزو فلسطين .

أمارات إنويار الممالك اللاتينية في الشرق

وهكذا كان الوضع مؤسفاً لفرنجة المشرق في هذه السنوات المظلمة (بالنسبة لهم طبعاً) من أواخر القرن الثاني عشر. لقد كان على عرش القدس امرأة هي سبييل التي فرضت ملكاً أميراً تافهاً اختارته لمواهبه السريرية . بينما كانت إيزابيل الشقيقة الأخرى للملك ستتزوج أميراً فاسداً سيء الرأي ، وكانت الملكة الأم الطائشة ، الجشعة ، عاشقة البطريرك

لا تتدخل إلا لصالح حاشيتها من رجال البلاط المعطّرين فاقدى الرجلة ، وكان رينو دي شاتيون الذي تشكل اقطاعاته أحد أفضل دفاعات المملكة لا يحلم إلا بالغنايم ، واحتياط القوافل المترفة . وأما كونت طرابلس . فكان — وهو في أعماق ممتلكاته في عسقلان ويافا — لا يفكّر إلا بضريمة الخنجر التي ستنتقده من خصمه بوهيمنوند الثالث الأنطاكي الذي تخلى عن جماعته ونبي دينه ، وأسلم قياده لعاهرة هي سبييل دورزي التي ما برح تخون الفرنجية لصالح صلاح الدين فطلعه على تحركات القوات الفرنجية ومعداتها وعددتها . وكان العدو على أبواب المملكة ، وكل شيء ينذر بالدمار الوشيك لمملكة القدس التي أسستها حماسة الصليبيين الأوائل ، وشجاعتهم وقوتهم . إن إمارات انهيار السلطة الملكية وفساد الأخلاق لم تتضاعف مجاناً فعدوا الجنس البشري القديم — أي الشيطان كما كتب أحد مؤلفي الحوليات — قد حمل في تلك الحقبة روح الغواية إلى كل مكان ، وسيطر سيطرة خاصة على القدس . كانت جميع الشعوب التي قبست الدين عن بلاد النور هذه تتلقى منها الآن مثلاً على مختلف ضروب الظلم . وهذا احتقر المسيح إرثه ، وسمح لصلاح الدين بأن يكون عصاً غضبه .

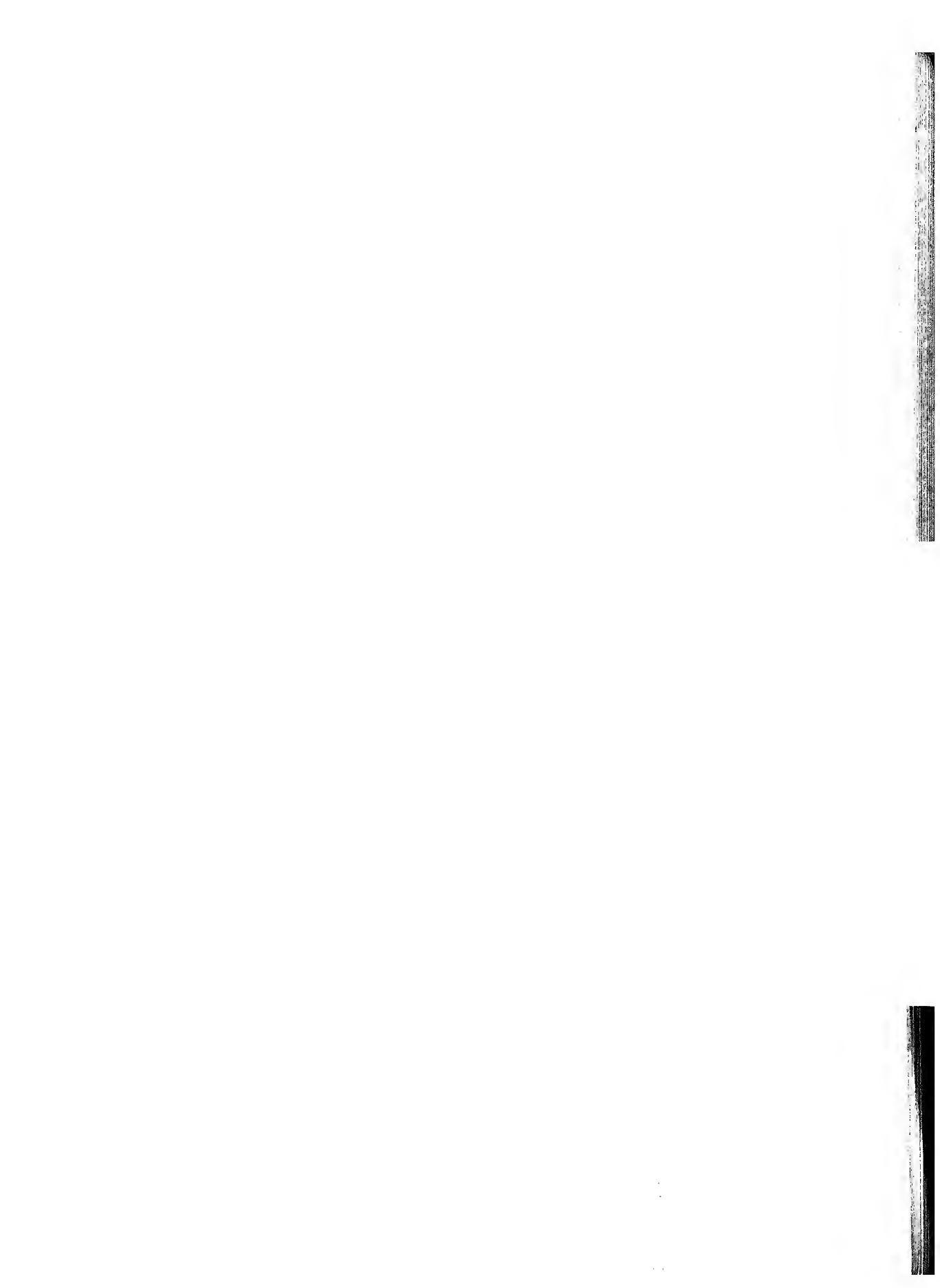


حواشى الفصل الثالث عشر

١— لقد ذهب المؤرخون الغربيون وفي طليعتهم، مكملاً تاريخ غيوم الصوري؛ إلى أن شقيقة صلاح الدين كانت في عداد الأسرى حينها استولى رينو دي شاتيون على القافلة المتوجهة من القاهرة إلى دمشق، وأن من أسباب معركة حطين ما اعتبرى صلاح الدين من غضب شديد دفعه للانتقام، لكن المصادر التاريخية العربية لم تشر — لامن قريب ولا من بعيد — إلى وقوع أخت صلاح الدين بالأسر ...

ولقد عرض أبو شامة في كتاب الروضتين ، نقاً عن المصادر العربية الأساسية ، نقض صاحب الكرك دي شاتيون الذي يلقبه المؤرخون العرب بـ «أرناط» المدنة حين نصب الكمين لقافلة المتوجهة من القاهرة إلى دمشق ، ونذر صلاح الدين أن يهدى دمه جزاء فعلته :

«وكان إبرنس الكرك أثناً عشر فرنجية وأخفتها وأفحصها عن الردى والرداة ، وأبجتها وأنقضها للمواشي المحكمة والأيمان المربوطة ، وأنكثها وأختتها . ومعه شرذمة ، لها شر ذمة ، وهي من شر أمة ، على طريق الحجاز ، ومن نهج الحج على الحجاز . وكنا في كل سنة نغزوه ، وبالموائق نعروه . وبصبيه منا المكروه ، فأظهر أنه على المدنة ، وجئ بـ للسلام ، وأخذ الأمان لبلده وأهله وقومه وروحه ، ويقي الأمن له شاملًا ، والقول من مصر في طريق بلده متواصلاً . وهو يمكن الجاني والذاهب ، حتى لاحت له فرصة في الغدر ، فقطع الطريق ، وأخاف السبيل ، وقع في قافلة ثقيلة ، معها نعم جليلة ، فأخذتها وأسرها . وكان معها جماعة من الأجناد فأوقعهم في الشرك ، وحملهم إلى الكرك . وأخذ خيلهم والعدة ، وسامهم الشد والشدة . فأرسلنا إليه وذئنا فعاله ، وقبحنا احتياله واغتياله . فأبا إلا الإصرار والإضرار . فنذر السلطان دمه ووفى في إراقة دمه بما التزم . وذلك في السنة الآتية — كما سيأتي إن شاء الله تعالى — وأقام السلطان بدمشق بقية هذه السنة ، وهو في الاستعداد للجهاد . وقد أرسل في طلب العساكر من البلاد المشرقية والمصرية ، فانتظمت أموره على أحسن قضية .» (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٥).



الفصل الرابع عشر

حطين ..

النصر الأعظم للمسلمين على الفرجة^(١)

تحت راية الجهاد

إنّ الجهاد المقدس الذي أعلنه الخليفة — خليفة رسول الله العباسي — فجرّ الحماسة في سوريا، وجمعت القبائل حاملاً بالغنم التي تجتمع مساءً من ساحات القتال، فهربت من أعماق الصحراء متألبة تحت رايات الجهاد التي حملها رجال صادقو العزم. وانحدر البدو عقبان الصحراء في سهوب عبر الأردن المقيمون قرب الحضر. والذين يكسبون منهم موارد شبه مشروعة، انحدروا زرافات ووحدانا نحو فلسطين. وحمل الشعراة النباً من قبيلة إلى قبيلة، ومن صحراء إلى صحراء، وهم يررون تحت الخيام في ساعات الغسق حكايات ملحمية من شأنها أن تثير مخيلات الفرسان، حتى انتهى البلاغ إلى أعماق العربية السعيدة فامتلأت تفوم الجليل بسحب من القوافل شبيهة بزمن التجمعات العربية عشية فتح الشرق البيزنطي والساساني.

وفي آذار (مارس) ١١٨٧ تجمعت قوات صلاح الدين شمالي حوران بقيادة الملك الأفضل الذي كلفه أخوه بتأمين المؤن الازمة لمعركة عسكرية طويلة الأمد.

الصلبيون والدعوة إلى الوحدة المقدسة

وبلغت أصوات هذه الاستعدادات القدس حيث نجح الملك غي دي لوزينيان في مصالحة خصمه كونت طرابلس بدعوه إلى الوحدة المقدسة، وبعد تبادل القبل المعتادة عقد مجلس في العاصمة لاتخاذ الإجراءات الكفيلة بالدفاع عن المملكة. وانتصر الرأي القائل بالتجمّع الفوري للقوات المتاحة في الجليل، فاستدعي جميع الرجال القادرين على حمل السلاح وكل الميليشيات الهجينة وطلب من البارونات أن يحضروا إلى مكان التجمع، واستنفر البورجوازيون (سكان المدن). وأرسلت الحصون حامياتها. وهكذا استطاع ملك القدس أن يحشد ٢٠٠٠ فارس و ١٨٠٠٠ راجل في سهل صفورية. مسقط رأس يواكيم (عمران) والد مريم البطل على مسافة ثلاثة أميال ونصف الميل شمال الناصرة. وطلب إلى بطريك القدس بدوره أن يحضر مع الصليب الحقيقي الذي من شأن وجوده بين المحاربين أن يثير أصنفى الحماسة للدفاع عن المملكة التي يهدد المسلمون وجودها. ولم يكن البطريك هيراقليوس ليأنس في نفسه تلك الشجاعة التي يتحلى بها أولئك الرهبان الجسورون القادمون من أعماق أديرتهم المادئة لتسربل الدرع والموت في سبيل عقيدتهم، فأوكل إلى اثنين من أولاده الذين أنجبهم من علاقاته الآثمة، شرف حمل راية الدين في ساحة القتال... أولهما أسقف اللد والثاني أسقف عكا.. وما أن هيراقليوس متصل من الأضطلاع بواجبات منصبه فقد فكر بما يتولله من أسباب تحمله إلى أوربا حيث ينعم بعيداً في ملاذ بطال ثرواته تصحبه سيدات نبيلات إذا مالت أمور المملكة إلى مصير سيء.

الاستفار المرتجل وحشد جيوش الفرنجة في صفورية

والأمر الذي علينا تذكره عن هذا الاستفار المرتجل للقوات الفرنجية، أنه لم يبق في مدن فلسطين أو حصونها سوى العاجزين عن القتال من النساء والشيوخ والأطفال، وكان بوسع ملك القدس الادعاء بأنه حشد في صفورية أحد أهم الجيوش على مدار الحروب الصليبية.

ولكن — في المقابل — لم يستتب في المؤخرة أحد قادر على سد الطريق في وجه الفاتح الكردي عند مسيس الحاجة، فإذا تمكن من هزيمة ملك القدس، وذاك هو الخطأ الفادح الذي ارتكبه هذا الأخير إذ لم يأخذ بعين الاعتبار ما قد يتمخض عن الأحداث من احتلالات.

كان خطأ لا يغتفر أن يتقرر في ساحق القتال حسراً مصير مملكة الفرنجة المزدهرة هذه في المشرق .

تحركات صلاح الدين لتأمين حدوده الشمالية

وعرف صلاح الدين أن يؤمن لنفسه صداقات في معسكر العدو قبل أن يحضر لقيادة قواته . لقد سبق لنا القول إنه عقد اتفاقاً سياسياً مع أمير أنطاكية بوهيموند الثالث ، فضمن أمن حدوده في شمال سوريا ، واستطاع بهذا أن يحصر كل اهتماماته بالمسائل الفلسطينية .

احتشاد القوات الإسلامية

وفي ٢٧ أيار (مايو) ١١٨٧ نصب صلاح الدين خيمته عند نبع عشترا شرق بحيرة طبرية ، حيث انتظر قدوم حلفائه مما بين النهرين ، ومن مصر بقيادة الكثير من الأمراء ، نخبة المشرق كلها . وقد قام باستعراض قواته حال تكاملها ، فكانت — حسب قول المؤرخ العmad^(٢) — «قوة باهرة إذ عجت التلال والمضاب بفرسان الرحمن ، فكان معسكراً يمتد عده فراسخ تعج بستين ألفاً استعرضهم السلطان صلاح الدين في ليلة عاصفة»^(٣) .

صلاح الدين يعبر أراضي كونتية طرابلس

وفي ذلك الوقت ، استطاع كونت طرابلس ريمون الثالث ، الذي لم ينس أن صلاح الدين طلب أن ينضم إليه مقابل حصوله على مملكة القدس ، استطاع أن يقيس مذعوراً عميق الفزع الذي كان ينفغر تحت قدميه ، فراح يتساءل هل كان قد تبقى له بعض الشعور بالشرف ، وراح يلعن هدنة السنوات الأربع التي أبرمها لينفذ ممتلكاته في الجليل .

لقد لعب صلاح الدين معه لعبة حادة ، فطلب منه الإذن بأن يعبر أراضيه لكي يقوم حسب زعمه بمجرد تظاهرة فقط في الأرضي المقدسة . وأصاب ريمون الثالث الهلع لكن بعد فوات الأوان من انتشار قوات صديقه الجديدة . فاضطر أن يأخذ بهذا العبور مكتفيًا — بغية إراحة ضميه — بأن يأخذ وعداً من المسلمين المسلمين باجتياز حدوده عند الفجر وبأن يعودوا منها في المساء ذاته . فكانت مساومة بلا معنى ، ودونما أية جدوى .

وعبر صلاح الدين نهر الأردن ، وسار نحو جبل الطور (الطابور) والناصرة .

عملية فرسان الهيكل الانتحارية

وقام مائة وخمسون هيكلياً استنفرهم اقتراب المسلمين ، دوغا علم منهم بالتدابير التي أنفذها كونت طرابلس ، قاموا بعمل جنوني بمحاجتهم سبعة آلاف خيال مسلم ، وكان على رأس المهاجمين الفارس الفلمندي الشاب جيرار دي ريدفور ، فكان أن ذهبوا للاقاء الموت بشجاعة انتزعت احترام أعدائهم وأشاد مؤرخو الحوليات بذلك هؤلاء الأبطال الذين قبلوا الموت ثابتين ب مواقعهم بمعارك قاسية لا ترحم .

وحل المسلمين رؤوسهم على أسنة رماحهم حينما عبروا نهر الأردن مساء . وأمضى صلاح الدين ليلة ٢٦/٢٧ حزيران (يونيو) في خسفين ، وعسكر خمسة أيام في السهل الواقع قرب مخرج نهر الأردن من بحيرة طبرية .

الاستيلاء على مدينة طبرية وحصار قلعتها

وفي ٣٠ حزيران تمركز صلاح الدين فوق تلة كان يستطيع منها رؤية مدينة طبرية الصاحبة ، عاصمة المنطقة الأردنية التي بناها هيرودس انتيميوس على شرف طيبريوس المشهور بمدرسته الربانية التي صدر عنها تلمود القدس ، والمسورة المعدّة لحفظ النص العربي للتوراة نقلأً عن الخطوط الأصلية . واغتنى من تجارة القوافل الضبارية ما بين دمشق وعكا ، حين غدت عاصمة إمارة الجليل لمناصفتها المناطق المجاورة مواردها ، وأخذت أهميتها الاقتصادية تنموا باطراد تحت الإدارة الفرنجية . وكان على مقرية منها قرية عمواس الشهيرية بحماماتها الحارة المعروفة بحمامات تبيير التي يتدفق في بها هيكلها الفخم اثنا عشر ينبعاً كل منها مخصص لشفاء أحد الأمراض .

واستولى صلاح الدين على طبرية في ساعة واحدة ، ونهب ماليكه المدينة وأحرقوها . وعلى ضوء اللهب الساطع الذي أخذ يلتهم الأحياء الخارجية ، حاول صلاح الدين عتبة الاستيلاء على القلعة التي دافعت عنها امرأة رعنون كونت طرابلس التي رفضت الاستسلام واستطاعت أن تبعث رسالة إلى ملك القدس طالبة منه نجدة فورية ... وكان الفرنجة قد تجمعوا قرب ينابيع صيفورية ، وعدتهم نحو ثلاثة ألف مقاتل .

ضجة في صف الفرنجة

وحين علم الملك بكارثة طبرية، عقد اجتماعاً، وكانت الجلسة صاحبة. فقد هب رينو دي شاتيون يريد الشخص فوراً لإنقاذ طبرية، على حين بدا ريمون كونت طرابلس أشد حذراً في ردود فعله، لأن طبرية هي من اقطاعته، لكنه ارتجل نداءً عاطفياً نوه فيه بما تقتضيه الحكمة من عدم التخلّي، في هذا الطقس الخانق بشدّيد حرارته عن منطقة الينابيع، وعدم عبور الصحراء بلا ماء في جيش لن يثبت أن يرهقه الظُّمَاء، وقال مستنتجاً «إيام أن تبرحوا الآن ينابيع صفورية. ثقوا برعونة المسلمين الذين أعمالهم نجاحهم السهل بحيث سيفهم إلى التقدم نحونا هنا، وهذا ما يجب أن نتمناه، فيينا سنكون نحن نشيطين ومستعدين سيكونون هم منهكين ظماء، مجاهدين تعباً، إذا ما عبروا الصحراء التي تفصل ما بيننا وبينهم، وسنهاجمهم دون أن ندع لهم وقتاً لإرواء ظمئهم. وسوف نسحقهم بالغاً ما يبلغ عددهم، سنسحق أولئك الذين يدمرون بلادنا ويحرقون مدننا...» بينما كان رينو دي شاتيون – الذي طالما وضعت أعمال نهيه وحثّه بعهوده الفرنجة في مأزق أكثر من مرة – على تقىض هذا الرأي، وتجرأ على ريمون طرابلس متهمًا إياه بالجبن، وتوجه إليه بالخطاب: «لقد أفضت بالقول لتخيفنا، ولاشك في أنك تحفظ في سويادك قلبك بعض الصدقة نحوهم، ولذا تهدف إلى منعنا من الزحف لمقاتلتهم». وتصاعدت بعد ذلك لهجة الحدة وطفق البارونات يتخاطبون مباشرة غير آبهين بالملك الذي لم يعد يجرؤ على اتخاذ قرار. وأنهى أحد الهيكليين باللامسة والتقرير على ريمون كونت طرابلس لخmod حماسته متهمًا إياه بالتفاهم مع العدو. ولكن الأخير ظل متمسكاً بعند موقفه، ينذر قومه بعواقب وخيمة ومصائب رهيبة، وتضرّع إلى الملك إلا يغادر ينابيع صفورية، وعدم إلقاء جيش الفرنجة في كارثة محققة.

وصرخ محتداً «إن طبرية ملكي، وما زال زوجتي محاصرة في قلعتها ولكن لا يضرني شيء لو استولى عليها صلاح الدين شرط أن يختفي من الأرض المقدسة. الحقيقة التي أصارحك بها هي أنه سبق لي أن شاهدت عدداً من الجيوش الإسلامية، لكنني لم أر البتة جيشاً كهذا الذي يصطحب السلطان الآن، فإذا ما سرتم إلى طبرية فسيكون في ذلك نهاية مملكة القدس».

وغادر مجلس الحرب منسحبًا إلى خيمته، وقد هزت صراحته أغلب البارونات الحاضرين.

ملك القدس يزحف بقوات الفرنجة إلى حتفها

أما الملك الذي مازال متربدًا فترك تدبير الأمور للعناية الإلهية وحدها. كان يود التريث بضعة أيام قبل اتخاذ القرار المناسب، وهو قد انتصف الليل وانسحب كل إلى خيمته، بيد أن سيد منظمة الهيكليين الأكبر جيرار دي ريدفور، هذا الذي قاتل بمنتهى البسالة قبل أيام قلائل مع جاكلان دي ماري، رأى من الذل الشخصي أن ينضم الملك في نهاية المطاف إلى عدوه ريمون الثالث، ولذا قصد على غير ما هو متوقع غي دي لوزينيان بمفرده، وبذل قصارى جهده لكي يدفعه للعدول عن قراره، وقال مخاطبا إياه: «لا تهدى علىّ، إذا ما صارتنيك الحديث، فكانت طرابلس خائن، وإنك تملك منذ زمن قصير، ولديك جيش جيد. أليس عاراً عليك أن تدع مدينة فرنجية تسقط دون أن تحاول نجذتها؟ وكيف يمكن أن توسع مثل هذا التخلّي؟ لقد تخذلنا نحن الهيكليين خيارنا. وستنزع أرديتنا البيضاء ونبيع أملاكاً بدلاً من أن نتحمل العار الذي يراد سرقة شعب يسوع المسيح به... أيها الملك، دع قيادتك تستنهض الجميع ليكونوا على أهبة الزحف فجراً تحت راية الصليب المقدس». فانصاع الملك، وبعد بضع ساعات كان الجيش الفرنجي يتخلّى مع أول خيوط الضياء عن بنابيع صفورية، والزحف للقاء الموت.

خطبة صلاح الدين الخوية

لقد رمى صلاح الدين — حينما حاصر قلعة طبرية — إلى إكراه الفرنجة على التخلّي عن المنطقة الغنية ببنابيع صفورية الشّرة وخضرة مراعيها، وليحول بينهم وبين بلوغ بحيرة طبرية، ومحصرهم في منطقة من الأرضي الملتهبة التي لا يمكنهم معها أن يجدوا أي مصدر للمياه.

وفي أول تموز (يوليو) أصبح الجيشان وجهاً لوجه، وقال صلاح الدين حينما رأى ملك القدس ينتحي إلى الموقع الذي اختاره هو للقتال: «إن الله يقدمهم لي»^(٤).

بدء المعركة

وفي اليوم التالي حصلت أولى المناوشات قرب لوبيا على مسافة تسعة أميال شرق صفورية . وكان القتال ضارياً بلا رحمة من الجانبين ، وكتب بهاء الدين قائلاً : « لم يحدث قط في تاريخ ماسلف من الأجيال أن سجل مثل هذه الأعمال الحربية التي شهدناها ذلك اليوم »^(٥) .

وحين حل الليل بقي كل فرد شاكبي السلاح في معسكره ، وشارف الموقف حد المأساة إذ أخذ الرجال والحيوانات يعانون وطأة الظلام . وكان النهار شديد وطأة الحرارة ، وأوشك مخون المياه على النفاذ ، ومع إطلالة فجر اليوم التالي لم يبق للفرنجية سوى بارقة أمل وحيدة : فتح مر لهم عبر الجيش الإسلامي ، والتخلص مما كلّف الأمر من قبضته التي لا ترحم ، ولكن المماليك الذين كانوا في منتهى الراحة أطاشوا أحالمهم وبددوا آمالهم ، تحت الشمس الجهنمية ومثار النقع ، فكانت هجماتهم تتلاحق طوال النهار ، على سحب الغبار ، ويتبع بهاء الدين قائلاً « ولما قلوب الكافرين ربوا »^(٦) وكان الجيش الفرنجي محاصراً تحدق به القوى الإسلامية ، وتحكم حوله الطوق شيئاً فشيئاً ، ولم يكن صلاح الدين قد زج بكل قواته ، لأنّه احتفظ بقوى احتياطية للعملية الشاقة ، بعدما يستنزف الظمام طاقة عدوه . وكان مهرة رماة السهام ينهكون جناحي العدو تارة وبهضون القلب طوراً ، ويوقعون في صفوفه فادح الخسائر . وقد الفرجة شجاعتهم . وحاوت إحدى كتائبهم الهرب فمرفت شر مرق ، وتثارت إرباً إرباً ... أما ما تبقى من الجيش الباسل فتسلق تسلقاً فوضوياً تل حطين ، على مقرية من قبر النبي شعيب : وعبثاً حاول ملك القدس أن يعيد تجتمع قواته ، وبدا خيرة جنوده فاقددي الثقة يتسبّبون بهذا التل دون أن يفكروا في أنّهم سيحاصرون فيه حتى الموت جوعاً وعطشاً وحرّاً . وأمر غي دي لوزينيان وحده حفنة من الفرسان الأشداء بشن هجوم يائس ، وأوشك هذا الهجوم البطولي أن يغيّر في إحدى اللحظات مجرى الأحداث فيقلب مصير المعركة ، يقول ابن صلاح الدين ، الأفضل : « كنت إلى جانب أبي في ذلك المصادف ، وهو أول مصاف شاهدته ، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بازائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي . قال : فنظرت إليه ، وقد علتة كآبة ، واريد لونه ، وأمسك بليحاته ، وتقىدم وهو يصيح : كذب الشيطان . قال فعاد المسلمون على الفرج ، فرجعوا

فصبعوا إلى التل، فلما رأيت الفرنج قد عادوا، وال المسلمين يتبعونهم، صحت من فرحي : هزمناهم ، فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى حتى أحقوا المسلمين بوالدي ، و فعل مثل ما فعل أولاً ، وعطف المسلمين عليهم فألحقوهم بالتل ، فصحت أنا أيضاً : هزمناهم . فالتفت والدي إلى وقال : اسكت . ما هزمهن حتى تسقط تلك الخيمة ، قال : فهو يقول إليّ ، وإذا بالخيمة قد سقطت ، فنزل السلطان وسجد شكرًا لله تعالى ، وبكي من فرحة »^(٧) .

وتؤكد هذه الرواية محاولة ملك القدس أن يخترق مرتين الخطوط الإسلامية ، ولما أخفق نظم الصفوف على عجل ، ورفع الصليب على قمة التل ، وطلب من جنوده أن يصطفوا حول الرأبة المقدسة ليستمعوا إلى القداس ويصلوا في حرارة . وبالها من لحظة ذات شجون ، فهذا القدس يقام بين الأموات على هذا التل المنعزل الذي يبدو وكأنه ينفجر من الأرض في هذا الغسق الشديد الحرارة من يوم ٣ تموز (يوليو) ١١٨٧ . كان التل أشبه بسخرة حمراء فوق بحر عباب من الجيوش الإسلامية . وبدأ الفرنجية التعباس يعلنون آلام الملوسة لما يقايسون من الظماء . وقليل منهم الذين استطاعوا النوم تلك الليلة لأن صلاح الدين استيقاهم مستنفرين حتى الفجر .

حطين : الكارثة الأفجع للصلبيين والنصر الأعظم للمسلمين

وأخيراً أطل صباح اليوم الرابع من تموز ١١٨٧ ، اليوم المطبق الشؤم على النصرانية . وتراث صلاح الدين لباء هجومه العام حتى هبت ريح حرارة من طبية فأتأتاحت لقواته أن يحرقوا ماغطى الأرض من الأشواك وياباس الأعشاب فأجت النار منتشرة بسرعة حول التل ، وكتب عماد الدين ، يقول : « إن الفرنجية القائلين بالتشليث ابتلوا في الاصطلاء والاصطدام ، نار الضرام ونار الأؤام ونار السهام »^(٨) ، وامتدت ألسنة اللهيب زاحفة تسوقها الرياح إلى معسكر الفرنجية ، حتى بلغت أقدام الرجال وسنابك الخيول ، واستطاع ريمون الثالث كونت طرابلس وسط هذه المعركة غير المتكافحة التي بدأت في هذه الظروف أن يفلت هارباً مع فرسانه الطرابلسيين .. ما الذي حدث حقيقة؟ لا أحد يدرى . هل كان على اتفاق مسبق مع صلاح الدين ففتح له بالسر منفذًا داخل صفوف جيشه؟ أم إنه استطاع أن يشق لنفسه ممراً؟ لكن هذا الأمر الأخير بعيد الاحتمال . إذ كيف يمكن تصور ذلك ، وقد عجزت عن تحقيقه خيالة

أفضل من خيالاته. ومهما يكن من أمر فإن ظلاً ثقيلاً من الشك يهظ ذكرى كونت طرابلس، الذي التجأ إلى صور حيث سيفتale بعد بضعة أيام الإسماعيليون المترمدون. وبينما كان الفرنجة التسعاء، الذين أنهكتهم معارك الأمس وليل من الأرق، وخفقهم الدخان وأحرقتهم الشمس، يجأرون ويصلون، ترى عليهم هجمات الفرسان بوتائر متتسعة. وكان الماليك يظهرون من كل جهة «بين أبخرة السراب وعدابات الظماء وهيب الجو» — كما نقرأ في كتاب الروضتين — ويسضيف المؤلف العربي بخيث : «كان هؤلاء الكلاب الفرنجة يخرجون ألسنتهم المتيسسة ويجأرون أملأ وحرقة، بأمل أن يبلغوا الماء، ولكن كانت تحدق بهم جهنم بسعيرها»^(٩). وبعد قليل لم يعد الفرنجة قادرين حتى على الدفاع عن أنفسهم. وقطعاً، لم تحدث هزيمة أتم ولا أفح حسائر، فعشية المعركة كان ثلاثة ألف فرنجي يرقدون فوق الرماد الذي ما برح حاراً في هذه الأرض العادبة. لقد ماتوا بشجاعة غاسلين بدمهم الخطا الذي لا يغتر لغى دي لوزينيان الذي ساقهم بأفيف رأيه إلى هذه المجزرة. وتفيد رواية أحد الحجاج الذي حضر هذه المعركة الحالدة ما قلناه آنفاً عن يوم حطين، هذا الذي كان أعظم نصر لصلاح الدين. ونعتقد أنه مفيد أن ننقل هذه الرواية : «غادر الجيش معسکر صفورية صبيحة اليوم الثالث من تموز (يوليو)، وكان كونت طرابلس يسير مع قواته في الطليعة ، تتبعه عدة فرق يقودها بارونات الأرض المقدسة وأسيادها على الميمنة والميسرة، وحملت قوة مختارة الصليب الحقيقي في القلب ، بينما كان ملك القدس يقود المؤخرة، يحيط به إخوان الميكل والأسبار وكان الفرنجة السائرون على خط مستقيم نحو طبرية قد انتهوا إلى قرية تبعد ثلاثة أميال عن البحيرة ، ولم يعد الملك حينذاك يجرؤ على التقدم ، إذ أحبط فلم يعد يدرى ما يصنع ، فأمر بنصب الخيام ، وسع في الوقت ذاته وهو يصرخ : «يا للأسف ، لقد خسرنا كل شيء... سئمت غداً ، لقد انتهت مملكة القدس». وأطاعه الناس في يأس ، أي ليل سيمضيه الجيش في هذا المكان. لقد احتشد المسلمون حول (شعب الله) وأحرقوا السهل. وبات الفرنجة ليتهم ترهقهم النار وكثيف أعمدة الدخان وسحب السهام ، والجوع ، والعطش . وفي صبيحة اليوم التالي خرج السلطان من طبرية وتقدم لإنهاك الفرنجة. وشرعت كنائص الصليب تستعد لعبور الممرات والمرتفعات ذات الأخداد التي تفصلها عن بحر الجليل «لأننا — حسب زعمهم — سنجد هنا ماء ونستطيع أن نعمل سيفونا». وأنخذت وقتذاك طليعة الكونت ريمون تتجه نحو تل شرع الأتراك يحتلونه ، وكان على المشاة أن يحموا الفرسان من الأعداء رما

السهام ، وعلى الفرسان بدورهم أن يحموا المشاة . لكن لم تطبق قاعدة الأمان هذه ، وحالما اقترب المسلمون شكل مشاة الفرنجية زاوية ، وهرعوا ليحتلوا قمة تل متخلين بذلك عن الفرسان . وحين أبصر الملك والأساقفة وكبار القادة المشاة يبتعدون ، أرسلوا يبلغونهم أن يكروا راجعين للدفاع عن الصليب الحقيقي ، فكان ردهم لانستطيع هذا لما يرهقنا من الظماً ، ولم يعد لنا طاقة على القتال . فيبعثوا إليهم برسالة ثانية ولكنهم لم يستجيبوا ، لأن الوضع فوق ما يحتملون . وكان رجال الهيكل والاسبتار يقاتلون ببسالة لكن دونما إحراز أي تفوق على المسلمين الذين كان عددهم يزداد ساعة فساعة ، وما انفكوا ينشرؤن الموت أثني كانوا ، وحين غلبتهم الكثرة استصرخوا الملك لنجدتهم ، ولكن الملك ، وقد رأى مشاته يرفضون الكر ، وهو نفسه دون حماية ضد النبلاء المسلمين ، أسلم ذاته لرحمة الأقدار ، وأمر بإعادة نصب الخيام عساه يوقف — إن استطاع — هجمات العدو الصاعقة . وهكذا عادت الكتائب للتجمع حول الصليب ، تائدين مختلطين . ولما رأى كونت طرابلس أنَّ الملك والهيكليين والاسبتاريين وكل الجيش الفرنجي لم يعودوا سوى كتلة هي خليط غير تميز المعلم ، تنقضُّ عليها كتائب المسلمين من كل جهة مائة الجو بسحب نفعها ، وقد بات منفصلاً عن سائر القوات ، شق نفسه طريقاً عبر صفوف الأعداء وانسحب مع طليعته .

ومن كل جهة كانت آلاف المسلمين يتذقون ويقتلون الفرنجية . وأصيب أسقف عكا — الذي كان يحمل صليب المسيح — بطعنة نجلاء فسقط تاركاً الذخيرة الأعظم لأسقف اللد ، وحينذاك بدت المشاة الذين احتموا بالتل هارين وهم يرون المسلمين ينقضون عليهم ويعملون فيهم السيف .. فقتل من قتل وأسر من أسر ، وعبر باليان النابليسي بالناجين جسراً من الجثث ليفوزوا فراراً بأرواحهم . وخف ثقل الجيش الإسلامي إلى المكان الذي كان فيه الصليب الحقيقي وملك القدس ، وسهل على المرء أن يروي بالشیچ ما حدث في نهاية ذلك اليوم . » وأمر صلاح الدين الذي كان يكره من الصميم فرسان الهيكل والاسبتار ، وما زال يذكر أنَّ السيد الأكبر للهيكليين أرنولد دي توروغ هو أحد صانعي الصليبية الأخيرة — أمر عشيَّة معركة حطين هذه بقطع رؤوس مائتين وثلاثين منهم بعد أن عرض عليهم اعتناق الإسلام ، وتم أسر جميع من حاولوا الهرب بعد المعركة .. حتى إنَّ جنديا مسلماً واحداً استطاع أن يقود ثلاثين منهم — أوثقوا بحبيل واحد . وسلم الصليب الحقيقي إلى تقي الدين

ابن أخي صلاح الدين ، وهكذا — كما يكتب أحد المؤرخين اللاتين في تلك الحقبة — «قد صليب خلاصنا في مكان كان يسوع المسيح يحب التردد إليه ، وعلى التل ذاته الذي اختار فيه حواريه» .

وحينا عرض تقي الدين عمر على صلاح الدين الذخيرة المقدسة الشمنية ، قال هذا الأخير : «إنه ، ليبدو كما هو ظاهر من حزن الفرنجة ، إن هذه الخشبة ليست الأدنى في حصيلة انتصارنا» . ومع حلول الظلام ، وبينما أخذ الماليك يدحرجون رؤوس آخر المنزهين ، كانت مجرة الفرنجة مستمرة ، إذ أحدقوا بالسلطان مجموعة من المتطوعة ، وهم أناس مشهورون بالتفوى والزهد : صوفيون أو فقهاء أو علماء متبرحون في كل درجات المعرفة ، والتيس كل من هؤلاء أن يجدل رأس أحد الأسرى ...

بطل حطين يلتقي بالأسرى من قادة الصليبية^(١٠)

وأمر السلطان بتنصب خيمته الحرية وسط حومة المعركة ، ويتقدم كبار الأسرى إليه ، وكان بينهم غي دي لوزينيان والصادفة جيلي وبوترون ، ومار آكلي ، وجيرار دي ريدفور ، وغيرهم الثالث دي مونترا وأنفروا الرابع دي تورون ، والملكير الشيف غيوم الثالث دي مونفرو ، والكونستابل آموري دي لوزينيان ، وأبن رينون كونت طرابلس ورينو دي شاتيون . واستقبلهم صلاح الدين في خيمته التي كانت ترفف فوقها راية سوداء ، طرّز عليها بخيوط الذهب : «صلاح الدين ملك الملوك ، وقاهر القاهرين ، هو مثل سائر البشر ، تحت رحمة سلطان الموت» .

نهاية رينو دي شاتيون^(١١)

واستقبل صلاح الدين ملك القدس العيس إستقبالاً لائقاً ، وعزاً بفقد مملكته ، وأجلسه إلى يمينه وتحدى إليه . وقدم إليه شرابةً مبرداً بثلج حرمون ممزوجاً بماء الورد . وبعد أن جرع منه بعض جرعات قدم الكأس إلى رينو دي شاتيون . فخاطب صلاح الدين الترجمان قائلاً : «قل للملك أنت الذي سقيته وأما أنا فما سقيته ..» . وتوجه بعنيف خطابه إلى رينو دي شاتيون الذي خان أكثر من مرة العهد المبرم ما بين المسلمين والفرنجة ، وأخل بشروط المدنية بسبب جشعه ، قال : «إن السماء التي تنتقم من مقتفي السيئات ، قد أوقعتك في

يديّ . فتذكّر خيانتك ، تذكّر ما اقترفت من فطائع ضد المسلمين إبان السلم . تذكّر وأنت في ساعتك الأخيرة هذه ، أيها السيد الشقي ، أعمال السلب والاغتصاب التي قارفتها ، والشتائم التي وجهتها إلى نبينا عليه السلام . لعنك الله ، تذكّر في ساعتك الأخيرة هذه محاولاتك تدنيس أقدس مدینتين في مدننا : مكة والمدينة . ومن العدل أن يقاصص مقتوف كل هذه الجرائم ، وأن أنفذ قسمي ... لقد أقسمت أن أقتلك بيدي» .

واستل سيفه وضرب به رينو دي شاتيون فبان ذراعه من الكتف ، وقام القادة الحاضرون فأجهزوا عليه أمام ملك القدس الذي كان يرتعد فرقاً ، ثم طرحت جثته خارجاً ، وبعدها توجه صلاح الدين بخطابه إلى غي دي لوزينيان الذي كان يسائل نفسه هل سيلقى المصير ذاته فقال : «لم تخبر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك وأما هذا فقد تجاوز حده فجري ما جرى» .

لقد قلنا آنفاً إنّ مائتين وثلاثين من فرسان الهيكل والسبتان قطعت رؤوسهم ، ووضعت على أسنة الحراب وظيف بها طوال الليل في المعسكر .

الفرح الغامر يعم معسكر المسلمين

وأقام المتصرون بعد فوزهم في خطين الأفراح سحابة ذلك الليل ، ورفع كل جندي آيات الحمد والشكر لله . وظل نداء : الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ترددت تلك البطاح حتى الصباح . وأرسل ملك القدس والقادة الذين شملتهم الغفو إلى دمشق . وكثير عدد الأسرى المعروضين للبيع في سورية بسوق النخاسة نتيجة هذا اليوم العظيم حتى انتهت الأسعار إلى أدنى درجات هبوطها . ونقرأ في كتاب الروضتين : «إن الرجل والمرأة والأولاد يبعوا بالمزاد العلني دفعة واحدة ، وهبط سعر الأسير في دمشق إلى ثلاثة دنانير . حتى ان فقيراً استطاع أن يستبدل بمنعليه أسيراً» . وسيقت النساء الفرنجيات جماعات جماعات إلى منازل الحرير في المشرق ، لا يعرفن شيئاً عن أزواجهن ، مفصلات عن أطفالهن ، لقد ساقهن المالك خلال الاحتلال فلسطين ليواجهن مصيرًا هو أقسى من الموت ، ولم يبق في القدس سوى فارسين .^(١٢)

مسألة ريمون كونت طرابلس

ويبدو لنا مناسباً أن نعرض هنا مسألة ريمون كونت طرابلس ، ونجمع الوثائق المتناقضة

ملفّه ، وفتح باب المراجعة في قضية هي من أشد القضايا غموضاً في الحروب الصليبية : هل عجلت خيانة كونت طرابلس في نهاية مملكة القدس ؟ خاصة وأنَّ بعض تصرفاته — إذا كانت روایتها حقيقة — تتقلَّ جداً هذا الأمير الفرنجي الذي حُدِّر ملك القدس خلال ذلك المجلس التاريخي الذي سبق معركة حطين ، — ولو متَّخراً جداً — حذره من الجنون الذي كَمْ وَدَ أعداؤه أنفسهم أن يقع فيه .

ترى هل تختلف سرًا مع صلاح الدين ؟ وهل كُرس هذا التحالف بشرب الدم البشري ؟ هل قتل بيده السيد الكبير دي مولان إبان قتاله المسلمين ؟ هل تصالح مع غي دي لوزينيان ليتمكن من خداعه ؟ وهل نصح صلاح الدين بمهاجمة طبرية لإيقاع الجيش الفرنجي في كمين ما دام يعرف أنه لن يلزمه بعد ذلك أكثر من نصح الفرنجية بالإعراض عن التوجه إلى طبرية في أراضٍ معادية وقت اشتداد الحرّ حتى يسارع أعداؤه أمثال (رينو دي شاتيون وجيرار دي ريدفور) فوراً لإيقاع الملك بالرأي المعاكس ؟ هل عمد قصدًا — مadam على رأس طليعة الجيش خلال رحمه نحو حطين — إلى قيادة تلك الطليعة في مرات يعرف سابقاً أنها غير سالكة وليس فيها ماء ؟ هل صحيح أنَّ المماليك تلقوا الأمر بإخلاء الطريق له قبل المعارك الأخيرة بوقت قصير ، لتعود فترص الصنوف وراءه ؟ وأخيراً، هل صحيح أنه اعتنق الإسلام كما يُؤكِّدون ؟ كتب بهاء الدين الذي غالباً ما تعتبر معلوماته صحيحة يقول : « إنَّ كونت طرابلس مات من ذات الصدر ». أمّا مُكملاً تاريخ غيوم الصوري الذي يجب دائمًا عدم الثقة به ، فيزعم أنَّ الإسماعيليين اغتالوه ، بأمرٍ من صلاح الدين . هل فضلَ هذا الأخير التخلص من حليفه المزعج الذي قد يكون وعده بعرش القدس ؟ يبدو لنا هذا قليل الاحتمال لأنَّ صلاح الدين كان دائمًا وفيًا بعهوده ، صادقاً بكلامه . صحيح أنَّ علاقته بكونت طرابلس ليست موضوع شك ، إذ أرسل كونت طرابلس رسولاً إلى صلاح الدين — كما يكتب ابن الأثير — وأقام معه علاقات ، وحظي بتشجيع منه ليحقق غاياته ، وقد فرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ، ووعده السلطان بأنَّ يساعدَه ويوبيده في كلِّ ما يسعى إليه ويجعله سيداً مطلقاً للفرنجية . ولذا فإنَّ صلاح الدين الذي وقع في قبضته — بين الأسرى — عدد من الفرسان الطرابلسيين أطلق سراحهم . وبناء على ذلك أبدى له ريمون الثالث وعدد من الفرنجية امتنانهم ، وعند ذاك بدأ الشقاق بين الفرنجية ، وكان هذا أحد أهم الأسباب التي أدت إلى

احتلال بلادهم . وأكَدَ العِمَاد بدوره ذلك ف قال : « من الأمور التي قدرها الله لصالح الإسلام الأمور التالية : رغبة كونت طرابلس بإقامة علاقات صداقة مع السلطان ، وأن يلْجأ إِلَيْهِ وإِلَى مخالفته ضد أبناء دينه . وأصبح كونت طرابلس نصيراً لصلاح الدين ، وحينما أطلق السلطان عدداً من رجاله الأسرى ، زاد تحمس الكونت للمسلمين ، ولم يَعُدْ يقسم إِلَّا بِتوفيق صلاح الدين وعظمته »^(١٣) . وماذا يمكن أن تكون الخدمات التي أداها ريمون الثالث لصلاح الدين ثمناً لهذا التحالف ؟ ومع ذلك فالمرء يدرك بصعوبة مدى مصلحة كونت طرابلس في أن يدع أراضيه في الجليل تتحول إلى رماد على أيدي القوات الإسلامية . ما الذي حمل المنتصر ليعامل بقسوة الحديد والنار بعيد حطين أرياف حليفه ومدنه ؟ هل كان يدخل في تصورات ريمون الثالث وصلاح الدين أن يجعلها هذه الأرضي العائدة لأحد هما غير صالحة للسكن ؟

ولم يتحدث سيد الهيكليين الأكبر والعدو الشرس لكونت طرابلس عن أية خيانة على الإطلاق حينما يصف للبابا تفاصيل ذلك اليوم المشؤوم إذ كتب يقول : « وفي صعوبة استطاع ريمون وأمير صيادة ، وبعض الآخرين النجاة من الكارثة الشاملة » .

ويزعم المؤرخون العرب — الذين كان يمكن الشك في أقوالهم لو أن ريمون الثالث اعتنق الإسلام حقاً — أنَّ ممتلكاته ذُمِرت عقاباً له على خيانته الإسلام ، وينهون بخداعه وإخلاله بالتحالف المبرم معهم . ويتبادلون التهاني صراحة بموته ، ويكتبون « بعد هذا ، لم يعد الإسلام يخشى مناورات هذا الرجل وخداعه ، وخبيثه ». فأين الحقيقة في كل ذلك ؟

استسلام قلعة طبرية وتحرير عكا

ولم يُضع صلاح الدين ثرات هذا النصر ، فبعد أن منح رجاله راحة يوم كامل في الميدان ، وبني على قمة حطين معيلاً صغيراً سماه « قبة النصر » كذكرى لانتصاره ، نزل نحو طبرية في ٦ تموز (يوليو) ، ودخل القلعة التي سلمته إياها زوجة ريمون الثالث الكونتيسة إيشيف الطرابلسية ، بعد أن حصلت على إذن بالخروج سالمة مع متعاهها وحاشيتها ، وأن تنسحب إلى ولايات زوجها . وأصحابها صلاح الدين — عملاً بروح الفروسية — بقوة من الفرسان خشية أن يصيدها رشاش أية إهانة خلال رحلتها على يد البدو الذين كانوا يطوفون الريف . وهدم المدينة كلها تقريباً ، ووضع حاميةً في قلعتها ، ثم عاد فخِّيم في صفورية ،

ووصل في اليوم التالي ٨ تموز (يوليو) أمام عكا . وفي اليوم التالي دخل المدينة بعد أن سلمه مفاتيحها فوراً جوسلان الثالث دي كورتناي . وترك للسكان حرية خيار البقاء فيها أو مغادرتها ، واعداً إياهم في الحالين بالأمان الكامل . وبعد أن أطلق سراح أربعة آلاف مسلم كانوا أسرى سجونها ، أقام مراكز على الأبواب وفي الساحات العامة لمنع أي فوضى وأي نهب . وبعد مغادرة الفرنجة الذين فضلوا مزاولة المدينة على البقاء تحت سيطرة المنتصر لم يستطع صلاح الدين أن يمنع جنوده من اقسام ما خلفه الفرنجة وراءهم بسبب خروجهم المتسرع . فقد وجدوا في أسواق هذه المدينة التجارية كميات وفيرة من الذهب والمنتجات الآسيوية : الحرائر الفخمة المُدمشقة ، وأقمšeة البندقية ومدخرات من السكر والأسلحة . وأوكل صلاح الدين حكم عكا إلى ابنه الأفضل . وعين القضاة والأئمة وأهدى الفقيه عيسى الأموال التي كانت تخص الفرسان .

إخضاع الساحل الفلسطيني وتساقط مدن الفرنجة وحصونهم

ولم يلبث السلطان في عكا بل نصب خيمته بجوارها وأرسل أمراءه على رأس قوات مختلفة لإخضاع الساحل الفلسطيني ، فانتشروا في الأرض المقدسة ووجدوا أكثر الواقع خالية . أما الأماكن الأخرى فكانت تفتح أبوابها وتستسلم دونما قيد أو شرط . وكان الجندي أقل رحمة من سيدهم ، فدمروا القرى وأحرقوا الأرياف وقتلوا الرجال . وفي بضعة أيام احتلوا الناصرة وحيفا وقيسارية وأرسوف نعيم ، وجين وسارية ونابلس وأريحا وفوله ومعالشة على ضفة الأردن وصنديلو التي بني قلعتها الاسكندر الأكبر ، وتبين في الجليل الأعلى التي بني قصرها عام ١١٠٧ هو غدي سانتومر ، سيد طبرية . ولم تصمد في الجليل سوى ثلاث قلاع هي : هونين شاتوناف وصفد و كوكب لقد تمسك فرسان الهيكل في صفد وفرسان الاستبار في كوكب (بلفار) بموقعهم أكثر من سنة رغم محاولات الجيوش الإسلامية . وعندما استسلمت هذه المواقع إلى صلاح الدين بعد أن دمرتها النيران ، أعجب بعنادهم وشجاعتهم وأطلق سراحهم . وحينما علم صلاح الدين بنجاحات أمرائه الذين كانوا يبحثون دون رحمة مملكة القدس ، ضرب الحصار على صيادة ، هذه المدينة الشهيرة في التاريخين المسيحي والوثني ؛ وكانت فقدت ازدهارها ، لكنها ما تزال تحتفظ بتحصينات متينة وعمران يغنيها بتسهيل تجاراتها . ولم يجرؤ السكان على قبول الحصار فاستسلموا دون قيد أو شرط .

استسلام بيروت وإقامة تحرير الأرضي الفلسطينية

وفي اليوم التالي لوصوله أمام أسوار صيادة دخل صلاح الدين المدينة بعد أن عين حاكماً لها وترك فيها حاميةً، ثم توجه شمالاً نحو بيروت فوصلها في ٣٠ تموز (يوليو) ١١٨٧، وصممت المدينة اللبنانية الكبرى ستة أيام هجمات صلاح الدين، ولكن نتيجة التدمير جزء من أسورها طلبوا تسليماً مشرقاً وحصلوا عليه. وفي ٦ آب (أغسطس) دخلها السلطان، بينما كان قسم من قواته يحتل جبيل (بيبلوس القديمة)، وبضعة مواقع مجاورة، واندفعت إحدى الطلائع نحو طرابلس. وفيما كانت هذه النار تلتهم الشمال اللبناني، لم يكن الجنوب بمنجاة منها، فقد وصل الملك العادل أخوه صلاح الدين القادم من مصر، فأنهى احتلال فلسطين كلها تقريباً، محولاً إلى رماد الكثير من القرى حتى أبواب القدس. وبعد استيلائه على يافا جاء فانضم إلى ثقل الجيش الإسلامي جاراً وراءه قافلة ضخمة من الغنائم والأسرى.

حصار صور

ثم سار صلاح الدين إلى صور التي وصف حرقاً هيمتها وغناها، والتي يرق تاريخ بنائها إلى ألف وستمائة سنة قبل الميلاد كمستعمرة مصرية، والتي أوجدت امبراطورية افريقية حوالي قرطاجة. كان الامبراطور الآشوري سلمانصر قد حاصرها عبئاً مدة خمس سنوات، وأمضى نبوخذ نصر ثلاث عشرة سنة ليُخضعها. كانت تهدم كل مرة وتتصَّرَّ بعدها على البقاء، فتعيد بناء هيكلها وأسوارها وتستعيد بعد كل هزيمة نفوذها السياسي، وتدفع كرة أخرى أساطيلها ماحرة الطرق الملاحية، غير عابعة بمنافستها الاسكندرية التي بناها الاسكندر الأكبر. وكانت تحصيناتها التي اشتهرت بأنها لا تقهَّر، قد أثارت دهشة الرحالة الذين زاروها في القرن الثاني عشر.

وخلف لنا ابن جبير الذي أقام فيها في أواخر ١١٨٤ الوصف التالي: «إن هذه المدينة محصنة تحصيناً هو من القوة بحيث ينطبق عليها المثل بأنها تأتي الطاعة والخضوع على من يحاول الاستيلاء عليها عنوة. ومناعتتها ناتجة عن أن ليس لها سوى بايين الأول على اليابسة

والثاني على البحر الذي يحيط بها إلا من ناحية واحدة ، يفضي إلى الباب الأول بعد عبور أربعة أبواب صغيرة تحيط بها الأسوار . أما الباب الذي يفتح على الميناء فيحmine برجان ممحصنان ، ويتميز وضع مرفقها عن جميع المرافق في المدن الأخرى ؛ فجدران المدينة تطوقه من ثلاث جهات ، وتكمل السور أقواس مبنية تؤلف الجهة الرابعة بحيث يمتد البناء حتى تحت الأسوار بل تحت الماء . وترتبط سلسلة البرجين فيستحيل عندها أي دخول أو خروج من البحر وإليه^(١٤) ويؤكد هذا الخبر بنجامان دي توديل الذي زار صور عام ١١٧٣ مستشهاداً بأسوارها الجديدة الضخمة ، حيث شاهد القصور والأبراج والساحات العامة لصور المصرية مغمورة تحت المياه . ويدرك المرء لماذا لم ينصب صلاح الدين إلا بحدن معسكته أمام الأسوار المنيعة القديمة لصور . هذه الأسوار التي طالما هدمت ثم أعيد بناؤها ، كان يتو كونت صيدا قد حاصر داخلها ، فأرسل إليه السلطان مبعوثاً ينذره بالتسليم ، وقد ثنى السكان الذين أرهبهم وصول الجيش الإسلامي أن تستسلم المدينة .

وصول كونراد دي مونفرا واستقباله كمنقد لمدينة صور

وحينا كان حاكم صور يتأهب لإرسال بعثة مكلفة بتسليم صلاح الدين مفاتيح المدينة ، أقبل مركب فرنجي تخفق أشراعه مسرعاً بأقصى سرعته نحو المراfa ، وعلى متنه رجل سيكون في هذا الردح من الزمن الخصم الأكثر شراسة لصلاح الدين ، إنه كونراد دي مونفرا ، وكان يرافقه الكثير من الفرسان . وقد ترتب على هذا الوصول نتائج غير مرئية . فكونراد دي مونفرا مركيز من بييمونت وصهر (زوج اخت) الإمبراطور إسحق الثاني . كان رجلاً مخيفاً ، شيطاناً (حسب قول ابن الأثير) حذراً، يقطأ وشجاعاً . فبعد أن قاتل في إيطاليا عدداً من أقاربه لصالح البابا ، وبعد أن سجن أسقف مايانس الأكبر ، حمل الصليب وأبحر مع رجال على شاكته ، وانطلق ليجرب حظه في الشرق .

كان ينوي النزول في سوريا ، ولكن عاصفة ألت بركبه جهة القسطنطينية ؛ حيث نزل وسط ثورة في البلاط . وكان سيفه معروضاً للبيع ، فأغاره إسحق لانج الذي استولى على تاج الإمبراطورية بقلبه سلالة آل كومين ؛ وقد كوفء مكافأة لائقة إذ زوجه إسحق اخته ومنحه لقب قيسار وحق انتقال الحذاءين القرمزيين .

ولكن كونراد أصيب بضعف بالغ وسط أعياد ورعبان بلاط بيزنطية ، ولذا سرعان مانصب أشرعته بحججة القيام بنزهة بحرية ما وأبحر نحو فلسطين مصطحباً معه بعض فرسانه ولفيقاً من اليونانيين مخلفاً وراءه نسيبه وزوجته . كان يجهل ما آل إليه وضع الفرنجة في سوريا ، وكاثة حطين التي قضت على مملكة القدس قبل ثمانية أيام من وصوله عكا التي كان يعتقد بأنها متزال تحت حكم الفرنجة . ولذلك فوجيء بعدم ساعده قرع الأجراس ساعة دخوله الميناء كما جرت عليه العادة لدى ظهور مركب رافعاً أشرعته وعلم الفرنجة . وبلغ خوفه الذروة حينما رأى سفينة صغيرة يغض منها المسلمين ، فسوى أشرعته بسرعة وألقى مراسيه في الميناء . وأخفى فرسانه آمراً بحارته بلزوم الصمت وإبداء الصمم حينما يصعد القائد إلى سفينته ويستعجله . لم يدهش لأي شيء وأقسم بأنه ينقل بضائع ، وأنه على يقين بأن صلاح الدين لا يعيق تجارة الأوربيين مع رعایاه ، وقبل أن يدخل الميناء طلب ترخيصاً خاصاً لبضائعه ومركته ورجاله من حاكم المدينة الذي كان حينذاك الملك الأفضل ، وبينما كان المسلمون يعودون إلى المدينة لتقديم هذا الطلب هبت ريح مواتية اغتنمتها كونراد كما لو كانت معونة إلهية فرفع المرساة وخر عباب البحر متوجهًا نحو صور ، ونزل اليابسة في الظروف التي وصفناها آنفاً ، ساعة كان رينو الصيداوي يجري مفاوضة تسليم الموقع .

وطبيعي أن كونراد استقبل كمنفذ للمدينة ، وعرضت عليه قيادة موقع صور . كانت العظمة هزيلة ، فطلب مقابل إعارة سيفه حكم المدينة . ولكن السكان فاقدى الأمل بأية نجدة تأتهم من ملك القدس (والسبب معروف) أقسموا له بيمين الطاعة والولاء . وهرب رينو الصيداوي إلى طرابلس .

صمود صور أمام القوات الإسلامية

ولم يضع كونراد دي مونفرا الذي أصبح ماركيز صور وقتها في النواح ، بل أسند لكل فرد عملاً ، وأمر بحفر الخنادق والتتأكد من صلاحية التحصينات ، حتى غداً مستعداً للاقتال صلاح الدين .

ولما وصل بطل الإسلام كانت دهشته بالغة إذ لم يجد الأبواب مشرعة دونه ، بل وجد رجالاً فوق الأسوار يطلقون بوجهه الصيحات المعادية ، ويلوحون بأسلحتهم ، ويظهرون بالغي

الثقة بأنفسهم ، ولما علم صلاح الدين بهذا التحول الطارئ في استعدادات الفرنجة ، وأدرك استحالةأخذ المدينة عنوة ، جأ إلى طريقة أخرى ، فهو يحتفظ في مخابئه بدمشق بوالد كونراد دي مونفراً غيّوم الثالث دي مونفرا الذي سبق له أن حمل الصليب في سن يحق للرجال فيها أن يستريحوا ؛ وعما أنه تبع سائر البارونات إلى معركة طبرية فقد وقع في الأسر . كان له أربعة أبناء كلهم مشهورون : بوني fas الذي كان ملك تيسالونية ، وغيوم المعروف باسم ذي السيف الطويل الذي تزوج سبييل ، وكان يمكن أن يصبح ملكاً للقدس لو بقي في قيد الحياة ، ورينيسية الذي مات في خدمة الدين ، وأخيراً كونراد .

وعرض صلاح الدين على كونراد دي مونفراً إطلاق سراح والده وإعطائه اقطاعية في سوريا إذا هو سلمه صور . فأجاب كونراد بعجرفة إنه يحتقر هدايا المسلمين ولن يسلم حجراً واحداً من حجارة صور لإنقاذ حياة أبيه ، مضيناً لأن قيمة حياة شيخ فان إزاء خدمة القضية العامة . فهاجم السلطان عبّاً دفاعات صور ، وفي ليل ١—٢ كانون الثاني (يناير) ١١٨٨ رفع الحصار مرجحاً إلى وقت آخر الاستيلاء على الموقع .

خطأ صلاح الدين الاستراتيجي أمام صور

وكان هذا خطأً فادحاً ارتكبه صلاح الدين ، لأنه كان عليه أن يدرك أن صور بوابة مفتوحة على الغرب . ويمكن أن تجيء عبرها جيوش المساندة ، بل ترتب على هذا الخطأ أن يدفع الإسلام ثمنه باهظاً . صور ستكون نقطة الانطلاق لإعادةاحتلال الفرنجة . وعرف دي مونفراً كيف يستغل هذه السانحة التي تركها له المسلمون ، وجعل من صور صخرة تملؤها الحصون .

سقوط المدن الفلسطينية

وعاد صلاح الدين مع أخيه الملك العادل إلى فلسطين حيث سقطت المدن بين يديه الواحدة تلو الأخرى . فأخذ اللد والرملة وكذلك جفنة التي تبعد أربعة فراسخ عن القدس ومثلها عن يافا ، جفنة التي احتمى فيها أسقف القدس الأكبر بعد تدمير المدينة . كما استولى على بيت لحم والخليل — حيث تقدس فيها ذكرى إبراهيم الخليل — وحالب وبيت جبرين — التي حصنها الملك فولك عام ١١٣٤ — والنطرون ..

حصار عسقلان وتحريرها

وظهر صلاح الدين أمام عسقلان؛ وهي إحدى المدن الفلسطينية الملكية الخامسة، تلك المدينة التي استولى عليها وجملها تباعاً الاسكندر والبطالسة والسلوقيون، وشهدت الصراعات الدامية بين اليهود والرومان؛ وكانت خاضعة للخلفاء الفاطميين حينها غزا الصليبيون فلسطين ..

وحين رفض قائد الموضع التسلیم ضرب صلاح الدين على المدينة الحصار، وبعد استيلائه على التحصینات المتقدمة، نصب عشرة مجانيق وطمر الخنادق وهدم الأسوار وراح يرمي المدينة بالقذائف، فصمد الفرنجة، وأبدوا مقاومة ضارية، فعرض عليهم صلاح الدين شروطاً مشرفة للاستسلام فأعادوا مبعوثيه رافضين سماعهم.

وراحت الهجمات والهجمات المضادة تتولى. فقدم صلاح الدين عرضاً جديداً للعسقلانيين، مكلفاً ملك القدس الذي كان يصطحبه معه أن يعرض عليهم إنتهاء القتال، فقبل غي دي لوزينيان هذه المهمة التي لا تشرفه كثيراً؛ متذرعاً بحججة أن من الإجرام أن تخسر كل شيء ذريعة عنادٍ لطائل تحته، ومن مصلحة الفرنجة أن يغتنموا حسن نية المتصر، وباستطاعتهم أن يحصلوا مقابل مفاتيح المدينة على حرية ملك القدس وباروناته الرئيسيين الذين كانوا يرثحون تحت نير الاستعباد. فاحتقر العسقلانيون عروض ملك القدس ولكنهم بالمقابل أيقنوا أن لا ملأ أمامهم، فطلبو مقابلة صلاح الدين نفسه وقالوا له: «إن الله وحده مالك الأحداث أعطاك النصر على الفرنجة التعباس». إن قيمتك وقدرك وعدد جيوشك أمور معروفة لدينا؛ لكنها لا تخيف رجالاً صمموا على الموت. لا تأمل في أن تأخذ عسقلان عنوة ولنتدخلها إلا إذا حولتها إلى رماد وقتل جميع المدافعين عنها. لقد قررنا ألا ندع إراده الصمود تلين، وأن ندافع عن أنفسنا حتى داخل بيوتنا. ولكن بينما عدد كبير من النساء والأطفال يخيفنا مصيرهم، نخاف أن يستغل الجندي — وهو لا يتصف بما تتصف به من الإنسانية — ضعفهم استغلالاً سيئاً ليفسدهم ويكرههم على التخلي عن دين المسيح؛ واجتناباً لهذه المصيبة فإننا نقبل بالتسليم وفق الشروط التالية: تعطينا هدنة أربعين يوماً لتنظيم أمرنا، وبعدها تقودنا نحن وأموالنا إلى مكان أمن وتحرص على مصير مائة عائلة تريد أن تبقى في المدينة،

وتدرأ عنها كل إهانة أو عنف . وتطلق سراح ملائكتنا وعشرين من السجناء نختارهم نحن » . وبما أن صلاح الدين لم يكن يرغب في تمجيد جيشه على عتبة فصل الشتاء أمام أسوار عسقلان فقد قبل العرض وحرص على أن يوضح أن الملك والأربعين أسيراً لن يطلق سراحهم إلا في الربيع القادم . وفي الخامس من أيلول (سبتمبر) ١٨٧٦ دخل المدينة . كان أمراً مخزناً للفرنجة التخلّي عن عسقلان التي وإن لم تكن ممنوعة صور لكنها كانت ذات أهمية بالغة ، وكان مؤسفاً للفرنجة أن يشهدوا خيانة ملك القدس بأم أيّنهم ... أمّا صلاح الدين فكان على عجلة من أمره ليتوجه إلى القدس قبل فصل الشتاء .

تحرير غزة والتوجه صوب القدس

واستولى صلاح الدين على غزة التي كانت بيد الهيكليين وترك فيها حامية ، وفيما كان يقود جيشه نحو القدس كان حاكم مصر يُعدّ اسطولاً لمحاصرة صور بحراً ، وقطع الطريق على جميع السفن القادمة من الغرب . وهكذا مثلما جعلت معركة حماة صلاح الدين سيد سوريا ، فإن معركة حطين جعلته سيد فلسطين .



حواشى الفصل الرابع عشر

١ — حطين في المصادر العربية :

لقد اعتمد مؤلفنا شاندور على العديد من المصادر العربية في دراسة معركة حطين ، وعلى وجه الخصوص : التوادر السلطانية لابن شداد وكتابي « البر الشامي » و « الفتح القسي » للعماد الأصفهاني ، كما أورد نصوصاً من كتاب الروضتين لأنبي شامة ، إضافة إلى المصادر اللاتينية التي منها تاريخ وليم الصوري وذيله المعروف باسم « تاريخ هرقل » ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن أبو شامة في كتابه الروضتين ، عمد إلى وصف معركة حطين استناداً إلى كتابي العماد « البرق » و « الفتح » وصفاً مختصراً ، وأورده برواية القاضي ابن شداد عن المعركة المذكورة ، إضافة إلى إيراد عدد من الرسائل أرسلت إلى بغداد التي أوردها محمد بن القادسي في تاريخه ، منها كتاب عبد الله بن أحمد المقدسى ، مع رسالة فاضلية ، هناً بها صلاح الدين بالنصر العظيم .. (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٥ - ٨٣).

وقد جمع صديقنا الباحث الدكتور سهيل زكار في كتابه : « حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس » وقائع معركة حطين في المصادر العربية الأساسية إضافة إلى المصدر اللاتيني « تاريخ هرقل » ، ذيل تاريخ وليم الصوري .

٢ — عماد الدين الأصفهاني ، محمد بن محمد (١١٢٥ - ١١٤٠)

أديب ، مؤرخ ولد بأصفهان ، ومات بدمشق ، درس الفقه والحديث والأدب ، ورحل إلى بغداد في الخامسة عشرة ، والتحق بالمدرسة النظامية ، ثم عاد إلى بلدته ، وغادرها (١١٥٦) إلى بغداد ، فولاه الوزير يحيى بن هبيرة النيابة عنه بواسط ، ثم بالبصرة . ولما مات الوزير قبض عليه ثم أطلق ، فانتقل إلى دمشق ١١٦٧ وكتب لنور الدين زنكي بالعربية والفارسية ، وصار صاحب سره ، وعهد إليه بالتدريس بالمدرسة النورية التي سميت بعد ذلك باسمه « العمادية » ، وجعله رئيس ديوان الرسائل . ولما مات نور الدين اضطررت حاله ، فقد صد الموصى ففرض بها وجمع بخروج صلاح الدين الأيوبي لضم سوريا ومصر ، فلتحق به ، وكتب له ، وصار في مرتبة وزراه . ولما مات حاول أن يكتب لخلفائه ، ولكنه لم ينجح ، واضطربت أحواله ، وعاش متنقلًا بين سوريا ومصر . وعرف بالشعر والكتابة ، وكان فيما من أصحاب السجع والبناس والطباق والتلاعيب اللغظي ، غير أنها في شعره أقل . وكان له ديوان شعر

كبير، فقد كان طويلاً النفس في قصائده. وأعظم شعره ما صور فيه الحروب الصليبية. وله ديوان من الديوبت خاصة، وديوان رسائل. ترجم عن الفارسية كتابي «فتوح زمان الصدور وصدور زمان الفتوح» لأنو شروان بن خالد في تاريخ السلاجقة، و«كمياء السعادة للغزالى» أرخ لنفسه في «البرق الشامي»، ولشعراء القرن الثاني عشر في «جريدة القصر وجريدة العصر»، ولأحداث عصره في عدة كتب أهمها: «الفتح القسي في الفتح القدسى»، وهو تاريخ مسجوع موشى بالمحاسن اللفظية، لفتح بيت المقدس، و«نصرة الفترة وعصرة القطرة» في تاريخ السلاجقة، و«عيبي الزمان في عقبى الحدثان»، و«نخلة الرحلة وحلية العطالة» وغيرها. (الموسوعة الميسرة ١٢٣٢—١٢٣٣).

٣— احتشاد المسلمين عند نبع عشترا:

جاء في كتاب البرق الشامي للعماد الأصفهاني، قوله:

«فسار السلطان، ووصل السير بالسرى، وخيم بعشترا، والقدر يقول له تعيش وترى، وقد غصت بخيل الله الوهاد والذرى، وامتد العسكر فراسخ عرضأً وطولاً، وملاً الملا حزوناً وسهولاً.. وكان يوم عرضه مذكراً يوم العرض.. وعرض العسكر في اثنى عشر ألف مدرج، في ليل العجاج مدح». (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦).

٤— قال العماد:

«ووصل الخبر بأنّ الفرج ركبوا ووثبوا فقال السلطان جاء مازيد، وإذا صحت كسرتهم فطيرية وجيع الساحل مادونه مانع، ولا عن فتحه وارع» (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦).

٥— وصف ابن شداد مسيرة المعركة بقوله:

«وجرى في ذلك اليوم من الواقعه العظيمة، والأمور الجسيمة، مالم يحكَ عن من تقدم»..
«وكان الله قد قللَ نصر المسلمين ويسره، وأجراه على وفق ماقدره. فحملت الأطلاب الإسلامية من الجوانب، وحمل القلب، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين» (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين). (ابن شداد: التوادر السلطانية ٧٦—٧٧).

٧— وصف الملك الأفضل ابن صلاح الدين مجرى أحداث المعركة وتقلباتها (انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٥٣).

٨— جاء في كتاب البرق الشامي للعماد الأصفهاني عن حالة جيش الفرنجة الذي أنهكه العطش، وإشعال النار تحت أقدامه، قوله:

«وأصبح الجيش على تعبيته والنصر على تلبيته، وذلك يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر، وهو يوم النصرة ووقوع الكسرة، وبرح بالفرنجية العطش، وأبْتَ عثْرَتها أن تتعش. وكان النسيم أمماها. والخشيش تحت أقدامها. فرمى بعض مطوعة المهاجرين النار في الحشيش. فتأجج استعراها. وتوجه إوارها. فبلوا وهم أهل التلثيث من نار الدنيا بثلاثة أقسام: في المصطبة والإصطalam: نار الضرام، ونار الألوام، ونار السهام». (أبو شامة كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٧).

٩ - « حتى إذا أسر الصباح ، خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار . ورنت القسي وغنت الأقار ، إذ ذاك ، واليوم ذاك والجيش شاك . وللقيط عليهم فيض ، وما للغيظ منهم غيض . وقد وقَدَ الحرّ ، واستشرى الشر ، ووقع الكر والفر . والسراب طافح ، والظماء لافح ، والجو عرق ، والجوى مقلق ، وألوان الكلاب من اللهث لهث ، وبالعيث عيث . وفي ظنهم أنهم يردون الماء ، فاستقبلتهم جهنم بشارها ، واستظهرت عليهم الظهرة بنارها ، وذلك في يوم الجمعة ، بمجموع أهلها المجتمعة . ووراء عسكتنا بحيرة طبية . والورد عد وما منه بعد . وقد قطعت على الفرع طريق الورود ، وبلوا من العطش بالنار ذات الوقود . فوقعوا صابرين مصابرين ، مكابرین مصابرين . فكلبوا على ضراوتهم ، وشروا ما في أدواتهم ، وشفهوا ماحظهم من موارد المصانع ، واسترهوا حتى ماء الدامع ، وأشرفوا على المصير إلى المصارع ». (أبو شامة كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٧).

١٠ ، ١١ - في استقبال صلاح الدين أكابر أسرى الفرنجة ونهاية ينو دي شاتيون نقاً عن رواية ابن شداد : « ولما فتح الله تعالى عليه بالنصر والظفر ، جلس السلطان في دهليز الخيمة ، فإنها لم تكن تُصْبَت ، والناس يتقربون إليه بالأسرى وهم وجدهم من المقدمين .

ونصبت الخيمة . وجلس فرحاً مسروراً شاكراً لما أنعم الله عليه ، ثم استحضر الملك جفري وأنباء والبرنس أرناط ، وناول الملك جفري شربة من جلاب بثاج ، فشرب منها ، وكان على أشد حال من العطش ، ثم ناول بعضها البرنس أرناط ، فقال السلطان للترجان :
قل للملك : أنت الذي تسقيه ولا أنا ما سقيته .

وكان على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسوأ أمن ، فقصد بذلك ، الجري على مكامن الأخلاق .

ثم أمرهم بمسيرهم إلى موضع عين لزروطم ، فمضوا وأكلوا شيئاً ، ثم عاد فاستحضرهم لم يبق عنده أحد سوى بعض الخدم ، واستحضرهم وأقعد الملك في الدهليز ، واستحضر البرنس أرناط ، وأوقفه على ماقال .
وقال له : ها أنا أستنصر لحمد عليه الصلاة والسلام .
ثم عرض عليه الإسلام ، فلم يفعل .

ثم سُلَّ النسجاة (الخنجر المقوس) وضربه بها ، فحلَّ كتفه ، وتَمَّ عليه من حضر ، وعَجَّلَ الله بروحه إلى النار ، فأخذ ورمي على باب الخيمة .

فلما رأه الملك وقد نُخرج به على تلك الصورة . فلم يشك في أنه يشي به فاستحضره السلطان وطَيَّبَ قلبه .
وقال : لم تَنْجِرْ عادةُ الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فإنه تجاوز حده ، فجري ما جرى . (ابن شداد : الوادر السلطانية ص ٧٨) .

١٢ - عن أسرى الفرنجة نقاً عن كتاب الروضتين لأبي شامة :
« قال وورد كتاب آخر فيه هذه الفتوح ، التي ماسع بها فقط ، هذا ذكر بعضها مختصاً مع أنه لا يقدر أحد يصف ذلك ، لأن الأمر أكبر من ذلك الذي يبشر به المسلمين ، أن مدينة طيبة فتحت بالسيف وأخذت

قلعتها بالأمان ، واجتمع عسكر الإفرنج جميعهم والتقوا بال المسلمين عند قبر شعيب النبي (عليه السلام) ، وقتل من الإفرنج ثلاثون ألفاً . وكان عدد الإفرنج ثلاثة وستين ألفاً بين فارس ورجل . وأسر منهم ثلاثون ألفاً . ويبلغ ثمن الأسير بدمشق ثلاثة دنانير ، واستغنى عسكر الإسلام من الأسرى والأموال والغنائم بحيث لا يقدر أحد بصف ذلك . وما سلم من عسكر الفرج سوى قمص طرابلس مع أربعة نفر ، وهو محروم ثلاثة جراحات . وأخذ جميع أمراء الفرج . وكم قد سبي من النساء والأطفال ، بيع الرجل وزوجته وأولاده في المزاد بيعه واحدة . ولقد بيع بحضوره رجل وأمرأة وخمسة أولاد ثلاثة بنين وابنتان بثمانين ديناراً . ودخل القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق وكل يوم يرى من رؤوس الفرج مثل البطيخ ، وأخذ من العرق والغنم والخيل والبغال مالم يحيى من يشتريها من كثرة السبي والغنائم . قال وفي كتاب آخر (وكان الفرج خمسة وأربعين ألفاً فلم يسلم منهم سوى ألف ، وقتل الباقي واستأسر وهم وكذلك الملوك) قلت وبلغني أن بعض فقراء العسكر ، وقع بيده أسرى وكان يحتاجا إلى نعل فباعه بها ، فقيل له في ذلك ، فقال : أردت أن يذكر ذلك . ويقال بلغ من هوان أسرى الفرج وكثرةهم أن بيع منهم واحد بتعل ». (أبو شامة كتاب الروضتين ج ٢ ص ٨٢).

١٣ — جاء في كتاب الروضتين نقاً عن العماد الأصفهاني :

(ما قدره الله تعالى من أسباب نصرة الإسلام ، ووهن الكفر ، أن قمص ، طرابلس رحب في مسافة السلطان والاتجاه إليه والمساعدة له على أهل ملته ، بسبب أنه كان تزوج بالقمحية صاحبة طيبة . وكان أخوها الملك الجذوم لما هلك أوصى بالملك لابن أخيه هذه وهو صغير ، فتزوج القمص أمه ، ورباه فمات الصغير وانتقل الملك إلى أمه ، ثم إنها مدت عينها إلى بعض المقدمين من الغرب فتزوجته ، وفوقضت الملك إليه فشرع يطلب حساب البلاد من القمص ، فوقع الاختلاف بينهم لذلك ، فالتجأ القمص إلى ظل السلطان ، فصار له من جملة الأتباع ، فقبله السلطان وقواه ، وشدّ عضده بإطلاق من كان في الأسر من أصحابه ، فقويت مناصحته للMuslimين حتى كاد لولا خوف أهل ملته يسلم ، وصار بدولة السلطان مملكه يقسم . ومال إليه من الفرج جماعة ، وظهرت له منهم للطماعية طاعة . ودخلت إلى بلادهم من جانبه السرايا ، وخرجت بالغنائم والسبايا . وأعطيت الدنيا في دينه بما استدناه من العطايا . فصار الفرج يدفعون شرو ، ويحدرون مكره ، فتارة يدارونه ، وأونة يمارونه ، وللقمص قوم صدق يساعدونه ، في كل حق ويباطل ، فلي من لهم أهل الساحل بشغل شاغل ». (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٤ — ٧٥).

١٤ — جاء في كتاب رحلة ابن جبير عن ذكر مدينة صور قوله :

(مدينة يُضرب بها المثل في الحصانة ، لا تُلقي لطاليها يد طاعة ولا استكانة ، قد أعدتها الإفرنج مفترعاً لحادثة زمانهم ، وجعلوها مكابة لأمانهم ، هي أنظرف من عكا سككاً وشوارع ، وأهلها ألين في الكفر طبائع ، وأخرى إلى بُرّ غرباء المسلمين شمائل ومنازع ، فخلائقهم أنسج ، ومنازلهم أوسع وأفسح ، وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن ، وعكا أكبر وأطغى وأكثر).

وأما حصانتها ومناعتها فأعجب ما يُحدث به ، وذلك أنها راجعة إلى بابين : أحدهما في البر ، والآخر في البحر ، وهو يحيط بها إلا من جهة واحدة ، فالذى في البر يُغضى إليه بعد ولو ح ثلاثة أبواب أو أربعة ، كلها في

ستائر مشيدة محيطة بالباب . وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدتين إلى ميناء ، ليس في البلاد البحريّة أ عجب وضعاً منها ، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحده من الجانب الآخر جدار معقود بالجصّ . فالسفن تدخل تحت السور وترسو فيها ، وتعرض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعراضها الداخلي والخارج ، فلا مجال للمراتب إلا عند إزالتها . وعلى ذلك الباب حُرَاسٌ وأمناء ، لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج إلا على أعينهم . فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع ، ولعكا مثلها في الوضع والصفة لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك وإنما ترسو خارجها والمراتب الصغار تدخل إليها ، فالصورة أكمل وأجمل وأحفل .» .
(رحلة ابن جبير : ص ٢٧٧ - ٢٧٨)

١٥ — لقد ناقش عدد من مؤرخي الشرق والغرب مسألة رفع صلاح الدين الحصار عن مدينة صور ، التي غدت حسب قول شاندور نقطة انطلاق للفرنجية في حملتهم الصليبية الثالثة ، ملتقياً بذلك مع كل منتقدي صلاح الدين حول هذه النقطة من شرقين وغربين ، الذين عرض الباحث الأستاذ قدرى قلعجي جل آرائهم ، وناقشهما مناقشة الحكيم الشاعر ، لا المؤرخ العسكري ، يقول :

«يلقي بعض المؤرخين المسلمين تبة الإخفاق الذي مني به السلطان في صور ، وقول هذه المدينة الحصينة إلى قاعدة للحملة الصليبية الثالثة ، على صلاح الدين وما أبداه من تساع وتساهل مع الصليبيين في المدن والقلاع التي احتلها منذ موقعة حطين ، واليسماح لهم بالهجرة منها آمنين ، إلى مدنهم وقلائهم على الساحل ، ولا سيما مدينة صور التي كانت تمتاز بالمناعة الجغرافية ، فأضافت إلى ذلك المناعة البشرية ، وعد أولئك المؤرخون ذلك منه تهارناً وتفريطناً وغلوا في الشهامة والنبل أدى إلى أسوأ النتائج .

يقول محمد كرد علي : وذكر المؤرخون أن اطلاق أمراء الفرج من الأسر وحملهم إلى صور كان من أعظم أسباب الضرار وقوة الفرج وروح عكا .» (محمد كرد علي — خطط الشام ج ٢ ص ٥١).

أما ابن الأثير فحمل على صلاح الدين قاتلاً : «لم يكن لأحد ذنب في أمرها (صور) غير صلاح الدين ، فإنه هو الذي جهز إليها جنود الفرنجة ، وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك كما سبق ذكره . كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور ، فصار إليها من سلم من فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم ، فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم ، فأجابوا بالتليلة لدعوتهم ووعدهم بالنصرة ، وأمرؤهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم ، يجتمعون بها ويتجاؤن إليها ، فزادهم ذلك حرصاً على حفظها والذب عنها» (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٣٦٨).

ويلتقي مع ابن الأثير بعض المؤرخين الغربيين الذين يعتقدون بأن الخطوة التي اتهجها صلاح الدين ، بدعة المدن والقلاع إلى التسلیم مقابل الأمان بدلاً من الفتح بالسيف ، قد أدت إلى نهاية عشرات الآلاف من القتل والأسر ، وانطلاقهم أحرازاً إلى مراكز تجمعهم الجديدة ولا سيما مدينة صور التي غدت منطلق الحرب الصليبية الثالثة .. حتى إن لامونت يرى أن هذه السياسة النبيلة بلغت حد الحماقة ، ولعله يعني حد السذاجة ، وإليك تفصيل ما قال : «لم يظهر صلاح الدين ، طوال حربه ضد الدول اللاتينية ، بمظهر المتعصب الديني . وكان حلمه وشهادته مثار إعجاب معاصريه ، وموضوع مدح المؤرخين منذ عصوه فطالعاً . وقد أبدى في معاملته لشعوب

البلاد المفتوحة من ضبط نوازع النفس واحترام الناس ما كان مبaitنا كل المبaitة للقصوة المتعارف عليها في حروب العصور الوسطى . وكانت سياسته القاضية بإيصال اللاجئين من بلاد النصارى تحتلة إلى معلم النصرانية في صور سياسة نبيلة إلى حد الحماقة ، لأنها أدت إلى تحشيد أعدائه ، ومن ثم منعها من احتلال مدينة صور نفسها . لقد تصرف صلاح الدين ، طوال حروبه ، وكأنه يحاول محاولة واعية أن يجعل نفسه مقبولاً عند رعاياه المقربين ، وأن يضع أساس دولة تعيش فيها الديانات جنباً إلى جنب تحت ظل السلطان ... وكان هدف صلاح الدين سحق قوة الصليبيين السياسية ، ولم يكن إبادة المسيحيين » (دراسات إسلامية ص ١٢٢ - ١٢٤) .

وبتابع الباحث قدرى قلعجي التأكيد على الجانب الإنساني لدى صلاح الدين الذي غفل عنه بعض الباحثين ، يقول :

« والواقع أن ابن الأثير ينسى الجانب الإنساني في الموضوع ، فهو يحکم صلاح الدين كقائد حرب لا ينبعى — كما يقول — أن يترك الحزم وإن ساعدهه الأقدار ، فلأن يعجز حازماً خير له من أن يظفر مفترطاً مضيئاً للحزم ... » وفي اعتقادنا أن صلاح الدين لم يكن محارباً إلا بالضرورة ، فهو ليس فاتحاً بل محراً ، والفرق بينهما كالفرق بين الشر والخير ، وبين الموت والحياة . ولأن كان الفاتح يقاتل بطعمه ، فإن المحرب يقاتل بإيمانه ، وإذا كان من أخلاق الفاتحين أن يصونوا أمجادهم باللحديد والنار ، فإن من شمائل المحربين لا يحملوا الحقد والضيقية حتى لأولئك الذين يضطربون إلى شهر السيف في وجههم . أليس صلاح الدين هو القائل وقد لامه أصحابه لأنه صفع عن جريمة أحد الجناء عليه : « لأن أخطيء في العقوبة . أحبب إلى من أن أسيب في العقوبة ! » .

لقد كان صلاح الدين رجل سلم وبناء ومحبة ، وليس رجل حرب وهدم وضيقية ، وبعد كل معركة كان يعي أكثر فأكثر وحشية الحرب وبغاءها ، ولكن الأحداث التي عاصرها والظروف التي لابسها ، كانت تدفع به مضطراً إلى ساحة القتال ، دفاعاً عن الأرض التي امتزج ترابها بدمه ، واحتللت نسيمها بأنفاسه ، وارتسمت طبيعتها في عيشه ، وباويل الحرب ، آفة البشرية وعار التاريخ ، إذا لم تكن دفاعاً عن الذات .

ولعل صلاح الدين كان يعاني من جراء ذلك أعظم مأساة يعانيها الإنسان ، حين يريد السلم وتفرض عليه الحرب ، وينشد الرحمة وتطلب منه القسوة ، ويسير في الطريق الملوث بالوحشة والخوض بالدم بمشاعر الملائكة وأخلاق القديسين .

إذا كانت جميع الطرق ملأى بالأشواك ، فلا بد من أن نسلك طريقاً شائكاً . وإذا فرست الحرب نفسها ، وغدا الشر خيز الحياة اليومي ، وحلق شبح الدمار مثل طائر أسطوري رهيب لا يستطيع أحد أن يهرب من تحت جناحيه ، فبحسب المرء أن يُبعد عن قلبه ظل الحقد ، لعل زهرة واحدة للحب تفتح في مستنقع البغضاء ...

هكذا شاءت الأقدار ، بل هكذا شاءت الأطعماً التي دفعت جحافل الفرجنة إلى الشرق ، متقدفة مثل سيل لا نهاية له . وإذا كان المتدون قد غالوا في التخريب وأمعنوا في الفارة الجاهله ، فإن سر عظمية صلاح الدين أنه لم يقابل تلك العاصفة الباغية ، إلا بعفو الكريم وتسامع النبيل ، فكان أسوة حسنة ومثلاً يُضرب للناس ، وكسّب للعرب والإسلام بقلبه أكثر مما كسب لهم بسيفه ، وهذا ما جعل تشرشل يقول عنه : إنه من أعظم ملوك الدنيا ، ودفع الكاتب الانكليزي ريدر هبارد إلى القول : بأنه أعظم رجل على وجه الأرض ! (راجع كتاب قدرى قلعجي صلاح الدين الأيوبي ٢٦٤ - ٢٦٧) .

الفصل الخامس عشر

تحرير القدس^(١)

أمام أسوار القدس

في السادس عشر من شهر رجب ٥٨٥ هجرية المافق ٢٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٧ ميلادية أي بعد معركة حطين بشهرين ونصف الشهر، ظهر صلاح الدين أمام أسوار القدس، ولم تلبث المدينة أن سقطت (حررت). وكان هذا تاريخاً لا يُنسى في العالم الإسلامي.

التفاوض على الاستسلام

كان باليان الثاني دليلاً على القلعة — وعرض صلاح الدين — قبل أن يستولي على المدينة عنوة بقوة السلاح على المهاجمين التفاوض على الاستسلام، وبحث مصير المجتمعات الفرنسية. وقد وعد، بكثير من اللباقة بعدم إرهاق مدينة القدس بالضرائب مثل كثيرون من المدن الأخرى، التي احتلّها لإعلاء كلمة الله .. ووعد بالاكتفاء بمبلغ رمزي مقداره ثلاثون ألف قطعة ذهبية، وعدم مساس حقوق المسيحيين الذين يختارون البقاء في القدس بعد استرجاع المسلمين إليها. لكنّ البارونات وقادة المنظمات لم يقبلوا المهاودة. كانوا يريدون إطالة

أمد المفاوضات والاحتياط على صلاح الدين ، أملاً بأن يصل أسطول جنوبيٌّ ما إلى الشواطئ اللبنانية ، حاملاً معه قاذفات حجارة وصليبيين شجاعاً . وكان ردّهم على صلاح الدين : « لا يمكننا أن نسلّمك مدينة مات فيها ربنا ، كما ليس بمستطاعنا أن نبيعك إياها ». وتظاهروا بأنّهم يشعرون بالإهانة فغضب صلاح الدين وقال : « ستلعنون عنادكم وستستجدون رحمة ، وسأدخل القدس خلال أيام معدودة ، ولا أدرى حينذاك كيف سأمنع جنودي المتصررين من أن يعرضوا على السيف الفرنجية الناجين من الموت ، كما فعلتم أنتم بال المسلمين حينما دخلتم القدس سنة ٤٩٢ للهجرة . أتذكرون أنكم ذبحتم سبعين ألفاً من المسلمين في المسجد الأقصى ؟ » .

حصار القدس ودك السور الشمالي

هذا ، وقد روى مؤرخو تلك الحقبة ، أنه كان في القدس حينذاك ستون ألف رجل قادرين على القتال ، بينما يذكر بهاء الدين مؤرخ صلاح الدين أنّهم كانوا ستة آلاف . ومهما يكن من أمر فإن بالبيان الثاني دليلاً عرف كيف يؤجج في رجاله روح الشجاعة التي كانوا بحاجة إليها في هذه الأيام العصبية ؛ رغم ذكر الهزائم القريبة العهد والعجز الظاهر لدى كبار فرنجية الشرق . ومنح لقب فارس عدداً من البورجوازيين (سكان المدينة) والتجار الذين عليهم أن يدافعوا عن أسواقهم ودينيهم حتى النصر أو الهلاك في هذه المعركة الضخمة ، التي يتوقف على نتيجتها مصير المدينة المقدسة ؛ كما قد يكون متوقعاً عليها مصير الإسلام والنصرانية جيّعاً . لقد صهروا أواح الفضة التي كانت تغطي كنيسة القبر المقدس لدفع مرتبات الجنود ، واستطاع حاكم القدس أن يجعل من مدينة داود القديمة قلعة حصينة منيعة ، حتى ذهل المسلمون لدى رؤيتهم هذا العدد اللحسب من الجنود والفرسان منهمكين فوق الأسوار التي كانت تهدمها شيئاً فشيئاً حجارة آلاتهم الخشبية . وما أن صلاح الدين لم ينجح في اقتحام المدينة عبر باب دمشق بثقل جيشه ، فقد بحث عن نقطة أضعف شمالى المدينة قرب باب يوشافاط ، على أمل أن يفتح ، بصورة أسهل ، ثغرة في إحدى زوايا التحصينات المواجهة لوادي سدرون . وجمع في هذه الناحية كل الحجارة المتاحة ، وبعد القذف جرت عملية دك أسس هذا الجزء المحسن من سور القدس بصبر وأناة .

القضية الخاسرة

وتمّ خلال يومين ذلك نحو ثلاثة مترًا من التحصينات التي هدمت وأحرقت ، فحاول المهاجمون عبأً أن يخرجوا من باب يوشافاط ، وقاتلوا بضراوة وخسروا عدداً من القتلى ، فاضطروا إلى التراجع مدركون أن قضيتم خاسرة . فهرع الشعب للركوع أمام الهياكل ، وقامت الراهبات ببطوف حول الأسفار وهن حافيات منشدات المزامير ، وشرعت النسوة يخلطن الممارسات الخرافية بأعمال التقوى وذلك بتغطيس بنائهن حتى الأعناق في أوان مملوءة بالماء البارد أمام القبر المقدس ، وقصصن شعورهن معتقدات أنهن بصنعهن هذا يهدن غضب رب . وكان الخطباء يذكرون مستعمليهم بما سيحدث لهم إذا سقطت القدس في أيدي المسلمين .

نص عهدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لمحبي دار الإسلام

وكيلًا ينسوا نص عهدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لدى فتح القدس ، هذا النص الذي تكرر في المراسلات التي تبودلت بين المجموعات المسيحية المختلفة في الشرق والسلطات الإسلامية :

«لقد تعهدنا نحن المسيحيين بعدم إقامة أي بناء جديد في مدننا كالدير والكنيسة وصومعة الرهبان ، وبعدم ترميم أي من هذه الأبنية الموجودة في أحياء المسلمين ، وبعدم منع أي مسلم من التوقف في كنائسنا في ليل أو نهار ، وبإضافة المسلمين العابرين وإطعامهم مدة ثلاثة أيام ، وبالمجاهرة باحترامنا المسلمين إما بالوقوف لهم والتخلّي لهم عن مقاعدهنا في اجتماعاتنا إذا أرادوا الجلوس وبالامتناع عن لبس العمامة ، وعدم انتعال الأخذية المزدوجة وألا نفرق شعورنا مثلهم ، وألا نختطي خيولاً مُسرجة ولا نتحدث بلغتهم ولا نتمنط بالسيف ولا نقش على آخرتنا حروفاً عربية ، ولا نبيع خمراً ، ولا نزين كنائسنا بالصلب من الخارج ولا نظهر صلباننا ولا كتبنا في الطرق أو في الأسواق ونفتبع عن الصخب بظهورنا في كنائسنا» (٢) .

وكان المسلمون يستندون إلى هذه العهدة حتى تاريخ الحروب الصليبية ، فهل علينا أن نعود ثانية لنصبح من الرعاع ؟

استئناف المفاوضات واستسلام المدينة

وذهب وفد من الحاصلين يرأسه باليان الثاني ديلين إلى صلاح الدين ، فاستقبلهم مُغضباً ولهم على عدم رغبتهما في التفاوض حقناً لدماء المحاربين وهددهم قائلاً : « انظروا جدران القدس وهي تهدم ، انظروا إلى جنودي الذين سيدخلون من جميع أبواب المدينة . سأدخل القدس شاهراً سيفي وسأظهر بدم الفرجحة هذه الأماكن المقدسة التي دنستموها بذبحكم المسلمين دونما مبرر يوم دخلتم أول مرة عام ٤٩١ للهجرة » .

وعرض باليان باسم السكان مائة ألف دينار . ويروي بهاء الدين أن صلاح الدين لفت نظر مخاطبه إلى أن الرأيارات ترفرف منذ الآن قرب برج داود ، وأنه ليس من العادة المطالبة باستسلام مشرف في مدينة هي على وشك السقوط . وردد حاكم القدس قبل أن يسحب بهذا الجواب الأبي : « لا تتصور أن القدس ينقصها المدافعون ، سنقاتل في كل من أحياه المدينة . ولدينا خمسة آلاف رهينة سنقتلهم بأيديينا كما سُنقتل نساءنا وأطفالنا فلا تكن غير مهادء ؛ فإنك بإلجلائنا إلى اليأس ، تقوى تصميمنا ، كما أن التجاوزات الخطيرة تولد أسوأ أنواع العنف . نحن لا نريد أن نرى القدس تغيب في اللهب ، ولا أن نرى أجمل مساجد الإسلام تدمر إلى الأبد في معارك يائسة . ماذا ستفعل أمام الخراب ؟ وأين ستتجدد مثل قبة الصخرة والمسجد الأقصى ؟ ومثل هذه الكثرة من الأماكن المقدسة في القدس التي تقدسونها وتحترمونها ؟ لا تعتقد أنه غير مناسب أن نسامون على مصير مدينة عزيزة علينا جميعاً ؟ وإذا لم يشأ لنا الله النصر الآن فنحن على يقين بأنه تعالى سيمنحنا ميّة مجيدة ومغفرة عن كلّ ما اقترف من تدنيس في هذه الأماكن ». ويروي المؤرخون أن صلاح الدين الذي هزّته هذه الصورة المعروضة عليه طلب من المفاوضين الفرجحة بأن يعودوا غداً ريثما يتمكن من استشارة الفقهاء . فأفني هؤلاء بأنّ قسم صلاح الدين أن يدخل القدس شاهراً سيفه لا يعتبر حائطاً فيه إذا استسلم الفرجحة بلا شروط ، وأنه لم يكن قاسياً - بطبعه - ولكن يجنب القدس مآسي الحرب - وهذا ما يتساوى ورغبته الخفية - اتفق مع حاكم القدس على أن تفتدي التجمعات الفرجحية حريتها بالشروط التالية : يدفع الرجال عشرة دنانير صورية (نسبة إلى صور) والنساء خمسة والأطفال دينارين ، وعن العشرين ألفاً من المعدمين العاجزين عن فكاك رقبتهم يدفع مبلغ مقطوع قدره ثلاثون ألف دينار^(٣) . وأبرم هذا الاتفاق يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة

٥٨٣ للهجرة . ولم ينس المسلمين أن يتذكروا نبوءة الشاعر الذي مدح صلاح الدين حين أخذ حلب بأنه سيفتح فتحاً أعظم في شهر رجب ، هو فتح القدس وزاد في عظمة هذا اليوم الذي لا ينسى في تاريخ الإسلام حدوثه في ذكرى إسراء والمعراج .

استسلام قلعة القدس

وفي ٢ تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٧ تسلم صلاح الدين قلعة القدس قُبيل صلاة الظهر في عهد ناصر الدين الخليفة العباسي في بغداد ، واسحق لانج امبراطور المشرق ، وفريدريك باربروس امبراطور ألمانيا ، وفيليب أوغست ملك فرنسا ، وهنري الثاني ملك انكلترا . وكان ابتهاج المسلمين بالغ الروعة في هذا اليوم ، وقد هرع حشد من القضاة والشعراء والفقهاء والدراوיש والفقراء من مصر وسوريا لتهنئة أعظم السلاطين .

أثر سقوط القدس على الفرنجة

أما الفرنجة فقد آلمهم في الصimir فقدان الأماكن المقدسة ؛ وكانت بالغة الدلالة تلك الرسالة التي وجهها في اليوم التالي تيري المعلم الأكبر لمنظمة الهيكلين إلى ملك انكلترا : «اعلم أنها الملك ، أن صلاح الدين غدا سيد مدينة القدس ويرج داود ولم يعد للمسيحيين حق حماية القبر المقدس إلاّ بعد اليوم الرابع من عيد القديس ميخائيل المقلب وسعي للإخوة الاستباريين بالبقاء سنة أخرى في مركبهم للعناية بالمرضى ، على حين كان فرسانهم يقومون يومياً انتلقاءً من مركبهم في كوكب (قصر بولفار) بعمل جديد ضد المسلمين ، وقد استولوا أخيراً على اثنتين من قواقل هؤلاء ، فوجدوا مع الأولى أسلحة ومعدات حرية كان ينقلها الأتراك من قلعة البيزة بعد أن هدموها ، أما الكرك المجاورة للشوبك (مونتريال) ، والشوبك وصفد ، وكرك أخرى ومرجة التي تعود للإسباريين والقصر الأبيض (القسطل الأبيض) وطرابلس وانطاكية فما تزال صامدة رغم كل محاولات المسلمين للاستيلاء عليها . وأمر صلاح الدين بإزالة الصليب المرفوع على قبة الكنيسة المبنية فوق هيكل سليمان . وتطهيرًا للأماكن المقدسة أمر صلاح الدين بغسل داخل هذه الكنيسة وخارجها بماء الورد لأنها كانت قد يأْ جامع عمر » — ويكتب مجير الدين الذي كان يعيش في القرن الخامس عشر في حولياته — « لم يُبْتَلَ الفرنجة بمثل هذه الكارثة منذ قدمهم إلى سوريا عام ١٠٩٧ حتى الآن » .

أريجية صلاح الدين ونبله

ولم يشأ صلاح الدين أن يحتفظ لنفسه بشيء من الغنائم التي قسمها بين النساء والجندي والفقهاء الذين رافقوه إلى القدس . وأظهر في مناسبات عدة أريحيته — نحو أباس المسيحيين محاولاً تجنيبهم قسوة وضعهم الجديد ؛ فأمر بإبقاء المرضى في المستشفيات التي كان يعالجهم فيها الاستباريون . وتخلى عن كنيسة القبر المقدس للروم والسريان ، وأعفى بناء على أمره وأمر أخيه الملك العادل ألف وخمسماة من الفرنجة الفقراء من دفع الفدية .

وشكل مجموعات من الحرس في المدينة لمنع أي عنف ، وكان يرمي بصنعيه هذا إلى الحيلولة دون أي عمل انتقامي ، وفرض الرحمة على أتباعه بعد النصر ، وصدقهم في الحرب .

خروج الفرنجة المهزومين من باب داود

وبعد اتخاذه هذه الاحتياطات لحماية خروج الذين فضلوا الرحيل أمر بإغلاق أبواب القدس باستثناء باب داود ؛ ومر أمامه صف المهزومين الطويل . وكان هيراقليوس بطريقه القدس في المقدمة يتبعه الأكليروس الزمني والروحي ، وكان ينوء بحمل الآنية المقدسة والمصوغات الذهبية والأقمشة وكنز القبر المقدس . ولفت المؤرخ العماد نظر السلطان إلى أن هذه الثروات كان يجب اعتبارها من الأموال غير المنقوله وبالتالي أن تبقى مكانها بحكم المعاهدة ، لأنها ، بهذه الصفة ، من حق المنتصر . واقتضى صلاح الدين بوجهة النظر هذه ، لكنه فضل عدم المنازعه بملكية أموال القبر المقدس وتركها تمر ؛ لأنّ الطهر الأكبر يكمن في عقيدة المؤمنين الحقيقيين أكثر مما يكمن في ذهب الآنية المقدسة . ومن ثم مر حاكم القدس على رأس النّبالة السورية والفرنجية . ووجهاء المدينة .

صلاح الدين يخفف آلام نسوة الفرنجة ويغمرن بالهدايا والمؤن

وحيثت بعض النسوة على قدمي السلطان مبتلهات : «لقد فقدنا كل شيء : منازلنا وأموالنا وديارنا ، وستبيه في بلادٍ أصبحت غريبة ومعادية بالنسبة إلينا ، وبإمكانك أهبا السيد أن تخفف آلامنا بأن تعيد إلينا أزواجهنا وأخواتنا وأولادنا الراسفين بأغلال الأسر عندك». فأمر صلاح الدين بالبحث عن أزواج هؤلاء النسوة بين الأسرى وأطلق سراحهم ، بل عمل أكثر من ذلك . فقد غمر هؤلاء النسوة بالهدايا والمؤن .

رحلة صلاح الدين بفرنجة القدس وتنكر أبناء دينهم لهم

وصاحب المسلمين الفرنجة حتى أراضي بوهيموند حاكم انطاكية . ويروى أن فرنجة انطاكية وفرسان كونت طرابلس استقبلوا بفتور أخوتهم القادمين من القدس . ويدرك بعض المؤرخين أنهم كانوا في بعض الحالات يقتلونهم ويجردونهم من أحالمهم ما أمكنهم ذلك ، وينعنونهم من دخول مدنهم . وبعملهم هذا كشفوا عن حقيقتهم تجاه أولئك المحقرين الذين أرهقوا بالآلام ، بينما عاملهم أكبر عدو لعرقهم ودينه بهذه القدر من الإنسانية ..

وعاد أولئك البوسائ أدرجهم نحو الجنوب بعد أن طردوا من كونتية طرابلس وإمارة انطاكية ، فأمر صلاح الدين بأن توزع عليهم الخبام ، وأن يُطعموا مجاناً ، حتى يتمكنوا من الإبحار إلى الغرب ؛ وأمر بنقل عدد كبير منهم إلى الاسكندرية للتعجيل بترحيلهم . ولكن اعترضهم هناك كذلك كل أنواع العقبات ؛ إذ رفض قادة مراكب جنوة ، وبيزه ، والبنديقية أن يقلّوا إلى أوروبا إلا الذين يدفعون أجراً السفر ، ويترودون قبل ركوبهم بما يكفيهم من الأطعمة طوال مدة الرحلة . وحسب العادة حينما جاء قادة السفن يطلبون من حاكم الميناء أن يردد إليهم دفة السفن ، دهش الأخير من قلة عدد فرنجة القدس العائدين إلى بلادهم بين الركاب رغم طول انتظارهم السفر ، فتجروا البحارة بالردد بأن أولئك الذين يتذرونهم على اليابسة هم من الفقراء ، وليس بمستطاعهم أن ينقلوهم مجاناً ؛ وطبعي أن أقل حزمة من التوابيل هي أكثر مواءمة لمصلحتهم . عندها اضطر الموظفون المسلمين أن يزودوا أولئك الفرنجة بالمؤن من وجدوا أماكن للركوب ، وإلى إصدار أوامرهم إلى قادة السفن بعدم إنزال أولئك العتقاء الذين غلدوا في ذمة المسلمين إلا في موانئ فرنسا وإيطاليا تحت طائلة مواجهة الغضب الحق لصلاح الدين ..

«سيف الإسلام» يعيد سلطة المسلمين على القدس

وحينما غادر الفرنجة القدس دخلها صلاح الدين دخولاً رسميًّا ، وهرع المبعوثون من جميع أنحاء الشرق لتهنئته بالنصر على الفرنجة وليحيوا في شخصيه «سيف الإسلام» . وبعد انقضاء أيام الاحتفالات والمهرجانات أعاد سلطة المسلمين على القدس . ودفع المسيحيون الذين اختاروا البقاء في المدينة الجزية التي تحقق لهم الأمن ، ونظم الفقيه الشهير عيسى وضع الأقليات الكاثوليكية المختلفة . ورخص لأربعة كهنة من كنيسة القيامة بالبقاء في القدس دون دفع أية جزية أو ضريبة^(٤) .



حواشی الفصل الخامس عشر

١— عنوان الفصل في النص الفرنسي هو سقوط القدس، لأن تحرير القدس من وجهة نظر الغرب على يد صلاح الدين أكبر خسارة عرفها طوال مرحلة الحروب الصليبية.

٢— تلك هي عهدة عمر أو كتاب الصلح الذي أعطاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لأهل إيليا (البيت المقدس)، لا ما ورد في النص الفرنسي المُرَبِّع: «عن خالد وعبادة، قالا: صالح عمر أهل إيليا بالجایة، وكتب لهم فيها الصلح لكل كُورة كتاباً واحداً، ماحلاً أهل إيليا».

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان؛ أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائهم وصلبانهم، وسقيمهما ويربعها وسائر ملتها؛ أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيّرها، ولا من صليبيهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكنوا بأهل إيليا معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المذاهب، وعلّمهم أن يترجوا منها الروم والصلصوت؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماليه حتى يبلغوا مأomenهم؛ ومن أقام منهم فهو آمن؛ وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية، ومن أحبّ من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماليه مع الروم وتخلّي بيتهما وصلبيهم فإذا تم آمنون على أنفسهم وعلى بيتهما وصلبيهم، حتى يبلغوا مأomenهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادهم؛ وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان. وكتب وحضر سنة خمس عشرة. (الطبراني ج ٣ ص ٦٠٨ - ٦٠٩).

فاما سائر كتبهم فعل كتاب لـد. بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لـد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائهم وصلبانهم وسقيمهما ويربعهم وسائر ملتهم؛ أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيّرها ولا ملّها، ولا من صليبيهم

ولا من أموالهم، ولا يُكرون على دينهم؛ ولا يُضار أحد منهم؛ وعلى أهل لذ وَمَنْ دخل معهم من أهل فلسطين أن يُعطوا الجزية كما يعطي أهل مداشر الشام، وعلهم إن خرجن مثل ذلك الشرط إلى آخره». (الطبرى ج ٣ ص ٦٠٩ - ٦١٠).

٣ - ذكر تحرير القدس الشريف حرسها الله تعالى نقلًا عن كتاب التوادر السلطانية لابن شداد:
«ولما تسلم عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد والاجتهد في قصده، واجتمع عليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد انقضاء لبانتها من النهب والغارة، فسار نحوه معتمداً على الله، موضعاً أمره إليه، متربزاً فرصة فتح باب الخير الذي حُثّ على انتهائه إذا فتح، بقوله عليه السلام: «من فتح له باب خير فليتبرزه، فإنه لا يعلم متى يغلق دونه».

وكان نزوله عليه يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ثلاثة وثمانين المباركة، فنزل بالجانب الغربي، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيالة والرجال، ولقد تجاوز أهل الخبرة عدة مَنْ كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفاً ماعدا النساء والصبيان.

ثم انتقل - رحمه الله - لصلحة رأها إلى الجانب الشمالي، وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب، ونصب عليه الجانبي، وضايقه بالرمح والقتال وكثرة الرماة، حتى أخذ القب في السور مما يلي وادي جهنم في قرية شمالية.

ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لا يندفع عنهم، وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل وكان قد ألقى في قلوبهم الرعب بما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر، وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ، علموا أنهم إلى ما صاروا إليه صارون، وبالسيف الذي قتل به إخوانهم مقتولون، فاستكأنوا وأخلدوا إلى طلب الأنماط، واستقرت القاعدة بالراسلة بين الطائفتين.

وكان تسلمه القدس - قدس الله روحه - في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المراج المتصور علىها في القرآن الحيد، فانتظر إلى هذا الاتفاق العجيب كيف يُسر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيهم ﷺ إليه، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى، وكان فتوحاً عظيماً شهد من أهل العلم خلقاً عظيم، ومن أرباب الخرق والطرق؛ وذلك أن الناس لما بلغتهم ما يُسر الله على بدء من فتوح الساحل، وشاع قصده القدسي قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتختلف معروف من الحضور، وارتفاع الأصوات بالضجيج والدعاء والتليل والتكبير، وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه وحطّ الصليب الذي كان على قبة الصخرة، وكان شكلاً عظيماً، ونصر الله الإسلام نصر عزيز مقدار.

وكانت قاعدة الصلح أئم قطعوا على أنفسهم: عن كل رجل عشرة دنانير، وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية، وعن كل صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً، فمن أحضر القطعة سليم بنفسه، وإلا أخذ أسريراً. وفُرج الله عن كأن أسريراً من المسلمين، وكانت خلقاً عظيماً، زهاء ثلاثة آلاف أسير.

وأقام - رحمه الله - بجمع الأموال ويفرقها على الأماء والعلماء، وإيصال من دفع قطيعته منهم إلى مأمهـة وهو

صور

ولقد بلغني أنه — رحمة الله عليه — رحل عن القدس ولم يبق له من ذلك المال شيء، وكان مائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار، وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامسة والعشرين من شعبان سنة ثلاثة وثمانين وخمسة وأربعين. (ابن شداد: التوادر السلطانية ص ٨١ - ٨٢).

٤ — موقفان متعارضان ما بين سقوط القدس وتحريرها :

إن ما بين سقوط القدس بيد الصليبيين وتحريرها على يد العرب المسلمين، بوناً شاسعاً ما بين موقف الصليبية وأساسها الممجحة والقتل، والموقف العربي الإسلامي المتسق بالإنسانية والسامع .. ولا يسعنا تجاه هذه الرحمة والنبل الإنسانيين اللذين عامل بهما صلاح الدين الفرنجية، إلا أن نقف على مأساة سقوط القدس وبمحنة المسجد الأقصى التي ارتكبها الصليبيون ناقلين وقادلها عن مؤرخ الحروب الصليبية الباحث ستيفن رسيمان، الذي قال :

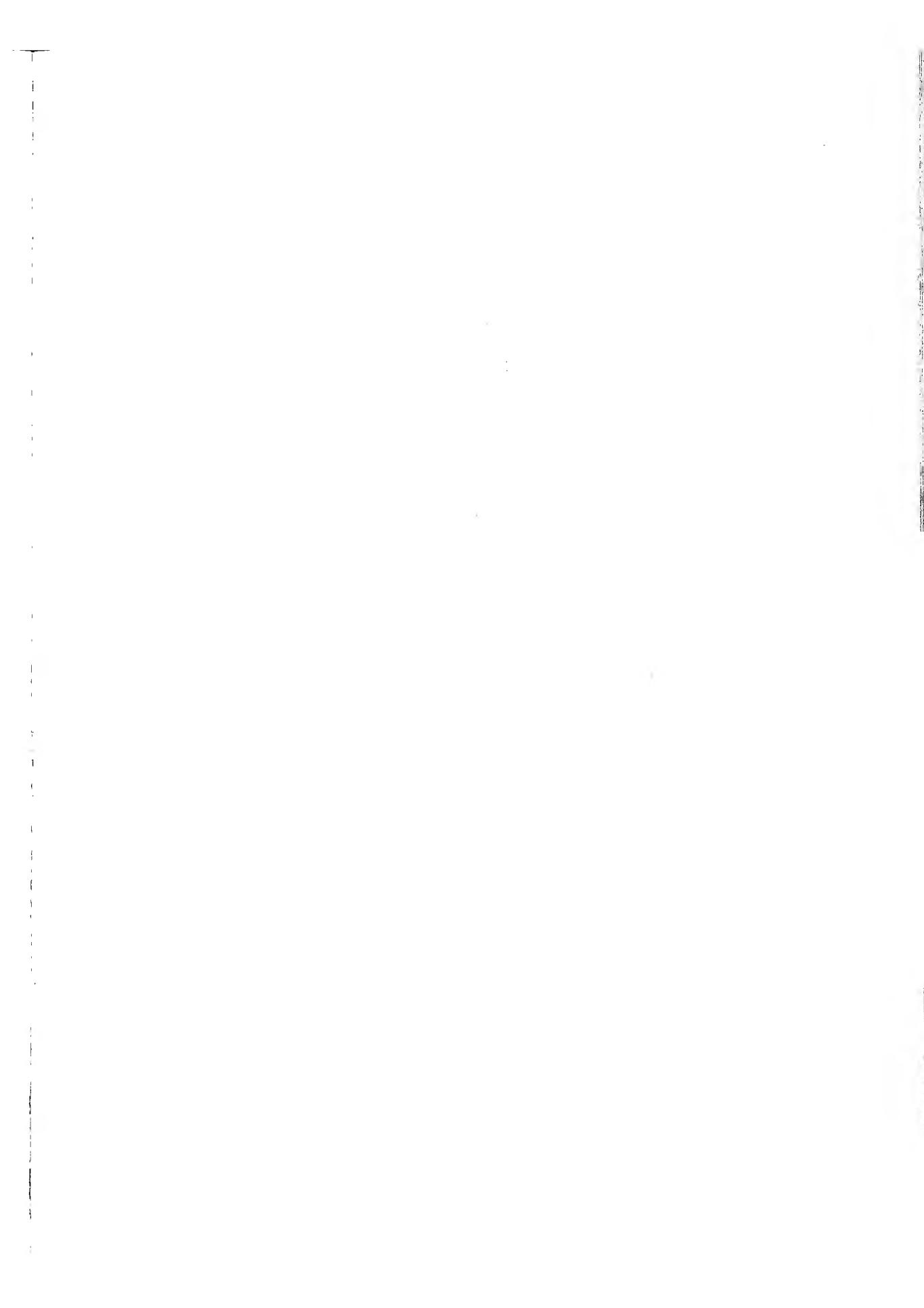
« ولما تبين لل المسلمين انهيار أسباب دفاعهم ، ولوا الأدباء نحو الحرم الشريف ، ساحة المعب ، حيث قامت قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، وقد وطدوا العزم على أن يتخذوا من المسجد الأقصى مقلتهم الأخير ، غير أنه لم يكن لديهم من الوقت ما يكفي لأن يجعلوه صالحاً للدفاع . على أن تانكرد انقض عليهم ، أثناء احتشادهم بداخل المسجد وفي أعلىه . فبادروا بالتسليم والإذعان له ، ووعدوا بأن يذلوا له فدية كبيرة ، وأخذوا علمه ورفعوه فوق المسجد ... ».

وبتابع الباحث ، ذكر المنحة التي اقرفها الصليبيون قائلاً :

« على أنه لم ينج من المسلمين بحياتهم إلا هذه الفتلة القليلة . إذ إن الصليبيين ، وقد زاد في جنونهم ما أحرزوه من نصر كبير بعد شقاء ، وعناء شديدين ، انطلقا في شوارع المدينة ، وإلى الدور والمساجد ، يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والنساء دون تمييز . استمرت المنحة طوال مساء ذلك اليوم ، وطوال الليل . ولم يكن علم تانكرد عاصماً للالجئين إلى المسجد الأقصى من القتل . ففي الصباح الباكر من اليوم التالي ، اقتحم باب المسجد ثلاثة من الصليبيين ، فأجهرت على جميع اللاجئين . وحينها توجه ريوند آجيل في الضحى ، لزيارة ساحة المعب ، أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه ».

وفرّ يهود بيت المقدس جميعاً إلى معبدهم الكبير ، غير أنه تقرر إلقاء القبض عليهم ، بموجة أنها ساعدوا المسلمين ، فلم تأخذ بهم الرحمة والرأفة ، فأشعلا النار في المعبد ، ولقي المهد بداخله مصرعهم مختنقين .

وتركت ملحمة القدس أثراً عميقاً في جميع العالم . ليس معروفاً بالضبط عدد ضحاياها ، غير أنها أدت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود . (ستيفن رسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج ١ من ٤٠٣ - ٤٠٥).



الفصل السادس عشر

كونراد دي مونفرا .. الخصم النّد لصلاح الدين

صور ودعم تحصيناتها ، وأسوارها الحصينة

إن صور التي كانت فيما سلف مدينةً متربةً ، والتي وصف حرققال هيمنتها ، وكيف أُسّس تجارها مصارف بلغت من البعد أعمدة هرقل حتى إنها — حسب رأي المؤرخ بلين — أُسّست امبراطورية حول قرطاجة ،.. إن صور تلك لم تبق اليوم سوى مجرد قرية كبيرة يشير اسمها وحده ذكرى ماضيها المهيّب . وكانت ماتزال في عهد صلاح الدين مدينة ذات ترف أسطوري حسب أقوال ابن جبير ؛ وقام حاكمها كونراد دي مونفرا بمضاعفة السور الثلاثي لتحقّصيناتها ، وبإعلان أبراج حصينها : الحصن الصيداوي والحسن القديم الذي ما تزال أركانه العملاقة تدهش حتى يومنا الراهن المختصين بهذا النوع من الأعمال ، وخزن فيها أكداساً من المؤن ، وملاً أحياها ذخائر ، وعُود سكانها والجنود متاعب الحراسة .

محاصرة صور برأ وجهراً

ولما ظهر صلاح الدين أمام المدينة في ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١١٨٧ استنتاج بأنها لا تؤخذ برأً وأن الوسيلة الوحيدة الكفيلة بإخضاعها هي إجاعتها بإغلاق المنفذ الوحيد الذي

كانت تستقبل منه الإمدادات والمؤن ، أي المنفذ البحري ، فقرر محاصرتها ، وجهز لذلك أربع عشرة سفينة من ذوات الأشرعة والجاذيف معاً ، مسلحة بالخطافات لتعلق بالجدران ، بهدف النزول ، ومزودة بالحارق لإحراق مراكب الأعداء . ومرّ هذان الأسطول الإسلامي القادم من مصر أمام ميناء المدينة البحرية الكبرى ، وبحث عن نقطة ضعف في التحصينات البرية ، ولكنه لم ينجح في أن يستحوذ عنوة على ممر جنوده فأذعن للواقع .

دفاع المهاجرين المستميت عن صور

كان المهادون يدافعون كالمجانين والنساء يساعدون الرجال حاملات القذائف وقوارير النفط والأغذية حتى الأسوار ، وأقسم كونراد دي مونفرا بالكتب المقدسة بآلا يدع مسلماً واحداً يدخل المدينة حياً ، وظل متمسكاً بوعده . فكانت الهجمات الإسلامية ترد على أعقابها الواحدة تلو الأخرى دون أن تسبب للفرنجة خسائر ذات بال ، فلم تهن معنوياتهم أو تضعف .

ظهور جيش إسلامي جديد أمام صور

وطلب صلاح الدين من ولده الملك الظاهر الموجود في حلب الشخصوص لينضم إليه تحت أسوار صور مع قوات جديدة من قبائل شمالي سوريا وسنجران . ومرّ شهران على بدء الحصار حين ظهر جيش إسلامي جديد أمام صور ، وبدأ الفرنجة يقلقون للانعطاف السريع الذي بدأت رياح الأحداث تهب باتجاهه .

خدعة كونراد دي مونفرا الناجحة

ولم يلبث كونراد دي مونفرا أن اكتشف البوادر الأولى لفقدان شجاعة رجاله . ولكن يعيده إليهم الثقة في أنفسهم عمد إلى حيلة نجحت كل النجاح : كان في صور شاب مسلم هارب من حرم أهله (لأنه أهان أباه) فارتدى عن دينه ، فطلب منه كونراد أن يبعث رسولاً إلى أبيه الضابط في الجيش الإسلامي يطلب منه الصفح ، وأنه سيزوده مقابل عفوه عنه بمعلومات عن الوضع المادي والمعنوي للفرنجة المهاجرين في صور . فقام الرسول ب مهمته تلك خير قيام . وحسب ما رواه ، فإن المهاجرين داخل صور البائسين للغاية سوف يهربون ليلاً على المراكب

متخلين عن صور وثرواتها . وكان هذه الأخبار تأثيرها في نفوس المسلمين . وقام أمراء صلاح الدين بتبعةٍ نخبة من جنودهم في السفن الأربع عشرة التي كانت تروح وتتجيء أمام الميناء؛ وحينما حلّ ظلام الليلرأى المسلمون فعلاً أن الفرنجية يحتشدون في الميناء صارخين صاصسين يتدافعون بغية الحصول على مكان في المراكب التي كانت سترحل بهم ، وكانت القوات الفرنجية تختبئ في بيوت المدينة ، وحينما بدأت أشعة الفجر الأولى خفضت السلسلة التي كانت تسدّ الميناء ، وتوقف الصخب واختبأ أولئك الذين كانوا سيحررون في أي مكان متاح لهم . وفي الحقيقة أصبحت صور فجأة مدينة خالية . وقد أفرج هذا الأمر رجال الاستطلاع اليقطين على سفن صلاح الدين التي لم تثبت أن دخلت الميناء ، بسرعة زاد في الجرأة عليها عدم رؤية المسلمين أي أثر للحياة . ولكن ما إن صار الأسطول كله داخل الميناء ، وقبل أن تطأ قدم واحدة الأرض أمر كونراد دي مونفرا بعد السلسلة الكبيرة التي أغلقت منفذ الميناء ، وظهر رجاله من كل مكان وراحوا يقفزون إلى سفن المسلمين الذين كانوا يحاولون النزول في فوضى كبرى . ويكتب أحد المؤرخين المعاصرین: أن الفرنجية صعموا السفن الإسلامية والمراكب التي كانوا أعدّوها هم أيضاً وأصبح البحر أحمر من دم القتلى . وطارد كونراد السفن الباقية واشتict معها بمعركة رهيبة . وكان بعض المهاجمين يخرجون إلى البر سباحةً . كان ذلك في ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) ١١٨٧ .

صلاح الدين يرفع الحصار عن صور

وكانت الأمطار البالغة الغزارة قد بدأت ، وكالعادة رفع صلاح الدين الحصار عن صور في فصل الشتاء ، وأجاز جنوده ليسريجوا في بيوتهم . وعاد أخوه العادل إلى مصر وولده الظاهر إلى حلب . أما هو فنصب خيمه الشتوي في عكا حتى شهر آذار (مارس) ١١٨٨ . واستقبل نباً فشل صلاح الدين في صور بفرح غامر لا يمكن تصوّره في سائر أرجاء المجتمعات المسيحية في الشرق ، مثلما كان وقع سقوط القدس محناً .

صور قاعدة الفرنجية الحصينة وبواحة الحملة الصليبية القادمة

واستطاعت المسيحية أن تثبت على الشاطئ اللبناني في أفضل مواقعها الاستراتيجية ، لتغدو بفضل كونراد دي مونفرا الداهية والمقاتل الحقيقي .. قاعدة حصينة لإعادة الغزو ،

وسيكون بمقدورها أن تستقبل ملوك الصليبية وجيوشها القادمة من سائر بلاد الغرب ، وكذلك أن تجلب المؤن والذخائر ، وسيكون بالمستطاع بفضل تلك المدينة ، صور وشقيقها عكا استعادة الشاطئ الفلسطيني ، وأن تركز القوى في مملكة آمورى دي لوزينيان .. وستكون صوراً منعطفاً خطراً في تاريخ الأيوبيين ، لأن فشل صلاح الدين أمامها كان حساساً للغاية ، فيما أنه كان مع أمرائه — يستعد للعودة للقتال ، وتجهيز حملات عسكرية جديدة في الربع القادم ، كانت أوربا في الطرف الآخر من البحر تنظم نفسها ضد تهديد الإسلام ، وتشكل فرقة جديدة ، وتقيم ضد صلاح الدين تحالف الأعظم من القوى ، التي ستصطدم أمواجهها على أراضي الشرق الأوسط .

الفصل السابع عشر

صلاح الدين يعمل على إلقاء فرنجة المشرق في البحر

الدعوة إلى الجهاد واستئناف القتال

ومنذ مطلع آذار، عاد صلاح الدين إلى القتال، فحاصر من ٢ إلى ١٢ منه كوكب (قصر بلفوار) العائد إلى الاستباريين والمنتصب عمودياً على علو ثلاثة متر فوق وادي نهر الأردن عند خروجه من بحيرة طربة. وكان العرب يطلقون عليه اسمًا شعريًا هو «قصر نجمة الرياح»، ولم تثبط همة صلاح الدين بقايا البرد والأمطار الطوفانية، ولكن الحاصرين صمدوا، وكان لديهم الكثير من المؤن والعتاد. فعدل صلاح الدين عن متابعة الحصار ويم وجهه نحو دمشق، التي بلغها في ٥ أيار (مايو) ١١٨٨، وفيها أعدّ العدة آخذًا أهله لإلقاء الفرنجة المشرقيين في البحر. وبعث من هناك الرسل حتى تחום صحاري ما بين البحرين داعيًا جميع الرجال النادرين على حمل السلاح إلى جهاد جديد. فسار عماد الدين والمظفر إلى حلب بجيش حشد من الموصل؛ وفي ٣٠ أيار (مايو) ١١٨٨ بدأت معركة جديدة، فظهر صلاح الدين أمام قلعة الاستباريين الشهيرة بمحصن الأكراد؛ المشرفه على سهل واسع يمتد حتى البحر، وذات الموقع الممتاز على سفوح جبل لبنان بين حمص وطرابلس، وكان مؤخر العصر يشبهونها بالشجأ الناشب في حلق المسلمين. ولعجز صلاح الدين عن احتلال هذه القلعة —

التي ماتزال تعتبر مثالاً جيّلاً للبناء العسكري لدى الصليبيين أمر بنهب أراضي الكونت دي بوهيموند المشهورة بغلاتها من القمح والزيت والنبيذ ، والتي كان غزوها يعود دائماً بغلال وافرة وموارد ممتازة .

سقوط طرطوس

وظهر صلاح الدين في مطلع تموز (يوليو) ١١٨٨ أمام طرطوس . فاضطراب سكان هذه المدينة المهيّبة بأبنيتها الفخمة التي شيدتها الفرنجية ، وكنسستها الجميلة التي يعود تاريخها إلى القرن الثاني عشر ، وبادر لمحاصرتها ، وقد الهجوم بنفسه ، ففتح ثغرة عبر منها إلى داخل المدينة ، وطارد الحامية التي لجأت إلى البرجين اللذين يؤلفان جزءاً من تحصيناتها الصغيرة .

ولم يستغرق احتلال طرطوس — حسب قول بهاء الدين رفيق صلاح الدين بالسلاح — سوى الوقت اللازم لنصب الخيام خارجها . ونبت جميع بيوت المدينة ، وغنم المسلمون غنائم وافرة . إذ قال السلطان : ستعشى الليلة في طرطوس فجلب له كبار طهاته طعام الأعداء . فدكّت الأسوار وهدمت الكنيسة رأساً على عقب . وأحرقت المدينة ، وبعد أعمال النهب أتت النيار في لحظة على جميع منازلها . وبقي البرجان وحدهما قائمين ، فاستولى صلاح الدين بيسير على أحدهما ، وصمد الآخر لأن بناءه كان الأفضل ، ولأنه أحاط بخندق واسع أترع ماء ، وزود بالآلات ضخمة للحصار كانت ترمي المهاجمين بحجارة ضخمة جداً ، وكان يدافع عن هذا البرج حاكم المدينة وضباطها الأساسيون وخيرة فرسان المنظمتين المستميتين الذين لجؤوا إليه ، فصمدوا أمام هجمات المسلمين ، حتى يئس صلاح الدين من الاستيلاء عليه .

سقوط بانياس وجبلة واللاذقية

وتابع صلاح الدين مسيرته على طول الساحل فاحتلّ بانياس وجبلة في ١٦ تموز (يوليو) وبقيت اللاذقية وحدها ؛ فعسكر بعد أسبوع أمام أسوارها فظلت موصدة الأبواب دونه ؛ لكنه هاجمها هجوماً عنيفاً وتمكن من دخوها حيث دارت في شوارعها معارك ضارية دامت عدة ساعات . وأمن له تفوقه العددي النصر . ونبت اللاذقية مثل طرطوس ، وبقي حصنها وحده صامداً بعض الوقت ، ولكن الحامية لما رأت عنف الهجوم الإسلامي ، وتأكد لها عقم المقاومة التي ستنهار — لا رب — فضلت الاستسلام . وسمح صلاح الدين للمدافعين

بأن يخرجوا مع عائلاتهم وأموالهم . ولم يدعوا غير مدخلاتهم من القمع وأسلحتهم . وفي آخر النهار رفقت راية المسلمين الظافرة فوق أسوار القلعة . ولم تهض اللاذقية أبداً من الدمار الذي خلفه فيها صلاح الدين ؛ يقول أبو شامة مؤلف كتاب الروضتين «رأيت اللاذقية ؛ كانت مدينة عامرة بالمباني الجميلة ، وكان يصادف في كل مكان منها منازل من الحجر المنحوت وبابات من الرخام معقودة الأقواس . وكان لكل منزل حديقة ، وأسواقها واسعة ، لكن النساء هدموا المدينة ونقلوا البوابات الرخامية إلى قصورهم في سوريا الداخلية»^(١) .

ويكتب عماد الدين : «لقد رأيت هذه المدينة فيما مضى بعد فتح صلاح الدين إليها كانت مدينة في حياء عامرة بالمباني الفارهة ، الرحبة ، ولم يكن فيها منزل بلا حديقة ، ولا مكان غير مبني ، وكان يشاهد فيها في كل مكان منازل مبنية بحجارة صقيلة النحت وبابات رخامية متينة الأقواس وأسواق واسعة . فخبر جيشنا هذه المدينة المزدهرة ، وقضى على أبهتها واستولى القادة على ما فيها من رخام ونقلوه إلى منازلهم في سوريا»^(٢) .

الاستيلاء على حصن صهيون

وبعد استيلائه على اللاذقية ، أخذ صلاح الدين الطريق شمالاً قاصداً محاصرة انطاكية . واستولى على حصن صهيون الذي كان يحميه جغرافياً عدد من الأشاديد الموحشة العميقية . وكانت هذه الأعجوبة من البناء العسكري تخص الفرسان الإسبتارية ، وتعتبر متنعة على الفتح . وكان ثمة خندق محفور بالصخر عمقه ستون ذراعاً يجعل بلوغها مستحيلاً ، ناهيك من السور الثلاثي الذي يحمي القصر^(٣) . ومع ذلك ففي ساعة واحدة فتح الحصن . ويقول لنا بهاء الدين : «إن حماسة الجنود المسلمين كانت من الشدة بحيث استولوا داخل البيت على طعام كان الأعداء قد انتهوا لتوّهم من طبخه . «وكانوا يأكلون دون أن يتوقفوا عن القتال»^(٤) . ولما السكان إلى الحصن ، ولما استولى عليه صلاح الدين لم يطلق سراحهم إلا مقابل دفع عشر قطع ذهبية عن كل رجل وخمس قطع عن كل امرأة وقطعتين عن كل طفل ، كما جرى في القدس .

انهيار شبكة التحصينات الصليبية حامية مملكة انطاكية
وبعد أن ترك أمراء صلاح الدين حامية في صهيون استولوا على موقع صغيرة مثل

بكأس المبنية على إحدى ضفتي العاصي والشغور والعيد ، والفيحاء وبلاتانيس الواقعة على تل كاسيوس قرب الجبل الأقرع . كانوا يقولون إن هذه القلعة كانت تتصل بأحد موانئ الساحل بنفق يتسع لمرور خيال على جواده . واستولوا على سرمين وسرنون على مسافة مسيرة يوم تقريباً إلى الجنوب من حلب على طريق حماة ... وهكذا انهارت بوقت قصير هذه الشبكة من التحصينات التي أقامها الصليبيون لحماية مملكة انطاكية والحدود الفاصلة بين الممتلكات الفرنجية والولايات الإسلامية .

القضاء على أهم حصن الفرنجة الشمالية

وبحسب ماكتب بهاء الدين : «لم يبق لأمير انطاكية ، سوى ثلاثة حصون : قصیر كرسات وبغراش (غاستون) ودریساک ». وحيثما كان يظهر فرسان الإسلام كانت المدن تسقط كالثمار اليائعة . ففي برزية إلى الشمال الشرقي من أقاميا كانت الأمور أشد مشقة . فالفن والطبيعة تعاونا — كما يكتب بهاء الدين — ليجعلوا أخذها مستحيلاً^(٥) . كان ثمة تلال عالية ضيقة تؤلف خندقاً طبيعياً أو بالأحرى هوات عمقها خمسمائة وسبعين ذراعاً ، وسط هذا المحيط من التلال كانت تقوم صخرة بنيت على قمتها هذه القلعة التي تحمي منطقة أقاميا . ونظر إليها صلاح الدين عن كثب وقرر اقتحامها رغم معارضة أمرائه الذين كانوا يرون في ذلك مجازفة . ولكن صلاح الدين كان يرى أنه كلما كانت المهمة أشقة كان القيام بها أبجد . وانضم السلطان إلى جيشه ، وأمر بنصب الآلات ويصنع جسور من الخشب وسلم وقصفت القلعة عبئاً عدة أيام ، ثم أمر بإعداد كل مايلزم للهجوم ، وقسم قواته — طبقاً لطريقه تقليدية — إلى ثلاث فرق مهمتها القيام بالهجوم الواحدة تلو الأخرى . كان عماد الدين أمير سنجر يقود الفرقة الأولى ، والسلطان الثانية ، وابنه الثالثة وحالما أعطيت إشارة الهجوم ، عبر أمير سنجر الخندق على جسر من الخشب واقترب من سور ، وحاول تسلقه ، ولكن بعد محاولته عبئاً عدة ساعات ثبّت سلامه ، اضطر إلى التراجع . وجاء صلاح الدين ليحل محله فهجم شاهراً سيفه متقدماً جنوده صارخاً : «الله أكبر !» فردد صرخته الجيش كله ، وفي حملة لا تقاوم مرتدياً درعه الخفيفة اتقأه لرشق السهام المتساقطة من جميع الجهات ، كان صلاح الدين أول من وصل إلى السور وقفز داخل الحصن ، وأحاط به الفرنجة في إحدى اللحظات إحاطة جد قريبة ، ولدرجة تعرض فيها لخطر محقق ، لكن ماليكه خفوا لإنقاذه في الوقت

ال المناسب .— ويتبع مؤرخ صلاح الدين قائلاً .— « ولكل نفوس الما حاصرين الذعر والإعجاب معاً فجثوا على ركبهم طالبين الأمان ». .

وانتصر صلاح الدين مرة أخرى بتضميته وعناده مُعِرِّضاً عن نصائح أمرائه الذين بدت عليهم امارات الإعياء التي ستظهر عليهم بحدة فيما بعد ، وتفاديأ لما أحدثه في طرطوس من حرائق أراد صلاح الدين أن يوفر على المغلوبين مأساة جديدة ، فأمر بمعاملتهم برفق مطلقاً سراح حاكم القلعة ، ومرسلاً إياه — يصحبه سبعة عشر فارساً — إلى أمير انطاكيه . وانتقل محاصرة دريساك التي تشرف قلعتها على طريق القوافل الممتدة من حلب أكبر مدينة تجارية في سورية الشمالية . وقد أثنى بهاء الدين الذي شارك في هذه العملية على شجاعة الفرنجية — وهم بأغلبيتهم من صيادي السمك المتواضعين — الذين دافعوا ببسالة عن الموقع ، فكانوا يسدّون ثغرات الأسور التي فتحها المسلمون غير مكتفين بالسهام التي كانت تترنّق أجساد رفاقهم إذ كانوا تقريباً عزلاً بلا أسلحة وبلا دروع شبه عرايا ويشكّلون ما يشبه الجدار ، ويحملون حجارة كبيرة لسد ما يحدث من الثغرات في التحصينات ، وكلما قتل منهم واحد حل مكانه آخر متابعاً ما بدأه بعمله ، وهكذا تعرضوا للقتل بالسيف خلال ربع ساعة . وفي ١٦ أيلول (سبتمبر) ١١٨٨ سقطت دريساك بأيدي المسلمين . وبعد عشرة أيام جاء دور حصن بغراس للهيكلين ، ويقع في منتصف الطريق بين انطاكيه واسكندرون ، وكان موقعه يشرف على مرّ بيلان على الطريق الاستراتيجية التي تربط انطاكيه بالإمارة الأرمنية في كيليكيا . ومن هناك ، أرسل صلاح الدين عدداً من المالiks زرعوا الموت حتى أبواب انطاكيه . فطلب الكونت بوهيموند ، الذي أربعه هذا العدد من المهاجم ، هدنة . وكان البطريرك الذي كان يشاطره حكم المدينة يشاطره الرأي كذلك ، وحاول بدوره أن يتفاوض مع صلاح الدين ، بهدف إنقاذ ما يمكن إنقاذه بانتظار وصول المساعدات من الملك الفرنجية في الغرب . فعامل صلاح الدين المبعوثين معاملة حسنة ومنحهم هدنة مدتها سبعة أشهر ، بعد مساومات صعبة تتصل بمسألة دنانير .

سقوط الكرك وإعادة الاتصالات بين الشام ومصر

وبعدما قضى صلاح الدين خلال بضعة أيام على أشهر القلاع الصليبية سرّح قواته

وعاد إلى دمشق . وفيها بلغه خبر سار : إن قلعة الكرك التي بناها باباً لويوتي عام ١١٤٢ فوق جبل الثلج ، والتي كانت ترى منها على بعد ثمانية عشر كيلو متراً زرقة المياه الشديدة الصفاء للبحر الميت ، ... لقد سقطت أخيراً هذه القلعة بعد حصار حول كامل على يد شقيقه الملك العادل . وكان ذلك في تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٨٨ بعد أن تغلب الجموع على المدافعين عن هذه المدينة الصغيرة التي ازدهرت أياً ازدهار في العهد اليوناني ، والتي انطلقت منها روث المؤاية إلى بيت لحم حيث تزوجت بوز جد داود .

وبسقوط الكرك أعيدت الاتصالات بين مصر والشام . ولم يعد مستطاعاً قطع طريق دمشق — مكة على المسلمين الذين كُمْ أرغموا قبل ذلك على القيام بدورات كبرى على الطرق الصحراوية في الأردن ، بهدف الوصول إلى مكة اجتناباً لدفع الفديات والتعرض للمضايقات المزعجة . ولهذا استقبل نَبأ سقوط الكرك في كل ديار الإسلام كاستقبال نَبأ سقوط القدس ، وبالدرجة ذاتها من الابتهاج والمهرجانات . وينبئنا مؤرخ عربي معاصر أن جميع الدمشقيين الذين لم يتمكنوا من أداء فريضة الحج سابقاً بدؤوا يستعدون لأدائها الآن . ونظموا على أبواب دمشق أكبر قافلة للمؤمنين لم يشهد مثلها منذ زمن بعيد ، وقد أثلجت صدور الجميع وهو يشاهدون انطلاقها نحو المدينة المقدسة التي لم يقترب منها ذمٌّ قط .

سقوط صفد وكوكب

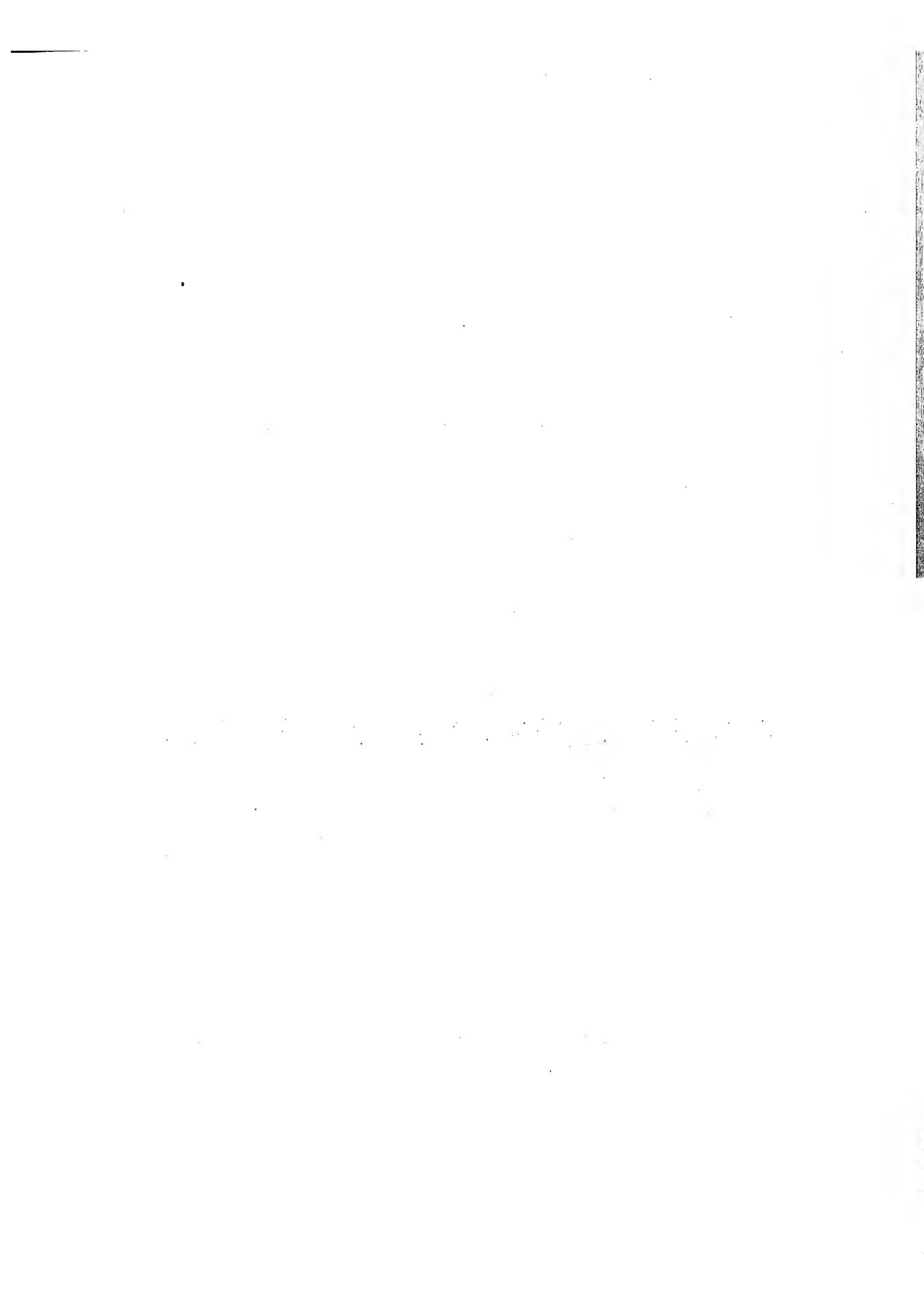
وفي تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٨ هاجم صلاح الدين صفد شمالي بحيرة طبرية ، وكانت مدينة صغيرة رائعة الجمال بمناظرها الموزعة على ثلاثة تلال وقلعتها المشرفة على منطقة بحيرة طبرية ، واستمر الحصار شهراً ، واضطرر السلطان نفسه أن يستثير الشجاعة المترامية لدى رجاله ، الذين كانوا يحاربون كجنود نظاميين لهم مرتباتهم المقررة لا غير .. وعرض نفسه للخطر وأسهم في الأعمال التي تطلبها إقامة الدبابات والمجانيف وقاذفات الحجارة والأبراج الخشبية المتحركة ، مصرًا على إخضاع هذه المدينة ، رغم الأمطار المستمرة التي أحالت الأرض مستنقعات ، صفد الشهيرة في تاريخ الآشوريين ، صفد التي شهدت تحت أسوارها زحف بيروي تغلات فلاسر ملك آشور . وفي ٦ كانون الأول (ديسمبر) ١١٨٨ أُلقت الحامية السلاح مستسلمة ، .. وقد صلاح الدين رجاله إلى كوكب ذلك الموقع الذي لم يستطع احتلاله

قبل عشرة أشهر ، رغم الطقس السيء ورغبة رجاله في نيل قسط من الراحة . وتمكن من دخول الموقع المُحصين بعد عدة أيام من المعارك الضارية تحت الأمطار الغزيرة الدائمة التهطل ، ووابل الحديد والرصاص والنيران الإغريقية . وفي ٥ كانون الثاني (يناير) ١١٨٩ رفرت ريايات صلاح الدين فوق بقايا هذه القلعة الأبية التي سمح لآخر مدافع عنها بالانتقال بحرية إلى صور ، كعلامة إكبار وإعجاب ببسالة أولئك المدافعين عن موئلهم ، واحتقارهم الموت وإصرارهم حتى النهاية على عدم الاستسلام .

وانتقل السلطان إلى القدس مع أخيه بعد أن أقام حامية إسلامية في كوكب (قصر بلفار) ، وتوجه من عسقلان إلى عكا التي أمر قراقوش — أمين المباني الرسمية ومعيد بناء قلعة القاهرة — بتفتيش تحصيناتها .

الأرض المقدسة مسرح الحروب المقبلة

وأخيراً في ٢١ آذار (مارس) وبعد أن سرّح حلفاءه من ما بين التهرين ، انتقل صلاح الدين إلى دمشق ، عاصمته الإدارية . والتي لن ينتح لها أن يتمتع فيها طويلاً بثار انتصاراته .. ذلك أن أوروبا التي أرهقتها مالحق بها من هزائم في الشرق الأدنى راحت تحشد جيوشاً متعصبة في جميع الأراضي المسيحية ، وتهزم الكثير من السفن في الموانئ ، لتقل هذه الجيوش نحو الأرض المقدسة التي انقلبت مسرحاً للكثير من المعارك .



حواشى الفصل السابع عشر

١ - جاء في كتاب الروضتين لأبي شامة نقلًا عن العmad الأصفهانى خبر وصول صلاح الدين إلى اللاذقية، وفيه وصف للمدينة: قلاعها وعماراتها... يقول:

«رجل السلطان إلى اللاذقية يوم الأربعاء الثالث والعشرين من جمادى الأول فبات بالقرب منها وصيحتها يوم الخميس، وقد لاذ أهلها بقلاعها، وهي ثلاث قلاع متلاصقات على طول التل، متناسقات كأنهن على رأس جبل راسخ، وذروة اسم شامخ. فسهل لنا فرعها، وشرعننا نستأصل أصلها وفرعها، فطلبو السنجق الناصري ونصبوا على السور عشية يوم الجمعة، فلما أصبحوا صعد إليهم قاضي جبلة وأنزلهم بالآستان، وتسللت تلك القلاع بما فيها من عدة وذخيرة، وأسلحة ومية، وخيل ودواب كثيرة. وأمنوا على أنفسهم وأموالهم، وانصرفوا بسائهم ورجاهم، وذريتهم وأطfaهم، وخفوا من أنقاضهم. ودخل جماعة منهم في عقد الذمة، وقسّموا بمثل العصمة. وانتقل الباقون إلى انطاكية. ثم ولّى السلطان بها مملوكه سقر الخلاطي، وركب السلطان إلى البلد وطافه، وهر إلى إحسانه أعظمه، وأمنه بعد ما أخفاه. قال: ورأيتها بلدة واسعة الأنفية، جامعة الأنبياء، متناسقة المغاني، متناسبة المعانى. في كل دار يستان، وفي كل قطر بنيان. أمكنتها غرمة، وأروقتها مرخمة، وعقودها محكمة، ومساكنها مهندسة مهندمة. وسقوفها عالية. وقطوفها دائنة، وأسواقها قصبة، وأفاقها مضدية. وأرجاؤها فسيحة، وأهواؤها صحيحة. لكن العسکر شعرت عمارتها، وأذهب نضارتها. ووقع من عدة من الأمراء الرخام، على الرخام، ونقلوا منه أحمالاً إلى منازلهم بالشام. فشوّهوا وجوه الأماكن، وحعوا سنا الحاسن. قال: وظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة، نفيسة قديمة، بأجزاء الأجزاء مرصعة، وبألوان الرخام مجربة، وأجناس تصاويرها متفرعة. وأصول تماثيلها متفرعة. وهي متوازنة الرواية، متوازنة البنایا. قد تغيرت بها أشباه الأشباء، وصوّرت فيها أمواج الأمواه. وما دخلها الناس أخرجوا رخامها، وشوهوا أعلامها، وجرروا ثمامها، وكسروا أجرامها. وأهدوا الأسى هذ أساسها، وأفاضوا عليها لباس إخلاصها، وحكموا بعد الغنى بإفلاتها، فأفقرت وأفقرت، وخررت وترث. ثم لما طابت النفوس، وتحلى عن البلد بفتحه البوس، عاد إلى هذه الكنيسة بالأمان القosois، وهي متشوهه متشوهة، متمسكة بأركانها ويعوّدها متتشيبة. قال: ولقد كثر أسفى على تلك العمارات كيف زالت، وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت. ولكن زاد سروري بأنها عادت للإسلام مرابع، ولشموسه مطالع. فلو بقيت بعليتها وحالتها، بعد ما تبدلت رشدتها

من ضلالتها ، لشافت وراقت ، وكما أفاقت فاقت . ورغم في أعطاء الجزية سكان البلد من النصارى والأمن حباً للوطن . ولا أراد السلطان الرحيل ، دخل المدينة ، ورث إلى سكانها السكينة ، ودار خلال ديارها ، وخرق أسواقها في سائر أقطارها ، ووقف على البحر للنظر إلى موانئها وشوانئها ، وألقاها وأدانيها ، وشكر الله على تمكينه من ملكها وبخصوصيه بملكها ». (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٢٨) .

٣ — وقد وصف العماد الأصفهاني الطريق إلى قلعة صهيون بقوله : « كان الطريق إلى صهيون في أودية وشعاب ، ومنافذ صعب ، وأوغاث وأوغار ، وأنجاد وأغار . فقطعنا تلك الطريق في يومين ، ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين ، وخيمنا على صهيون يوم الثلاثاء وهي قلعة على ذرة جبل بين واديين عميقين ، يلتقيان عليها ، ويدوران حولهما . والجانب الجبلي مقطوع منه بخندق عظيم عميق ، وسور وثيق ما إليه لسوى القضاء والقدر من طريق . والقلعة ذات أسوار خمسة كأنها خمس هضاب ، ممتدة بذباب سغاب ، وأسد غضاب . وأحاط العسكر بها يوم الأربعاء من نواحيها الأربع ، وهي ممتنعة علينا بالركن الأمن والسمو الأمنع ». (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٢٩) .

٤ — جاء في فتح صهيون نقاًلاً عن القاضي بهاء الدين بن شداد قوله : « ورحل السلطان عن اللاذقية ظهيرة الأحد المذكور طالباً صهيون المحرسة ، وكان نزوله عليها يوم الثلاثاء تاسع عشرین جمادی المذکورة ، واستدار العسكر بها من سائر نواحيها بكرة الأربعاء ، ونصب عليها ستة مناجيق ، وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل ، خنادقها أودية هائلة واسعة عظيمة ، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد ، مقدار طوله ستون ذراعاً ولا يبلغ ، وهو نقر في حجر ، وهو ثلاثة أسوار ، سور دون رَيْبيها ، سور دون القلة ، سور القلة ، وكان على قلتها علم طويل متصوب ، فجئن أقبل العسكر الإسلامي شاهدته وقد وقع ، فاستبشر المسلمون بذلك ، وعلم أنه النصر والفتح ، واشتد القتال عليهم من سائر الجوانب ، فضرروا ولده الملك الظاهر - صاحب حلب - وكان قد لحقه قبيل جَبَّلَة بمحفله وعسكره وحضر فتوحها ، وكان نصب على صهيون منجنيقاً قبلة قرنية من سورها قاطع الوادي ، وكان صائب الحجر ، فلم يزل يضررها حتى هدم من السور قلعة عظيمة يكن الصاعد في السور الترقى إليه منها .

ولما كان بكرة الجمعة ثالی جمادی الآخرة عزم السلطان - رحمة الله عليه - على الرجف ، وركب وتقدم ، وأمر المنجنیقات أن تتواءر بالضرب ، وارتفاع الأصوات ، وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل ، وما كان إلا ساعة حتى رق المسلمون على أسوار الأرض ، واشتد الرجف ، وعظم الأمر ، وهاجم المسلمون الأرض .

ولقد كنت أشاهد الناس وهو يأخذون القدور ، وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها وهو يقاتلون القلعة ، وانضم منْ كان في الأرض إلى القلعة وحملوا ما مُمكِّنهُ أن يحملوا من أموالهم ، ونهب الباقي ، واستدارت المقاتلة حول أسوار القلعة ، ولا عاينوا أهلًا استغاثوا بطلب الأمان ، ووصل خبرهم إلى السلطان ، فبذل لهم الأمان ، وأنعم عليهم ، على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم ، ويؤخذ من الرجل منهم عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة ، وعن الصغير ديناران ، وسلمت القلعة - والله الحمد - وأقام السلطان عليها حتى تسلم عدة قلائع ، كالعيندو ، وبالاطنس وغيرها من القلاع والخصون وتسلمهما السواب ، فإنها كانت تتعلق بصهيون ». (ابن شداد : النواود السلطانية ص ٩٠ - ٩١) .

٥ — فتح بريزنة نقاً عن القاضي بهاء الدين بن شداد .

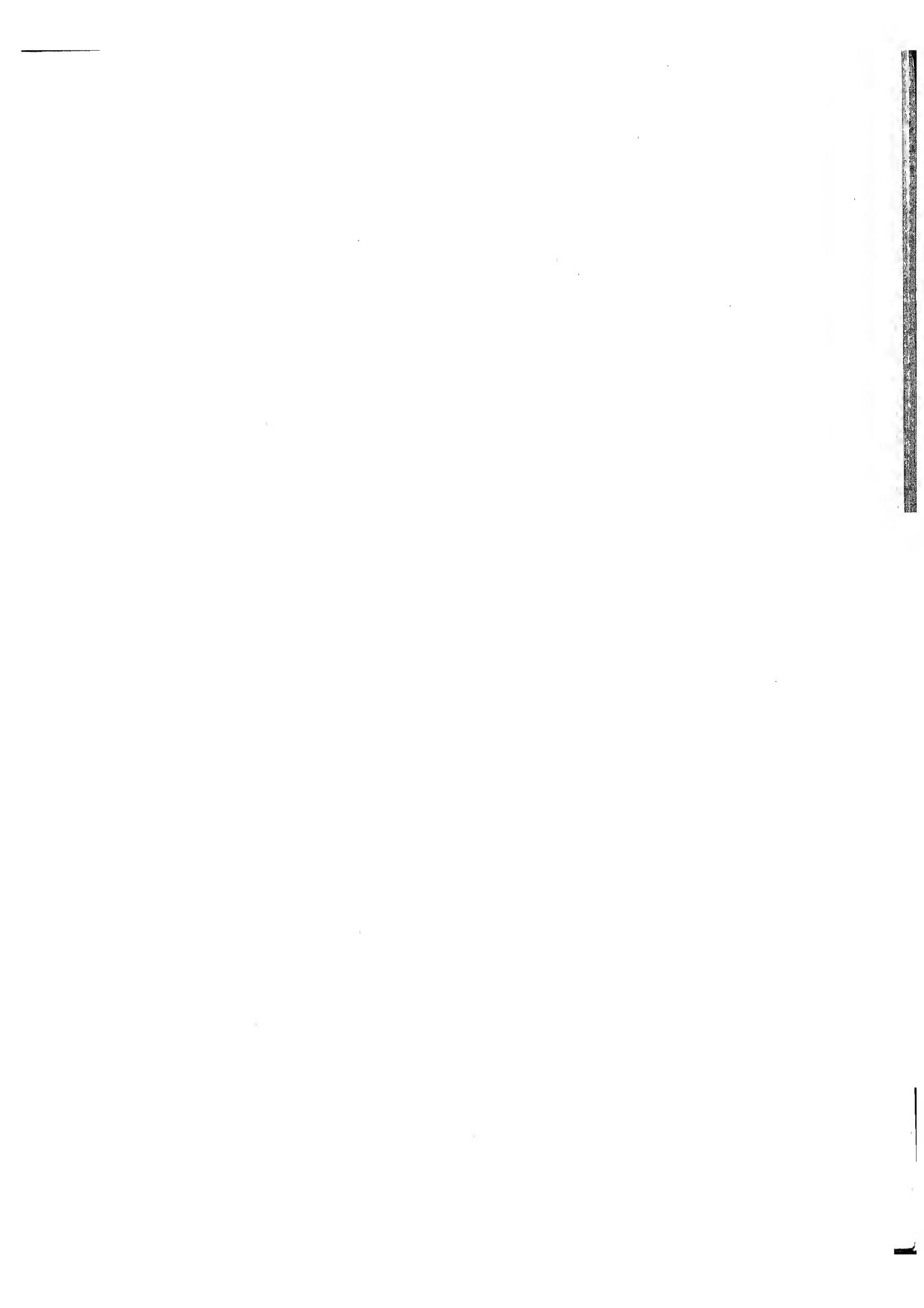
«ثم سير السلطان جريدة إلى قلعة بريزنة ، وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يُضرب بها المثل في جميع بلاد الإفرنج والمسلمين ، يحيط بها أودية من سائر جوانها ، وذرع علوها كان مخمسة ذراعاً ونيفًا وسبعين ذراعاً ، ثم جدد عزمه على حصارها بعد رؤيتها ، واستدعي التقل وكان وصول التقل وبقية العسكر تحت جبلها يوم السبت الرابع والعشرين من الشهر .

وفي بكرة الأحد الخامس والعشرين منه صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمجنحيات والآلات الحصار إلى الجبل ، فأحدق بالقلعة من سائر نواحها ، وركب القتال من كل جانب ، وضرب أسوارها بالمجنحيات المتواترة الضرب ليلاً ونهاراً . وقاتلها حتى كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين ، فقسم العساكر ثلاثة أقسام ، ورتب كل قسم يقاتل شطرًا من النهار ، ثم يستريح ويسلم القتال للقسم الآخر بحيث لا يفتر القتال عنها أبداً .

وكان صاحب التوبة الأولى عماد الدين — صاحب سنجار — قاتلها قتالاً شديداً حتى استوفى نوبته ، وضرس الناس من القتال ، وتراجعوا عنه .

واستلم التوبة الثانية السلطان بنفسه ، وركب وتحرك خطوات عدة ، وصاح في الناس ، فحملوا عليها حملة الرجل الواحد ، وصاحوا صبيحة الرجل الواحد ، وقصدوا السور من كل جانب ، فلم يكن إلا بعض ساعة حتى رق الناس على الأسوار ، وهاجوا القلعة ، وأخذت القلعة عنوة ، فاستغاثوا الأمان ، وقد تحكت الأيدي منهم « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأمسنا » ونبب جميع ما فيها ، وأسر جميع من كان فيها ، وكان قد آوى إليها خلق عظيم ، وكانت من قلاعهم المذكورة ، وكان يوماً عظيماً .

وعاد الناس إلى خيامهم غافلين بمحنة الله تعالى ، وعاد السلطان إلى التقل فرحاً مسروراً ، وأحضر بين يديه صاحب القلعة ، وكان رجلاً كبيراً منهم ، وكان هو ومن أخذه سبعة عشر نفساً ، فمن عليهم السلطان ورق لهم ، وأنفذهم إلى صاحب أنطاكية ، استهلاً له ، فإنهم كانوا يتعلمون به ومن أهله . (ابن شداد : التوادر السلطانية ص ٩٢ - ٩٣) .



الفصل الثامن عشر

تحالف أوريا المسيحية ضد الإسلام

أوريا والإعداد للحملة الصليبية الثالثة

لقد أقضت خسارة القدس المضاجع في جميع البلاطات الأوربية ، .. وبناءً على أمر كونراد دي مونفرا الذي تكشفَ في المناسبة عن مطامع سيؤكدها المستقبل ، قام بطريرك صور بعبور البحر لإطلاع قداسة البابا أوريانوس الثالث على المصيبة الكبرى التي حلّت بالنصرانية ؟ فأفسّهم هذا النبأ في التعجيل بوفاة الحبر الأعظم الذي أصيب بإصابة بالغة الخطورة ، فلم يقو على تحمل وقع ألم النبأ — الصدمة : « سقوط القدس » ، فمات بفراي في ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٧ وخلفه الراهب البندكتي غريغوريوس الثامن الذي أعد العدة ، منذ اليوم التالي لاعتلاء عرش البابوية ، للحملة الصليبية الثالثة . فتح جميع المسيحيين القادرين على القتال على حمل السلاح بغية خلاص الدين ! .. وأمر بالصوم والصلوة جهراً ، وأمر بهدنة إلهية أمدها سبع سنوات . وقد كتب لويس برهيه في كتابه (الكنيسة والمشرق في العصر الوسيط) : « وقد نذر الكرادلة أن يعيشوا على الصدقات ، وألا يركبوا الخيل قبل إعادة احتلال القدس ، وأن يطوفوا الدول المسيحية سيراً على الأقدام وهو يحملون الصليب . ولكن لم يكدر يمر شهراً على تتوّج البابا غريغوريوس الثامن حتى توفي ، وخلفه

كليمانس الثالث . فجدد الغفرانات والامتيازات التي منحها أسلافه للذاهلين إلى الأرض المقدسة .

وكان وعاظه يطوفون الممالك المسيحية يستنزلون اللعنات أمام مستمعיהם على صلاح الدين ، ويوزعون رسوماً تظهر القبر المقدس يدنسه جواد أحد المالكين والمسيح يسوقه محمد ، وكانت أخبار الآلام التي يقاسيمها الفرنجية في المشرق تحفر جموعاً لا تتحصى من المتطوعين . وخلع قساوسة وكهنة ورهبان مسوحهم الدينية ليتسربوا الدروع . وقرر كرادلة أن يسعوا إلى القدس سيراً على الأقدام وهم يستجدون الحسنات ، والامتناع عن بيع صكوك غفران الخبر الأعظم إلا لمبن تطوع صليبياً . وتلقى بطريقك صور والكاردينال هنري من البابا لقب مبعوثين مفوضين ، وبعد أن طافا إيطاليا وألقيا فيها الموعظ ، اجتازا جبال الألب ليثروا في فرنسا الحماسة ذاتها للحملة الصليبية الثالثة . ولكن الوضع السياسي في باريس كان عامضاً ، وأخذت مطالبات ملك إنكلترا بوراثة العرش تتسم بشيء من الواقحة . وكانت القضية على وشك أن يُحتمك فيها للسلاح ، وأن يتحقق ضررها الفادح بالملكتين معاً .

ملك فرنسا وإنكلترا يتسلمان الصليب من يد بطريقك صور

وحينما وصل مبعوثاً البابا المفوضان — وكان الناس ما يزالون يبدون كل تبجيل للكرسى الرسولي — قيل ملكاً إنكلترا وفرنسا أن يلقيا قرب جيزور في ٢١ كانون الثاني (يناير) ١١٨٨ لسماع رسالة الخبر الأعظم . واستطاع المبعوثان بكثير من الابلاقة التي روي بها معاناة مسيحيي المشرق أن يؤثرا في الملكين هنري بلاستاجني وفيليب أوغست حتى نسي هذان العاهلان خلافاتهما ، وتصافحا وتعانقا وهو يكيا ، وتسلماً الصليب من يد بطريقك صور . وحدت النبلة الحاضرة حذوها ، وكان صليب كل فريق بلون علمه ، الأحمر للفرنسيين والأبيض للإنكليز والأخضر للفلامانيين . وبدأت تتجتمع حشود الصليبيين الزاحفين من كل الجهات . وفرضت ضريبة خاصة لتأمين هذه الرحلة الضخمة هي ضريبة «العشر الصلاحديني» أو «الصلاحدينية» دون لفظة العشر . فقد تقرر أن يدفع كل من لا يحمل الصليب عشر وارداته كحد أدنى . واستثنى من هذه الضريبة بعض الجمعيات الدينية ، وحرّف قسم من وارداتها الاستثنائية عن غرضه الحقيقي . وتجدد النزاع بين ملكي إنكلترا

وفرنسا اللذين نسيا تدفق العواطف وحرّ القبلات والمصافحات، فانتزع فيليب أوغست بعض الواقع من الانكليز.

امبراطور جermania يحلم بانتزاع قصب السبق في المشرق

وبينما كانت هذه الأحداث تترى في فرنسا وإنكلترا—حسب ما وصفنا— كان امبراطور الامبراطورية البرمانية المقدسة فريدرريك الأول دي صواب الملقب بفريدرريك باربروس يحلم بأن يتترى في المشرق قصب السبق لشعبه. وكان الحظ قد أغدق عليه امتيازات متنوعة، فهو موطن الأمان في ألمانيا، وقد تزوج ملكاً على إيطاليا وبافيا كما توجه البابا أدريان الرابع امبراطوراً، فلدمـر ميلانو إنقاـماً من المدن اللومباردية التي سبق أن ثارت عليه. وأمضى شطراً من عهده في شجار مع الكرسي الرسولي. ومع ذلك لم يـلـي وهو في الرابعة والستين من عمره دعوة مبعوث البابا المفوض الذي جاء يقابلـه بعد لقاء جـيـزـورـ. وفي ٢٧ آذار (مارس) ١١٨٨ عـقـدـ في مايانـسـ اجـتمـاعـاً عـامـاً للـجـمـعـيـةـ الـوطـنـيـةـ (ديـتـ)، وـتـقـبـلـ الصـلـيـبـ منـ يـدـيـ أـسـقـفـ وـرـزـرـغـ بـخـصـورـ مـثـلـ جـيـعـ جـرـمـانـيـاـ الـتـيـ حـمـلـ زـعـمـؤـهاـ الـصـلـيـبـ عـلـىـ أـثـرـهـ:ـ اـبـنـهـ الثـانـيـ فـرـيدـرـيـكـ دـوـقـ دـيـ صـوـابـ،ـ وـلـيـوـبـولـدـ دـوـقـ التـمـساـ،ـ وـبـرـتوـلـدـ دـوـقـ مـورـافـيـةـ،ـ وـهـرـمـانـ مـارـكـيـزـ بـادـنـ،ـ وـكـونـتـاتـ تـورـنجـ وـهـولـنـداـ،ـ وـقـاسـاوـسـةـ بـيزـانـسـوـنـ وـكـامـرـيـ وـمـونـسـتـرـ،ـ وـفيـ يـوـمـ وـاحـدـ لـفـظـ فيـ مـاـيـانـسـ ثـلـاثـةـ عـشـرـ أـلـفـ نـذـرـ الـصـلـيـبـيـنـ.

باربروس يضع قواعد صارمة للحملة الصليبية الجديدة

وبـسـقـ فـرـيدـرـيـكـ أـنـ قـامـ بـرـحلـةـ إـلـىـ الـقـدـسـ بـصـحـبةـ عـمـهـ الـإـمـبـاطـورـ كـونـرادـ الـذـيـ اـشـتـركـ كـأـرـأـيـاـ فـيـ الـحـمـلـةـ الـصـلـيـبـيـةـ الـثـانـيـةـ،ـ فـكـانـ وـاسـعـ الـاطـلـاعـ عـلـىـ مشـقـاتـ السـفـرـ.ـ وـلـكـيـ يـتـفـادـيـ تـكـرـارـ الـفـوضـيـ وـالـمـصـاـبـ الـتـيـ سـبـقـ أـنـ شـهـدـهـاـ،ـ حـرـصـ عـلـىـ عـدـمـ إـهـمـالـ أـيـ شـيءـ فـيـ إـلـاـعـادـ هـذـهـ الـصـلـيـبـيـةـ الـجـدـيـدـةـ.

وـكـتبـ أـحـدـ الـمـؤـرـخـينـ:ـ كـانـ الـحـمـاسـةـ شـامـلـةـ بـالـغـةـ الـحـرـارـةـ،ـ وـلـكـنـ اـحـتـواـهـاـ الـمـلـوكـ،ـ وـسـعـيـ الـقـادـةـ قـبـلـ أـنـ يـنـطـلـقـواـ بـاتـجـاهـ فـلـسـطـيـنـ لـلـاتـفـاقـ مـعـ الـأـمـرـاءـ الـذـينـ سـيـعـبـرـونـ أـرـاضـيـهـمـ.ـ وـهـذـاـ مـاـ فـعـلـهـ فـرـيدـرـيـكـ بـارـبـروـسـ.ـ وـلـمـ يـشـأـ أـنـ يـصـطـحـبـ مـعـهـ سـوـيـ الشـيـانـ الـأـقـوـيـاءـ الـقـادـرـينـ عـلـىـ تـحـمـلـ مشـاقـ هـذـهـ الـرـحـلـةـ،ـ وـالـذـينـ يـحـمـلـونـ فـيـ أـكـيـاسـ نـقـودـهـمـ ثـلـاثـةـ مـارـكـاتـ مـنـ الـفـضـةـ كـحدـ

أدنى ، كما منع النساء من متابعة جيشه وإرماك جنوده وإضعافهم بالسير معهم إلى الأرض المقدسة كما حدث في الحملتين الصليبيتين السابقتين . ووضع قواعد بالغة الصرامة للانضباط والصحة . وبينما كان جيشه يتجمع شيئاً فشيئاً تحت أسوار رايتسبون أرسل مبعوثيه إلى سائر الملوك الذين سيعبر دوّلهم ليطلب منهم المعونة والحماية . فوعده ملك هنغاريا (البحر) بعدم اعتراض مسيرته وتمويل قواته . أما إمبراطور بيزنطية اسحق لانج ، وقلج ارسلان ملك ايقونية فقضلا ولاشقاً أن يريا على أية حال سيصل إلى ديارهما جيش فريدريك باربروس قبل أن يلتزما ، وترددًا قبل أن يتورطا ؛ لأن صلاح الدين لم يكن عظيم القوة وحسب ، ولكنها على الأخص جارهما .

امبراطور جermania يتوعد منذراً صلاح الدين

ودفع إمبراطور الإمبراطورية germania المقدسة الأمور بعيداً جداً . فقد توعد السلطان منذراً إياه بإعادة سائر الأرضي الفرنجية التي سبق أن استولى عليها . وأمام رفض صلاح الدين أعلن باربروس عليه الحرب دون أن يأخذ رأي مستشاريه . وفي هذا الإنذار الأخير الذي وجهه إلى صلاح الدين احتاط للأمور ، إذ ذكر أنه يعلن الحرب باسم الأباطرة الرومان . وهذا هو نص الرسالة حسبما أورده ماتيو باريس :

«من فريدريك إمبراطور الجermanيين الدائم العظمة المنتصر الأفخم على الأعداء . إلى صلاح الدين زعيم المسلمين ، بما أنك دنست أرضنا المقدسة ، فمن اهتمانا الإمبراطوري وواجبنا أن نعاقب مثل هذه القحّة .. ونعلمك أنه ما لم تُعد الأرضي التي هي فرنجية فسنسير إليك لنجرب ببركة الصليب حظّ السلاح معك . ولا بدّ أن التاريخ بقديمه وحديثه قد علمك بأن الآثويبيتين ، وموريانيا وفارس ، وسورية وبلاط البارتيين ويهودا والسامرة وببلاد العرب وببلاد الكلدان ومصر ، الخ ... هي أراضٍ تخضع لسيطرتنا . وإن سكان هذه البلدان يدركون ذلك ، فقد خُضبت سيفون الرومان بدماء ملوكهم وستفهم أنت نفسك قريباً ، وبالتجربة ما تستطيع أن تفعله نسورنا الظافرة وجحافلنا المؤلفة من شعوب مختلفة . وأنك ستبتلى بغضب أولئك التوتون الذين يحملون السلاح حتى أيام السلم ، وستعرف - بالتجربة التي ستدفع أنت ثمنها - سكان ضفاف الرين وشبيبة استيرية التي لا تعرف الضرىء أبداً ، وكذلك البافاريين وسكان الصواب الأئبين المراوغين ، وسكان فرنكونية والساكسونيين

الذين اشتهروا بلعبة السيف ، وشعوب التورنج ووستفاليه والبرابانسونيين واللورينيين الذين لا يعرفون لطعم السلم مذاقاً ، والبورغينيين الدائيي التوّب وسكان جبال الألب والفريزونيin البالة البارعين ، والبوهيميين الذين يجيدون لعبة الموت ضاحكين ، والبولونيين الأشرين من حيوانات غاباتهم ؛ والتساويين والأليزيين واللومبارديين ، وستعرف في اليوم الحدد لانتصار المسيح أننا مازال قادرين على امتشاق الحسام واستعماله ؛ وإن تكن الشيخوخة ، حسب زعمك ، قد صرعتنا»^(١) .

صلاح الدين يرد على تهديدات ملك جرمانيا

وبعد أنقرأ صلاح الدين هذه الرسالة بدا مهذباً مع سفير فريدريك باريروس الذي سلمه إليها ، كما لو أن حامل هذا الإنذار جاء يحدّثه عن طبق من راحة الحلقوم أو الكعك العسلي اللون ، أو عن آخر ما أبدعه شعراء أصفهان . ولكنـه كان متـفهمـاً جـيدـاً ، وحملـ السـفـيرـ فيـ الـيـومـ التـالـيـ جـوابـهـ مـصـحـوـبـاًـ بـهـدـاـيـاـ لـطـيفـةـ مـرـاعـةـ لـلـمـظـاهـرـ . وهذا هو الجواب :

«إلى فريدريك العظيم ، صديقنا المخلص ، ملك الأنـانـ .

بـسـمـ اللهـ الرـحـمـنـ الرـحـيمـ وـالـحـمـدـ للـلهـ الـواـحـدـ الـأـوـحـدـ ، الـمـتـصـرـ الـأـعـظـمـ ، الـصـمـدـ الـذـيـ لاـنـهـاـيـةـ مـلـكـهـ ، حـمـداـ أـبـدـيـاـ لـلـذـيـ أـسـبـعـ نـعـمـتـهـ عـلـىـ الـعـالـمـيـنـ ، إـيـاهـ نـدـعـوـ بـجـاهـ أـنـبـيـائـهـ ، وـخـاصـةـ صـاحـبـ شـرـيعـتـنـاـ نـبـيـهـ مـحـمـدـ ، الـذـيـ أـوـسـلـهـ إـلـىـ النـاسـ كـافـةـ .. بـشـيرـاـ وـنـذـيرـاـ ؟ وـانـ الـدـينـ عـنـدـ اللهـ إـلـاـسـلـامـ .

ليعلم الملك العظيم صديقنا المخلص ملك الأنـانـ ، أنه قد جاءنا رجل يدعى هنـري يزـعـمـ أـنـهـ سـفـيرـ وـقـدـ سـلـمـنـاـ رسـالـةـ يـقـولـ إـنـهاـ مـنـكـ ، وـقـدـ أـجـبـنـاـ بـصـوتـ جـهـيرـ عـلـىـ أـحـادـيـثـ . وإـلـيـكـ جـوابـ الرـسـالـةـ : إـنـكـ تـذـكـرـ أـسـمـاءـ مـلـوكـ ، وـأـمـرـاءـ ، وـكـوـنـتـاتـ ، وـبـطـارـكـةـ وـمـرـكـيـزـاتـ وـفـرـسانـ وـعـدـةـ شـعـوبـ سـتـهـاجـنـاـ مـعـكـ . فـاعـلـمـ أـنـ كـتـابـنـاـ هـذـاـ لـاـيـتـسـعـ حـتـىـ لـذـكـرـ أـسـمـاءـ جـمـيعـ الشـعـوبـ الـتـيـ تـتـأـلـفـ مـنـهـاـ مـالـكـنـاـ فـلاـ بـحـرـ وـلـاـ عـقـبةـ يـمـكـنـ أـنـ تـعـيـقـ زـحـفـهـمـ . إـنـهـ مـسـتـعـدـونـ لـلـسـيـرـ تـحـتـ رـايـاتـنـاـ . وـمـعـنـاـ الـآنـ جـنـودـنـاـ الـذـينـ اـسـتـولـيـنـاـ مـعـهـمـ عـلـىـ كـثـيرـ مـنـ الـبـلـدـانـ . وـإـذـاـ كـنـتـ عـازـماـ عـلـىـ الشـخـوصـ إـلـيـنـاـ بـكـلـ هـذـهـ الـحـشـودـ الـتـيـ سـمـيـتـهـاـ فـيـ رـسـالـتـكـ وـذـكـرـهـاـ لـنـاـ رـسـولـكـ فـإـنـنـاـ لـاـ لـخـشـاكـ وـسـوـفـ نـسـيـرـ لـلـقـائـكـ وـسـيـنـصـرـنـاـ اللهـ بـقـدـرـتـهـ الـعـظـمـيـ . وـعـنـدـهـاـ سـنـعـرـ نـحـنـ الـبـحـرـ وـنـزـحـفـ

لتدعير مملكتك . لأننا ندرك — لكي تخشد كل هذه الجيوش التي سميتها لابد أنك قد أفرغت ولاياتك من السكان ، ولم تُبق فيها مدفعاً واحداً ، ولن يحول أي شيء بيننا وبين أن نصبح سادتها ، بعد أن تكون قد سحقناكم في فلسطين كما سحقنا الذين سبقوكم بفضل الله الواحد الأحد . لقد هبّ الفرنجة مرتين لهاجمتنا في مصر ، مرةً في دمياط ومرةً في الإسكندرية ، وإنك لا تجهل ما أسفرت عنه نتيجة المعركتين . ومنذ ذلك الحين أذهب الله ريحكم وزاد في قدرتنا غوبتنا مصر وملك دمشق والقدس وحلب وسواحل سوريا ، وما بين البحرين وكثيراً من المناطق الأخرى . وبجميع الأمراء المسلمين هم إما عمالنا وإما رعايانا . وسائر السلاطين يطمعون أومرنا ، حتى لو طلبنا من خليفة بغداد أخذق الله عليه نعمه ، أن يقود جيشه إلينا لنزل عن عرشه العظيم ليسارع إلى ضم جهوده لجهودنا في الجهاد القدس . ولم يبق للفرنجة سوى ثلاث مدن هي : صور وطرابلس وانطاكية ، التي سنسير لتحريرها .

إذا أردت الحرب ، وإذا كتب الله لك المزية في لوجه المحفوظ فتقدم ونسير للقائل ، أما إذا أردت السلام ، فمُرّ حكام تلك المدن الثلاث بفتح أبوابها لنا ، وعلى أساس هذا الشرط نعيده إليكم صليبيكم ونحرر أسرامكم ونسمح لأحد قسمكم أن يقيم في كنيسة القيامة ، ونعيده إليكم أديرتكم ونحسن إلى رجال دينكم ونسمح لحجاجكم بزيارة المدينة المقدسة ونحافظ وإياكم على سليم لا يعكر .

إذا كانت الرسالة التي نقلها إلينا المدعو هنري صحيحة فليكن هذا هو جواب رسالتنا .

حرر في سنة ٥٨٤ للهجرة بنعمة الله الواحد الأحد . الصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين ، وعليكم سلام السلطان الأعظم المنتصر المدافع عن كلمة الحق ، زينة راية الإيمان صلاح الدنيا والدين ملك المسلمين ، حامي الحرمين الشرفين وبيت المقدس المشرف أبي المتصرين يوسف بن أويوب^(٢) .

ومن جديد أعلن الجهاد في الجماع في الجمعة ، فيما كانت ترتفع في كل مكان في المشرق صيحات العداء .

عقرية صلاح الدين السياسية ومعاهدة التحالف مع بيزنطية

كان عالمان يتأهبان للمواجهة ولتحمل تجربة رهيبة؛ ولكن عقرية صلاح الدين السياسية ستتيح له أن يحقق أعظم نجاح دبلوماسي في حياته: فمعاهدة التحالف التي وقعتها، بعيد انصراف سفراء فريدريك باربروس، مع إسحق لانج الإمبراطور البيزنطي والمسيحي العريق الذي بفضله انضمت بيزنطية إلى المسلمين عشية الحملة الصليبية الثالثة التي عمت مواضعها سائر أرجاء أوروبا.

حول سياسة إمبراطور بيزنطية اسحق لانج

ولنحاول أن نفهم شيئاً وسط هذا الغموض البيزنطي حوالي نهاية القرن الثاني عشر. كم من الدناءات. وبخداع أصحاب المواتير، ورجال السياسة الأحساء كانت تدار في محيط إمبراطور المشرق وحتى سريره. هذا الإمبراطور العديم الهمية وفائد روح الحياة. فعلمون أن المدعو ألكسي الثاني اعتلى عرش أباطرة بيزنطية منذ السنة الثانية عشرة من عمره، وحفلت السنوات الثلاث من ملوكه بـ『أمّهات، وشورات، الخصم، وبالطلعات الطامحة لأندرونيك كومين، الذي لم يلبث أن حل محله، ووطد نفسه لتنضم العرش عن طريق تسميم أفضل أصدقائه وباغتيال الذين يشك في ولائهم له.

ولم تبق الحياة الخاصة لهذا المجنون آثاراً مجيدة في مباحث حياة بيزنطية . ويروي مؤرخو سيرته أنه نهب كنوز المعابد والأديرة ، وأغتصب العذاري المكرّسات لله . وأن شخصاً بهذا القدر من القذارة ، قمين — لا ريب — بأن ينتهي نهاية بائسة ؛ فكان يعاني كوابيس الرعب في لياليه المؤرقـةـ بـذكـرى ضـحـايـاهـ . فـلـجـأـ إـلـى عـلـومـ السـحـرـ لـكـيـ تـحـمـيهـ مـنـ وـساـوسـهـ ، وـشـرـعـ يـسـتـطـقـ الـكـرـاتـ الـعـالـمـةـ وـكـتـابـاتـ الـحـزـفـ لـيـعـرـفـ اـسـمـ الـخـدـينـ الـذـيـ يـعـدـ الـعـدـةـ لـاغـتـيـالـهـ ، وـلـاـ أـبـلـغـهـ مـنـجـمـهـ أـنـ مـنـ يـنـشـدـ كـشـفـ اـسـمـهـ يـدـعـىـ اـسـحـقـ لـانـجـ ،ـ سـارـعـ إـلـىـ الـأـمـرـ بـسـجـنـهـ وـإـغـرـاقـهـ فـيـ مـيـاهـ الـبـوـسـفـورـ الـمـرـحةـ .ـ وـلـكـنـ اـسـحـقـ أـنـ يـعـذـبـ بـهـذـهـ السـهـولـةـ ،ـ فـبـلـأـ مـنـ أـنـ يـدـعـهـمـ يـضـعـونـهـ فـيـ كـيـسـ مـعـ حـجـرـ يـعـلـقـ بـعـنـقـهـ ،ـ طـعـنـ بـخـنـجـرـهـ الشـرـطـيـ الـقـادـمـ لـتـوـقـيفـهـ ،ـ وـرـاحـ يـعـدـوـ فـيـ أـرـقـةـ بـيـزـنـطـيـةـ خـاصـعـاـ لـفـكـرـةـ عـقـرـيـةـ ،ـ وـهـوـ يـصـرـخـ كـالـمـعـتـوهـ :ـ أـهـيـ النـاسـ اـتـعـالـوـ جـيـعـاـ لـقـدـ قـتـلتـ الشـيـطـانـ ،ـ وـأـسـتـطـعـ أـنـ أـرـيـكـمـ جـلـدـهـ .ـ فـتـجـمـعـ حـوـالـيـهـ النـاسـ الـبـسـطـاءـ ،ـ يـشـدـونـ أـزـرـهـ ،ـ وـعـمـتـ

صرخته المدوية أشلاء بيزنطية فانهزم فرصة ماقنع به من شعبية ، لإثارة الفوضى والفتنة ، ولم يكن الغسق قد صيغ بعد المياه المتوجهة التي تصل ما بين القارتين حتى كانت بيزنطية قد اخذت لنفسها سيداً جديداً معلنـة إمبراطوراً ذاك الذي آثر أن يتحدى سلطـان السلطة على أن يرى نفسه موضوعاً في كيس مع قطط جرباء .

وانقضـت الدهماء على أندرونيـك كومينـي الذي ألقـي عليه القبض وشدـ إلى عمود في صحن قصره ، وسلـت عيناه وقطـعت إحدـي يديه قبل أن يربط عارياً تماماً على ظهر حمار ووجهـه إلى الوراء .. وهكـذا طيفـ في بـيزنطـية بالإـمبرـاطـورـ الذي خـلـعـ الشعبـ عن عـرـشـهـ . ورجمـ بالـحجـارةـ وقـذـفـ بالـقاـذـورـاتـ وـقـواـيرـ الـزيـتـ الـمـغـليـ . وأـخـيرـاً عـلـقـ منـ قـدـمـيهـ وهوـ فيـ حـالـةـ الـاحـضـارـ ، وـثـرـكـ بـيـنـ أـيـديـ النـسـاءـ الـمـسـكـونـاتـ بـالـشـيـطـانـ ؛ اللـوـاتـيـ اـنـتـزـعـنـ أـعـضـاءـ التـنـاسـلـيةـ وـمـرـقـنـ جـسـدـهـ بـأـسـنـاهـنـ . وـنـقـراـ فيـ كـتـابـ تـارـيـخـ قـدـيمـ : لـقـدـ أـكـلـتـ هـذـهـ السـاقـطـاتـ فيـ خـضـمـ سـعـرـهـنـ لـحـمـ الـمـلـكـ التـعـسـ وـتـنـازـعـنـ إـرـيـهـ وـكـسـرـ ظـهـرـ الـمـحـضـرـ ، وـلـاشـيءـ يـمـكـنـ أـنـ يـصـورـ قـرـفـنـ أـمـامـ مشـهـدـ فـطـاعـةـ كـهـذـهـ . لـقـدـ وـقـعـتـ هـذـهـ الأـحـدـاثـ فيـ عـامـ ١١٨٥ـ . وـكـانـ قـدـ مـضـىـ سـتـانـ عـلـىـ اـعـتـلـاءـ اـسـحـقـ لـانـجـ عـرـشـ إـمـبرـاطـورـيـةـ الـبـيزـنـطـيـةـ حـيـنـاـ ظـهـرـ ، عـلـىـ حدـودـهاـ الـمـائـةـ أـلـفـ جـرـمانـيـ المـدـجـجـونـ بـالـسـلـاحـ ، الـمـتـقـدـوـ حـمـاسـةـ بـالـسـيـرـ وـرـاءـ فـرـيدـرـيكـ بـارـيـروـسـ ، وـالـذـينـ اـجـتـازـوـ أـورـيـاـ مـنـ الشـمـالـ إـلـىـ الـجـنـوبـ لـاـ يـحـلـمـونـ إـلـاـ بـالـمـعـارـكـ وـيـكـنـوـزـ الـأـرـاضـيـ إـلـاـ مـلـاـ مـلـاـ .

اسـحـقـ لـانـجـ يـنـحـازـ لـصـلـاحـ الدـيـنـ خـوفـاًـ مـنـ الـقـوـاتـ الـصـلـيـيـةـ

وفيـ الوقتـ ذـاـتهـ كانـ مـبعـوثـ صـلـاحـ الدـيـنـ يـدـخـلـونـ قـصـرـ إـمـبرـاطـورـ وـيـعـرضـونـ عـلـيـهـ باـسـمـ إـلـاـسـلامـ مـيـثـاقـ صـدـاقـةـ دائـمـةـ ، وـلـمـ يـتـرـدـ اـسـحـقـ لـانـجـ ، وـاختـارـ أـنـ يـنـحـازـ إـلـىـ صـلـاحـ الدـيـنـ ليـحـمـيـ إـمـبرـاطـوريـتـهـ خـوفـاًـ مـنـ قـوـاتـ فـرـيدـرـيكـ بـارـيـروـسـ الـتـيـ كـلـمـاـ اـقـرـبـتـ مـنـ آـسـياـ الصـغـرـىـ أـخـذـتـ تـدـبـ فـيـهـاـ فـوـضـىـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ . وـتـعـهـدـ اـسـحـقـ لـانـجـ بـمـوجـبـ الـمـعاـهـدـةـ الـتـيـ أـبـرـمـهـاـ مـعـ فـاتـحـ الـقـدـسـ بـالـتـنـازـلـ لـلـمـسـلـمـيـنـ عـنـ إـحـدـيـ أـشـهـرـ كـنـائـسـ بـيـزـنـطـيـةـ لـتـصـبـحـ جـامـعاـ . وـوـعـدـ بـأـنـ يـسـتـنزـفـ مـؤـخرـةـ جـيـشـ فـرـيدـرـيكـ بـارـيـروـسـ ، وـأـنـ يـحـوـلـ الدـرـوـبـ مـاـ اـسـتـطـاعـ إـلـىـ ذـلـكـ سـبـيلـاـ إـلـىـ طـرـقـ مـقـطـوـعـةـ ، وـأـنـ يـلـجـيـءـ بـارـيـروـسـ إـلـىـ مـسـاـوـمـاتـ لـاـ تـنـتـيـ ، كـلـمـاـ أـرـادـ أـنـ يـشـتـريـ الـمـؤـنـ . صـحـيـحـ أـنـ تـحـالـفـهـ لـمـ يـكـنـ . وـلـخـسـنـ الـسـيـاسـةـ إـلـاـ تـحـالـفـاـ ظـاهـراـ عـلـانـيـةـ ، وـأـنـ مـسـاعـدـتـهـ

ظللت سرّية ، على الأقل حتى توارى الجيوش الجermanية وراء جبال أرمينيا . وكان المغوب فيه أن يستقبل اسحق لانج نفسه بقليل من الفرح وكثير من الكلام الذي يذهب جفاء ، فريديريك هذا ، حامل الصاعقة ، الذي سيعسكر في هدوء تحت أسوار بيزنطية .

سفارة صلاح الدين الاستثنائية لدى القسطنطينية

ولم يَرِ صلاح الدين بأساً في إنقاذ المظاهر . ولكي يدلل على حسن صداقته نصّ في المعاهدة على أن يعهد بكنيسة القيامة إلى الأساقفة الروم ، وسمح للبيزنطيين بحرية دخول الأرضي المقدسة . ولقد كتب السيد ريني كروسيه (M.René Grousset) يقول : «إن مثل هذا النند كان يليي المطالب النظرية الأبدية للسياسة البيزنطية ويسوّغ في الوقت ذاته التحالف مع أمير مسلم في أعين الأرثوذكس . وحينما وقع الطرفان بنود المعاهدة ، أرسل صلاح الدين سفارة علنية إلى القسطنطينية ، قوامها أمير ومؤذن وقاض وعدد من الفقهاء حاملين معهم هدايا شرعية : منيراً ونسخة من القرآن الكريم مزخرفة زخرفة فخمة . واحتفل في العالم الإسلامي بيوم وصول هذه السفارة إلى بيزنطية مثل احتفالهم بيوم تحرير القدس . وتجمعت التجار المسلمين المقيمون في المدينة على شاطئ البوسفور وراء جنود الإمبراطور ، ليستقبلوا سفارة صلاح الدين الاستثنائية ويرافقوها ، وسط الابتهاج العام وعلى أنغام الموسيقى . وسارت وراء السفراء قافلة طويلة محملة بثروات أسطورية ، وحينما كان الأمراء بشبابهم المزركشة الشبيهة بشباب الخلفاء ، يرون الأبواب الذهبية لقصر الإمبراطور المنيف تشرع لهم ، على أنغام الموسيقى ودق الأجراس في بيزنطية ، كان بارون ويسمباغ مبعوث فريديريك باربروس يصل على جواده الراكض بسرعة قصوى ، ليطلب السماح بمرور جيش الإمبراطور الجermanي مروراً حرّاً عبر الإمبراطورية البيزنطية . وطلب فور وصوله مقابلة الإمبراطور . ولابد أنه تلقى درساً مفيداً في غمرة المهرجانات واحتفالات الاستقبال . ورکز المؤرخون العرب — أمثال بهاء الدين — الذين لا يرقى الشك إلى كتاباتهم على الصداقـة المتمامـية التي كانت ستربط بين صلاح الدين واسحق لانج .

المئة ألف جرماني والمغامرة الخائبة

ومع ذلك ففي ١١ أيار (مايو) ١١٨٩ غادر راتيسبون مائة ألف جرماني ، ليعيشوا

أشد المغامرات خيبة في تاريخ وطنهم . وكان الانكليز والفرنسيون والإيطاليون يبحرون عهد ذاك على سفن كثيرة ، وتأهّب الأسطول للإلاع من جميع موانئ البحر الأبيض المتوسط باتجاه الأرض المقدسة . وكان صراع — لارحمة فيه — ستتابع مفاجآته العديدة — يبدأ بين الدول الأوربية والإسلام المنتصر .

الفصل الثامن عشر

١ ، ٢ — لم يرد في المصادر العربية أي ذكر لرسالة فردريلك باريروس إلى صلاح الدين أو لرة صلاح الدين على فردريلك باريروس .



الفصل التاسع عشر

رينو دي ساجيت وصلاح الدين

تساقط سلسلة حصون الفرنجة جنوبي لبنان

بين النهاية الجنوبية للبنان ، وهضبة الجليل ، على الجبال المهيمنة على وادي الليطاني ، بنى الصليبيون سلسلة من الحصون يغطي بعضها ببعضها الآخر ، وتهدد أرض أتابك دمشق وتسير على الطرق الساحلية المؤدية إلى صور وصيداء .

صلاح الدين يتحفظ لحصار حصن شقيف أرنون

وكان أشهر هذه الحصون وأمنعها حصن بوفور الذي يسميه المؤرخون العرب شقيف أرنون ؛ وبعد سقوط القدس تحصن فيه رينو دي ساجيت متضرراً أياماً أفضل . وكان هذا الحصن مبنياً على ارتفاع ستائة وسبعين متراً عن سطح البحر يعلو صخرة يقوم جدارها على شفير هاوية . وكان يمكن لسيد شقيف أرنون أن يتحددى أفضل المتسلقين المسلمين ما دام في قعر آباره من الماء الوشل ؛ ولكن بعدما رأى رؤية العين حوليه تهاوي عدد من الحصون الشهيرة بأنها أمنع من أن تؤخذ ، اعتقاد بأن من السياسة أن يخادع عدوه ، والأجدى له أن

يتجنب الاشتباك معه في معركة ، ولكن صلاح الدين كان عام ١١٨٩ يُحضر قواتٍ عديدة يدفعها إلى أسفل حصن بوفور محتلاً كل طريق يؤدي إلى جسر العبور .

رينو دي ساجيت يقابل صلاح الدين

و قبل أن تكمل استعدادات الحاصرة طلب رينو دي ساجيت مقابلة أكرم أعداء الفرنجة وأصدقهم وأعلمهم وكان صلاح الدين يرغب في أن يستقبل بكل احترام رجلاً كامل الرجلة صادق القلب ثاقب الفكر ، ودعاه إلى مائته . وخلال الطعام ، تبودلت عبارات المحاملة والتهذيب الشهيرة لدى الشرقيين والتي لها أحياناً مذاق الأفواه .

ثقافة رينو دي ساجيت الإسلامية ومعرفته دقائق العربية

وكان رينو يعرف دقائق اللغة العربية وكثوزها من الروائع الخيالية المؤثرة . واستطاع بيسر الاستيلاء على لب صلاح الدين المتأثر دائماً بأقوال الرجال المرموقين .

ويوضح مؤرخه بهاء الدين الذي كان حاضراً المقابلة ، أن الحديث لم يتطرق بين تناول الزيتون الدسم للسفوح اللبناني والمعجنات الدمشقية المحسنة بالفستق إلا إلى صفات الشعراء من جميع الأمم ، والنعيم التي تغدقها الديانات الإسلامية والمسيحية على البشر .

كان اختياراً موقعاً لمواضيع الأحاديث في ظل الأشداق الفاغرة لمحابيق حصن بوفور والممالئ المتنطقيين بالختاجر . ونادرًا ما كان يصادف في المشرق فرنجيٌ يتقن بطلاقة التعبير بالعربية السورية . واعتبرَ صلاح الدين بمعرف ضيفه الذي استطاع — كما قال — إلقاء عالم بيلاطه لكي يلقنه ساعة يشاء مضمون الدين الإسلامي؛ ولأنَّ السلطان شديد الورع جمًّا التقوى فقد أحبَ كثيراً المناظرات المذهبية ، وخاصة عندما تكون ممزوجة بالتهذيب .

وكما يقول بهاء الدين : «كان يسر صلاح الدين لأول مرة أن يكون محدثه فرنجيٌ واسع الثقافة آسِرَ التصرف»^(١) .

خدعة رينو دي ساجيت

وفجأةً جئنا الكونت الخدق — وقد شجعه ما أحدهـ في نفس صلاح الدين من انطباع

مؤاتٍ — على قدمي السلطان وخطابه بقوله: «مولاي». زاعماً أنه بعد كل ما قدمه من خدمات للفرنجة لم يلاق إلا خيبة الأمل، وأنه أقسم على التخلّي عن قضية هذا العدد من المجاهدين البرابرة؛ ثم طلب من صلاح الدين أن يعطيه ملاداً منعزلاً في أحد القصور القربيّة من دمشق كي يستطيع أن يقضي بقية حياته مع عائلته في طمأنينة ومتابعة دراساته الأثيرة على قلبه عن القرآن. وعلى هذا الشرط أبدى استعداده لتسليميه قصر بوفور، والتمس — فضلاً عن ذلك — أن يُمنح مهلة لإحضار أسرته من صور، لأن الفرنجة سوف يتقدّمون منها حالماً يعلمون بأنه طلب ملجاً من صلاح الدين. ولم يكن السلطان يقوم بمساومة مخادعه، ولذا قبل بأن يستبدل القلعة المهيّبة بقصر دمشقي ذي بهو داخلي، وبغية استمرار الصداقّة بين سكّان الوادي وسكّان القصر، أكثر صاحبنا رينو من التردد على صلاح الدين، والموضوع كان دائمًا هو هو: القرآن. ولم يكن يدرّي كيف يعبر له عن بالغ غبطته وامتنانه حينما يفكّر بأنّه سيحيّاً عما قريب مع أسرته تحت سماء دمشق الساحرة.

اكتشاف المسلمين خدعة دي ساجيت وسوقه أسيّاً إلى دمشق

وبينا كان صلاح الدين يعتبر نفسه الأدهى ، ويُعدّه بكل ما يزيد ، كان رينو يشغل رجاله سراً بتفويت تحصينات شقيق أرنون (بوفور)؛ ولكن المسلمين عادوا فانتبهوا إلى أنّ الرجل يذكر بهم ، وأنهم يضيّعون وقتهم في هذه الالياقات غير المعتادة؛ فأمر صلاح الدين بمراقبة الحصن عن كثب ، ورغم إحساسه المسبق لم يشاً أن يخلّ بقوانين الضيافة . كان بإمكانه أن يوقف دي ساجيت الذي اعتقاد أن نواياه ظلت طي الكتان ، ولذا ما فتئ يتردد على معسكر المسلمين . ورفض صلاح الدين خلافاً لرأي أمرائه أن يوقف ضيفه ، فكظم غيظه ، وكان يبدو كلّ مرة أكثر تهذيباً مما سلف . ولكن اليوم المحدد لاستسلام بوفور كان يقترب؛ وقبل الموعد بمنتهى قصبة نزل رينو كعادته من الحصن ليثير مع صديقه حول مشاريعه المقدّسة ، فلاحظ أن صلاح الدين يُيدي شيئاً من الاضطراب إذ كان الأمراء يتمامسون حوله ، فأسرع إلى إنتهاء مقابلة لم تعد تعني شيئاً . ودهش لأنّهم سمحوا له بالعودة طليقاً إلى قلعته . وأعتقد أن شيكوكه لم تكن في محلها ، وعاد في اليوم الحدّد ليُعترف عن عدم إمكانه تسليم القلعة فوراً لأنّ أسرته لما تغادر صور ، ولأنّ الطرق لم تكن آمنة رأى ضرورة لرسالة عدد من رجاله المسلمين ليأتوا بعائلته وبعثوها خلال الرحلة؛ مستمهلاً من جديد بستعة

أشهر فبدا صلاح الدين نافذ الصبر وأنذر رينو بتنفيذ تعهداته، ولإدراك الكونت أن الأمور ساءت طلب أن يسمح له بالذهب ليأمر بفتح أبواب الموقع، ولكن السلطان الذي لم يكن مستعداً هذه المرة لترك مخاطبه يتحصن داخل الأسوار، ولا أن يدعه يخدعه ويهاريءه، أرسل معه حرساً حتى الجسر المتحرك؛ ولكن حين بلوغه إياه وبعد حديث قصير مع أحد ضباطه الذي قدم لاستقباله، ولعلمه أي مصير كان ينتظره، أمر هذا الفرنجي الكبير بإنزال الجسر المتحرك وصرخ برجاله ليستحثهم على المقاومة حتى الموت. وينعمون من الاستسلام، واعداً إياهم بأنهم سيتلقون عما قريب نجدة من فرنجة الساحل. وحرّضهم على الاستبسال بالدفاع دونعاً هوادة. وحين أعيد أمام صلاح الدين قيد رينو دي ساجيت بالسلسل، وسيق إلى دمشق سيراً على الأقدام بين هنافات المسلمين.

كان صلاح الدين يستشيط غيظاً، لأنه ظل مسمراً أمام الحصن مدة ثلاثة أشهر طمعاً في أن يختله دون إراقة دم رجل واحد؛ ولما أضاعه من وقت في مطارحات دينية مع رينو دي ساجيت.

ظهور غي دي لوزينيان على المسرح السياسي من جديد

وظهر غي دي لوزينيان من جديد على المسرح السياسي على رأس سبعة آلاف رجل.

وكان صلاح الدين وعد عند استسلام عسقلان بأن يطلق سراح غي دي لوزينيان، وبعض رفقاء الأسرى، خلال ثمانية أشهر، وفي الأجل المحدد، وقبل أن يطلقوا سراح ملك القدس السابق حليفه صلاح الدين على الانجليز بأن يتخل عن مملكته، وبأن يعود إلى أوروبا، وبألا يشهر سيفه أبداً ضد الإسلام. فحلف؛ وحسب قول الشاعر النورماندي أمبرواز، لم يكن صلاح الدين يصدق حرفًا واحدًا من كل الأيمان التي أقسمها دي لوزينيان؛ ولكنه بفضل ما تخلّى به من بعد نظر سياسي حكيم، كان يؤثر ترك دي لوزينيان لفرنجة في حال رغبته بإعادة ملك شرعي غير منازع على القدس، لأن صلاح الدين لم يكن البتة يحترم مزاياه العسكرية، وكان يعلم أن غي سيء الحظ، كما يقول الشاعر المشار إليه، وأنه لم يكن في الحرب قاسياً ولا تخيفاً. فهذا المطالب بعرش القدس كان أفضل له من أيّ سواه، ناهيك أنه ما يزال في صور ذلك المخيف كونراد دي مونفراً الطامع بالتجاج، والشجاع الذي أمسك بزمام

أمور الفرنجة منذ أن سمح له بأن يغادر سجن طرطوس حرّاً. وعمل دي لوزينيان لدى مجمع للمطارنة على أن يكون في حلّ من يمينه فجمع عدداً من الفرنجة المترفين وسار إلى صور لامتلاك المدينة، ولكن كونراد دي مونفراً أوصى في وجهه الأبواب، وسلمه كلمة صغيرة قال له فيها: إنه وكيل فقط لأمراء فرنجة ما وراء البحار، وأن هؤلاء لم يفوضوه بأن يسلمه صور.

غي دي لوزينيان يتوجه صوب عكا بعد طردہ من أمام صور

وهكذا تكون كارثة حطين عفت على آثار الماضي، ولم تبق الأسرة المالكة في القدس سوى مجرد ذكرى، وأن حقاً جديداً سيولد مع إعادة الاحتلال الأرض المقدسة. وهذا ما يفسر لنا لماذا كان المركيز دي مونفراً يصرّح بأنه ليس مديناً بتصور إلا لنفسه؛ بانتظار تحديد الحق على أيدي أمراء الغرب، أعني الإمبراطور البرمني وملكي فرنسا وإنكلترا الذين يتضمن قدموهم. وحينما طرد غي دي لوزينيان من أمام صور، قام بمعركة مجازفة لإعادة الاحتلال عكا التي حصنتها المسلمون تحصيناً جيداً، وكانت لهم فيها حامية قوية. ومع مائتي فارس من فرسان غيّوم الثاني ملك صقلية النورماندي، كانوا قد وصلوا إلى طرابلس قبله بوقت قصير، باشر دي لوزينيان أكثر المعارك جنوناً وبطولة في الحرب الصليبية كافة، سالكاً طريقاً يهيمن عليها جميعاً الأيوبيون. وكانت هذه المسيرة من صور التي طرد منها إلى عكا المتبعة ضريباً من التحدّي. «فالفرنجة — كما يكتب ابن الأثير في كتابه: (الكامل في التاريخ) امتدوا محاذين شريط الساحل دون أن يزايلوه لا ضريباً في السهول، ولا في الصخور، ولا في المرات، ولا الأرياف الأوسع. وكانت مراكبهم تتحرّجارية على خط موازٍ لخط سيرهم، مستعدة لنجدتهم عند وقوع أقلّ حادث، أو لحملهم على ركوب البحر إذا ما اعترضتهم عقبة كأدء»^(٢) وتدل هذه المسيرة بخطى الذئب في قلب الأرض المعادية فيما تدلّه على جرأة نادرة، وتتصف بالعظمة، ومهما تكن أخطاء غي دي لوزينيان السابقة فادحة فقد أعادته هذه المسيرة أحد كبار الفرنجة. وكثيراً ما يستشهد المسلمون بحبة الرمل التي توقف عجلة الحظ عن دورانها، وكان غي دي لوزينيان تلك الحبة التي غيرت مجرى الأحداث كما سنرى.

مسيرة دي لوزينيان وبدء الصراع من جديد

عندما علم صلاح الدين بأن النورمانديين عبروا — على مسافة نحو ستة عشر كيلو

متراً من عكا— الجسر المقام على القسيمية أو ليونتس، وأنهم اشتبكوا مع بضعة فرسان من المسلمين المكلفين بحماية الجسر وقتلواهم، أدرك أن الحرب لم تنته بعد، ولكن لم يكن بالتأكيد يفكر بأنه خلال السنوات الخمس المتبقية من حياته عليه أن يناضل ويحشد باستمرار قوات جديدة، وأن هذه الحرب ستنتهي من استياء أمرائه الذين ما برحوا منذ عشرين سنة يقاتلون إلى جنبه، والذين نالت من معنوياتهم هذه الحرب ضد الفرنجة نتيجة لانغمارهم في هذا الجهاد الذي يجب على الدوام أن يبدأ من جديد.

كان صلاح الدين يطلع يوماً فيوماً على مسيرة غي دي لوزينيان، والتي يروي بهاء الدين المطلع جيداً على الأحداث : في ٢٦ آب (أغسطس) ١١٨٩ توقف ملك القدس السابق في عين البصّة ، الواقعة على بعد ١٢ أميال شمالي عكا ، وعلى بعد مليون من البحر . بينما كانت طلائعه تتمركز في الزير على بعد عشرة أميال شمالي عكا على البحر ، ولم يربح صلاح الدين أن انتقل بجيشه إلى عكا . وفي ٢٧ آب (أغسطس) انحدر في وادي الأردن وسلك الطريق المارة بطبرية ، ثم اتجه المسلمين نحو الحولة . وفي الصباح التالي بلغوا المئنة أو خان اليومية ، على الشاطئ الشمالي الغربي لبحر الجليل ، فبلغهم أن الفرنجة انتهوا إلى أسوار عكا . وفي ٢٩ آب وصل صلاح الدين إلى الخروبة على بعد خمسة أميال ونصف الميل إلى الجنوب الشرقي من عكا ، حيث اتخذ موقعه وراء الفرنجة ، وكانت ميمنته تستند إلى تل العبادية والبروة ، والقلب إلى تل كيسان ، وتحتل الميسرة تل الداوك ، وتبلغ نهر عكا أو نهر النعيمين ، بحيث صار المحاصرون محاصرين بدورهم من الشرق والجنوب (٣) .

المواجهة الجديدة أمام أبواب عكا

كانت عكا فيما مضى مدينة بحرية مزدهرة للغاية ، وبصفتها الجغرافي اليوناني ايتين دي بيزنس قائلاً : إن اليونانيين القدماء أطلقوا عليها هذا الاسم « عكا » لأن هرقل سبق أن لدغته أفعى ، فلم يجد الشفاء إلا في هذا المكان الذي دعي عكا اشتقاً من الفعل اليوناني الذي يعني شُفَّى ، وقد كثُر عدد مالكيها ؛ إذ انتزعها الخليفة عمر من الروم ، وأخذوها بدوين الأول ملك القدس من المسلمين . وحررها صلاح الدين بعد معركة حطين الشهيرة . وهي مبنية على ساحل البحر الأبيض المتوسط غربي سهل فسيح .. وكانت ، في الحقبة التي نُورِخ لها مدينة

تجارية مزدحمة بالسكان؛ وميناؤها المناسب للإبحار واسع الحفر عميقها. ولها سور مزدوج تسنده أبراج ضخمة من مسافة إلى أخرى، فنجعل منه أحد أمنع المواقع في فلسطين، وكان شكل المدينة شبه مثلث يتسع من الجهة الشرقية، ويضيق من الجهة الغربية، ومن الجنوب إلى الشمال كان ثلث المدينة مغموراً بمياه البحر، أما الميناء المبني عام ٢٥٠ للهجرة على يد أحد سلاطين مصر، فكان يحرسه برج يدعى برج الذبان، لأنهم كانوا ينظرون هناك أمعاء الذبائح، وكانت رائحتها تجذب الذبان، وكان شأنه شأن أكثر الموانئ— عهد ذاك — يغلق بسلسلة تخفض وترفع حسب الطلب؛ وكانت خرائب معبد قديم يزعم الفرنجة أنه شيد تكريماً للقديس يوحنا، بينما يذهب المسلمون إلى أنه يخص النبي صالح، وهو يضفي نوعاً من القداسة على هذه المدينة. وإلى الشرق كان يقوم قصر يدعى البرج الملعون، لأنّه في ذلك الموقع — كما تذهب أسطورة ظلت رائحة بعض الزمن — صكت الثلاثون من فضة التي باع بها يوضاس سيده المسيح.

وكان السهل يمتد أربعة فراسخ، ويحده من الجنوب جبل الكرمل الذي اشتهر بسكنى فيشاغورس فيه، ولجوء النبي إيليا إليه؛ ويحده من الشمال جبل شارون أو سلسلة الصوريين، ومن الشرق آخر سفوح جبال الجليل. ويصب نهر البلuous المسمى نهر الناعمين في البحر قرب المدينة من الشرق.

أمام هذه المدينة، وعلى مدى ثلاث سنوات وجّه الإسلام والمسيحية أحدّهما إلى الآخر ضربات رهيبة. كانا سيتواجهان في قتال وحشي حيناً، فروسي آونة أخرى، كانا سيتذابحان وهما يرسلان صيحات الشتائم، ويتهديان في بعض المناسبات ثلوج لبنان التي تسكن الحميّات. كانت مراحل المعارك الضارية ستتناوب مع المشاهد اللطيفة طوال هذه الحرب بين جميع أمّ الشرق و مختلف أمّ الغرب.

ويدلّ من أن يواجه صلاح الدين في عكا — كما كان يعتقد — بضع مئات من الفرنجة المتعصبين الذين لا يقلّقه عددهم وجد نفسه وجهاً لوجه مع ألفي فارس، وثلاثين ألف راجل تقريباً. وكانت قوات فرنجية جديدة تنزل من البحر على الساحل اللبناني، ويعبر خمسمائة مركب مضيق جبل طارققادمة من أوروبا الشمالية في أول أيلول (سبتمبر) وعليها ١٢٠٠ من الدانماركيين والفرزيين. وكان هؤلاء الحلفاء غير المنظرين — كما يكتب مؤرخ

فرنجي — قوماً أكسبيهم مناخهم القاسي سمة خاصة، وقوتهم على ضراوة القتال صفة ثالثة: القامة العملاقة، والشجاعة الجاحمة، والإيمان المتهوج. وكان يرسو أسطول آخر بقيادة أسقف كنتريري ودوق دي غير وجاك دافين، وعليه انكلزيز وفرنسيون متلهفون للنزال.

وجاء حاكم تورنج وألمانه يتبعهم دوق غلدر وروبرت الثاني كونت درو، وتيبيو كونت شاتر، وإيتين كونت صانسرن، وراول كونت كليرمون، وفيليب أسقف بوف، وايرار واندري دي بريان، وغيوم كونت شالون سورسون، وجوفروا دي جوانفيل مستشار شامبانية، وغي دي دمبيار، وأنسيريك دي مونتريال، وغي دي شاتيون سورمان، وأخوه غوشيه الثالث الذي اشتهر فيما بعد باسم القديس بولس. كل فرسان ومشاة شامبانية كانوا أمام عكا، ولا ننسى أن هذه القوات لم تكن تتمثل سوى طليعة أنفذها الغرب اللاتيني، طليعة ستتبعها عمّا قريب جيوش ملكي فرنسا وإنكلترا. وكان فريدريك باريروس ما يزال زاحفاً مع جرمانيه المائة ألف.

حصار عكا و فكرة إعادة احتلال القدس

وأقنع حاكم تورنج ودوق دي غلور بعيد وصولهما، أقنعاً كونراد دي مونفراً بأن ينسى مؤقتاً خصومته مع غي دي لوزينيان وكذلك اهتماماته الوراثية، وأن ينضم بلا أية نية دفينه إلى الجميع لكي يُسهم صادقاً في إعادة احتلال القدس. فقبل كونراد بعدم التسلك في الوقت الحاضر بترشيح نفسه للثاج. وفي ٢٤ ايلول (سبتمبر) كان هذا الأنجير بدوره أمام عكا مع هيكليه واستماريه ولوبارديه وبنادقه، وعلى رأسهم أساقفاً بيزة، ورافين.

ومن جهة استدعى صلاح الدين حليفيه مظفر الدين والمملوك المظفر أمير حماة.

حواشي الفصل التاسع عشر

-
- ١ - ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٩٧ - ٩٨ .
 - ٢ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٣٣ .
 - ٣ - ابن شداد : النوادر السلطانية ١٠٣ - ١٠٥ .
 - ٤ - أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٣ .



الفصل العشرون

ملحمة عكا

الهجوم الإسلامي الأول على الفرنجة

لقد حرر أول هجوم إسلامي قسماً من أسوار عكا جهة برج قلعة الملك حتى باب قراقوش ، ويفضل هذه الثغرة في خطوط الفرنجة أمكن تقوية الحامية وتقويتها . وفي ١٦ ايلول (سبتمبر) عام ١١٨٩ بدأ مع إشارة الفجر معركة أكثر جدية ، فهجم صلاح الدين متدفعاً على رأس فرسانه مما بين النهرين ، فصمد الفرنجة متحملين ثقل الصدمة بلا تراجع . وحل الظلام ، والمعركة مازالت مستمرة ، مشتدة الأوار . وكانت خسائر الجانبين باللغة الفداحة — وكما يقول بهاء الدين — « كانت سوق ، باع كل واحد فيها نفسه بالجنة . كانت الرؤوس تساقط كالמטר الغزير . كان السلطان في كل مكان يتثبت بين صفوف العدو لعله يجد فيها نقطة ضعف ، فيثير همة رجاله بالتحريض وبالقدوة التي يقدمها هو نفسه غير آبه بالخطر . ولكنه رغم كل شجاعته ومساندة رجاله لم يتمكن من اختراق صفوف العدو »^(١) .

انتشار جيش الفرنجة بتشكيل غير قابل للاختراق

واضطر صلاح الدين في اليوم الخامس إلى الانسحاب بعض المسافة لكي يتبع الراحة

لقواته المنكهة، فانكفاً إلى التلال الخجولة بالمدية؛ فأخذ الفرنجة بدورهم زمام المبادرة في العمليات. فانتشروا في السهل وأقاموا تشكيلًا غير قابل للاختراق، فوضعوا المشاة في القلب والجنوبية والفرسان على جناحיהם.

الصدام الرهيب .. وال الحرب سجال

وتقديم الفرنجة ببطء ذراعاً فذراعاً، ملتصقاً بعضهم ببعض بتلاحم جعل شهد العيان من المؤرخين العرب يحسبونهم جداً يتقدم. وأغرقت هذه الموجة الصليبية التاسك الواقع الإسلامية الصغيرة التي صادفتها؛ ولا بلغت ثقل جيش صلاح الدين نشبت مجزرة رهيبة، وعاد الخصم ممسأً كلًّا إلى معسكره وال Herb سجال،.. إلا أن صلاح الدين أدرك ذلك اليوم أنه لا ينازل في ساحة هذه المعركة فرساناً من فرنجة سورية أو بورجوانيين قليلي الصمود أمام ماليكه العسكريين المخترفين، وإنما قوات صدام مدرية تدريباً مدهشاً، منضبطة يزيد من قوتها المثل الأعلى الديني الذي يشحن نفوسها. وما كان الفريقان مصممين على الانتصار مهما كلف الأمر استؤنفت المعركة. وكان غي دي لوزينيان قد تلقى إمدادات جديدة بعد أن توجه نحو عكا على رأس ٢٠٠ رجل؛ فهاهو ذا يرى تحت قيادته ٤٠٠٠ فارس و ٨٠٠٠ راجل. وكان فرسان المسلمين أكثر، بيد أن رجالهم أقل.

إحدى كبريات معارك الشرق

و يوم الأربعاء ٢١ شعبان ٥٨٥ للهجرة، الموافق ٤ تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٩ للميلاد، وقعت إحدى أكبر المعارك التي حدثت في الشرق. فترك الفرنجة صفوفهم وانتشروا في السهل من نهر البلuous حتى البحر، وفي اليوم التالي أحصى كلًّا من الفريقين قتلاه، فكانت الخسائر فادحة، ونتيجة المعركة صفرًا سواء بالنسبة لصلاح الدين أو غي دي لوزينيان.

الفرنجة يحكمون الطوق على عكا برأ وبحراً

كان قتل الفرنجة خمسة آلاف، وبلغ نتن رائحة الجثث من النفاذ درجة أخذ فيها الوباء بالانتشار، لكن وجود جثث الفرنجة خدمتهم، لأن المسلمين ابعدوا بمعسكراً هم قليلاً نحو تل

الخروبة فاقددين بذلك اتصالهم بعكا، تفادياً لتلك الرائحة الطاعونية، مما عزز استراتيجيةً موقف الفرنجية؛ لأنهم لم يستطيعوا حتى ذلك الوقت تطويق المدينة، على حين تمكنا الآن أن يعزلوها تماماً، ويحاصروها برياً وبحراً. «وباشروا حفر الخنادق ، مقيمين من التراب المتختلف عن الحفر ستاراً كما لو أنه سور ، وفي كل يوم كانت طلائع المسلمين تشن عليهم المعرك – ولكنهم كانوا يتفادون الاشتباك معهم خشية رجوع صلاح الدين قبل أن ينهوا نظام تحصيناتهم»^(٢). كما نقرأ في كتاب الروضتين .

صلاح الدين يحاصر بدورة الفرنجية

وهكذا – وبأن معـاً – غدا المسلمين والفرنجية كل منها محااصراً ومحااصراً، الأولون في عكا والآخرون في المدينة الجديدة التي كانوا ينشئونها للدفاع عن أنفسهم ضد صلاح الدين ، لكنما بقي هو وحده محتفظاً بحرية الحركة . وحلّ فصل الشتاء فغدت العمليات العسكرية مستحبة .

المجلس الحربي الإسلامي ورأي صلاح الدين بمتابعة القتال حتى النصر

في ١٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٩ عقد صلاح الدين مجلساً حربياً بدا فيه ميالاً لمواصلة القتال دوّنا هوادة ، موضحاً لأمرائه وحلفائه أنه لا ينبغي البتة انتظار عودة الفصل الجميل لسحق الفرنجية الذين سيستقبلون في الريـع – كـا تقول المعلومات الأكيدة – إمدادات ضخمة . قائلاً :

«بـسم الله والحمد لله والصلـاة على نـبيه محمد . اعلـمو أنـ عدو الله وعدـونـا دخل مـالـكـنا وـجـراً عـلـى تـدـنيـس أـرـض الإـسـلام بـأـقـدامـه . ولـكـنـا بـفضلـ الله وإـرادـته رـأـينا جـنـاحـ النـصر يـلمـع مـرـفـقاً فوقـنـا ، وـلـمـ يـقـ أـمـانـا سـوـى القـليلـ حتـى يـكـونـ نـصـرـنـا حـاسـماً . إنـ الله يـأـمـرـ أنـ نـوـحدـ جـهـودـنـا منـ أـجـلـ المـجـومـ الـأـخـيرـ لـطـردـ الـكـفـارـ مـنـ دـيـارـنـا وـنـسـحـوـ كـلـ آـثـارـهـمـ . تـعـلـمـونـ أـنـا لـأـنـتـظـرـ مـدـداً جـديـداً إـلـاـ مـنـ الـمـلـكـ الـعـادـلـ الـذـي لـنـ يـلـبـثـ حتـى يـصـلـ عـلـى رـأـسـ جـيـشـ جـديـدـ ؛ وـتـعـلـمـونـ كـذـلـكـ أـنـ كـلـ تـأـخـيرـ هوـ فيـ صـالـحـ الـأـعـدـاءـ . إـنـهـ يـتـظـرـونـ إـمـدادـاتـ مـنـظـمةـ مـنـ أـورـياـ . وـيـتـحـيـنـونـ إـقـلاـعـهـاـ حـالـاـ يـكـنـ السـفـرـ بـحـراـ ، بـعـدـ أـنـ قـطـعـهـ فـصـلـ الشـتـاءـ . إـنـيـ

مصممٌ — والحالة هذه — على قتالهم ، ومع ذلك فليقل كل منكم رأيه صريحاً في قرارنا هذا»^(٣) .

صلاح الدين يأخذ برأي أمرائه بإرجاء المعركة ضد الفرنجية

و واضح أنّ الأمراء كانوا متزعجين ؛ وأنّ القوات الإسلامية المحيطة بعكا مؤلفة بأكثراها من الجنديين الشبان العرب المتميزين بعمليات الغزو والانتقام أكثر مما هم مهيؤون للحملات الطويلة الأمد التي تضعفهم ؛ فالجمود أمام العدو وقضاء الفضول تحت الخيام يبعث في نفوسهم فتور الهمة ، ولم يكن يجمع هذه القوات الانسجام والتجرد والجرأة والانضباط التي تسود عادة جيشاً قومياً . وكان أمراء صلاح الدين يزعمون أن خسائرهم أمام عكا أثرت في معنوياتهم ؛ وتذرعوا كذلك بحاجة السلطان إلى الراحة ليستعيد صحته التي تأثرت بسنوات الحرب الأخيرة ، وأن الأوعية التي تفشت في الجيش الإسلامي بسبب تخلل الجثث ، أخذت تفتكت كل يوم بعدد جديد من الضحايا ، ومن المناسب بالتالي انتظار وصول قوات الملك العادل الذي سيكون لحضوره وأرائه فوائد جمة في الظروف الحرجية الراهنة ، وأضافوا .. كما يجب إبلاغ أمراء الشرق الآخرين الذين لم يكونوا حتى الآن أمام عكا كي يحضروا ويساركوا في هذه الحروب المقدسة (الجهاد) . وأنه بمساعدتهم يمكن الصمود أمام الفرنجية حتى لو وصلتهم الإمدادات التي يتظرونها من الغرب اللاتيني . ورأى صلاح الدين الخصافة في رأي أمرائه ، وأن الجيشين المتقابلين يعجز أي منهما عن دحر الآخر ، وستكون بينهما الحرب طويلة ، منهكة ، ودامية . وسيحاول الفرنجية بسيطرتهم على البحر أن يخضعا الحامية الإسلامية بالجماعة ، بينما سيكونون هم مستنزفين يحصرهم جيش صلاح الدين ، فيما هم يحاصرون المدينة . وهكذا استمر حصار عكا الذي بدأ في أيلول (سبتمبر) ١١٨٩ حتى ١٣ تموز (يوليو) ١١٩١ ، معلق المصير تتنازعه الفرق واحتلالات الخطوط لكلا الفريقين معاً .

حواشى الفصل العشرون

١ - ابن شداد : النواذر السلطانية ص ١٠٦ - ١١٥ .

٢ - انتقال معسكر المسلمين إلى تل الخروبة : جاء في كتاب الروضتين نقلًا عن الع vadad الأصفهاني ، قوله :

« وشكونا نتن رائحة تلك الجيف ، فحملت على العجل إلى النهر ، ليشرب من صديدها أهل الكفر . فحمل أكثر من خمسة آلاف جنة ، حلت إلى النار قبل يوم الجمعة . وأشار على السلطان بالانتقال إلى الخروبة ، عند خيم الانتقال المضروبة . فسار إليها رابع رمضان ، وأمر أهل عكا بإغلاق أبوابها ، وإحکام أسبابها . فوجد الفرج بذلك الفرج . وشرعوا في حفر خندق على معسكرهم حوالي عكا من البحر إلى البحر ، وأخرجوا ما كان في مراكبهم من آلات الحصار . وفي كل يوم يأتينا اليزكية بخبرهم ، وعا ظهر من أثراهم . والجذب في تعقیق الخندق وتسمیع مخترفهم ، فكان من قضاء الله أنا أغفلناهم ، وأهملناهم بل أهملناهم حتى عمقوا الحفور ، ووثقوا من ترابها السور . فكانوا يختدقون ويعمقون . ويعملون من تراب المخر حوض سوراً . فعاد مخيمهم بلداً مستوراً معموراً . فملأوا بالستائر ، ومنعوه من الطير الطائر ، وبنوه وأسسوه ، وستروه وترسوه . وزرروا عليه رجالاً ، ولم يتركوا إليه نواغل مجالاً . وتركوا فيه أبواباً وفروجات ، ليظهروا منها إذا أرادوا خروجاً . ولا فرغوا من هذا الأمر ، اشتغلوا بالحصار . وانقطعت الطريق على المسلمين إلى عكا ، وبأن ضعف رأي الانتقال ، فإنه بعدما أضحك أبكى » . (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٦ .)

٣ - المجلس الحربي الذي عقده صلاح الدين ورأيه في متابعة القتال : جاء في كتاب الروضتين . « وعند انقضاء هذه الواقعة ، وسكن ثأرها . أمر السلطان بالثقل حتى تراجع إلى موضع يقال له الخروبة خشية على العسكر من آثار الواقعة ، من الوخم وهو موضع قريب من مكان الواقعة إلا أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلاً فيه بقليل وضررت له خيمة عند الثقل . وأمر اليزك أن يكون مقيناً في المكان الذي كان نازلاً فيه . واستحضر الأمراء وأرباب المشورة في سلح الشهرين ، ثم أمرهم بالإصغاء إلى كلامه ، وكانت من جملة الحاضرين ، ثم قال : بسم الله والحمد لله والصلوة على رسول الله ، أعلموا أن هذا عدو الله وعدونا وقد وطئ أرض الإسلام ، وقد لاحت لوائح النصرة عليه إن شاء الله تعالى ، وقد يقى من هذا الجمع البسيط ، ولابد من الاهتمام بعلمه ، والله قد أوجب علينا ذلك . وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجد ننتظرها سوى الملك العادل ، وهو واصل . وهذا

العدو إن بقي وطال أمره إلى أن يفتح البحر ، جاءه مدد عظيم . والرأي كل الرأي عندي مناجزته ، فليخبرنا كل منكم بما عنده في ذلك . وكان ذلك في ثالث عشر تشرين الثاني من الشهور الشمسية فانفصلت آراؤهم على أن المصلحة تأخر العسكر إلى الخروبة . وأن يبقى العسكر أيامًا حتى يستجم من حمل السلاح ، وترجع نفوسهم إليهم ، فقد أخذ منهم التعب ، واستولى على نفوسهم الضجر وتکلیفهم أمرًا على خلاف ما تحمله القرى لا تومن خائتها . والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح فوق الخيال ، والخيال قد ضجرت من عرك اللجم ، وعند أخذ حظر من الراحة ترجع نفوسها إليها . و يصل الملك العادل وبشاركتنا في الرأي والعمل ، ونستعيد من شد من العساكر ونجتمع الرجال ليقفوا في مقابلة الرجال . وكان بالسلطان رحمة الله التیاث مراجی قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه وعاناه من التعب بحمل السلاح والفكر في تلك الأيام ، فوقع له ما قالوه ورآه مصلحة ، فأقام يصلح مزاجه ويجمع العساكر إلى عشر رمضان . قال : وكان لما بلغه خبر العدو وقصده عكا جمع الأمراء وأصحاب الرأي بمرج عيون ، وشاورهم فيما يصنع . وكان رأيه رحمة الله أن قال المصلحة مناجزة القوم ومنهم من النزول على البلد ولا إن نزلوا جعلوا الرجال سورة لهم ، وحفروا الخنادق ، وصعب علينا الوصول إليهم ، وخيف على البلد منهم . وكانت إشارة الجماعة أنهم إذا نزلوا واجتمعوا العساكر قلعناتهم في يوم واحد » (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٦) .

الفصل الحادي والعشرون

مصاب الإمبراطور فريدريك باربروس في آسيا الصغرى

صلاح الدين يقرع ناقوس الخطر

في تشرين الأول (أكتوبر) ١١٨٩ علم صلاح الدين من صاحب بريد حلب بوصول فريدريك باربروس إلى أبواب بيزنطية على رأس جيشه، فكلف أمين سره بهاء الدين أن يشخص إلى بغداد ليطلب من الخليفة العباسي إمدادات فورية، ويشرح له ما يتهدد المسلمين من خطر لو توصل الفرنجة إلى طرد المسلمين من شواطئ البحر المتوسط، مذكراً إياه كذلك بأن الممتلكات الفرنسية في الشرق — حتى بعد المعارك الظافرة في الأرض المقدسة — ماتزال ذات شأن، إذ تمتد حدودها من مياه البحر غرباً حتى المجرى الأعلى لنهر الخابور في الشمال الشرقي من الجزيرة العليا. ويعتبر آخر، فإن هذه الحدود تمتد، كما يقول ر. تومان في كتابه «تاريخ سوريا» من الشرق إلى الغرب على خط يترك حلب جنوباً ويستدير حوطها حتى المجرى الأدنى لنهر قويق؛ ومن هناك يغطي أفاميا ويتوجه إلى قمم جبال النصيرية الشاهقة حيث تناхم طرابلس سلسلة جبال مصياف موطن شيخ الجبل الرهيب حتى سفوح لبنان المشرفة على البقاع ونهر الأردن والصحراء العربية التي كانت أطرافها فيما مضى خاضعة لقلعة الكرك الشهيرة. وكانت هذه الأرض البالغة الاتساع تنقسم إلى أربع دول مستقلة: كونتية

الراها ، على الفرات التي تجاورها من الشمال مملكتنا السلاجقين وأرمينيا وإمارة انطاكية الممتدة من الأماнос حتى الجنوب على مسافة بضعة فراسخ من اللادقية ؛ وملكة القدس التي كانت ماتزال تشمل قسماً من لبنان ، ومن الساحل حتى يافا . وكان صلاح الدين يسمح لنفسه بأن يذكر الخليفة الغافل بأن المسلمين من سكان المدن كانوا يتفاهمون مع الفرنجة . ولا يمكن بالتألي إثارة الحماسة العسكرية في أوساطهم . وأنهم بعد كل شيء غير آبهين لو دفعوا الضريبة إلى أمير عربي أو تركي بدلاً من أن تدفع إلى الكونت الفرنجي . وكان هذا ما يشير قلق وزير بيت مال الخليفة ويشكل نقطة بالغة الحساسية لدى سلطة بغداد هي نقطة الواردات . وفي الوقت ذاته ، كان صلاح الدين يستنهض هم الأتابكة الكبار في شمالي سوريا الذين هم مكمن قوة السلطة الخليفية ، بل يمكن تشبيههم بسادة البلاط لدى آخر المiroوفجيـن . فاستقلـاـهمـ كان كـامـلاًـ شـرـطـ أـنـ يـعـترـفـواـ بـالـسـيـادـةـ الـفـخـرـيـةـ لـلـخـلـيفـةـ .

وصول الإمدادات الإسلامية إلى عكا

ومنذ آخر شباط ١١٩٠ كان يصل إلى أمام عكا كل من عماد الدين زنكي أمير سنمار ، وابن عمه سنمار شاه سيد الجزيرة العليا ، وعلاء الدين خُرُّم شاه ابن ملك الموصل تساندهم قوات جديدة أغلبها من المتطوعة ، وعدد من « رجال البلاط » الذين كانوا يتلقاهم مرتباً ، ويعيشون كما يلاحظ الطيري في حولياته على ما يأخذونه من الأعداء ، ولم يكونوا من الجند البيروقراطيـنـ الذين يـمضـونـ أـوقـاتـهـ وـهـمـ يـغـنـونـ عـلـىـ آـنـغـامـ الـقـيـاثـةـ . أما الخليفة العباسي فوعـدـ بـأنـ يـدرـسـ القـضاـياـ السـيـاسـيـةـ التـيـ يـفـرضـهاـ طـلـبـ صـلاحـ الدـينـ إـلـيـهـ بـالـتـدـخـلـ وـانـعـكـاسـاتـهـ الـدـولـيـةـ . صـحـيـحـ أـنـهـ كـانـ الـأـقـوىـ ، وـلـكـنـ مـكـاتـبـهـ كـانـتـ مـثـلـهـ قـوـيـةـ ؛ فـلـمـ يـكـنـ بـمـسـطـاعـهـ إـعـطـاءـ شـيـءـ بـلـ مـوـافـقـةـ الـوـزـيـرـ (ـأـنـاـ الثـانـيـ)ـ الـذـيـ لـمـ يـكـنـ فـيـ مـقـدـورـهـ أـنـ يـغـضـبـ عـمـالـهـ مـنـ الـمـوـظـفـينـ الـخـلـيـلـينـ ، كـأـنـ يـغـضـبـ الـقـضـاءـ الـذـينـ كـانـ مـنـ سـلـطـتـهـ وـحـدـهـ أـنـ يـصـدـقـواـ شـهـادـةـ الشـهـودـ لـإـثـبـاتـ أـهـلـةـ الشـهـرـ وـلـاسـيـماـ شـهـرـ رـمـضـانـ ، وـهـمـ الـذـينـ يـفـصلـونـ فـيـ الدـعـاوـيـ المـدـنـيـةـ وـالـجـزـائـيـةـ حـسـبـ النـصـوصـ الـشـرـعـيـةـ ، وـبـلـ مـوـافـقـةـ سـيـدـ الـبـرـيدـ الـذـيـ كـانـ يـرـاقـبـ الـجـمـيعـ حتـىـ الـخـلـيفـةـ نـفـسـهـ . وكانـ الحـفـاظـ عـلـىـ الـبـرـيدـ كـاـنـ يـقـولـ فـرـديـانـ لـوـتـ فـيـ كـتـابـهـ «ـنـهاـيـةـ الـعـالـمـ الـقـدـيمـ»ـ الخـدـمـةـ الـعـامـةـ الـحـقـيقـيـةـ الـقـائـمـةـ فـعـلـاـ ، إـذـ كـانـ طـرـقـ الـدـوـلـةـ الـإـسـلـامـيـةـ فـيـ أـوـاـخـرـ الـقـرـنـ الثـانـيـ عـشـرـ تـخـرـقـ الـبـلـادـ مـنـ الـعـاصـمـةـ إـلـىـ الـأـقـالـيمـ مـعـ مـرـاكـزـ تـبـدـيلـ الـحـيـوـيـنـ وـالـبـغـالـ وـالـجـمـالـ

بحيث يستطيع سعاة البريد أن يتوقفوا فيها ليستريحوا ويدلوا ركائبهم. كان البريد هو الذي يراقب الطرق وأمنها وصيانتها حتى أصبح — شأن نظيره في الإمبراطورية البيزنطية — سمع الخليفة وعظمته السافرة والسرية معاً.

البيزنطيون والجرمان وجهاً لوجه

ومنذ أن ظهر الجرمانيون أمام حدود الإمبراطورية البيزنطية وجه اسحق لانج قوات إلى جميع الأقاليم التي سيغزوها.

وفي ١٦ آب (أغسطس) ١١٨٩ واجه فريدريك بارروس أولى مصادبه، فجئنا وصل إلى فيليبيوليس وجد المدينة خالية من سكانها، وتلقى رسالة من الإمبراطور الذي بعد أن رفض الاعتراف له بلقب الإمبراطور الروماني منعه من متابعة رحلته قبل أن يسلم بيزنطية رهائن، وأن يعده بإعطائه نصف الفتوحات التي سيحققها في سوريا مقابل الخدمات التي أداها له خلال عبوره آسية الصغرى. وبانتظار جواب فريدريك بارروس كان إمبراطور بيزنطية يعتذر عن أسره السفراء الجرمانيين القادمين حديثاً إلى بيزنطية، وكيلا يغرق في المحاملات الفائقة الحد التي نقلوها عن بلاط خليفة بغداد كان بطريرك الروم يجرب في جلساته الخاصة أن ينعت اللاتين بـ «الكلاب» وبعد الذين يستطيعون أن ينحوهم بين الغسق والشفق، بآلاف الغرفانات دفعه واحدة، وتجاه هذا القدر من الواقحة كان رد فعل فريدريك بارروس قاسياً جداً، فأغرق منطقة فيليبيوليس بالنار والدم، وهدد حتى بالزحف على بيزنطية ليديل من كبرائها ويكشف خداعها. وتبه لهذا الوعيد ملوك صغار صربيون وبلغار يعرضون عليه مساعدتهم وعصاياتهم السلاوية، لأنهم كانوا راغبين في انتهاز سانح الفرصة ليصفوا حساباتهم مع الروم في قضايا شخصية، تفجيراً لثبور الأحقاد البلقانية الكامنة تحت الرماد. وفي ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) كان الإمبراطور الجرماني يطلب من ابنه هنري الرابع أن يجمع على عجل أسطولاً في الموانئ الإيطالية المهمة، وأن يحصل من البابا على دعوته لتوجيه الحملة الصليبية ضد الروم. ثم تابع تقدمه فاجتاز أدرنة واستولى على جميع المراكز الواقعة بين بحر إيجة وبون اوكسان، وكان سيجرب حظه مع بيزنطية لو لم يقم إمبراطورها أخيراً — وقد تملكه الذعر — بالموافقة على كل مطالبه، واعداً إياه بتتأمين تموين جيشه كل آن، وأن ينقله إلى آسية؛ ويدله على أفضل الطرق. وتأكدأ لوعوده هذه وجه

إليه رهائن مختارين لصفاتهم وأطلق سراح سفراء فريدريك باريروس وغمرهم بهداياه . ولأنه كان على عجلة من أمره ليり الجermanيين يغادرون بلاده طلب إلى فريدريك باريروس أن يخفّ لعبور آسية لمجاجأة صلاح الدين بسرعة المسير .

إمبراطور الجerman يقرر قضاء فصل الشتاء في تراقيا

ولكن فريدريك باريروس أجاب بأن تحديد تاريخ انطلاقه يعود إليه وحده ، وأنه قرر انتظار عودة الفصل الجميل لتابعة زحفه ؛ وردّ على مبعوث إمبراطور بيزنطية ، الذي كان يعده بعده من السفن يفوق ما يحتاج إليه لعبور البوسفور ، قل لسيدك : «إن الغالب هو الذي يلي شروطه على المغلوب . فقد استوليت على تراقيا وسأتصرف فيها على هواي ، لقد تقدم موسم الأمطار ، وسأقضى فيها فصل الشتاء مع جيشي . وسأعقب سيدك لأنه آخر رحلتي عن سوء نية . ولكن إذا كان يرغب حقاً في أن أغفو عنه فليعدّ لي في عيد الفصح من السنة القادمة ما يلزم من المراكب للعبور إلى آسية » .

وتركز فريدريك باريروس في تراقيا وطلب مساهمات حربية ضخمة ومؤناً لمحاربيه ، واختار أدرنة ليعيش فيها مع بلاطه ، وعين لقواته مواقعها الشتوية ، وتسليم من بيزنطية مائة وأربعين وعشرين رهينة ، وأظهر أنه مختلف بها . وطبق اسحق لانج يتملق هذا الذي كم تمنى أن يخدعه عما قريب ، وبانتظار ذلك وافق بحماسة على الشروط الأكثر إذلاً التي فرضها عليه فريدريك باريروس . صحيح أن الرومي سيعرف كيف ينتقم من البربر ، ولكنه في الوقت الراهن لم يكن ليستطيع أن يظهر بغضبه ولا أن يمتنع عن تسمينه وإغناه ...

مراسلات لانج صلاح الدين وعبور باريروس آسيا الصغرى

وبعد أن عاش فريدريك باريروس عيشة رخيصة خلال الشتاء عبر إلى آسية الصغرى مع جيشه بين ٢١ و ٣٠ آذار (مارس) ١١٩٠ فاحترب الأنضول البيزنطي على خط وتر القوس . وعلم صلاح الدين من الروم بما كان يجري في آسية الصغرى لأن اسحق لانج لم يشأ أن يعتقد حليفه بأنه لم يف بأي من وعوده التي قطعها على نفسه ، أي أن يلحقضرر بالألمان ؛ ولكي يبرر سلوكه بعث إليه بر رسالة احتفظ لنا بها بهاء الدين وهي مكتوبة على رق مطوي من ناحية الترجمة ومقسم إلى عمودين في الأول منها النص الأصلي وفي الثاني الترجمة

العربية . وفي الفراغ ما بين العمودين خاتم إمبراطور بيزنطية مطبوعاً ليس بالشمع بل بنوع من الوسام الذهبي يحمل رسم الإمبراطور ويزن خمسة عشر ديناً ذهباً . وهذه ترجمتها : « اسحق لانج المؤمن باليسوع الذي هو الله ، المتوج من الله ، الظافر ، الدائم العظمة البالغ القوة الذي لا يهزم ، إمبراطور الروم ، إلى النبيل جداً سلطان مصر صلاح الدين .

سلام وصداقة

تلقيت الكتاب المرسل من عظمتك إلى عظمتي ومنه علمت بموت سفيري (هذا السفير الذي وقع معاهدة الصداقة بين صلاح الدين واسحق لانج كان قد مات في سوريا على طريق العودة) والمني أن يلقى نهايته في أرض غريبة . وضوري الآن أن ترسل إليّ جثته ومتاعه لأسلمها إلى أسرته . أما فيما يتعلق بالشائعات المعرضة التي انتشرت حول الجerman الذين عبروا إمبراطوري ، والتي لابد أنها بلغتك فلم تفاجئني لأن أعدائي يسرّهم أن يروجوا الأرجيف التي تخدم نواياهم ، ولكن إذا أردت أن تعلم الحقيقة فسيسرّك أن أحيطك علماً أن هذه الشعوب ذاقت هي من الآلام أكثر مما أذاقه رعاياي ، لقد خسروا مالاً وخسروا رجالاً . بعضهم مات من المرض والبؤس ، وبعضهم قتله جنودي ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . وقليل منه استطاعوا الإفلات من القوات التي نشرتها في أقاليمي مزودة بأمر استنزفهم ، لقد بلغ فرمان من الضعف حداً يصعب معه أن يدخلوا ممالك ، وإذا وصلوا إليها فسيكونون سهكين لدرجة لن يكونوا معها قادرين على إلحاقي الأذى بك وعلى مساعدة إخوانهم فرنجة المشرق . ولا أدرى لم يbedo أنك تنسى صداقتنا فلا تطلعني على نوياك ومشاريعك ؟^(١) .

مخاوف صلاح الدين على حدود سوريا الشمالية

لم تكِف تأكيدات الرومي لتهيئة مخاوف صلاح الدين ، لأن حدوده الشمالية كانت خالية من القوى الاحتياطية مادامت كل قواته وأالياته الجاهزة تقف أمام عكا أو هي في الطريق إليها . كان ينطلع قلقاً نحو حلب ، مفتاح سوريا الشمالية ، ولكن رسالة اسحق لانج تؤكد أن تقدم الجerman في آسيا الصغرى كان يصطدم يومياً بعقبات جديدة .

باربروس يدخل قونية عاصمة السلجوقيين

وقبيل فريدريك باربروس الذي كان يعتقد بأنه وجد في شخص قلح أرسلان حليفاً

موثقاً به، بعدهاء متدام فيما هو يوغل تقدماً في الأناضول السلجوقي فأبناء سلطان قونية لم يؤيدوا سياسة والدهم بل أخذوا بالاتفاق مع زعماء القبائل التركانية يقطعون الدروب ويضيقون الجرمان ليخرجوهم عن الطرق السالكة، وإحداث الفراغ أمامهم، حتى إن ابن الأكبر قطب الدين ملكشاه الثاني نهد يتحدى فريدريك باريروس أمام قونية التي أصبحت منذ عام ١٠٧٤ عاصمة الإمبراطورية السلجوقيّة بعدما كانت فارسية، ومقدونية ورومانية. ورغم أن الكثرة سحقته ولكن هازمه لم يجنوا من انتصارهم أدنى فائدة ببلاد كل ما فيها حتى الحصى معاد لهم. ومع ذلك ارتأحوا كثيراً إلى افتتاح أبواب قونية في وجوههم يمضوا فيها بضعة أيام تخففاً من العنااء بعد ملحنتهم العاثرة الحظ عبر آسيا الصغرى، وهذا الاحتلال اللاهث للقرى المقدسة التي لم يكونوا ليجدوا فيها حزمة علف خيولهم أو قبضة طحين لرجائهم.

مصابيح الجرمان في آسيا الصغرى

أجل كان اسحق لانج يتم لفيليوبوليس والإهانات التي اضطر إلى اجترارها بمرارة، حينما كان هو الأضعف، وهما هوذا الآن مسرور بمصابيح فريدريك باريروس. ترى كيف انقلب هذا الجيش اللجب البالغ الثقة في نفسه؟ والذي كان يتصرف أني حلّ كما لو أنه في أراضي مفتوحة، لقد نفذت مؤنة، تلازم المجاعة في حله وترحاله...، تلك المجاعة الرهيبة، في أرض مجهولة، والتي غدت يوماً عن يوم أكثر استعصاء وأبلغ إماتة. وطفق الناس يتحدثون في مواخير بيزنطية عن اضطرار الصليبيين الجرمانيين إلى ذبح خيولهم وأكلها. فهل أصبح هؤلاء الفرسان الشجعان، فرسان فريدريك باريروس أشباحاً؟.. أولئك الذين انطلقوا من بعيد، بعيد جداً ليحتلوا القدس. وعبروا أوروبا من الشمال إلى الجنوب، والذين شرعوا بعد خمسة أيام في قونية للراحة وإعادة التجمع يتأهبون للأنحدار نحو السهوب السورية! ولم يكن لهم من خيار سوى طريقين جد سالكين. وإذا ألقينا نظرة على الخريطة رأينا أنه بدءاً من خليج أدنـة حتى العراق العربي تتوضّع التضاريس على هيئة قوس ضخمة السلسلة، مكونة من جبال طوروس ومرتفعات كردستان التي ينفتح فيها معبران أحدهما إلى الجنوب، وهو الطريق الملكية القدية من همدان إلى بابل، والثاني إلى الشمال عبر ثغرة الفرات الأعلى.

وعبر فريدريك باريروس في ٣٠ أيار (مايو) جبال طوروس قرب لارنده، متوجهًا نحو

الحدود التركية - الأرمنية في الطوروس الكيليكى، ومن هناك انحدر عبر الإمارة الأرمنية - آنذاك - من إيزوريا الشرقية حتى سلوقية الواقعة تقريباً بواجهة انطاكية . ومن راتيسبون على الدانوب إلى سلوقية قطع فريدريك باربروس مع مائة ألف جermanي أكثرهم مشاة مسافة تقارب ألفاً وخمسمائة كيلو متر ، مات منهم في الطريق ستون ألفاً، تركت عظامهم في أوريا المذعورة من أقصاها إلى أدناها شاهداً على تلك الحملة الصليبية الثالثة التي ساقت هذا العدد من الرجال من تخوم بافاريا حتى سلطنة قونية .

الجرمان على أبواب سوريا والخطر الكبير

وكان عدد الناجين أربعين ألفاً حين أخذوا أهابتهم للعبور إلى سوريا ، ولكن عددهم مايزال كبيراً بحيث لم يستقبل بغیر اكترا ث نبأ ظهورهم من جهة انطاكية . كان اقتراب مثل هذه الكتلة من الرجال - كما يلاحظ السيد ريني غروسيه - يشكل أرهب خطر واجبه الإسلام السوري قبل الغزو المغولي .

نهاية باربروس المأساوية وانزياح شبح الخطر الداهم

لكن حادثاً صغيراً واحداً غير مجرى الأحداث التاريخية التي هي آنذاك قيد الإعداد بقضائه على حياة الإمبراطور الجermanي . كان فريدريك باربروس قبل اتجاهه نحو أضنة وانطاكية متوقفاً للاستراحة على ضفاف نهر الشليف بعد مسيرة طويلة ، يتصرف جسمه عرقاً ، فاستحمّ وغرق وهكذا انتهت حياة ذلك الجندي الشجاع الذي قاد وهو في السبعين من عمره جيشاً ضخماً ليعيد احتلال فلسطين . وأشاعت تلك النهاية غير المتوقعة الفرح في كل ديار الإسلام ، وأثلج قلب صلاح الدين خاصة لهذا النبأ . ونقل ابن الأثير لنا صدى ذلك قائلاً : « لو لم يظهر الله نعمته لل المسلمين بإهلاكه ملك الجermanان ساعة كان يتأهب لعبور الحدود السورية لكننا كتبنا اليوم أنَّ مصر وسوريا كانتا فيما مضى ملكاً للإسلام » .^(٢)

هللة الجيش الجermanي وبلغ فلوله صور

واستندت قيادة القوات الجermanية لفردرick دي صواب ابن الموهنزوون الباسلن ولكن نافخ الروح في الصليبية لم يعد هناك ليؤجج حمية رجاله بالقدوة الشخصية . وليس بعيد أن

يكون الجerman الذين شهدوا تساقط هذا العدد الهائل من رفاقهم قد فتَّ في عضدهم تلك المسيرات المنهكة ؛ ومهما يكن من أمر فقد همت فيه روح الشجاعة ، وتحرر الجند من الانضباط غير المهاون الذي ما انفك يفرضه عليهم فريدريك باربروس الذي صمد بصلابة حيال الألم رغم سنه المتقدمة . فلم يعودوا — كما كانوا — يتلقون بفخر أوامر رؤسائهم ، وأشار المؤرخون العرب أنفسهم إلى أن التغيرات المعنوية التي حلّت بالفرنجية أثّرت في انسجام وقوّة هذه الكتلة من الرجال الذين كان يدعمهم عهد ذاك مثل أعلى عجيب . فكتب العماد « هولاء الجerman الخيفون جداً سابقاً كانوا قد سقطوا إلى أسفل سافلين .. » ويضيف قائلاً : « كانوا يستسلمون بيسراً حتى إنهم لم يعودوا يسارون ثناً يذكر في سوق النحاسة »^(٣) فأصبح جيش راتيسبون أشبه ما يكون بجماعة يتركها قادتها شيئاً فشيئاً لمصيرها .. فأين هي الآن حماسات الأيام الماضية ؟ من لم يزل يتذكّر قول القديس برنار الذي كُمنى لو نظم الإكليلوس الصلبية كانتصار للثوب الكنهي ؟ ووصل جيش فريدريك الراحل أمام انتفاضة في حالة بالغة السوء ، وقد أصيّب بالصميم بخيبة أمل .

وزيادة في مصائبهم حلّ به وباء الطاعون ، وأرهقته مشاقّ عبور الحدود السورية . واستقبل أمير انتفاضة فريدريك دي صواب العاثر الحظ بحفاوة غامراً إياه بصاحب عبارات الصداقة ، لكن زعمت بعض الألسنة الشريرة أنه كم ود الاستيلاء على الكثر الحربي الذي كان الجerman يحملونه معهم ، ولو واتته الفرصة لخنق بيديه فريدريك دي صواب المتعطش للقتال في الأرض المقدسة .

ووضع أمير انتفاضة أسطولاً تحت تصرف الجيش الجermanي ، وأخيراً حينما وصلوا إلى صور ، خفَّ كونراد دي مونفراً لاستقبالهم وقادتهم إلى معسكر عكا ، ولم يكن بقي من هذا الجيش المؤلف من ١٠٠٠٠ رجل سوى ٨٠٠٠—٧٠٠٠ مشاة و ٧٠٠٠ خيالة .

تأسيس تنظيم الفرسان الاستماريين التوتونيين

ولما وصلوا إلى عكا أراد بضعة سادة من مدبيتي بريم ولوبيك — وقد أحذتهم الشفقة على مواطنهم المرضى والجرحى — أن يخفّفوا من آلامهم فقطعوا أشرعة المركب الذي أقلّهم إلى الأرض المقدسة واستعملوها خيمة ضخمة استقبلوا فيها المرضى . وانضم إليهم أربعون سيداً

ألمانياً آخرون وأسسوا لرجالهم مستشفى في قلب الجيم الفرنجي؛ وصفق لغيرة هؤلاء الاستبار الأتقياء غي دي لوزينيان وبطريق القدس والأحجار والأمراء الصليبيون الحاضرون. وطلبو من الدوق فريدرick دي صواب أن يكتب لأنجيه هنري دي صواب ملك جermania ليطلب من البابا سلسرين الثالث أن يكرّس غيرة هؤلاء الذين أقاموا المستشفى. فقدم هنري الطلب، وصدر عن البابا مرسوم مؤرخ في ١٢ شباط (فبراير) ١١٩١ بتأسيس التنظيم الجديد تحت اسم الأخوة الاستماريين التوتونيين لسيدة صهيون، وهذا هو أصل التنظيم العسكري للفرسان التوتونيين. وفرض عليهم البابا نظام القديس أوغسطين والأنظمة الخاصة بالقديس يوحنا. أما الانضباط العسكري فكان انضباط الهيكليين. وقبل أن يلبسوا الرداء (المعطف الأبيض) كان عليهم أن يثبتوا أنهم من أصل نبيل.

تقرير حاكم سميساط الأرماني لصلاح الدين عن الجيش الجرماني

وعلم صلاح الدين أن جيش فريدرick دي صواب غادر انطاكيه، ولم تكن تقارير حكام المناطق الحدودية — على الإطلاق — مطمئنة، فأحدها — وقد حفظه لنا بهاء الدين — يبيّن لنا في أية حال وصل الجرمانيون إلى سوريا، وقد حملته الأوساط السياسية الإسلامية على محمل الجد أو المناصرة للإسلام. إنه تقرير حاكم أرماني لمنطقة سميساط. وإليكموه: «رسالة من غاثوغيكوس قائد قلعة الروم إلى مولانا وملكتنا صلاح الدين السلطان المعظم الذي رفع لواء العدالة والإحسان، حامي الإيمان صلاح الدين الدنيا والدين أمير الإسلام والمسلمين أدام الله سعادته، وزاد عظمته وحفظ حياته ولি�توج آماله أخيراً بالمجده السماوي. سلام وطاعة.

بعدما غادر فريدرick باريروس مملكته غزا إمبراطورية بيزنطية، ولم يرحل عنها إلا بعد أن خضع إمبراطورها للشروط التي فرضها عليه، وقدم له ابنه وأخاه وأشهر قادة بلاطه رهائن، كما حمله على دفع خمسين وزنة من الذهب ومثلها من الفضة، وتجمييز مراكب للإبحار إلى آسيا، ولم يطلق سراح الرهائن إلا بعد أن وصل إلى أراضي قلوج أرسلان. وفي الأيام الثلاثة الأولى قدمت لهم قبائل تركانية خيولاً وأبقاراً وخرافاً ومؤنًا أخرى، ولكن حجم الغنيمة جعلهم يسرعون من كل مكان، وشجرت الحرب ما بين تلك القبائل وملك الجerman. فأنهى طوال ثلاثة وثلاثين يوماً. وحينما اقترب من قونية، جمع قطب الدين ملك شاه الثاني ابن قلوج أرسلان قواتٍ وبدأ ينازله؛ لكنه هُزم وتعقبه فريدرick باريروس الذي خيّم أمام قونية وهدد

بهاجمة المدينة . فاحتكم قطب الدين ملك شاه الثاني ثانية للسلاح فأصابته المصيبة ذاتها وارتكب الملك الجرماني مجرزة رهيبة ودخل قونية شاهراً سيفه . وعرض كل السكان على السيف ، وأمضى خمسة أيام في هذا الموقع ، فطلب قلوج أرسلان خلاها حياته وحريته مقابل الاستسلام . وحصل على ذلك . وسلم عشرين من أمرائه رهائن ، وأقنع سلطان قونية فريديريك باربروس بأن يسلك طريق طارس ، وقبل أن يجتاز الأعداء حدود أرمينيا الصغرى ، قرر ابن لون خنثاراً أو مكرهاً أن يرسل إليه مملوكة الحام وغيرة من القادة آمراً إياهم سراً أن يجعلوا الأлан — إذا أمكن — يسلكون طريق ممالك قلوج أرسلان . ولكن حينما جاء هؤلاء السفراء للقيام بهمّتهم ، علموا بأن الأمور تقررت على نحو مختلف تماماً ؛ لأن فريديريك باربروس تقدم على رأس قواته في كيليكية ، وكان يستريح على شاطئ أحد الأنهر ؛ وهناك تناول الطعام ونام . وعندما استيقظ أراد أن يستحم في هذه المياه ولكن ما كان يخرج حتى سبب له البرد — بمشيئة الله — مرضًا مات منه بعد بضعة أيام .

بعد هذا الحادث هرب سفراء ملك أرمينيا من الجيش وجاؤوا يخبرون ملك أرمينيا بوفاة فريديريك باربروس . عندئذ أوصى هذا الأخير بباب القلعة على نفسه وقرر الدفاع ، لكن ابن ملك الألان أمر بإعادة السفراء إلى معسكره ، وأعلمهم بأن والده لم يقم بهذه الرحلة إلا ليحج إلى المدينة المقدسة ، وأنه بدوره تولى القيادة وليس لديه أي هدف آخر . وهو ، بعد أن تحمل كل هذه الآلام ، لن يغفر ملك أرمينيا ، وسيستولي على مالكه إن أقام بوجهه العقبات ، ولكنه سيعامله كصديق إذا سمح له صادقاً بالمرور ؛ وبالمؤمن . وأكرهت هذه التهديدات ملك أرمينيا على توقيع معاهدة تحالف مع ملك الجerman.

أخيراً على أن أخبرك بأن هذا الأخير يقود جيشاً كبيراً العدد وحيثما استعرض قواته وجد أنه ما يزال لديه اثنان وأربعون ألفاً من الفرسان ، ومن المشاة عدد هو من الضخامة بحيث يستحيل تحديده . إنهم أنواع مختلفة من البشر تحتווهم قاعدة من الانضباط باللغة الصرامة حتى لتوصف بالفطاعة . فمن أجل أقل هفوة يقتل المحارب دون أن يحميه أي شيء من العقاب . واتهم أحد ضباطهم بتجاوز الحدود في معاقبة أحد خدمه ، وأنه مذنب باقتراف القسوة البالغة فحكم عليه القسم بالإعدام وأعدم فعلاً . هؤلاء الرجال يمتنعون عن آية لذة ، وإذا مارسها أحدهم تحاشاه الآخرون كمجرم ، ويفرضون عليه كفارة . وهم يسلكون هذا

السلوك تحت تأثير الألم الذي أصابهم بفقدانهم بيت المقدس . ومؤكداً أن بعضهم نذروا **الآلا**
يرتدوا من ذي زعن بعده **إلا لباس الحرب** ؛ وإن يكن الزعماء يستنكرون هذه الغيرة المبالغ فيها .
إن صبرهم على المتاعب والآلام والأشغال يفوق التصور . هذا ما أكبهه إليك عن هؤلاء القوم
وسأطلعك — فيما بعد بمشيئة الله — على ما سأطلع عليه من جديد»^(٤) . ويتسلل صلاح
الدين هذا التقرير ، يدرك المرء أنه لم يكن البتة متفائلاً . ومؤكداً لو علم بأنه لن يصل أمام
عكا سوى بضعة آلاف من الرجال المرهقين ، لا يتسم لتأثير حليفه البعيد ، ولا كان هو نفسه
أخاف أمراءه خلال مجلس الحرب الذي عقده بعد اطلاعه على هذه الرسالة للتشاور في
النهج الذي يجب اتباعه .

حواشي الفصل الحادي والعشرون

١— رسالة امبراطور الروم إلى صلاح الدين :

قال العمامد : «وصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافاً واستسعافاً . ولذكر توكبه من إقامة الجمعة في جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبة فيه . وإنه مستمر على المودة ، راغب في الخبة . ويعذر عن عبور الملك الألاني ، وإنه قد فجع في طريقه بالألماني . ونال من الشدة ، ونقص العدة ما أضعفه وأوهاه ، وإنه لا يصل إلى بلادكم فيتفع بنفسه أو ينفع ، ويكون مصريه هناك ولا يرجع . ويتوت بما به كاده ، وإنه قد بلغ في أذاته اجتهاده . ويطلب رسولاً يدرك به من السلطان رسولًا . فأجيب في ذلك إلى مراده ، ووقع الاعتداد بما ذكره من اعتzáده » .

وقال القاضي ابن شداد : « كان بين السلطان وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة ، وكان وصل منه رسول إلى الباب الكريم السلطاني برج عيون سنة خمس وثمانين في رجب في جواب رسول كان أنفذه السلطان بعد تقرير القواعد وإقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية فمضى الرسول ، وأقام الخطبة ولقي باحترام عظيم وإكرام زائد . وكان قد أنفذ معه في المركب الخطيب والمنبر ، وجمعًا من المؤذنين والقراء . وكان يوم دخولهم إلى قسطنطينية يوماً عظيمًا من أيام الإسلام شاهده جمع كبير من التجار ورقى الخطيب المنبر ، واجتمع إليه المسلمين المقيمون بها والتجار ، وأقام الدعوة الإسلامية العباسية ، ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يغير بانتظام الحال في ذلك . فأقام مدة . ولقد شاهدته يبلغ الرسالة ومعه ترجمان يترجم عنه وهو شيخ من أحسن ما يفرض أن يكون من صور المشاعر عليه نزيم الذي يختص بهم ومعه كتاب وتنكرة ، والكتاب مخوم بذهب ». (أبو شامة : كتاب الروضتين ص ١٥٩ — ١٦٠ .)

وجاء في كتاب التوادر السلطانية لابن شداد : ..

رسالة امبراطور الروم إلى صلاح الدين حول عبور ملك الألانيا بجيشه بلاده في طريقه إلى بيروت الشام : من ايساكيوس الملك المؤمن باليسوع الإله ، المتوج من الله المنصور العالمي أبداً ، أقعقوس المنبر من الله القاهر الذي لا يغلب ، ضابط الروم بذاته انكليوس ، إلى النسيب سلطان مصر صلاح الدين : هذه هي ديناجة الكتاب ، وأما ما فسر من الكتاب فهو كما يلي :

الحبة والمودة ، وقد وصل خط نسبتك الذي أنقذت إلى ملكي وقرأناه وعلمنا منه أن رسولنا توفي . وحزنا حيث إنه توفي في بلد غريب ، وما قدر أن يتم كل ما رسم له ملكي ، وأمره أن يتحدث مع نسبتك ويقول في حضرتك ، ولابد لنسبتك أن تهم إنفاذ رسول إلى ملكي ليعرف ملكي ما بعثت إليك مع رسول الموف . وأما القماش الذي خلفه وووجه بعد موته ينفذ إلى ملكي لتعطيه أولاده وأقاربه . وما أظن أنه سمع نسبتك أخباراً ردية . وأنه قد سار في بلاد الآلان ، وما هو عجب فإن الأعداء يرجفون بأشیاء كذب على قدر أغراضهم ، ولو تشهي أن تسمع الحق فإنهم قد تأذوا وتعبوا أكثر مما آذوا فلاحي بلادي ، وقد خسروا كثيراً من المال والدواب والرحل والرجال ، ومات منهم كثير وقتلوا وتلفوا وبالشدة قد تخلصوا من أيدي أجناد بلادي ، وقد ضعفوا بحيث لا يصلون إلى بلادك ، وإن وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدة كثيرة ، لا يقدرون ينفعون جنسهم ولا يضرون نسبتك . وبعد ذلك كله العجب كيف قد نسيت الذي بيني وبينك ؟ وكيف ماعرفت ملكي شيئاً من المقاصد والمهام ؟ ما يريح ملكي من محبتك إلا عداوة الفرج وجنسهم ، ولا بد لنسبتك ، كما قد كتب ملكي في كتابك الذي قد أنقذت إلينا من إنفاذ رسول حتى يعرفني جميع ما قد كتب إليك في القديم من الحديث ويكون ذلك بأسرع ما يمكن ، ولا تحمل على قلبك من مجيء الأعداء الذين قد سمعت بهم ، فإن إدبارهم على قدر نيتهم وآرائهم .

(ابن شداد : التوادر السلطانية ص ١٣٢ - ١٣٣) .

٢ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٥٠ .

٣ - جاء في كتاب الروضتين لأبي شامة تقريراً عن الحالة التي تردى إليها الجيش الألماني بعد وفاة قائده الملك فردينك باربروس غرقاً ، وجلوس ابنه مكانه ، ومسيرته إلى الأرض المقدسة على سمت انطاكيه ، وتواتر الأخبار عن ضعف قواته .. ، والتداير التي اتخذها صلاح الدين لحماية الشغور الشمالية :

« وساروا على سمت انطاكيه في فرق ثلاثة ، كأنهم من المرض قد نيسوا من أجداده . وأكثراهم حملة عصيٰ وركاب حمير ، وكلٌ بالأرض التي يسلكها غير خبير . فتيم بهم صاحب انطاكيه ، ونقلت عليه وطأتهم المفاجية ، وحسن لهم طريق بلاد حلب ، فلم يروا لهم في ذلك الصوب من أرب . وطلب منه الملك قلعة انطاكيه ليتعلق بها ماله وخزائنه وألقائه ، فأخللها له ، وسلمها إليه طمعاً في ماله ، وأموال رجاله . وكان على ما حدسه ، فإنه لم يعد إليها ، واستولى الإبرئنس بانطاكيه عليها . وجاءت فرقه منهم ليلاً إلى حصن بغرايس ، وظنوا أنه في أيدي أحناشم الأنجلوس . ففتحوا على القلعة الباب ، وأخرجوا الأصحاب ، وتسلم تلك الأموال بأحتمالها ، والصناديق بأفقالها ، وأسر منهم وقتل كثير ، وخرج بعد ذلك أهل حلب وجندها إلى طرقيهم ، وفرقوا بين فرقهم ؛ والتقطوه من الخبر والعنياضن » . وكان الواحد يستأثر منهم ثلاثة ، ولا يرى من رفاقهم إغاثة . فهانت الألمانية بعد تلك المهابة في الأنفس ، وباعوهم في الأسواق بالشمن الأنجلوس . ولما تكامل وصول المسلمين إلى انطاكيه ، سلكوا إلى طريق طرابلس جبلة واللاذقية ، فخرج عليهم رجالها فقتلوا منهم وأسروا فاما وصلوا إلى طرابلس إلا في خف ، ولم يصف من جاء مع الملك غير ألف . ونجاوا إلى النازلين على عكا فغرقوا في بحثهم ، ومحدوها في وهجهم ، ثم هلكوا على عكا بعد انتهاء مدة ، واقتضاء شهدة . بتاريخ ثان عشر ذي الحجة سنة سنتين وثمانين » .

وقال القاضي ابن شداد : « مرض ولد ملك الآلان الذي قام مقامه مرضًا عظيمًا ، وأقام بموضع يسمى التينات من بلاد لافيون ، وأقام معه خمسة وعشرون فارساً وأربعون داوياً . وجهز عسكره نحو أنطاكيه حتى يقطعوا

الطريق، وربهم ثلاث فرق لكتفهم؛ ثم إنَّ الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة بغراس ومقدمها كند عظيم عندهم، وإنَّ عسکر بغراس مع قلته أخذ منهم مائةيَّ رجلٍ نهباً وقهرأ. وكتبوا يخرون عنهم بالضعف العظيم، والمرض الشديد، وقلة الخيل والظاهر والعدد والآلات. ولما اتصل هذا الخبر بالنواب في البلاد الإسلامية، أنددوا إلَّا هم عسكراً يكشفون أخبارهم، فوقع العسکر على جمع عظيم، قد خرجوا لطلب العلوفة، فأغاروا عليهم وقتلوا وأسرُوا زهاء خمسمائة نفس. ولقد حضرت من يخرون السلطان عنهم ويقول هم عدد كثير لكتفهم ضعفاء قليلو الخيل والعدة وأكثر ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة. قال: ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم، فغير منهم جمع عظيمٍ ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولا رحمة إلا النادر، فسألتهم عن ذلك، فقالوا: أقمنا برج وخم أياماً، وقتلت أزوازنا وأحطابنا، فأوقتنا معظم عدنا، وبات متأخر علينا عظيم، واحتجنا إلى الخيل فلنجهنها وأكلنها. ومات الكند الذي وصل إلى أنطاكية وطبع لأفون فيهم، حتى عن على أحد مال الملك لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذي تأخر معه. ولم تزل أخبارهم تتواءر بالضعف والمرض. قال: ولما تحقق السلطان وصول ملك الأлан إلى بلاد لأفون وقربه من البلاد الإسلامية، جمع أمراء دولته وأرباب الآراء، وشاورهم فيما يصنع، فاتفق الرأي على أنَّ العسکر يسير بعضه إلى البلاد المتأخرة لطريق عسکر العدوِّ الواسع، وأنْ يقيم هو رحمة الله على منازلة العدوِّ المقابل بباقي العسکر المنصور. فكان أول من سار صاحب منيع ناصر الدين بن تقى الدين، ثم عز الدين بن المقدم صاحب كفر طاب وبارزن وظيرها، ثم مجذ الدين صاحب شيزر، ثم اليازوقية من جملة عسکر حلب. وسار إلى دمشق ولده الأفضل لمرض عرض له. وكذا بدر الدين شحنة دمشق. ثم سار الملك الظاهر إلى حلب لإيالة الطريق وكشف الأشمار وحفظ ما يليه من البلاد. وسار بعده الملك المؤذن لحفظ ما يليه من البلاد وتدبر أمر العدوِّ والختار». (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٥٦—١٥٧).

٤— صورة كتاب الكاغيكيوس الأرمني

ولقد وصل إلى السلطان—رحمه الله—كتاب من الكاغيكيوس، وهو مقدم الأرمن، وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الفرات. (هذه ترجمته).

«كتاب الداعي المخلص الكاغيكيوس: مما أطالع به علوم مولانا والمكنا السلطان الناصر جامع كلمة الإيمان، رافع علم العدل والإحسان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، أدام الله إقباله، وضاعف جلاله، وصان مهجهته وكاله، وببلغه نهاية آماله، بعظمته وجلاله: من أمر ملك الألان وما جرى له عند ظهوره، وذلك: أنه أول ماخرج من دياره، ودخل بلاد الهنكر غصباً، وغصب ملك المنشك بالإذعان والدخول تحت طاعته، وأخذ من ماله ورجاله ما اختار، ثم إنه دخل أرض مقدم الروم، وفتح البلاد، ونهبها، وأقام بها وأخلاقها، وأحوج ملك الروم إلى أنْ أطاعه، وأخذ رهاته: ولده وأخاه وأربعين نفراً من خلصائه، وأخذ منه خمسين قطعاً ذهباً وخمسين قطعاً فضة، وثياب أطلس مبلغاً عظيماً، واغتصب المراكب، وعاد بها إلى هذا الجانب، وضعيته الراهئن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قلبيج أرسلان، وردَّ الراهئن، وبقي سائراً ثلاثة أيام، وتركان الأرج يلقونه بالأغنام والأبقار والخيول والبضائع، فتدخلهم الطبع، وجمعوا جميعاً من جميع البلاد، ووقع القتال بين التركان وبينه، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوماً وهو سائر ولا قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قلبيج أرسلان العساكر وقصده وضرب معه مصافاً عظيماً، فظفر به ملك الألان، وكسره كسرَّ عظيمة، وسار حتى أشرف على قونية، فخرج إليه

جموع عظيمة من المسلمين ، فردهم مكسورين ، وهاجم قونية بالسيف ، وقتل منها عملاً عظيماً من المسلمين والغرس ، وأقام بها خمسة أيام ، فطلب قليع أرسلان منه الأمان ، فأمأته الملك ، واستقر بينهم قاعدة أكيدة ، وأخذ منه الملك رهائن ، وعشرين من أكابر دولته ، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ، ففعل ، وقبل منه . وقبل وصوله إلى هذه البلاد نفذ كتابه رسوله يشرح حاله وأين قصده ، وما لقيه في طريقه ، وأنه لابد بمعتز هذه الديار اختياراً أو كرها ، فاقتضى الحال إنفاذ الملك حاتم ، وصحبته مسأل ، ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك في جواب كتابه . وكانت الرؤبة معهم أن يحرقوه على بلاد قليع أرسلان إن أمكن ، فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا عليه الجواب ، وعرفوا الأموال ، أبي الانحراف ، ثم كثروا عليه العساكر والجموع ، ونزل على شط بعض الأنهر ، فأكل خبراً ونام ساعة ، وانتبه ، فتاقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البارد ، فمكث أيامًا قلائل ويات . وأما ابن لون (ابن لون) فكان سائراً يلقى الملك ، فلما جرى هذا الخبر ، هرب الرسل من العسكر ، وتقدموا إليه ، وأعبروه في الحال ، فدخل في حرب حصونه واحتمني هناك .

وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه إلى قصد هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه واستقرت القاعدة بيلجه هرب رسول ابن لون فأنفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال : إن أبي كان شيئاً كبيراً وما قصده هذه الديار إلا لأجل حجج بيت المقدس ، وأنا الذي دبرت الملك وعانيا المشاق في هذه الطريق فمن أطاعني وإلا قصدت دياره .

واستعطف ابن لون واقتضى الحال الاجتماع ضرورة وبالجملة فهو في عدد كثير .

ولقد عرض عسكره فكان اثنين وأربعين شفجحاً وأما الرجال فما يخص عدهم ، وهم أجناس متفاوتة على قصد عظيم وحد في أمرهم وسياسة هائلة حتى أن من جندي منهم جنابة فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة .

ولقد بلغتهم عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضريه ، فاجتمعت القوسس للحكم فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه ، وشفع إلى الملك منهم خلق عظيم . فلم يلتقط إلى ذلك وذبحه وقد حرموا الملاذا على أنفسهم حتى إن من بلغتهم عنه بلوغ لذلة هجره وعزره كل ذلك كان حزناً على البيت المقدس .

ولقد صرخ عن جمع منهم هجروا الثياب مدة طويلة ، وحرموا ما حل ولم يلبسوا إلا الحديد ، حتى أنكر عليهم الأكابر ذلك ، وهم من الصبر على الشقاء والذل والتعب في حال عظيم . طالع المملوك بالحال وما يتجدد بعد يطالع به إن شاء الله تعالى .

هذا كتاب الكاغيكوس ومعنى هذا اللفظ الخليفة ، واسميه بركري كور ابن باسيل . (ابن شداد— التوادر السلطانية ص ١٢٤— ١٢٦).

ولقد أرسل صلاح الدين رسالة إلى الديوان العزيز حول قرب وصول ملك الألان بجيشه ، والدعوة التي أطلقها للجهاد فريضة على كل مسلم ، لإبعاد هذا الخطر القادم ؛ وهي بقلم العماد الأصفهاني :

وقد وصل الخبر بالدائمية الدهباء ، والغمة الغماء ، والنكتبة النكباء ، والشدة الدماء ، والليلة اللباء ، وهي أن ملك الألان ، ومعه ملوك الفرنجية وحشودها وقوامها وكرودها ، وأحزاب الشيطان وجندوها ، وألوية الألواء وبنودها وصل جاراً على السماء ذيول قتامه ، مجرياً في الأرض سيول هامه ، ثائراً بأطلابه لطلاب ثاره ، سائراً بخيله ورجاه كالسيل إلى قراره .

وأنه في عصائب صلبان في عصبيتها متصلة ، وأسراب سراحين على سرح الإسلام متوبة ، وأنه في مئين الألف الألف للمنون ، وأقطاب الإعظام الدائرة لدوائر سوئها رحى الحرب الزيون ، وقد أوقدوا البشر شراراً ، وأضرموا للشرك الداعي إلى النار ناراً ، فإن حسرتهم على (قمامتهم) دائمة ، وقيامتهم قائمة ، والموت يدعوهم إلى المقبرة التي يدعونها ، والآجال تلبيهم لمنياهم التي يدعونها . وكان خبر وصوله متداولاً على السنة الأزاحيف ، وتشيعه أعداء الله من قبل للترهيب والتخييف . واستعدت العساكر الإسلامية للتوجه إلى بلاد الروم في الربع ليقع التساعد مع عساكرها على دفع تلك الجموع باتفاق الجميع ، وانتظر ورد خبر صحيح ، ويقين بأمر صريح ، حتى إذا صرخ الخبر سار العسكر ثم انقطعت الأخبار ، وقادى الانتظار ، ومضت شهور الربع آذار ونيسان وأيار .

وكانت كتب سلطان الروم قليع أرسلان وأولاده ، ورسلهم متواصلة بما يبنيه عن التعااضد ، وبيني أمر الوفاء والوفاق على التعاون والتعاقد ، وهو بإنتهاء ما يصح عندهم واعدون ، ويزعمون أنهم في رد الواجبين وإدائهم مساعدون . فأخلف ذلك الوعد وضيع ذلك المهد ، ووصلت كتبهم بغنة في هذا الأوان بما تأثر به الخبر من العيان .

وقالوا : إنهم قد توسطوا بلاد الإسلام ، وإنهم على قصد الشام ، ثم ورد الخبر بأنهم صالحون وصانعواه وأخلوا لهم الطريق وواعدوهم ، ووسعوا لهم في المضائق ، وسعوا في أمن طرقهم من الطوارق ، وهذا حادث كثير . وباعث فاجيء فاجع لأهل الخمية في الدين باعث ، وناكب لعقود العقول في تعاظم ضرورة ، وتفاقم خطوه ناكم .

وقد تعين الجهاد على كل مسلم ، وما في الوجود مؤمن يكون له هذا الملم غير مؤلم ، والاهتمام بدفعه من أفرض المهام وأهم الفروض ، والخادم منفرد في حمل عبء هذا الفادح الباهظ بالهوض وهو واثق بأن بركات النار العزيزة تدركه ولا تتركه ، وأن الذي يستبعد من النصر القريب يتسوق ويتسع به سلكه ومسلكه إن شاء الله تعالى . (العماد الأصفهاني الفتح القسي : ٣٩٧ - ٣٩٨) .



الفصل الثاني والعشرون

صراع الشرق والغرب أمام أسوار عكا^(١)

معسكر المسلمين أمام عكا

من سوريا على امتداد أطرافها قدم الباعة، ليتمركزوا في «المعسكر الإسلامي» الذي لم يكن أقل اتساعاً ولا أدنى أهمية من المعسكر الفرنجي، ويجب أن نورد هنا ما كتبه مؤلف عربي هو ابن الأثير، بهذا الصدد: «في وسط المعسكر، كانت ساحة واسعة فيها مائة وأربعون دكّان بيطار. لاحظت أن مطبخاً واحداً كان يحتوي على ثمانية وعشرين قدرأً ضخمة يتسع كل منها لنعجة كاملة. وأحصيت بفسي عدد الدكاكين المسجلة لدى مفتش السوق، وعددت منها حتى سبعة آلاف. وللاحظ أن هذه الدكاكين لا تشبه دكاكينا في المدن. فواحدة من التي في المعسكر قد تساوي مائة من دكاكينا. كانت كلها محشوة جداً بالبضائع، وقد سمعت أنه لما غير صلاح الدين مكان معسكره وانتقل إلى قل الخروبة، ومع قصر تلك المسافة تكلفت باقى سبعين ديناراً ذهبياً للانتقال. أما سوق الملابس القديمة منها والمجديدة فشيء يفوق حد التصور. كان في المعسكر أكثر من ألف حوض استحمام يقوم على الخدمة فيها زوج، كل اثنين أو ثلاثة ثلاثة، كانت الأحواض من الخزف ويحيطونها بالأسيجه والخصر كيلا يُرى المستحمون من الخارج. كان الاستحمام بدرهم».

ياله من معسكر سعيد هذا الذي يستطيع فيه الإنسان أن يستحمل ويتدلى ويعطّر بعد المعركة. وبالن مقابل، كان الفرنجية منشغلين خلال أوقات فراغهم الإجبارية أن يدعموا تحصيناتهم تحت أسوار المدينة التي يحاصرونها. وقد أتاح لهم تأخر وصول صلاح الدين إلى الخروبة أن يكسبوا بعض الأرض، وأن يشددوا قبضتهم، فركزوا أكثر قوتهم شرق البرج الملعون حتى البحر، فبنوا في هذه الجهة ثلاثة أبراج أعلى من السور يتسع كل منها، لخمسة رجل موزعين على ثلاثة طوابق. في أحد هذا الطوابق كانت الكباش الخصصة لاحتراق التحصينات، وزود الثاني بمجانق ضخمة تعمل بدقة على جبال ونوابض حجارة كبيرة وأقواساً ضخمة يستخدمها رماتها كـاستخدم المدفعية الآن. وكانوا يرمون بها بقضبان حديدية محمّلة حتى الاحمرار وغير ذلك من القذائف.

العلاقات بين المسلمين والفرنجية فترة وقف القتال

ولكن مع توقف الجنود عن القتال بعد معركة ٤ تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٩، قامت شيئاً فشيئاً علاقات حسن جوار بين المسلمين والفرنجية، وكانت تقام ميادين الطراد بين المُسكونين العدوين، حيث كان بعضهم يتحدى بعضهم الآخر برماح مرفوعة عالياً.

وكان الأداء المسلمين والقادة الفرنجية في آين معاً يحتفون بالمتنصر في هذه المعارك الأخيرة ويتبادل الفريقان الأحاديث وينون ويرقصون، بمثل الصدق الذي كان يسودهم حيناً يقر بعضهم بطون بعضهم الآخر^(٢).

كونراد دي مونفراً يستأنف الأعمال الحربية بحراً

وعاد الربيع. هذا الربيع اللبناني الذي يبتدىء في شهر آذار (مارس) في ضوء عذب غسلته الأمطار الأخيرة؛ ومع مجيء الطقس الجيد بدا سهل عكا أكثر اتساعاً بحيث تنتصب سفوح جبال الجليل بصورة أشد ووضوحاً تحت سماء مدهشة. واستأنف كونراد دي مونفراً المدفع الباسل عن صور العمليات الحربية، فهاجم بخمسين مركباً معدة لنقل الرجال والمؤن أسطولاً مصرياً أتى مددًا للحرامية الإسلامية في عكا؛ وتحولت هذه المعركة لصالح المسلمين الذين استولوا على عددٍ من السفن الفرنجية، وأغرقوا الكثير منها.

الفرنجة بيهاجون المسلمين في سهل عكا

وفي هذا الوقت من حزيران (يونيو) ١١٩٠ تلقى صلاح الدين رسالة غاثو غيفوس قائد قلعة الروم الذي ينبعه — كا قلنا — بوصول صليبيي فريديريك باربروس . وبما أن صلاح الدين أرسل قسماً من قواته إلى الشمال لمنع عليه طريق حلب على الأقل ، انتهزها الفرنجة فرصة ليهاجروا في سهل عكا قائد ميمنة المسلمين الملك العادل ؛ وكان يمكن أن يصاب بأذى لو لم يحدث الجموع أثره في المعسكر الفرنجي .

الزنكيون يشاركون الأيوبيين الجهاد ضد الفرنجة

وكانت الإمدادات تتدفق على المُعسكرين ، إذ وصل عماد الدين زنكي في حزيران (يونيو) ١١٩٠ ، وتبعه بعد قليل سنجار شاه ، وعلاء الدين خرم شاه وزين الدين الذين كانوا عائدين من شمال سوريا ، حيث تمكنا من قطع طريق حلب على قوات فريديريك دي صواب ؛ وهكذا انضم الأتابكة الزنكيون أخيراً إلى الجهاد ناسين مؤقتاً ما كان بينهم وبين صلاح الدين من عداء .

صلاح الدين يستتجد عبئاً سلطان المغرب

وفي بحثه عن نقاط ارتکاز جديدة للإسلام المناضل الذي لم يكن يمكن لأي أحد فيه أن يجد غير مكتثر هذه المعركة الضخمة ضد الفرنجة ، أرسل صلاح الدين سفيراً إلى مراكش لطلب المدد من السلطان الموحدي أبي يوسف يعقوب المنصور . واستقبلت هذه السفارة في مراكش في ١٨ كانون الثاني (يناير) ١١٩١ ، وعثنا طلبت من السلطان المغربي إرسال أسطول لينازع الأسطول الإيطالي السيادة على البحر المتوسط . وقد كتب صلاح الدين : «على المغرب الإسلامي أن يساعد المسلمين أكثر مما يساعد الغرب المسيحي المسيحيين »^(٣) .

وصول إمدادات جديدة للفرنجة وسيطرتهم على البحر

وكان هنري دي تروا كونت شمبانيا ينزل عند الفرنجة مع عشرة آلاف رجل في ٢٧ تموز (يوليو) ١١٩٠ ، ومثله تيبو دي بلوا ، وإيتين دي سانسير وجان دي بونتييني ، ورأول دي

كلير مونت وبرنار دي سان فاليري وإيارار دي شاسني ، وروبير دي بوف ، وألان دي فونتنيي
وغوتبيه دارزيليهير وهي دي شاتودان وجان دارسيس إلخ .. لقد وصلوا في الوقت المناسب ،
لأن الفرنجة المرهقين جوعاً كانوا على وشك التفاوض مع صلاح الدين ، وقد جعلت هذه
الإمدادات إضافة إلى إمدادات فريديريك دي صواب الفرنجة يضيقون الحصار على عكا ،
التي كانت حاميتها بقيادة قائدان باسلين : حاكم المدينة بهاء الدين قراقوش ، والكردي حسام
الدين أبي الهيجا . وشدد الحصار على المدينة من جهة البر ، بينما كانت سابقاً تتصل بقوات
صلاح الدين التي كانت بدورها تحاصر الفرنجة الذين يحاصرون عكا .

وأعادت المراكب الإيطالية التي أفلتت الكوت دي شمبانيا وقواته المبادرة في البحر إلى
أيدي الفرنجة .

اتصال المسلمين بالمدينة المحاصرة

وعلم السلطان للاتصال بالمدينة المحاصرة بواسطة سبّاحين ماهرين كانوا يمرقون تحت
السفن العدوة السادسة منفذ الميناء ، وكذلك بوساطة حمام الزاجل الذي استعمل لأول مرة أمام
عكا لأغراض حرية ، لنقل الأوامر والأخبار ، تلك الأخبار التي لم تكن مُطمئنة لصلاح
الدين ، فالمؤمن كادت تنفد في عكا . وكل ما استطاع السلطان إيصاله إلى المحاصرين مركب فيه
أربعمائة كيس من القمح والحمّص . وصغار-جاموس البقاع السوداء ، والبصل والجبين والخراف
ذات الألية العريضة المدهنة التي يجدها جداً العارفون من أهالي الصحراء .

والخدعة التي استعملها في هذه المسألة كانت بدائية ، ولكنها نجحت نجاحاً باهراً .
لقد رفع على صارية سفيته علم الصليبيين وأليس البحارة لباس الفرنجة ، وكانوا غير مُلتزمين
لأنهم كانوا من المسيحيين المتعاونين .

فريديريك دي صواب والمعركة الفاشلة

وثارت ثائرة فريديريك دي صواب الذي وصل منذ قليل مع بقایا جيشه أي سبعة
آلاف راجل من المائة ألف الذين غادروا راتيسبون وأنهى باللائمة على البارونات المتمركزين
أمام عكا لجمودهم وما انصرفوا إليه من ألعاب ، وكانت رغبته عارمة في القتال ، تغتلى في عروقه

الحماسة فهاجم المماليك الذين تركهم صلاح الدين على التلال المجاورة، ولكن هذه المعركة لم تنته لصالحه.

تحركات الفرنجة وصدامهم مع المسلمين جنوبي عكا

كان الجميع يرون أن حصار عكا قد طال أكثر مما ينبغي فالحاجة والأوغة الرهيبة تحت هذا المناخ الشديد الحرارة تنهك الجيش الفرنجي، الذي أخذت معنوياته تنهار. وكف القادة عن محاولة الحفاظ على روح القتال لدى رجالهم؛ لأن هؤلاء باتوا يحملون خصوصاً بالأغذية التي قد يجدونها في معسكر الأعداء. وليس بمقدمة جميلة تحملهم إلى الخلد. ولا أدركت التبالة الفرنجية أن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر حتى أمطار الشتاء، قررت فتح مر لها برأ، والذهاب للتموين من جهة حيفا مهما كلف الأمر. وقد بدلت لها الفرصة مؤاتية إذ علمت أن صلاح الدين سقط مريض الحمى، وعليه أن يلزم خيمته.

وفي ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٩٠ تحرك الجيش الفرنجي مع انلاج الفجر، وكان الرجال من الالتصاق أحدهم بالآخر بحيث كانوا يؤلفون جداراً صفيقاً ينطلق منه برد من السهام، تقدمهم الراية الكبيرة للصلبية، محملة على عربة في قلب الجيش وكان الفرنجة يتبعون في سيرهم ضفة نهر البلuous؛ ولكن صلاح الدين لا يستطيع احتلاء صهوة جواهه فقد أمر بأن يحمل على محفة حتى تل الخروبة حيث كان يرى تحركات الأعداء، ويوجه قواته حسب الظروف. تقدم الجيش الفرنجي من الشمال إلى الجنوب من جوار تل العبادية حتى الداعوق. ومن الداعوق إلى تل الكردانة؛ ونبع نهر الناعمين الذي لم يكن سوى المستنقع الصغير المسمى بصيّة الكردانة إلى الشرق من تلك البلدة وفي رأس الماء فيما يدعى اليوم عيون البص على بعد ستة أميال جنوبي عكا حدث الصدام الرهيب؛ وبعد ثلاثة أيام من المعارك الضارية أسقط في يد الفرنجة فلم يتمكنوا من اختراق صفوف المسلمين. وبיקي صلاح الدين حرقة وأمّا إذ لم يكن يستطيع الوقوف، بله قدرته على أن يكون وسط رجاله في المعركة ومشاركتهم مخاطر القتال كما يقول بهاء الدين فأمر أولاده الذين كانوا يسهرون على راحته بأن يشاركونا في المعركة قائلاً لهم: «إن واجهم يقتضي أن يكونوا قدوة للمسلمين، هذه القدرة التي سيكونها هو ذاته لو لا مرضه. وأضاف إن على أولاده أن يتذكروا على الدوام واجهم بأن يكونوا في الواقع الأكثر تعرضاً للأخطار»^(٤).

نكوص الفرنجية على أعقابهم ومعركة جسر الداعوق الدامية

صحيح أن أيّاً من الفريقين المترافقين لم يحرز في أية لحظة نجاحاً حاسماً، ولكن يمكن القول إن الفرنجية هُزموا ماداموا قد اضطروا إلى النكوص على أعقابهم بعد ما تحملوا معركة دامية جديدة قرب جسر الداعوق دون أن يُبادوا، ولكن سقط قتلى من الفرنجية وال المسلمين من الكثرة بحيث عمّ نتن رائحة الجثث كل المنطقة.

حسن معاملة صلاح الدين أسرى الفرنجية

يقول المؤرخون العرب: إنه حينما عرض الأسرى على صلاح الدين رأى بينهم شيئاً طاعناً في السن فسألَه من أي بلادٍ هو، فأجاب: إن بلادي بعيدة للغاية حتى إنك لتحتاج إلى عدة أشهر لتصل إليها. فقال له صلاح الدين: مadam الأمر كذلك: فما الذي حملك على الحضور إلى هذه البلاد لتقاتلني؟ فأجاب الشيخ الفرنجي: ماجئت إلا طمعاً في الحج إلى الأرض المقدسة. فأمر صلاح الدين بإطلاق سراحه قائلاً له: اذهب وتم الحج الذي عزمت عليه فأنت حرّ. ثم اذهب لقضاء ما تبقى من أيام عمرك بين أهلك. وأوصل إلى أولادك هذه العلامات على إحساني. ودفع إليه عدداً من الهدايا وحصاناً ينقله إلى معسكر الفرنجية^(٥)

ولم تكن معاملة صلاح الدين لسائر الأسرى أقل أريحية من هذه المعاملة، فقد كان بينهم قائد القوات الفرنسية ونخازنها، فآواهما في خيمة مجاورة لخيته وعاملهما كضيوف قبل أن يرسلهما إلى دمشق. وطلب إليه أحد صغار أولاده أن يسمح له بقطع رؤوس بعض أسرى الفرنجية، معتقداً بذلك أنه يثبت جدارته بدينه، فأجابه صلاح الدين: معاذ الله أن أسمح بقطيعة لا جدوى وراءها. لا أريد أن يتعدّ أولادي أن يتخذوا من إراقة الدم الإنساني لعبة لهم. وهم لا يعرفون قيمة الدم الإنساني ماداموا لم يدركوا بعد الفرق بين المسلم وغير المسلم^(٦).

وكان أحد جنوده قد اختطف طفلاً عمره ثلاثة أشهر من يدي والدته، فبحث صلاح الدين عن الطفل وأعاده إلى أمه^(٧).

مصاعب المسلمين والفرنجة أمام أسوار عكا

قلنا : إن أمراء صلاح الدين بدؤوا يتبعون من البقاء الدائم على صهوات جيادهم ، وكان رجاهم يتذمرون من ضآلية الغائم التي يحصلون عليها جراء هذه الحملة العسكرية ، أمام عكا . وعاد الشتاء فأصبحت أية عملية حربية مستحيلة . ومن جديد اشتدت الفاقة في معسكر الفرنجة ، فكان كيس القمع يساوي ستة وتسعين ديناراً صورياً ، ولم يكن هذا المبلغ ميسوراً للجميع دفعه ، ورغم هذا الشمن الباهظ نفذ مخزون القمع ، وشرع الفرنجة يلحوذون جيادهم ليأكلوا . وحينما أتوا على الجياد كلها طفقوا يغلون سروج الجلد والجلود العتيقة التي كانت تباع بسعر غالٍ جداً .

فشل الصليبية الألمانية

وكانت الأوبئة تتلو الأوبئة فصار يوماً معتاً رجل يومياً من المرض والحرمان . فابن فيبريليك باريروس الذي عانى الكثير من الصعاب ليصل بجيشه أمام عكا مات في ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١١٩١ متأثراً بحمى خبيثة ، ولم ينج من الألمان سوى ثلاثة ضئيلة العدد في تلك المنجمة التي هلك فيها حوالي مائة ألف رجل على الطريق الطويلة من رايتسبون إلى عكا ، فغادرت هذه الأماكن الموحشة منكفة في طريق العودة إلى بلادها . وهكذا فشلت الصليبية الألمانية .

تزاوج الفرنجة على ملكية القدس

من جهة ثانية ، كانت مصاعب جديدة تبرز بين أهم قادة الفرنجة : من سيكون ملك القدس ؟ غي دي لوزينيان أو كونراد دي مونفرا ؟ كان قسم من الجيش يميل إلى الأول ، ملك القدس ، وأخاز شطريغيه إلى الثاني ، مركيز صور . وكان النزاع ، بعد المجاعة والطاعون يستقر في خيم الفرنجة . من سيكون ملك القدس ؟ وغدت هذه القضية همّ البارونات الذين كانوا يزجون أوقات فراغهم في وزن فرص كل من المرشحين اللذين لم يعد في مستطاعهما أن يرى أحدهما الآخر ، وكانوا يحيكـان الشبـكة البـالـغـة التعـقـيد لـتـدـاـبـيرـهاـ المـتـعـلـقـةـ بـالـمـلـكـةـ الشـبـعـ التـيـ فقدـهاـ الـأـوـلـ ، وـيعـزـرـ الثـانـيـ عـنـ استـرـادـهاـ . من سيكون ملك القدس ؟ وكان حدثـ غيرـ مـرـتـقبـ إـطـلاـقاـ سـيـفـجـرـ الدولـ .

ففي تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٠ قضت الملكة سبييل وبناتها ضحايا الطاعون . وبما أن غي دي لوزينيان لم يكن يركن في المطالبة بحقه بالعرش إلا عن سبيل زوجته فقد استند خصوصه إلى أنه حسب الدستور الأورشليمي يعود التاج إلى شقيقها الأميرة إيزابيل ، والأخت الثانية للملك آموري الأول . وبما أن الملكة سبييل ماتت فيجب أن تؤول أرضها إلى أختها إيزابيل ، وكان زوج إيزابيل أونفروا الرابع دي تورون ، وقد سبق له أن رفض مملكة القدس حينما عرضت عليه عام ١٨٦ ، وربما أن هذا الأخير لا شعبية له ولم يكن بالتالي يتخلّى بأية من الفضائل المؤهلة لرجل يريد أن يحكم ، ولو فعل للاكته الألسن تسليمة في المشاحنات التي كانت تدور سراً في ظل مملكة مفقودة . إذاً والحالة هذه ، كان الخصم الأشد رهبة لغي دي لوزينيان هو كونراد دي مونفرا؛ الوحيد الذي كان على الأقل يملك شيئاً ما إذا احتاط للأمر ، فاحتفظ بصور التي ما يزال هو حاكمها ، ولكونه لا يستطيع أن يدعى أي حق في التاج فقد التف أنصاره حول العقبة فعملوا على إبطال زواج إيزابيل باونفروا الرابع دي تورون ليزوجوها كونراد دي مونفرا؛ وهكذا فإن إيزابيل وارثة عرش القدس المعترف بها شرعاً تورث التاج بدورها شرعاً مركيز صور الذي يصبح بذلك المطالب الشرعي ، ملعمياً من الحساب نهائياً ، غي دي لوزينيان . وهكذا تزوج كونراد دي مونفرا إيزابيل لأن زوجته الأولى ما ببرحت تعيش في بيزنطية .

وبعد احتفالات العرس أذاع في الفرنجة بأنه أصبح ملك القدس ، مما يعني توّليه قيادة الجيش . واحتج غي دي لوزينيان وأنصاره على هذا الغصب . وزعم الهيكليون . أنه مادام غي دي لوزينيان كرس علينا ملكاً في المدينة المقدسة على يد هيراقليوس ؛ فما زالت حقوقه قائمة لا ثمن .

ومن جهة ثانية ، كان أسقف بوفي شأنه شأن بقية العناصر الفرنسية يتمسكون بمونفرا ، وأعلن أسقف كتريري الموجود في عكا ، والعناصر الأنكلو - نورماندية اختيارهم غي ، ولدرجة حاول فيها الأسقف - ولكن عبثاً - أن يعارض طلاق أونفروا دي تورون من إيزابيل ، هكذا وهدف الاستئثار بالملكة الشبح ، وما اعتبره من المنازعات السُّلَالِيَّة أضعف الجيش الفرنجي وألف القادة والجنود عصابات مستقلة حسب اختيارهم ، وتبولت الشتائم ، وجرت مشاجرات ، وتفاقمت الأمور لدرجة اقترح معها المفكرون البعيدو النظر - إدراكاً

منهم لداهم خطر هذا النزاع - هدنة بين الخصمين ، وأخذوا وعداً بأن يقبلوا حلاً لهذا النزاع - بمحكم ريكاردوس قلب الأسد وفيليب أوغست اللذين كانا مبحرين في طريقهما إلى الأرض المقدسة على رأس جيشين لإعادة الاحتلال ، مني الجميع بمئون وافرة .

الموقف العسكري قبل وصول قوات الحملة الصليبية الجديدة

ولكي يتمكن من إعادة اللقاء مع جنوده في الربع ، سُرّح صلاح الدين قسماً منهم قبل فصل الأمطار . فغادر عماد الدين زنكي ملك سنجار ، وأمير جزيرة ابن عمر معاشر المسلمين في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٩٠ ، وبعدهما بقليل علاء الدين ابن أمير الموصل ، والملك المظفر تقي الدين والملك الظاهر .

ولما كانت مراكب الفرنجة لم تعد تسدّ ميناء عكا بسبب حالة البحر ، انتهز صلاح الدين الفرصة لتبدل حامية عكا؛ وفي ١٣ شباط (فبراير) ١١٩١ سُمِّي الأمير سيف الدين علي المشطوب حاكماً للموقع بدلاً من الأمير حسام الدين أبي المحيجا .

والحادث الوحيد الذي يجب أن يشار إليه خلال هذا الشتاء هو فقدان سبع سفن مشحونة مؤنّاً لحامية عكا الإسلامية ، إذ دهمتها صاعقة وطُوّحت بها على صخور الشاطئ - فتحطمـت شظاياها . كان ذلك هو موقف الجيشين أمام عكا حينما أُبْرِأَ ملكاً فرنساً وانكلترا متوجهين نحو الأرض المقدسة .

الفصل الثاني والعشرون

١ - عنوان الفصل الأساسي بالفرنسية : « كان هناك أمم عكاظاً جمع غير من الشعوب كي تقاتل ، وينظم كل فريق نفسه متبعاً بحرب طويلة الأمد » .

٢ - عن العلاقات بين المسلمين والفرنجية فترة وقف القتال ، يذكر القاضي ابن شداد هذه الظرفية ، فيقول : « وكان الرجال يوماً من الطائفتين قد سُمِّعوا من القتال ، فقالوا إلى كم نقاتل الكبار وليس للصغار حظ ، نريد أن يتصارع صبيانانا ومنكم . فأخرج صبيان من البلد إلى صبيين من الإفرنج ، واشتد الحرب بينهم ، فوثب أحد الصبيين المسلمين إلى أحد الصبيين الفرنجيين فاختطفه وضرب به الأرض ، وقبضه أسرى ، فاشترط بعض الإفرنج بدميتان ، وقالوا : « هو أسيرك حقاً » فأخذ الدناريين وأطلقه » (ابن شداد : التوادر السلطانية ص ٩٢) .

٣ - عن إرسال صلاح الدين سفارة إلى سلطان المغرب للمشاركة في جهاد الصليبيين ، ثبت هنا ماورد حول هذا الأمر نقاًلاً عن كتاب الروضتين لأبي شامة :

وثيقة

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (الأمير الأجل الأسفه سلار الأصيل العالم المختزن لخمس الدين عدة الإسلام جمال الأنام تاج الدولة أئمَّةَ الْمَلَكَةِ وَالسَّلَطَنَةِ شرفَ الْأَمْرَاءِ مَقْدِمَ الْخَوَاصِ ، أَدَمَ اللَّهُ تَوْفِيقَهُ ، وَيَسِّرْ طَرِيقَهُ ، وَأَنْجِحْ مَقْصِدَهُ ، وَأَعْذِبْ مُورَدَهُ ، وَحِرْسَ مَغْبِيَهُ وَمَشْهُدَهُ ، وَأَسْعِدْ يَوْمَهُ وَغَدَهُ ، يَسْتَخِرْ اللَّهُ سَبِّحَانَهُ ، وَيَتَوَجَّهُ كَيْفَمَا يَسِّرَ اللَّهُ إِلَى الْجَهَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمَغْرِبِيَّةِ حَرْسَ اللَّهِ جَانِبَاهَا ، وَنَصَرَ كَتَائِبَهَا وَمَرَاكِبَهَا ، وَيَسْتَقْرِي فِي الطَّرِيقِ وَفِي الْبَلَادِ مِنْ أَخْبَارِ الْقَوْمِ فِي أَحْوَالِهِمْ وَآدَابِهِمْ وَأَشْغَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ ، وَمَا يَحْبُّونَهُ مِنَ الْقَوْلِ نَزَرَهُ أَوْ جَهَهُ ، وَمِنَ الْلَّقَاءِ مِنْ سَطْهِهِ أَوْ مِنْ قَبْضَهِ ، وَمِنَ الْقَوْدِ بِمَجَالِسِهِمْ مُخْفَفَةً أَوْ مَطْوِلَةً ، وَمِنَ التَّحِيَاتِ الْمَتَهَادَةِ بَيْنَهُمْ مَا صَيَّفَتْهُ وَمَا مَوْقَعَهُ ، وَهُلْ هِيَ السُّنْنُ الْدِينِيَّةُ أَوْ الْمَوَاهِدُ الْمُلُوكِيَّةُ ، لَا يَلْقَاهُ إِلَّا بِمَا يَحْبِهُ ، لَا يَخَاطِبُهُ إِلَّا بِمَا يَسِّرُهُ . وَالْكِتَابُ قَدْ نَفَدَ إِلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لِيَعْلَمْ مَا حَوْطَبَ بِهِ ، وَمِنْ قَصْدِهِ أَنْ تَقْصِصَ الْقَصْصَ عَلَيْهِ ، مِنْ أَوْلَى وَصْلَتْنَا إِلَى مَصْرَ وَمَا أَرْلَانَا مِنَ الْبَدْعِ بِهَا ، وَعَطَلْنَا مِنَ الْإِلْحَادِ فِيهَا ، وَوَضَعْنَا مِنَ الْمَظَالِمِ عَنْهَا ، وَإِقْامَةِ الْجَمَعَةِ ، وَعَقْدِ الْجَمَعَةِ فِيهَا ، وَغَرْوَاتِنَا الَّتِي تَوَاصَلَتْ إِلَى بَلَادِ الْكُفَّارِ

من مصر ، فكانت مقدمة ملك الشام الإسلامي بجتماع الكلمة علينا ، ومقدمة ملك الشام الفرنجي بانقیاد المسلمين لنا ، واتفاق الملوك المجاورين على طاعتنا ، وتفصيل ما جرى لنا مع الفرنج من الغزوات المقدمة التي جسنا فيها خلال ديارهم ، وجعلها الله تعالى مقدمات لما سبق في علمه من أسباب دمارهم ، وما أعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكبرى ، وفتح البيت المقدس وتلثك على الإسلام منه الله العظيم ، إلى غير ذلك من أحد الشغور ، وافتتاح البلاد ، وأشخاص القتل فيما والأسر لهم ، واستنجاد بقيتهم لفرنج المغرب ، وخروج نجذاتهم وكفالتها وقوتها ومنعتها وغضها وزرها ومسارعتها وبمبارتها ، وأنه لا يمضي يوم إلا عن قوة تتجدد ، ومرة تصل ، وأموال واسعة تخرج ، وعونات كثيرة تحمل وإن ثغروا حصره العدو ، وحضرنا نحن العدو ، فما تمكن من قتال الشغر ، ولا يمكن من قتالنا . وخدق على نفسه عدة خنادق ، فما تمكن من قتاله ، وقدم إلى الشغر أبرجة أحقرها أهلها . وخرج مرتبين إلى عسكرينا فكسر العدو أفله ، فإنه اختصم أوقاتاً لم تكن العساكر فيها مجموعة ، وارتاد ساعات لم تكن إلا هب فيها مؤودة ، وأقدم على غرة استيقظت فيها نصرة الله لنا ، وخذلاته لهم ، فقتل الله العدو القتل الذريع ، وأوقع به الفتاك الشنيع . وانجلت إحدى الحركتين عن عشرين ألف قتيل من الكفار ، خرجت أنفسها إلى مصارعها ، وهدمت أجسامها في مضاجعها . والعدو وإن حصر الشغر فإنه محصور ، ولو أبرز صفحته لكان بإذن الله هو المشبور المكسور . وتذكر ما دخل الشغر من أساطيلنا ثلاث مرات وإحرافها بلا كلام وهي الأكبر ، ودخولها بالمرة بحکم السيف الأظهر . وإن أمر العدو مع ذلك قد تطاول ، وخطبه قد تمادي ، وتجددته تتواصل . ومنها ملك الآلان في جموع جماهيرها جمهورة ، وأموال قنطيرها مقتطعة . وإن عساكرنا لو أدركته لما استدرك ، ولولا سبقه لها بالدخول إلى أنطاكية لتلف وهلك . وتنظر إن الله قسم طاغية الآلان ، وأخذته أخذة فرعونية بالإغراق في نهر الدنيا ، الذي هو طريقه إلى الإحراق في نار الآخرة . وإن هذا العدو لو أرسى الله عليه أسطولاً قوياً مستعداً يقطع بحره ويمنع ملكه ، لأنحدنا العدو إما بالجوع والمحصر ، أو يرزق فأخذناه بيد الله تعالى التي بها النصر . فإن كانت الأساطيل بالجانب المغربي ميسرة ، والعدة منها متوفة ، والرجال في اللقاء فارهه ، وللمسيير غير كارهه ، فالبدار البدار . وأنت أهلاً الأمير فيها أول من استخار الله وسار ، وإن كانت دون الأسطول موانع أمّا من قلة عدة ، أو من شغل هناك بهمة ، أو ب مباشرة عدو وما تخصن منه العورة ، أو قد لاحت منه الفرصة فالملعونة ما طريقها واحدة ، ولا سببها مسدودة ، ولا أنواعها محصورة ، تكون تارة بالرجال ، وتارة بالمال ، وما رأينا أهلاً لخطابنا ، ولا كفؤًا لتجاذبنا ، ولا محققاً بدعوتنا ، ولا مليباً بنصرتنا ، إلا ذلك الجناب ، فلم ندعه إلا لواجبه عليه وإلى ما هو مستقل به ووطيق له . فقد كانت تتوقع منه همة تقد في الغرب نارها ، ويستطير في الشرق سنابها ، وتغرس في العدو القصوى شجرتها فيبال من في العدو الدنيا جنابها ، فلا ترضي همه أن يعين الكفر الكفر ، ولا يعين الإسلام الإسلام وما اختص بالاستعنة إلا لأن العدو جاره ، والجار أقدر على الجار ، وأهل الجنة أولى بقتل أهل النار لأنه بحر ، والتجدة بحرية ، ولا غرو أن يحييش البحار البحار) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٧٠ - ١٧١ .

٤ - صلاح الدين يطلب من أبناءه أن يكونوا قدوة للمسلمين (راجع ابن شداد : النواذر السلطانية ص ١٥٠) .

٥ - «وصل في أثناء ذلك اليوم خمسة وأربعون نفراً من أسرى الفرنج ، كانوا قد أخذوا في بيروت ، وسُرُّوا إليه - رحمه الله - فوصلوا في ذلك اليوم إلى ذلك المكان . لقد شاهد منه رقة قلب ورحمة في ذلك اليوم لم يُرَأْ أعظم منها - رحمه الله - وذلك أنه كان فيهم شيخ كبير طاعن في السن ، لم يبق في فمه ضرس ، ولم يبق له قوة إلا مقدار

ما يتحرك بها لا غير ، فقال للترجمان : « سله : ما الذي حملك على الجريء وأنت في هذا السن ؟ وكم من ههنا إلى بلاده ؟ » فقال : « أما بلادي فبني وبينها مسيرة عدة أشهر ، وأما مجئي فإنما كان للحج إلى القيمة ». فرق له السلطان — قدس الله روحه — ومن عليه وأطلقه وأعاده راكباً على فرس إلى عسكر العدو » .

٦ — « ولقد طلب أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير ، فلم يفعل ، فسألته — رحمة الله — عن سبب المنع ، وكث حاجتهم فيما طلبوه ، فقال : « لعلنا يعتادوا من الصغر سفك الدماء وهوون عليهم ذلك ، وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر » ولا يخفى ما في طي ذلك من الرأفة والرحمة للمسلمين — رأف الله به ورحمه — ولما أيس من خروج العدو عاد إلى الخيم في عشية ذلك اليوم ، وهو الأحد عاشر ربيع الأول سنة سبع ، فرحاً مسروراً . (٥) .
٦ — ابن شداد : التوادر السلطانية ص ١٥٦ .

٧ — قصة الرضيع الذي أعاده صلاح الدين لوالدته :

وذلك أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدو فيسرقون منهم حتى الرجال وبخرون ، وكان من قضيتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر ، وساروا به حتى أتوا به إلى خيمة السلطان — رحمة الله — وعرضوه عليه ، وكان كل ما يأخذونه يعرضونه عليه ، فيخلع عليهم وبعطيهم ما أخذوه . ولما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور في طول تلك الليلة حتى وصل خبرها إلى ملوكهم ، فقالوا لها : « إنه رحيم القلب ، وقد أذنا لك في الخروج إليه ، فاخرجي وأطلبيه منه ، فإنه يرد عليك ». فخرست تستغثت إلى الإيزك الإسلامي ، فأخبرتني بواقتها بترجمان كان يترجم عنها ، فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان ، فأتته وهو راكب على تل الحرورة ، وأنا في خدمته وفي خدمته خلق عظيم ، فبك بكاءً شديداً ، ومرغت وجهها في التراب ، فسأل عن قصتها ، فأخبروه ، فرق لها ، ودمعت عينه ، وأمر بإحضار الرضيع ، فمضوا فوجدوه قد بيع في السوق ، فأمر بدفع ثمنه إلى المشتري ، وأخذنه منه ، ولم يزل واقفاً — رحمة الله عليه — حتى أحضر الطفل ، وسلم إليها ، فأخذته وبكت بكاءً شديداً وضمته إلى صدرها ، والناس ينظرون إليها ويسيرون ، وأنا واقف في جلتهم ، فأرضعته ساعة ثم أمر بها ، فحملت على فرس ، وألحقت بعسكرهم مع طفليها . فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشر ، اللهم إنك خلقته رحيمًا فارحمه رحمة واسعة من عندك ، ياذا الجلال والإكرام ، فانظر إلى شهادة الأعداء له بالرقة والكرم والرأفة والرحمة .

ولم يحتمل شهادت ها ضررتها والحسن ليس لحقه من ناكر

(ابن شداد : التوادر السلطانية ص ١٥٨ - ١٥٩ .)

الفصل الثالث والعشرون

فيليب أوغست وريكاردوس قلب الأسد في مواجهة صلاح الدين

ريكاردوس قلب الأسد واستعداداته للحملة الصليبية الثالثة

لقد خلف ريكاردو الأول الملقب «قلب الأسد» سواء لشجاعته أو لقوساته عام ١١٨٩ والده العجوز هنري الثاني على عرش إنكلترا؛ لكن اهتمته ألسنة خبيثة مشبعة بدخان المراخير بالإسهام في وفاة أبيه الذي قضى نحبه وهو ياعنه. ومهما يكن من أمر هذا القيل والقال فقد تميزت السنوات الأولى لحكم ريكاردو بعمليات السلب وبطوفان سخط الملك السريع الغضب، وتضاعفت في سائر أنحاء مملكة البلاتاجنية الحارق والمشائق وغدا ريكاردو الأول سفاح اليهود.

ولاحظ قبل أن يبحر إلى الأرض المقدسة أن خزاناته الحربية قد بعثرت، فواردات العشر الصالاحديني المشهور الذي سبق لأبيه أن فرضه لدعم الجيش الانكليزي في الحملة الصليبية ضد صلاح الدين نفذت في الحرب التي شنها على إنكلترا هنري الثاني ملك فرنسا؛ ولم تكن هذه الحرب سوى المقدمة لحرب المائة سنة. فأثنقل ريكاردو شعبه بالضرائب الباهظة، وبايع كل ما يمكن أن يبايع بوزنه ذهباً، أعني أنه باع الوظائف الأكثر تفاهة والألقاب والأملاك

العائدة إلى العرش ، وكان مستعداً — كما كان يجب أن يقول — حتى لبيع مدينة لندن لو وجد لها شارياً طويلاً باع الثراء ، وليس هذا فحسب بل لم يوفر حتى أخبار مملكته فأجّرهم المناصب وحقوق السادة التي رغبوا في امتلاكها ببالغ طائلة . وعلى سبيل المثال ، فإن أسقف ذرّهـام ، وهو أحد الراغبين في الإلـادة من استعدادات سيدـه الطـيبة قد تـوسـل — رغم اشتـهـارـه بـنـعـتـ الشـيـخـ الـبـخـيلـ — صـدـقـاتـ الفـقـرـاءـ الـجـمـوـعـةـ خـلـالـ مـارـسـتـهـ أـعـمـالـهـ الـأـسـقـفـيةـ سـبـيـلـهـ لـشـرـاءـ مـقـاطـعـةـ نـورـثـبـلـانـدـ ،ـ ماـ دـفـعـ رـيـكـارـدـوـسـ إـلـىـ الجـهـرـ بـالـقـوـلـ إـنـهـ اـجـتـرـحـ مـعـجـزـةـ بـجـلـهـ أـسـقـفـاـ شـيـخـاـ كـوـنـتاـ شـابـاـ .ـ وهـكـذـاـ حـازـ مـلـكـ انـكـلتـراـ بـماـ طـالـتـهـ يـدـهـ بـالـغـشـ وـالـجـرـيـمةـ وـالـدـنـاعـةـ مـاعـمـرـ بـهـ حـرـيـتـهـ ،ـ كـاـ كـاـنـ مـعـتـدـلـ مـنـ الـيـابـاـ عـلـىـ صـكـوكـ غـفـرانـ لـأـلـكـ الـذـيـ نـذـرـوـاـ الـاشـتـراكـ فـيـ الـحـرـوبـ الـصـلـيـبيـةـ ،ـ مـقـابـلـ بـدـلـ يـدـفـعـونـهـ حـسـبـ طـبـقـهـمـ الـاجـتـاعـيـةـ ؟ـ وـتـمـكـنـ بـذـلـكـ أـنـ يـجـهـزـ أـسـطـولـاـ قـوـامـهـ مـئـتـاـ مـرـكـبـ أـسـنـدـ قـيـادـتـهـ لـكـيـرـ الـأـسـاقـفـ جـيـرـارـ ،ـ وـبـرـنـارـدـ أـسـقـفـ بـايـونـ .ـ وـعـيـنـ الـلوـصـاـيـةـ عـلـىـ الـعـرـشـ خـلـالـ فـتـرـةـ غـيـابـهـ الـمـلـكـةـ الـأـمـ إـلـيـلـيـونـورـ وـمـسـتـشـارـهـ غـيـومـ دـيـ لـوـنـشـانـ ،ـ لـيـحـرـ بـعـدـهـ إـلـىـ فـرـنـسـاـ بـهـدـفـ التـنـسـيقـ مـعـ فـيـلـيـبـ أـوـغـسـتـ وـوـضـعـ خـطـطـ الـاستـعـدـادـاتـ الـأـخـيـرـةـ لـسـفـرـ الـمـلـكـينـ إـلـىـ الـمـشـرـقـ .ـ وـانـكـسـرـتـ عـصـاـ الـحـاجـ الـتـيـ تـلـقـاـهـاـ فـيـ تـورـ ؟ـ فـاعـتـبـرـ ذـلـكـ الـمـؤـمـنـوـنـ بـالـخـرـافـاتـ فـأـلـاـ سـيـئـاـ ،ـ وـسـافـرـ رـيـكـارـدـوـسـ إـلـىـ فـيـلـزـاـيـ لـيـارـكـ عـصـاـ أـخـرىـ بـكـلـ مـظـاهـرـ التـفـخـيمـ الـتـيـ تـرـاقـقـ هـذـهـ الـمـرـاسـمـ .ـ وـبـانتـظـارـ فـيـلـيـبـ أـوـغـسـتـ الـذـيـ سـيـلـحـقـ بـهـ فـيـ فـيـلـزـاـيـ أـمـضـيـ حـيـاةـ صـاحـبـةـ ،ـ بـلـغـنـاـ صـدـاـهـاـ عـبـرـ كـتـابـاتـ مـؤـرـخـيـ ذـلـكـ الـعـهـدـ ،ـ وـلـمـ يـتـرـدـ أـحـدـهـمـ أـنـ يـكـتـبـ :ـ «ـ إـنـ مـلـكـ انـكـلتـراـ رـغـمـ كـوـنـهـ ذـاـ مـزـاجـ قـاسـيـ ،ـ فـظـ ،ـ غـيرـ مـهـادـنـ ؟ـ وـرـغـمـ مـاـ لـطـخـ بـهـ نـفـسـهـ دـوـنـاـ وـازـعـ مـلـكـ انـكـلتـراـ بـكـلـ الـجـرـائمـ ،ـ وـأـنـتـهـكـ فـيـ تـعـهـرـهـ قـوـاعـدـ الـحـيـاءـ ،ـ وـاحـتـقـرـ الـدـيـنـ وـرـجـالـهـ ،ـ كـانـ يـفـرـضـ عـلـىـ نـفـسـهـ كـفـارـاتـ قـاسـيـةـ ،ـ وـكـثـيرـاـ مـاـذـهـبـ وـسـطـ فـيـضـ مـنـ خـشـوـعـ التـقـوـيـ ،ـ وـقـدـ أـرـخـيـ ذـيلـ قـمـيـصـهـ لـيـرـتـيـ عـلـىـ أـقـدـامـ الـكـهـنـةـ ،ـ يـعـرـفـ لـهـ بـخـطاـيـاهـ .ـ وـلـمـ لـامـ فـولـكـ كـاهـنـ نـوـبـيـ عـلـنـاـ عـلـىـ رـذـائـلـهـ حـيـنـ قـالـ لـهـ :ـ إـنـ لـدـيـهـ ثـلـاثـ أـخـواتـ سـيـقـدـنـهـ إـلـىـ جـهـنـمـ .ـ أـجـابـهـ رـيـكـارـدـوـسـ وـهـوـ يـتـصـبـ وـاقـفـاـ :ـ فـيـ هـذـهـ الـحـالـ سـأـعـطـيـ الـهـيـكـلـيـنـ كـبـرـيـائـيـ ،ـ وـالـرـهـبـانـ بـخـلـيـ ،ـ وـأـخـبارـ مـلـكـتـيـ فـسـقـيـ .ـ هـكـذـاـ كـانـ الرـجـلـ الـذـيـ سـيـوـاجـهـهـ صـلـاحـ الـدـيـنـ .ـ

لقاء عـاـهـلـيـ فـرـنـسـاـ وـانـكـلتـراـ فـيـ فـيـلـزـاـيـ

وـلـمـ يـكـنـ مـلـكـ فـرـنـسـاـ فـيـلـيـبـ أـوـغـسـتـ إـلـىـ جـانـبـ هـذـاـ مـلـكـ الـعـنـيدـ الـمـسـبـدـ سـوـيـ مـجـرـدـ

تلמיד لساحر رغم مؤامراته للاستيلاء على عرش انكلترا. ولم تكن المصائب العامة التي اعتبرته الغوغاء مسؤولاً عنها سوى هنات تافهة بجانب أعمال عنف البلاتاجيني الدموي. وهذا ما انتهى إليه رأي كاتب سيرة خليفة لويس السابع التي سجلها باللاتينية شرعاً في قصائده ذات المقاطع الستة. وبعد أن تعاهد الملكان في فيلاي على الإخلاص المتبادل في جميع الأحوال، بدا كأنهما لا يريدان الانفصال.

فييكاردوس قلب الأسد الحَلْق الذي ما انفكَت طويته مشحونة على الدوام بسوء النوايا حُصّن نفسه ضد كل ما لا يتفق مع تحالف سيكون فيه الكثير من الخدوعين، وفي طليعتهم ملك فرنسا. وبعد العناق ومراسم الاستقبال، بدأ التفكير في السفر إلى الديار المقدسة، وفي أولئك الذين يقاتلون قتال اليائسين على الشاطئ اللبناني، لإنقاذ ما يمكن انقاذه من مملكة القدس العاثرة الحظ. وتلقى فيليب أوغست في كنيسة سان دنيس قبيل السفر العصا والراية الحمراء، لون دير القديس دنيس. وأناب عنه في إدارة المملكة والدته أديل ابنة تيبو كونت شمبانية، وخاله غيمون أسقف رنس.

لقاء الخليفين اللذين في صقلية

وفي ٤ تموز (يوليو) ١١٩٠ غادر فيليب فيلاي برفقة ريكاردوس قلب الأسد، وافتراق الخليفان في ليون، فسلك ملك فرنسا طريق جنوة، وسيد انكلترا سبيل مرسيلية، متواجددين على اللقاء في مسيّنة. وحينما اجتمعوا من جديد في صقلية استطاباً— ولاشك— فيها المناخ، فأمضيا ستة أشهر أو شكا فيها أن يتقاتلا. وما كان غيمون التورماندي ملك صقلية الذي احتل هذه الجزيرة قد توفي دونما وارت، اختار الصقليون تنكريد دي ليكسي سيداً لهم. ولا طالب بالعرش هنري السادس إمبراطور الجerman، فرع تنكريد إلى ملك انكلترا يتعمّس عونه، فطلب هذا بدوره مقابل مهمته كسمسار شريف أن تعاد إليه أخيه حتى أرمّلة ملك صقلية الراحل، والمهر الذي أصدقها إياه، وأسطولاً مؤلفاً من مائة سفينة، فأرسل إليه تنكريد المرأة ولكن بلا مال ولا سفن. فخف ريكاردوس قلب الأسد فاستولى— على سبيل الإنذار— على قلعتين وحاصر مسيّنة، وأخذها عنوة، وعرض قسماً من سكانها على السيف غير آبه بفيليب

أوغست وبلاطه الذين كانوا يحيون حياة ترف في المدينة الفخمة العذبة؛ ولعدم تكافؤ القوى انحنى تنكريد صاغراً أمام حاميه الغضوب.

ما الذي حدث حينذاك؟ فالتاريخ ليس واضحاً هنا، والآراء متضاربة. فقد اهتمت الحوليات الانكليزية عاهل فرنسا بالتأمر مع ملك صقلية تنكريد اليكسي على تدمير الجيش الانكليزي والقضاء على ريكاردوس. أما وجهة النظر الفرنسية فيعرضها لنا ريفورد وغيره... ومهما يكن من أمر، فملك فرنسا وانكلترا أوشكا أن يفضل نزاعهما بقوة السلاح. ولم تكد العاصفة تنقشع حتى تراكمت غيوم جديدة في جو صقلية النقّي. فتحن لم ننس بعد أنه قبل بضع سنوات، أعلن ملك انكلترا خطوبته على اخت فيليب أوغست، وأنه لم يعلن الحرب على أبيه إلا لكونه يعتقل الخطيبة في أحد الأقبية الرطبة لسجين من سجون لندن.

ومنذ ذلك الحين، كانت الفصول تتلو الفصول ولم ينس البلانتاجيني تلك التي كان يجب أن يتزوجها، وساقت له الصدف وحدها في صقلية اسبانية حسنة هي بيرنجير دي نافار فطلب يدها للزواج. وبلغ النبأ السار مسامع ملك فرنسا فيليب أوغست، فشعر بالإهانة اللاحقة بأخته، واعتبرها إهانة يوجهها آل بلانتاجيني للناتج الفرنسي.. وهكذا توترت العلاقات كل التوتر بين القائدين الكبارين للحملة الصليبية الثالثة.

وصول ملك فرنسا إلى عكا وانفجار الخلافات الصليبية من جديد

وغادر فيليب أوغست مسيئة في ٣٠ آذار (مارس) ١١٩١. ووصل بعد خمسة عشر يوماً أمام عكا على رأس ست سفن. فاستقبل بكل حماسة. ولاحظ المسلمين خاصة أنه كان يحمل معه صقرًا أبيض الريش من نوع نادر كثيراً ما كان يزيشه ويذله، فأفلت منه ذات يوم، وحط على سور عكا فأخذه المسلمون وقدموه للسلطان، ورغب الفرنجة في استرداده لقاء ألف دينار فرفض السلطان ردّه (كتاب الروضتين)^(١).

وما إن حل فيليب أوغست بمقر قيادته في البرج الملعون، أي المكان الأكثر تعرضًا للخطر حتى أمر بالإسراع في عمليات تشديد الحصار الذي مرّ عليه حتى الآن، حولان كاملاً. وكانت آلات الحرب ترمي المدينة بقذائفها ليلاً نهاراً، وأخذت مواقعها مئات الكباش ذات الطوابق والسقوف وكذلك الأبراج المتحركة التي يبلغ علوّها أربعة أدوار، مما أثار

ذعر المسلمين وهلעםهم. ولكن غي دي لوزينيان — الذي مافته بطالب جازماً بعرض القدس — أغضبه إعلان ملك فرنسا — الذي كان يعتمد على تأييده إياه — أنه إلى جانب كونراد دي مونفراً. فأيقظ هذا الخيار في الصف الفرنجي كامن أحقاد سبق أن هدأت. فرفض فريق من القوات التي مازالت متعلقة بقضية غي دي لوزينيان الاعتراف بفيليب أوغست قائدًا للجيش الفرنجي أمام عكا. أما غي دي لوزينيان — الذي حالما رأى نفسه مجردًا من حقوقه — فثار على ملك فرنسا وأبحر إلى قبرص برفقة أخيه جوفروا، ورينو دي ساجيت الذي فقد قصر بوفور، وأنفروا الرابع دي تورون، والمعلم الأكبر لتنظيم الهيكليين ابن سيدة الكرك ايتنينت دي ميل، وتبعه جمع غير من البارونات الذين مازالوا على لأنهم له... ذاك الرجل الذي خسر معركة حطين، وفتح أبواب القدس لصلاح الدين، وتناول الشراب المثلج والمعطر بالماورد، تحت خيمة المنتصر قبل أن يرى رأس رينو دي شاتيون البائس — الذي جندله صلاح الدين بضربي سيفه — يتدرج أمامه فخان رفاقه في السلاح ووضع سيفه ودينه في خدمة ملك إنكلترا. واعتزم هذا الأخير أن قوم الفايدة التي يمكن أن يجنيها من هذه العملية المتازة، فقبل أن يتبين المزاعم السلالية لغي دي لوزينيان الذي أصبح مُحميًّه.

ملك فرنسا يسعى لتفاوض صلاح الدين

لم يُؤيد ملك فرنسا قلقاً أكثر مما ينبغي للذهاب عامله، إذ تصور أنه سيستطيع الاستيلاء على عكا قبل ظهور سفن البلاتاجيني الأربعين، فيما هو يؤدي اللعبة على طريقته ضد شريكه؛ وسعى للتفاوض مع حامية عكا الإسلامية لكي تستسلم له صلحًا، ورجا صلاح الدين أن يرسل إليه أحد أمرائه لمعرفة كم ديناراً تساوي عكا؟ ولكن صلاح الدين أمل جوابه التالي على رسول ملك فرنسا: «قل لسيديك إنه إذا كان محتاجاً إلى فليرسل أحد قواده، أما أنا فلا أطلب منه شيئاً، وليس لدى أي مقترح لأقدمه له». وكان هذا يعني الرفض.

ريكاردوس يستولي على جزيرة قبرص الاستراتيجية

بعد أن احتفل ريكاردوس قلب الأسد بخطوبته في صقلية أبحر أخيراً إلى الديار المقدسة، ولكن ما إن أصبح على مرأى من سواحل المشرق حتى هبّ ريح معاكسة فبعثرت

أسطوله . وجنحت ثلاثة من سفنه على متن إحداها خطيبته بيرانجبر دي نافار وحاشيتها على شواطئ قبرص الخاضعة لحكم الروم ، وكان يحكمها رجل يدعى اسحق من أسرة آل كومين استقل فيها عن أبياطرة بيزنطية المالكين الحقيقيين للجزيرة في عهد أندرونيك ، وظل مستقراً فيها إبان عهد اسحق آخر : هو اسحق لانج . وكان يكن لللاتين ككل روسي محترم حقاً عنيداً .. ولما جنح البحارة الانكليز على شواطئ جزيرته برفقة الاسپانية بيرانجبر دي نافار قيد النوتية ، وحاول أن يتوجه إلى صفة الغرفة الجميلة . ولم يستطع ملك انكلترا حيال هذه الإهانة أن يتمالك نفسه فسارع إلى إزالة العقاب بالقرصيّ ، وهبط الجزيرة في ٢٣ أيار (مايو) ١١٩١ ، وقرر مصير اسحق بسرعة ، فأدبل عن عرشه ، وأعلن ريكاردوس قلب الأسد نفسه ملكاً على قبرص مكانه ؛ وبينما كان الشعب يحتفل بتغيير سيده ، انتهز ملك انكلترا هذا الحادث السّفّري ليتزوج بيرانجبر دي نافار بحضور غي دي لوزينيان وأمير انطاكيه وطرابلس والمعلم الأكبر للهيكلين ورينو دي ساجيت ، وشقيق ملك أرمانيا ، والبناللة الفرنجية في سوريا التي تبعت غي دي لوزينيان ، ونزلت لتوها في قبرص حينها علمت أن ملك انكلترا فيها .

وكان لاحتلال قبرص آثاره الإيجابية على مسيرة الحملة الصليبية الثالثة ، إذ لم يعد الفرنجة المعلقون على الشاطئ السوري أمام عكا يخشون أن يختجز القبارصة الروم سفنهم ، كما حدث سابقاً ، فضلاً عما كان للجزيرة من مركز هام نظراً لموقعها الاستراتيجي الذي لن يغيب فيما يلي من القرون عن نظر الدبلوماسية البريطانية . وكان يستطاع السفن الفرنجية أن تتوقف فيها وتتموّن . وبعد أن ترك ريكاردوس قلب الأسد حاميةً في قبرص التي تم احتلالها مُصادفة بفضل الرياح ، أُجر بالتجاه عكا مع أربعين سفينة نقل . ومررت الرحلة بلا حادث .

وصول الأسطول الانكليزي إلى الشواطئ السورية

وصل الانكليز في مطلع حزيران (يونيو) ١١٩١ إلى الشواطئ السورية . ودمروا في مياه بيروت أكبر سفينة - (بسطة) - كان صلاح الدين قد جهزها ، وكانت تقل ستائة وخمسين جندياً وأسلحة ومؤناً مخصوصة لخدمة عكا - ولم يشا البحارة المسلمين التخلص عن سفينتهم للأنكليز الذين استولوا على جسرها الأعلى ، وبعد أن أغرقوا إحدى سفنهما بناءً على أمر قائهم يعقوب الحلبي ، فتحوا بالفؤوس جوانب السفن وتركوا المياه تغمرهم أحياً مع

أسلحتهم ومؤنهم. وكان تدمير هذه السفينة نجاحاً باهراً لريكاردوس قلب الأسد، لأنه لو وصلت إلى ميناء عكا لما آلت هذه القلعة الحصينة إلى ما آلت إليه. أمّا السلطان — كما يكتب مؤلف كتاب «الروضتين» — فقد تحمّل المصيبة بشجاعة مؤملاً أن يحتسبيا له الله لأنّه يدافع عن قضيته. مشيراً بذلك إلى الآية القرآنية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيغُ أَجْرَ الْمُحْسِنِ﴾ (١١٩/٩).

ابتهاج الصليبيين برسو الأسطول الانكليزي أمام عكا

وفي ٨ حزيران (يونيو) ١١٩١ أرسى الأسطول الانكليزي أمام عكا. وكان ذلك حدثاً ترددت أصداؤه في الشرق كله. ففي كل مكان ابتهج الصليبيون، واستعادوا شجاعتهم، وأوقد الجيش الفرنسي المشاعل أمام عكا، واستمرت الصلوات وزعيق الأبواق والكوسات حتى الفجر. ووزع التدامى الشراب في شوارع المعسكر على الكبار والصغار. ولم يشاهد في أي مكان آخر مثل هذا العدد من الشموع والأضواء، حتى خيل لمعسكر المسلمين — كما يروي أمبرواز وباء الدين — أن الوادي قد اشتعل. كان الفرنجة يعتقدون أن وصول ملك إنكلترا سيحقق لهم من فوره النصر.

استمرار النزاع بين ملكي فرنسا وإنكلترا أمام عكا المحاصرة

وخلال الأيام الأولى من حياتهما المشتركة، ظهر ملكا فرنسا وإنكلترا كأنهما صديقان قد يمان بالغا السرور للقائهما بعد طول غياب، كأنهما نسيا سابق مشاجراتهما وهو مهما السلالية؛ وسوء التفاهم المزعج بين البلطتين الذي كان يغذيه بدناءة عملاء ماهرون. ولم يكونا ليستطيعا اللقاء دونما تبادل العناق الملكي واللائقات الخملية. وكتمثيلين بارعين، كان كل منهما يخدر الآخر، ويبحث عن طريقة للإيقاع به. بينما كانا بحضور البارونات تحت خيمة الاحتفالات أو في المعسكر يظهران كملكين أعظم شعبين في الدنيا، ويتظاهران بالحبة المتبادلة، إنما يحتاط كل منهما في سريرته للضربات التي يمكن أن يكيلها له نده. ولقد باشر كل منهما قبل المبارزة الأخيرة عملاً شخصياً لا يمكن إنكار مرونته. إذ قدم فيليب أولغست ثلاثة قطع من العملة الذهبية البيزنطية للصليبيين الذين يتطلعون للخدمة في جيشه، وأردى ريكاردوس قلب الأسد بوساطة رقباء التجنيد لديه، فقدم أربع قطع لكل من

يسجل اسمه في جداول الجيش الانكليزي . وينجح ألا يغرس عن بالنا أن كونراد دي مونفراً الذي يدعمه ملك فرنسا ، وغي دي لوزينيان محمي ملك انكلترا كانوا مستعدين للدخول الخلبة للدفاع عن حقوقهما في عرش القدس . وانفجرت المأساة : فقد طالب فيليب أوغست استناداً إلى معاهدة فيزلاي التي تنص فيما تنصه ، على أن لكل من الشركيين الحق في نصف ما يحرره الشريك الآخر من مكاسب في الأرض المقدسة ، فطالب رفيقه بنصف جزيرة قبرص التي وإن لم تكن في فلسطين فهي واقعة على طريقها . ورفض ريكاردوس التنازل عن شبر واحد من الأرض القبرصية ، وتفادياً للمنازعات المستقبلية باع الجزيرة لأصدقائه الهيكليين بخمسة عشرين ألف مارك من الفضة ، وحقق الإنكليزي لنفسه صفة ممتازة ، أما تنظيم الهيكليين — رغم فقره الظاهر — فكان بمستطاعه أن يمنع نفسه مملكة قبرص رغم ما حرمته أثر سقوط القدس ، من أهم مصادر وارداته ، ناهيك بما دفعه من فدية لعدد من الأسرى ، وكذلك مرتبات الجنود الذين كانوا يقاتلون تحت رايته .

ويجب أن نلاحظ أيضاً أن فرسان الهيكل كان لهم في قبرص المشاريع ذاتها التي سيتحققها الاسبارتاريون في رودس ومالطة ... وأصبح ملك انكلترا بعد بيعه قبرص وقبضه الثمن قادراً على استخدام خيالة القديس جرجس (الليارات الانكليزية الذهبية) ، فكان — بحكم المؤكد — أغنى صليبي على الإطلاق شوهد في أرض المشرق ، وقد عرف كيف يستخدم لأغراضه الشخصية هذا الكنز الذي وضعه بين يديه محض مصادفة الرحلات البحرية . كان ملك فرنسا إزاءه ، وهو الباحث الدائم عن الدواوين ، أشبه بالخادم . فلم تكن خيمته ولا مائدته لتشبه خيمة البلاطاجني ومائده ، وكان قواه الذين أغراهم عرض أجر أفضل لا يتزدرون في عبور جسر الإنكليلز الذهبي . أما الناس العاديون الذين كانوا يؤلفون قوة المشاة ففضلوا تسجيل أنفسهم في جداول ريكاردوس وطبعي أن غي دي لوزينيان أدرك ارتفاع أسهم خصمه وتضاعفها إذ لعب ورقة ملك انكلترا ، ولم يلبث حزبه أن تغلب على حزب خصمه جاذباً إليه المترددين والمؤمنين لتوهم بقضيته مثل البيزعين والفلامانديين وكانت شعبانية والاسبارتاريين ، ولذا زايل دور لبقة السياسي ليكتشف عدواه مجاهاً بعده ، واتهم ماركيز صور بالخيانة والمرroc وطلبه للمبارزة ، فأصيب دي مونفراً بالفجيعة ، فتخلى عن عكا ، ولجأ مع أنصاره إلى صور . وكما لو أن هذا القدر من بواعث الصراع لا يكفي لاستمراء المنازعات غير المجدية ، فقد أصيب

كل من فيليب أوغست وريكاردوس قلب الأسد بالحُمّى بآئِ معاً، فاتهم كل منها الآخر بدس السم له، فأفلجت هذه الأخبار صدر صلاح الدين الذي برهن مع ذلك على عظمة نفس مفاجئة، لم يكن أحد يتوقعها في الأوساط الفرنجية في عكا حيث كانت تختبر كل هذه الأحقاد، وتصاصد المصالح، وتحاك المؤمرات. فجينا علم صلاح الدين بأن عدوه : عدوي السلام والإسلام يرتعدان على سريرهما العسكريين من الحُمّى ، أمر بأن ترسل إليهما الفراريج والمرطبات ، وبأن يزور يومياً بمعلومات عن تطور حالة الملكين الصحية وتقاهمهما ؛ وأوقف الفرنجية عمليات الحصار خلال مرض ملكيهما مما أعاد بعض الأمل إلى حامية عكا الإسلامية المُحبطة بسبب هدم آلات الحصار قسماً من الأسوار بقدر قامة الرجل ، وكان الفرنجية يرسلون إلى السلطان بيانات صحية متعددة . ويزعم المؤرخون الشرقيون أن الفرنجية كانوا يسعون لكسب الوقت فكانت بالتالي بياناتهم قليلة الجدية . ولذلك طلب ملك انكلترا رغم وضعه الأليم مقابلة صلاح الدين ، وأدهاه صقوراً فخمة حملها معه من وراء البحار . وحسب قول السفير الفرنجي فإن هذه الجوارح التي هي من نوع الصقور أثر فيها مناخ عكا ، فغدت هامدة النشاط فاقدة الحيوية للدرجة تثير الشفقة ، فتساقط ريش حوصلاتها وهزلت من قلة الممارسة ، وهذا فإن ملك انكلترا الذي كان يريد تقديم هذه الجوارح إلى صلاح الدين كان يتلمس منه أن يرسل إليه اثنية عشرية من الفراخ لتسمين صقوره قبل أن يحملها إليه ، وفهم المسلمون أن ريكاردوس قلب الأسد بطشه هذه الفراخ كان يعني أن يصنع منها حسأء مقوياً . هذا على الأقل ما يرويه المطلع أبو شامة . ولم يكن مكناً أن تستمر هذه الألاعيب إلى مالا نهاية . وبعد أن اتهم الانكليز فيليب أوغست بخيانته الصليبيين لقاء بضعة أكواب من ثلج لبنان ، ردّ الفرنسيون بأن ريكاردوس قلب الأسد بقبوله فراخ صلاح الدين كان متفقاً معه على إثارة خلافات جديدة في المعسكر الفرنجي .

البحث عن صيغة اتفاق جديد بين الفرنجية

وكان لامندوهة من إيجاد حل للنزاع الشاجر بين غي دي لوزينيان وكونراد دي مونفراً فاجتمع الأساقفة الحاضرون وبمحض عن صيغة اتفاق . فاقترحوا أن يحتفظ غي دي لوزينيان بلقبه كملك للقدس على ألا يدع هذا اللقب لورثته ، وعلى أن يصبح كونراد دي مونفرا بعد وفاة غي دي لوزينيان وارثاً تاج القدس . وفضلاً عن ذلك تعهد ملكاً فرنسا وإنكلترا بتجديد

معاهدة التحالف بينهما علىًّا واقتسام ما يحوزانه من المسلمين؛ وأن يتعاونا في مقاتلة العدو المشترك كلما قبضت الضرورة، ووافق الملكان على قوارات الأساقفة، لاعتقاد كل منهما أنَّ الاتفاق جرى لصالحه. وهكذا— وبناء على رجاء ملك فنسا— عاد كونراد دي مونفرا ليحتل مكانه بين الصليبيين، وفكروا أنه إذا كان أمام عكا ثلاثة ألف من الفرنجة فهو مهاربة صلاح الدين لا غير.

الإمدادات الجديدة لعسكري المسلمين والصليبيين

وأفاد صلاح الدين من خلافات العدو وتزدهر فأئته إمدادات وفيرة، إذ وصل مجاهد الدين برنشق مع قوات مجموعة مابين النهرين، وقفَّى على أثره علم الدين الكرجي وسيف الدين شكر مع جيش مصرى، وكذلك أمراء آخرون يقودون جيوشاً من حوران والموصل. وفي عكا كان قراقوش يحفِّر خنادق جديدة ويبني تحصينات مكان التي هدمت. وعاد الصيف أخيراً فأتاح نشاطاً أكبر للقوات المسلحة. فمنذ الأيام الأولى من شهر حزيران (يونيو) ١١٩٠ تضاعفت الهجمات والهجمات المضادة. ووسط هذه المعارك المتواصلة كان من الممكن أن ترى التنظيمات دمار قوتها لولا الإمدادات المحسودة من الصليبيين التي تتدقق من أوروبا، إذ تطوع جمع غفير من الشبان في تنظيمات هيكل القديس يوحنا حين نزولهم على الساحل اللبناني، وأمضوا مدة المستجددين تحت السلاح قبل أن يكسرؤوا أنفسهم للرهبانية. وهكذا غدا هيكلياً روبرت دي سالي الذي قاد أسطول ريكاردوس قلب الأسد حال وصوله أمام عكا، واعتبرت الأعمال الكبرى التي اجترحها في كل من إسبانيا وصقلية بديلاً عن فترة الاختبار. وما إن تم قبوله حتى أُسندت إليه المسؤوليات الأولى، وبعدها رفع إلى أعلى رتبة في التنظيم. إذ اختير لمنصب المعلم الأكبر الشاغر منذ ثمانية عشر شهراً.

احتدام المعركة بين الفرنجة والمسلمين

وكان يوم ٢ تموز (يوليو) ١١٩١ اليوم الأكثر دموية، فقد استطاع الفرنسيون أن يدمروا جزءاً من البرج الملعون الذي يعد أفضل دفاعات المسلمين، إذ نصب فيليب أوغست إزاءه قاذفة حجارة ضخمة تدعى «الحجارة الفحلية» فكانت تهدف المدينة بصخور ضخمة؛ ولكن المدافعين ردوا عليها بقذائف لا تقل عنها ضخامة وزهبية؛ دعاها الفرنسيون المشهورون

بروح الدعاية «ابنة عم الفحلاة» وإلى جانب «الجارة الفحلاة» نصب فيليب أوغست آلات حصار أخرى، وما إن أحدثت الشغرة حتى شن الفرنسيون هجوماً شرساً، ولكن صلاح الدين كان بدوره يقظاً، فطفق يركض جواهه من كتبية إلى كتبية مثيراً حماسة الجنود للجهاد مطلقاً صرخة التلاحم: «والإسلاماه!» وكلما تشوّفت له عكا الظاهرة بعيداً بين أعمدة الدخان تصور ما يعانيه المهاصرون فيها من آلام، فينقضّ مهاجماً بصورة أشرس دافعاً بقوته أعنف فأعنف في خضم المعركة، حتى هبوط الليل. فكان وهو في قلب المعركة لا يتناول سوى جرعة من دواء بناء على نصيحة طبيه. ورغم شجاعة رجال فيليب أوغست كانت الغلبة لل المسلمين، ففي يوم ٢ تموز (يوليو) ١١٩٠ المشهود تخلي الفرنجة عن أسوار عكا، وكان يمكن أن يتسلقوها لو لا الخلاف الناشب بينهم في الوقت المناسب لإنقاذ المهاصرين. فقد الصليبيون في ذلك اليوم آلاف الرجال وأحرقت أفضل آلات حصارهم.

استغاثة المسلمين المهاصرين بعكا بصلاح الدين

ولكن رغم الانتصار كان صلاح الدين يائساً فعشيّة يوم المعركة هذه وردته رسالة موجزة تقول: «لقد أنهكتنا الحرمان حتى أننا سنكون مضطرين—إذا لم تفك عنّا الحصار غداً وتنقذنا من قبضة الفرنجة—إلى التسلّيم بلا شروط، إلا شرطاً واحداً هو إبقاءونا على قيد الحياة». ولم يتألق المسلمون قط بما يمثل هذا السوء. لأن عكا كانت تمتلك جميع وسائل الدفاع التي أتتها من الساحل والقدس ودمشق وحلب وحتى من مصر.

وحارب صلاح الدين منذ فجر الغد أن ينجذب عكا، لكن عساشه ذهبت بدأاً لأن مشاة الفرنجة—كما يكتب بهاء الدين— كانوا خلف تحصيناتهم أصلب من حائط؛ وكان عددهم أمام عكا لا يقل عن خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل. لقد كانت كل الشعوب مثلثة في هذا التجمع الذي ينطبق عليه قول أبي الطيب المتنبي:

تجمّع فيه كل لُسْنٍ وَمَوْأِيَةٍ فَمَا تفهُمُ الْحَدَادَ إِلَّا التَّرَاجِمُ^(٣)

وكان الظّمآن أشد ما يعانيه المهاصرون، لأن الفرنجة تمكنوا من قطع مياه ساقية كانت تروي المدينة.

ملكا فرنسا وانكلترا يباحثان سراً مع صلاح الدين

وعلم ملك انكلترا أن رسولاً مسلماً تحدث سراً إلى ملك فرنسا فأزعجه ذلك غاية الإزعاج، ودون أن يدرى ماذا دار بالضبط بين صلاح الدين وفيليب أوغست بعث رسولاً إلى صلاح الدين يستفسره عن نواياه ..

ولم يكن صلاح الدين ليرفض المفاوضة لو وثق بصدق الملوكين الفرنجيين الأكابر، لكنه كان يتنتظر بعض التطورات داخل عكا. وكان ملكانا شديدي الحرية. ولأن الفرنجة فقدوا بدورهم الأمل في نهاية موقعة هذه المعركة التي تدور بين عالمين لانتصب مواردهما، فكل المعارك التي خاضوها انتهت حتى الآن بفشل دائم. ورغم الجيوش التي وصلت بقيادة ملكي انكلترا وفرنسا لم يستطيعوا تحقيق أية نتيجة إيجابية، وقريباً سيكونون على أبواب شتاء آخر، الشتاء الرابع أمام عكا ولذا سعى كل من ملكي الفرنجة إلى التفاوض مع صلاح الدين، كل منهما في معزل عن الآخر ومن وراء ظهره.

كان ريكاردوس قلب الأسد راغباً بالصلح، وألحّ ووعد بأن يجيء لمقابلة السلطان. وأعدّ هذا الأخير خيمة استقبال فخمة، ولكن عبّاً لأن ملك الانكليز لم يحضر، رغم انتظار صلاح الدين إياه واعتذر له قائلاً: لا نظن أني غيرت رأيي في الصلح، ولكن حمي خبيثة شفيت لتوي منها عاودتنى فأعاقتني عن مغادرة خيمتي، ولن أتأخر عن القدوم لمقابلتك حالما أستعيد صحتي .. ماذا حدث بالفعل؟ هل علم فيليب أوغست ، رغم بقاء المحادثة سرية، بأن حليفه يُبَيِّن له خيانات جديدة؟ هذا ممكن للغاية. وأرجعت المقابلة إلى أجل غير مسمى.

فشل محاولة الخروج من عكا

وفي عكا لم تبق حبة قمح واحدة؛ وأدرك صلاح الدين أنه فقد الأمل في إنجاد الخامسة الإسلامية، وبعث إليها مع سبّاح ماهر الرسالة التالية: حاولوا أن تخدعوا يقظة أعدائنا، اتفقوا وخرجوا دفعة واحدة تحت جنح الظلام محاذين الشاطئ، وسيغتنم رجالنا فرصة الفوضى التي ستنتهي عن ذلك في خيم الفرنجة، فيهاجمونهم بسيف واحد أما المدينة فاتركوها بكل ما فيها. واستعد المهاصرون لغadارة عكا ليلاً، ولكن كلاً منهم كان يريد أن يحمل أشياءه، ويربك نفسه بالصناديق الصغيرة، وطلع النهار قبل أن يتمكن المهاصرون المسلمين من

الخروج، ولم ينجحوا كذلك في الخروج الليلة التالية، لأنَّ السر شاع في الأرقة وتجاوز الأسوار ويكتب عماد الدين قائلاً: «ولولا ذلك لتحقق الهدف ولسوء الحظ أدرك الفرنجة ما يُدبر في الخفاء، فأحكمو الحراسة على كل منفذ المدينة. لقد أيقظهم إثنان مارقان جلأً إلى خيمهم وأطلعاهم على ما يدور.»^(٤) وفضلاً عن هذا الفشل فإن خيبات كثيرة أخرى أحزنت صلاح الدين. فقد هرب قائد إحدى كتائب الحرس. ويكتب أمير أربيل: «لقد كان إيمان عدة أمراء ضعيفاً، وقد أعمامهم الكفر والفجور فهربوا خائنين المسلمين في النقاط التي كانوا يدافعون عنها». وتسارعت الأحداث. «ففي ١١ تموز (يوليو) ١١٩١ حمل كل جيش الفرنجة السلاح، وقام بتحركات جماعية» — كما يقول ابن شداد^(٥) — «وبدأ الانكليز، بقيادة الكونت ليسيستر، واندريل دي شافيني وهو غلوبان كونت المارش، والأسقف ساليزيوري الذي كان يسانده فوج من البيزابين بدؤوا المجموع على ثغرة البرج. وكادوا يستولون عليها عنوة؛ واستمرت المعارك عدة أيام بلا توقف، واضطرب المسلمون الذين كانوا يرفضون القتال، إلى الدفاع عن أنفسهم.

صلاح الدين يرفض الموافقة على التسلیم وسقوط عكا

ولم تعد عكا قادرة على الصمود. وأخبر حاكمها قراقوش صلاح الدين^(٦) «بأنه يجب نفسه مضطراً إلى الإسلام خشية أن يغضب الله العلي العظيم بتعريضه للهلاك بحد السيف هذا العدد الكبير من المسلمين الصالحين المحاصرين في عكا. لأنني متضايق من شكاوى النساء والأطفال الذين يموتون جوعاً. لقد جاء فصل الرياح، ولذا أراني مكرهاً على التفاوض مع الفرنجة شرط أن يسمح هؤلاء للمحاصررين بمغادرة المدينة مع منقولاتهم وأغراضهم، وأن يعيدوا لنا المدينة بكل ما فيها مقابل أن تعيد إليهم صليب الصليبيوت، وأن تطلق لهم سراح ألف وخمسمائة أسير من جميع المالك، وأن تدفع لهم مائتي ألف دينار ذهباً فضلاً عن أربعة آلاف تدفع مباشرة إلى كونراد دي مونفرا الذي تولى مفاوضات الصلح.»^(٧).

ورفض صلاح الدين الموافقة على مثل هذه المعاهدة التي من شأنها أن تقضي على عمله السياسي، فجمع أمراءه، وفيما هم يتشارون شاهدوا الرايات الفرنجية الكبيرة ترفرف على أسوار عكا، بينما كانت الرايات الإسلامية السوداء والصفراء تختفي عن أسوارها. ويروي

ابن شداد واصفاً ذلك اليوم يوم ١١ تموز (يوليو) ١٩٩١ بأنه يشبه في التاريخ يوم حطين الذي سبق فتح القدس : « كان السلطان يناقش مع قواه وأعضاء مجلسه ، الشروط التي يمكن أن تتحقق مقابل تسليم عكا . كنّا في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الثانية ظهراً . وفجأة ارتفعت ضوضاء صاخبة من جهة الفرنجة وتضاعف ألم المسلمين واكتفى أعقل الحاضرين بالقول : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون﴾ وامتلاً الجميع رعباً، وضجّ الخيم بالصرخ والبكاء والعويل . وكان كل واحد يشارك في المصيبة الذاهنة بقدر إيمانه . وكان مشهدآً كريهاً عندما شوهد المركب دي مونفراً — لعنه الله — يدخل عكا حاملاً الرايات الأربع للملوك الفرنجة ، فغرز إحداها — مكان الرايات الإسلامية — فوق القلعة والثانية فوق مئذنة الجامع الكبير ، والثالثة فوق برج الهيكليين ، والأخيرة فوق برج القتال ، وكان بالغاً ألم صلاح الدين ، فأكثرت له من التعازي ورجوته أن يفكّر في المستقبل ، في مدن الساحل ، في القدس ، في الوضع الجديد ، في التدابير التي يجب اتخاذها لإنقاذ المسلمين الأسرى في عكا ، قائلاً له : إذا خسرنا مدينة فلم نخسر الإسلام »^(٨) . ولاليكم مقطعاً من الرسالة التي وجهها الفاضل أخوه صلاح الدين إلى شمس الدولة بن منقد مندوب السلطان لدى بلاط المغرب : « لقد خسر الفرنجة أمام عكا خمسين ألف رجل . وقدمنا عكا ، ولكننا ، مع ذلك ، لم نفقد شجاعتنا ولم نضعف بسبب المصيبة التي حلّت بنا في سبيل الله . لن نتقهقر ولن نغادر . نحن ثابتون على جميع طرق العدو ، وخيماناً قرب خيامهم ، ولكن ما يلزمنا قبل كل شيء مدد بحري ، مدد أسطول مراكش . فبوساطته نستعيد كل ما فقدناه ويستعيد جيشنا بأسه . وعلى الأمير حامل رسالتنا هذه ، أن ينقل معلوماته عن الوضع القائم وعن الخطير الذي يهدد الإسلام . ليتشيرها في سائر أرجاء المغرب في الصلاة الجامعة يوم الجمعة . إن الإسلام يتوجه الآن بأنظاره نحو المغرب »^(٩) .

نصر الفرنجة الباهظ الثمن

ويعتبر يوم ١٢ تموز (يوليو) ١٩٩١ يوم نصر للفرنجة بعد حصار دام حوالي ثلاثة أعوام ، ولكنه كان نصراً باهظ الثمن . فقد خسر الفرنجة مائة وعشرين ألف قتيل في الحملة الصليبية الثالثة هذه . فمن ١٢٠٠ إسكندنافي غادروا بلا دهم إلى الأرض المقدسة لم يبق إلا مائة رجل قادرٍ على حمل السلاح . وهلك حوالي مائة ألف جermanي وإمبراطورهم وابن

إمبراطورهم في الطريق . وقد أصاب هذا الدم المراق أمام عكا أوريا بفقر الدم سنوات عدة . كما أيد قسم من النبلاء الفرنسية . وإن استقر الفرنجة في عكا حتى بدأ الصراع بينهم : فكان ملك الإنكليز يتصرف وكأنه السيد الأوحد . وغرز رايته محا ، راية الجerman ، فشعر هؤلاء بالإهانة ورداً بأنهم سيذبحون الإنكليز الذين سيصادفهم في الأسواق .

عودة فيليب أوغست إلى بلاده

ولكن ريكاردوس لم يغير شيئاً من تصرفاته ؛ وما كان ليعامل فيليب أوغست إلا كما يعامل تابعه ، وليس من شك في أن ملك فرنسا بصفتيه الخاوية ولباسه المهرئة كانت له كل مظاهر الغريب الفقير إلى جانب الإنكليزي طويل باع الثراء ، الذي كان يعتقد أنه يشتري بالذهب القبرصي قادة وبناء ، ناهيك ببعض أمراء المسلمين الخونة . وفضل فيليب أوغست المفجوع ، الذي أرقده نوبة جديدة من الحمى ، به ما ورده من أنباء عن تطاير شر الفوضى في فرنسا ، فضل أن يغادر عكا ، فسافر إلى صور عند محميّة كونراد دي مونفرا ، الذي ما برح وقتاً لصديقه المسكين المحبط . وفي هذه المدينة جاءته بعثة علنية من صلاح الدين للاستفسار عن صحته ولينهته بانتصاره عليه ، وليقدم إليه هدايا تليق بعامل عظيم . وبعد أن استراح بعض الوقت فكر فيليب أوغست بالعودة إلى فرنسا . وترك في الأرض المقدسة ألفاً وخمسمائة رجل وكل قيادتهم إلى دوق بورغنونية هوغ الثالث . وتخلّى لركيز صور عن الجزء الذي حازه من عكا باسم « حصة الشريك » وأوصى بأن تكون حصة فرنسا من الفتوحات المقبلة ، حسب نصوص معاهدة فيزلاي وعكا ، من حق كونراد دي مونفرا الذي سيدرها لحساب ملك فرنسا . وبعد أن سوّى أموره على هذا النحو أبحر في ٢ آب (اغسطس) ١١٩١ إلى إيطاليا ، فوصل أسطوله المؤلف من خمس عشرة سفينة نقل إلى برنديزي دونما حوادث . وتلقى ، حسب العادة ، سعفاته الحجّ من يدي البابا سلسرين الثالث . ولدى رجوعه إلى دياره أعاد تنظيم ماليته وفكّر في الطريقة التي يمكنه بها الاستيلاء على الأرضي التي يملّكها البلاطاجيني في فرنسا ، متظاهراً بنسيان العين الذي أقسمه باحترامها وحمايتها من أيّ عدوان ، ومنع أي عمل من الأعمال العدائية حتى رجوع ملك إنكلترا .

فرد ملك إنكلترا بقيادة الفرنجة

ويسفر فيليب خلا الجو لريكاردن الذي غدا القائد الوحيد للحملة الصليبية الثالثة ،

ولم يكن هذا مجردًا من المزايا العسكرية، ولكن صفاته كجنديّ باسل كان يعطيها قصر نظره السياسي. فقد حسب نفسه— قبل الأول — في بلاد مفتوحة، ولم يدر في خلده أن الأسلحة — حتى المتصرّة منها — يجب أن تدعمها براعة رجل دولة، وهذا ما كان يفتقده تقريبًا أيلاناتاجيني المتهور. لقد شاجر مع كونراد دي مونفراً الاختصاصي في قضايا المشرق، وكان يمكن أن يفيد من نصائحه، وذلك لأنّ كونراد رفض أن يعترف بسلطنة ملك انكلترا على إمارته صور؛ فصادر هذا الأخير ما كان يملّكه كونراد في عكا، والذي آلت إليه من ملك فرنسا.

بربرية ريكاردوس ومجزره الشنيعة

واقترف ريكاردوس خطيبة مميتة أخرى ستظل طويلاً تسب الكراهية للإنكليز في الشرق الأدنى، ذلك أنه كان لدى المسلمين — حسب اتفاق تسليم عكا — مهلة ثلاثة أشهر لتنفيذ الشروط^(١٠). ولم يكن صلاح الدين قد وافق عليها، ولكنه أخْنى أمام الأمر الواقع، وأصدر أوامره بدفع ثلث الفدية في الموعد المقرر، وأن تسلم الأعتدة والأسلحة والسفن، وإطلاق سراح أسرى الفرنجية. وكان عليه أن يعيد صليب الصليبي في أول يوم من الاستحقاق الأول.

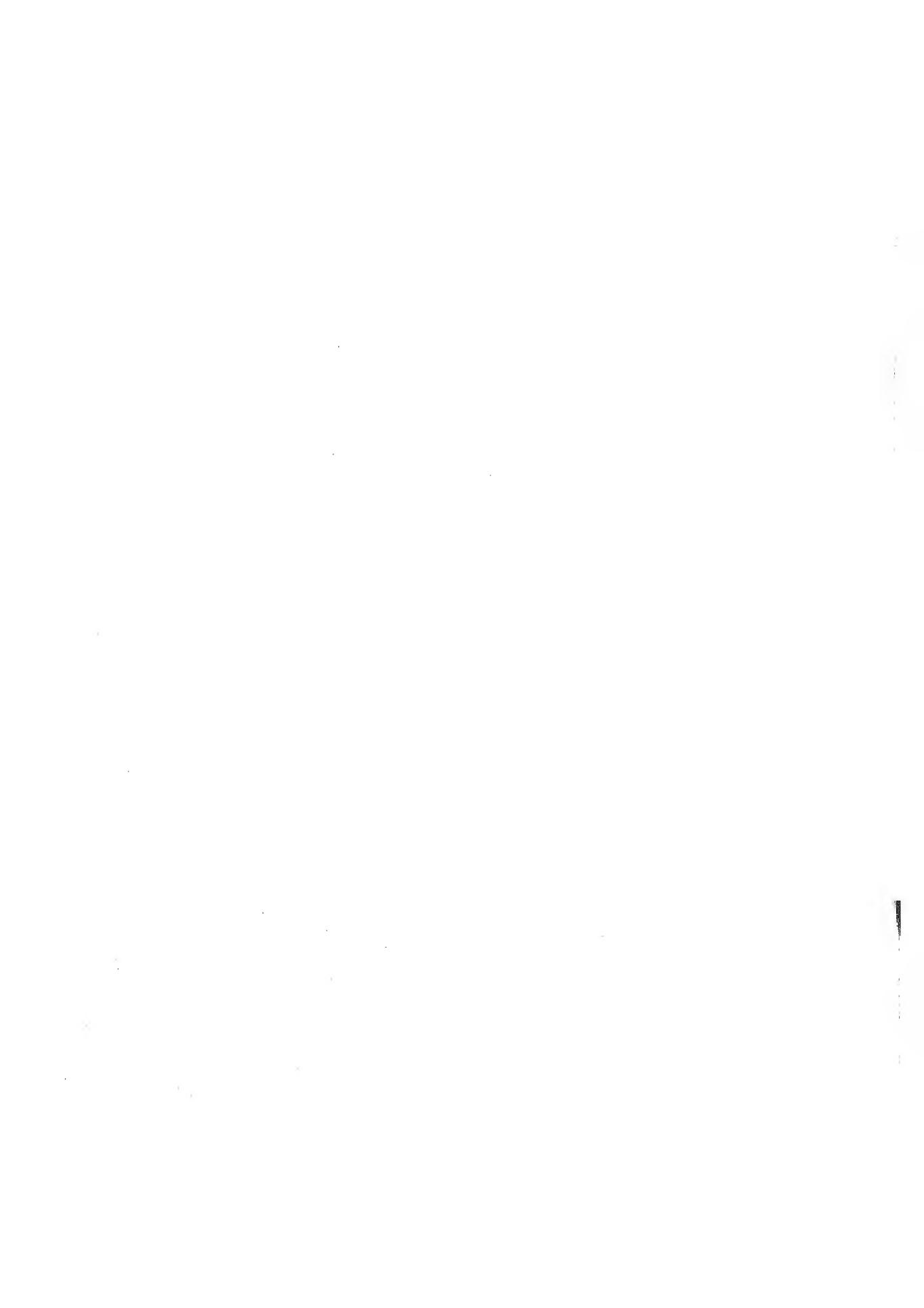
وفي الموعد المضروب، أرسل ريكاردوس قلب الأسد بعض قواه إلى معسكر صلاح الدين لتسليم الصليب الذي استعاده المسلمون من بغداد، وتسلّم مائة ألف دينار ذهبًا وستمائة أسير فرنجي. فأعلن صلاح الدين أنه بموجب المعاهدة يجب أن يتم بآن معاً تسليم الصليب والذهب والأسرى وإطلاق سراح قسم من سكان المدينة المسلمين المحصورين في حي واحد.

فغضب ريكاردوس لأنّ صلاح الدين ذكره بما عليه أن يفعله. فتصلب في رأيه واشترط أن يتم له الدفع أولاً، لكن صلاح الدين الذي ارتقى في موقفه هذا رفض أن يدفع الفدية قبل أن يرى جماعة من المسلمين على الأقل تغادر المدينة، وظل كلّ منهما على موقفه، عندها، وعلى سبيل الانتقام اقترف ملك الإنكليز فعلة نكراء، إذ أخرج المسلمين رجالاً ونساءً عراة موثقين بالحبال، وعدهم ثلاثة آلاف وأمر — في ٢٠ آب (اغسطس) ١١٩١ في الساعة الرابعة بعد الظهر — مرتزقة الأفاقين بأن يقتلوهم، ويلقوا جثثهم الممثل بها في الآبار الواقعة تحت تل العياضة أمام عكا — وعلى مرأى من صلاح الدين الخَيم قرب تل كيسان^(١١).

استنكار العالم الإسلامي جريمة عكا

وأثار هذا العمل الممجد الذي لم يكن له ما يسوّقه استنكار العالم الإسلامي وكتب عماد الدين يقول : «لقد رأيت هؤلاء الشهداء ، شهداء إيماننا ، مجردين عراة في السهل المُحرق . ولكنني لاأشك في أن الله سرّا لهم بثواب السعادة ودعاهم إلى جنة الخلد والجنة الأبدية .»^(١٢)

وعند ذلك تصرف صلاح الدين في الفدية التي كان ينوي دفعها لقوّاد ملك انكلترا ، فقسمها بين أمرائه وأعاد الأسرى المزمع إطلاق سراحهم إلى مالكيهم القدماء وسلك قسم كبير منهم طريق دمشق . أما صليب الصليبوت فقد وضعه صلاح الدين في خزانته ليس من قبيل الاحترام ، بل بالعكس على سبيل الاحتقار وعدم الاعتبار ، لأن امتلاك المسلمين إياه يُعد أكبر مصيبة يمكن أن تحل بالفرنجية . وعانياً قدّم الروم ثم الجورجيون الكثير من المدايا ووجهوا إلى صلاح الدين الرسل بعد الرسل الذين رفض استقبالهم .. وبقي صليب الصليبوت بين عرش السلطان .



حواشى الفصل الثالث والعشرون

١— وصول ملك فرنسا وخبر الباز الذي اصطاده المسلمين .

«وكان قد شاع الخبر بأن ملوك الفرنج وأصليون ، وهم حاشدون حافلون . فوصل ملك الفرنسيين فيليب في سرت بطبع عظام ، مملوءة بفوارس ذوي إقدام ، فقلنا ما حمل الماء إلا أهل النار ، وما أجلب للدواب إلا الدبار . وكان عظيمًا عندهم من كبار ملوكهم ينقادون له بحيث إذا حضر حكم على الجميع ، وما زالوا يتواحدون به حتى قدم . وصحبه من بلاده باز عظيم عنده هائل الخلق أبيض اللون نادر الجنس . وكان يعزه ويحبه جمًا عظيمًا ، فطار من يده .. حتى سقط على سور عكا فاصطاده أصحابنا وأنفلوه إلى السلطان وبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجروا . قال القاضي ابن شداد : ولقد رأيته وهو يضرب إلى البياض ، مشرق اللون مارأيت بانياً أحسن منه . قال العمامد : وكان مع هذا الملك باز أشهب ، كأنه عند إرساله نار تلهب . ففارقه يوم وصوله بحيث عجز عن حصوله .» (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٣ وانظر : ابن شداد ١٥٧) .

٢— عن حصار الفرنجية عكا ومضايقة المسلمين المهاجرين داخلها .

«وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل ، فكان في هذه الفترة للبلد بناء رق ، وزوال فرق ، وانتعاش عزة ، وإنجبار كسرة .. ثم تكررت الرسائل من الفرنج إلى السلطان شغلاً لوقت بما لا طائل تمنه ، منها أن ملك (الإنكليزية) طلب الاجتماع به ثم فتر بعده أيامًا ، ثم جاء رسوله يطلب الاستئذان في إهداء جوارح جاءت من البحر ، ويذكر أنها قد ضعفت وتغيرت ، وطلب أن يحمل لها دجاج وطير تأكله لتقوى ثم تهدى ، ففهم أنه يحتاج إلى ذلك لنفسه لأنه حدث عهد بمرض . ثم نفذ أسيراً مغربياً عنده فأطلقه السلطان . ثم أرسل في طلب فاكهة وتلح فارسل إليه ذلك . وكان غرضهم من ذلك تغيير العزمات وتضييع الأوقات على المسلمين ، وهم مشتغلون بالحصر وموالاة الرمي والجذب في الرمح ، حتى تبدلت قوة البلد بالضعف ، وتخلخل السور ، وأنهى التعب والجهد أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الأعمال عليهم ، حتى إن جماعة منهم يقروا ليالي عدة لا ينامون أصلًا ليلاً ولا نهاراً والعدو عدد كثير يتباينون على قائمهم . واشتد ذلك عليهم سايع جمادى الآخرة فركب السلطان بالعسكر الإسلامي ورغبهم وتخاهم ، وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر ، وجرى قتال عظيم ، وهو كالوالدة الشكلى يحرك فرسه

من طلب إلى طلب ، ويحث الناس على الجهاد وينادي بنفسه بالإسلام ، وعيشه قد فارت بالدموع ، وكلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء وما يجري على من بها من المصائب العظيم ، اشتد في الرزق والحدث على القتال . ولم يطعم في ذلك اليوم طعاماً للبنته وإنما شرب شيئاً أشار به الطبيب ولما هجم الليل عاد إلى الخيم ، وقد أخذ منه العص والكتابة والحزن ، ثم ركب سحراً وصبيحاً على ما أمسوا عليه . وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها إنما قد بلغ بنا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسلیم ، ونحن في الغد إن لم تتعلموا معنا شيئاً نطلب الأمان ، ونسلم ونشترى مجرد رقابنا وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه في قلوبهم ، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر أيضاً . فرأى السلطان مهاجمة العدو فلم يساعدوه العسكرية ، فإن الرجال من الفرج وقفوا كالسور الحكيم البناء بالسلاح والذئب والنار والشباب من وراء أسوارهم . وهجوم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم فثبتوا وذبوا غاية الذب . وحكي بعض من دخل عليهم أسوارهم أنه كان هناك واحد من الفرج صعد سور خندقهم ، وبجماعة ينالونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين ، ووقع فيه زمام حمرين سهماً وحجرًا وهو يتلقاها ولم يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب ، حتى ضربه زرقاء ببنقط فأحرقه . وروي أن امرأة عليها ملوحة خضراء ، فما زالت ترمي بقوس من خشب حتى جرحت جماعة ، ثم قتلت وحملت إلى السلطان فعجب من ذلك» . (ابن شداد : النواود السلطانية ص ١٦٥ - ١٦٧ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٦) .

٣— وكانت الأوضاع تأخذ مساراً مأساوياً بالنسبة للمسلمين داخل عكا المحاصرة ومن كتاب فاضلي إلى الديوان جاء فيه نقاًلاً عن كتاب الروضتين :

«إنّ ماقطع الخادم الخدم إلا أنه قد أضجر وأسأم من المطالعة بغير هذا العدو الذي قد استفحلا أمره ، واستشر شره . فإن الناس ما سمعوا ولا رأوا عدواً حاصراً محصوراً ، عامراً مغموراً ، قد تحصن بخنادق يمنع المجاوز من الجواز ، ويعوق الغرض عن الانتهاء . ولا تقصّر عدّتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل . وقد أفنّاهم القتل والأسر ، وأكلّتهم الحرب ولقمتهم النصر . وقد أمدّهم البحر بالبحار ، وأغان أهل النار . واجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربية والألسنة الأعمجية من لا يحصى معدوده ولا يتصور في الدنيا وجوده ، فما أحقّهم بقول أبي الطيب :

تبّع في كل لسن وأمة فما يفهم التحدّيث إلا التراجم

حتى إنّ إذا أسر الأسير واستأمن المستأمن ، احتيج في فهم لغته إلى عدة تراجم ينقل واحد عن آخر ، ويقول ثان ما يقول أول وثالث ما يقول ثان . والأصحاب كلوا وملأوا ، وصبروا إلى أنّ ضجروا ، وتملدوا إلى أنّ تبلدوا . والعساكر التي تصل من المكان بعيد لا تصل إلا وقد كل ظهرها ، وقل وفراها ، وضاق بالبيكار صدرها . ولا تستفتح إلا بطلب الدستور ، ويصير ضجرها مضراً بالسمعة عند العدو الخذل . ولمّا قاتلهم الله تنوع في المكائد ، فإنهم قاتلوا مرة بالأبرجة ، وأخرى بالمنجنيقات ، ورادفة بالدبابات ، وتابعة بالكباش ، وأونة بالموالب ، ويوماً بالنقب ، وليلًا بالسرايات ، وطروا بضم الخنادق ، وآتانا بنصب السلام ، ودفعوا بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب . ثم شرعوا فاقاموا في وسط خيامهم حائطاً مستطيلاً يشبه السور من التراب ، وتلاً تشبه الأبرجة مدوره ورفعوها بالأشناب . وعالوها بالحجارة ، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ، ورموه قدامها ، وهم يتقدّمون أول أول ، وترتفع حالاً بعد حال ، حتى صارت منه كنصف غلوة سهم . وقد كان الحجر والنار تؤثران في

أبراج الخشب . وهذه أبراج وستائر للرجال والبنات من العطب ، لا تؤثر فيها الحجارة الرامية ، ولا تعمل فيها النار الحامية » . (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٥ - ١٨٦) .

٤ - فشل محاولة خروج المسلمين المهاجرين من عكا :

« قال العماد : وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديدي متظراً الأمل البعيد . ولما عرف السلطان أنه لا سلامه ، وأن عكا عدلت الاستقامة . نفذ إلى جماعة عكا سراً . وقال لهم : خذلوا من العدو حذراً ، واتفقوا وخرجوا ليلاً من البلد يبدأ واحدة ، وسيراً إلى جانب البحر ، وصادموا العدو بالقهر . وخليوا البلد بما فيه ، واتركوه بما يحبونه . فشرعوا في ذلك ، واشتعل كل منهم باستصحاب ما يملكون ، ولم يعلم أن التهاء به يهدكم . فما تمكنوا من المراد حتى أسرفوا الصباح . ولم يصح ذلك في الليلة الثانية ، لصيير السر إلى العلانية . قال : ولو صح ذلك لننجح المقصد . لكن الفرج اطلعوا على هذا السر ، فحرسوا الجوانب والأبواب . وكان سبب علمهم ، اثنين من غلمان الماريين ، خرجا إلى الملائين ، وأخبراهما بحيلة الحال وعزمية الرجال » . (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٧) .

٥ - عن تحركات الفرنخة الجماعية قبل سقوط عكا ، راجع ابن شداد : النواودر السلطانية ص ١٦٩ .

٦ - رسائل أهل عكا المهاجرين إلى صلاح الدين لما ضاق بهم الحصار :

الرسالة الأولى :

« إننا بلغنا من العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسلیم . ونحن في الغد — يعني يوم الأربعاء ثامن جمادى الآخرة — إن لم ت عملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسليم البلد ونشتري مجرد رقابنا » . (النواودر السلطانية لابن شداد ١٦٧) .

الرسالة الثانية :

« إننا قد تباعينا على الموت . ونحن لأنزال نقاتل حتى نقتل ، ولا نسلم هذا البلد ونحن أحيا ، فأبصروا كيف تصنعنون فيشغل العدو عنا ودفعه عن قتالنا . فهذه عزائمنا ، وإيمانكم أن تخضعوا لهذا العدو أو تلينوا له ، فاما نحن ، فقد فات أمرنا . (ابن شداد : النواودر السلطانية ص ١٦٩ - ١٧٠) .

رسالة أهل عكا الأخيرة للسلطان :

ضائق الفرج عكا كل المصايف ، ولم يتمكن السلطان صلاح الدين من إنقاذهما أو التخفيف عن المحسوبين ، وحاول الاتفاق مع الفرنخ فتعنتوا كل التعتن ، وعلم أهل عكا تعنت الفرنخ ، فأرسلوا إلى السلطان يقولون قبل سقوط البلد يهد الفرنخ .

يامولانا : لا تخضع لمؤلاء الملائين الذين قد أبوا عليك الإجابة إلى ما دعوتمهم فينا ، فإننا قد بایعنا الله على الجهاد حتى نقتل عن آخرنا ، وبالله المستعان . (ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ - ٣٤٤) .

٧ - ذكر حديث مصالحة أهل البلد ومصالحتهم عن نقوتهم

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة خرج العوام من الشفر ، ونظمت كتبه أن أهل البلد ضاق

بهم الأمر وكثرت الشفر ، وعجزوا عن الحفظ والدفع ، ورأوا عين الملاك ، ويتقنوا أنه متى أخذ البلد عنوة ضربت
أعناقهم عن آخرهم ، وأخذ جميع ما فيه من العدد والأسلحة والراكيب وغير ذلك ، فصالحوهم على أنهم يسلمون
البلد وجميع ما فيه من الآلات والمعد والراكيب وما تبيه ألف دينار ، وألف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال ،
مائة أسير معين من جانبيهم ، يختارونهم ، وصلب الصليبوت ، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين ، وما معهم من
الأموال والأقمشة الخالصة بهم ، وذرارهم ونسائهم ، وضمنوا للمركيسي الملعون — فإنه كان قد استرضي وعد — عشرة
آلاف دينار ، لأنه كان واسطة ، ول أصحابه أربعة آلاف دينار واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرج . (ابن
شداد : التوادر السلطانية ١٧٠ — ١٧١) .

٨ — ذكر استيلاء العدو على عكا (يسر الله فتحها) :

ولما وقف السلطان — رحمة الله عليه — على كتبهم ، وعلم مضمونها ، انكر ذلك إنكاراً عظيماً ، وجمع أرباب
المشورة من أرباب دولته وأكابرها ، وعرفهم ذلك وشاورهم فيما يصنع واضطربت به آراؤه ، وتقسّم فكره ، وتشوش
حاله ، وعزم على أن يكتب في تلك الليلة مع العوام ، وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه ، وهو في مثل هذا
الحال ، فما أحسن المسلمين إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وشعاره وناره على أسوار البلد وذلك في ظهيرة نهار
الجمعة سابع عشر جمادى الآخر سنة سبع وثمانين وخمسمائة وصاح الفرج صيحة واحدة ، وعظمت المصيبة على
المسلمين ، واشتد حزن الموحدين والخنصر كلام العقلاة في ثلاثة : «إنا لله وإننا إليه راجعون» . وغضي الناس بهبة
عظيمة ، وحيرة شديدة ، وقع في العسكرية الصياح والعويل والبكاء والنحيب ، وكان لكل قلب حظ في ذلك ، على
قدر إيمانه ، ولكل إنسان نصيب هذا الحظ على قدر دياناته ونفوذه ، واقشع الحال على أنه استقرت تلك القاعدة
بين أهل البلد وبين الفرج على الحال المتقدم ، وأن المركيسي الملعون دخل البلد ومعه أربعة أعلام للملوك ، وأخذ
عرضه محمد بن باريث — رحمة الله — وكان شجاعاً من شجاعان الإسلام — رحمة الله — فنصب المركيسي علمًا على
القلعة ، وعلماً على مقدنة الجامع في يوم الجمعة ، وعلماً على برج الداوية ، وعلماً على برج القلعة عوضاً عن علم
الإسلام ، وحيز المسلمين إلى بعض أطراف البلد ، وجرى على أهل الإسلام المشاهدين لذلك الحال ما كثار
التعجب من الحياة معه . ومثلث بخدمة السلطان — رحمة الله عليه — وهو أشد من الوالدة الشكلى وال Wolfe الموري ،
فضليته بما تيسر من التسلية ، وأذكرته الفكر فيما قد استقبله من في معنى البلاد الساحلية والقدس الشريف ،
وكيفية الحال في ذلك ، وإعمال الفكر في خلاص المسلمين المسؤولين في البلد ، وذلك في ليلة السبت الثامن عشر
منه . وانفصل الحال على أن رأى التاجر عن تلك المنزلة مصلحة فإنه لم يبق غرض في المضايقة ، فتقدم بنقل
الانتقال ليلاً إلى المنزلة التي كان عليها أولاً بشفر عم ، وأقام هو جريدة — رحمة الله عليه — في مكانه لينظر ماذا
يكون من أمر العدو وحال أهل البلد ، فانتقل الناس في تلك الليلة إلى الصباح ، وأقام هو جريدة راجياً من الله
تعالى أنه ربنا حملهم غرورهم وجهمهم بالخروج إليه ، والهجوم عليه ، فبنال منهم غرضاً ، ويلقي نفسه عليهم ، ويعطي
الله النصر لمن يشاء ، فلم يفعل العدو شيئاً من ذلك ، واشتغلوا بالاستيلاء على البلد ، والتلك منه » (ابن شداد :
التوادر السلطانية ١٧١ — ١٧٢) .

٩ — رسالة الفاضل إلى شمس الدولة بن منقذ ، يخبره بها عن سقوط عكا : انظر (أبو شامة : كتاب الروضتين

ج ٢ ص ١٨٨ - ١٨٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٦١ ، ابن الفرات في تاريخه ج ٤ ص ٢ - ٢٥ .

١٠ - عن المفاوضات بين المسلمين والصلبيين حول أسرى عكا :

«ولم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب .. وفي ذلك اليوم خرج حسام الدين حسين بن باريلك المهراني ، ومعه اثنان من أصحاب الانكشار ، فأخبر أن ملك الفرنسيس سار إلى صور—يسْرُ الله فتحها— وذكروا شيئاً من تحرير أمر الأسرى ، وطلبو أن يشاهدو صليب الصليبيوت ، وأنه هل هو في العسكر أو حُمل إلى بغداد؟ فأحضر صليب الصليبيوت ، وشاهدوه وعظموه ، ورموا نفوسهم إلى الأرض ، ومرغوا وجوههم على التراب وخضعوا خضوعاً عظيماً لم يَرِ مثله ، وذكروا أن الملوك قد أجابوا السلطان — رحمة الله عليه — إلى أن يكون ما وقع عليه القرار يدفع في تروم (أي نحو) ثلاثة كل تم شهر . ولم تزل الرسل تتواءر في تحرير القاعدة وتجزئها حتى حصل لهم ما كانوا يتمنوه من الأسرى والملايين الخصص بذلك الترم ، وهو الصليب ، ومائة ألف دينار ، وألف وستمائة أسير ، وأنفذوا ثقاتهم ، وشاهدوا الجميع ما عادا الأسرى المعينين من جاتتهم ، فإنهم لم يكونوا فرغوا من تعذيبهم ، ولم يكلوهم حتى يحصلوا ، ولم يزالوا يطأطلون ويقضون الزمان حتى انقضى الترم الأول فكان انقضاؤه في ثامن عشر رجب . ثم أخذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك فقال لهم السلطان — رحمة الله — «إما أن تنفذوا إلينا أصحابنا ، وتسلموا الذي عين لكم في هذا الترم ، وتعطينا رهائن على الباقي ، يصل إليكم في ترومكم الباقية ، وإما أن تعطونا رهائن على ما نسلمه إليكم حتى تخرجوا إلينا أصحابنا». فقالوا : «لأن فعل شيئاً من ذلك ، بل تسلمون ما يقتضيه هذا الترم ، وتقنعون بأماننا حتى نسلم إليكم أصحابكم». فأبى السلطان — رحمة الله — ذلك ، لعله أنه إن تسلموا المال والصلب والأسرى ، وأصحابنا عندهم ، لا يؤمنون غدرهم . ولما رأوه — رحمة الله عليه — قد امتنع من ذلك ، أخرجو خيامهم إلى ظاهر خنادقهم مربزين ، وذلك في نهار الأربعاء الحادي والعشرين من رجب من شهر سنة سبع وثمانين وخمسين ، وكان الذي يرز ملك الانكشار ومعه خلق عظيم من الخيالة والرجالات والتركيل .

١١ - ذكر قتل المسلمين الذين يعكا :

ولما رأى الانكشار الملعون توقف السلطان — رحمة الله عليه — في بذل المال والأسرى والصلب غدر بأسارى المسلمين ، وكان قد صالحهم وسلم البلد منهم على أن يكونوا آمنين على نفوسهم على كل حال ، وأنه إن دفع السلطان إليهم ما استقرّ أطلاقهم بأموالهم وذراهم ونسائهم ، وإن امتنع من ذلك ضرب عليهم الرق ، وأخذهم أسرى ، فغدر بهم الملعون ، وأظهر ما كان أبطئن ، وفعل ما أراد أن يفعله بعدأخذ المال والأسرى على ما أخبر به عنه أهل منه فيما بعد ، وركب هو وجميع عسكر الفرنجية راجلهم وفارسهم في وقت العصر من يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب سنة سبع وثمانين وخمسين ، وساروا حتى أتوا الآبار تحت تل العياضية ، وقدموا خيامهم إليها ، وساروا حتى توسعوا المرح بين تل كيسان والعياضية ، وكان اليزيك الإسلامي قد تأخر إلى تل كيسان لما قدموا خيامهم إلى تحت تل العياضية ، ثم أحضروا من الأسرى المسلمين من كتب الله شهادته في ذلك ، وكانت زهاء ثلاثة آلاف مسلم في الحال ، وأوقتهم في الحال ، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد ، فقتلواهم صبراً طعناً وضرباً

بالسيف — رحمة الله عليهم — واليزيك الإسلامي يشاهدهم ، ولا يعلم ماذا يصنعون لبعدهم عنهم ، وكان اليزيك قد أنفذ إلى السلطان — رحمة الله عليه — وأعلمه بركوب القوم ووقفهم ، فأنفذ إلى اليزيك من قواه ، وبعد أن فرغوا حمل المسلمين عليهم ، وجرت بينهم حرب عظيمة ، جرى فيها قتل وجرح من الجانبين . ودام القتال إلى أن فصل الليل بين الطائفتين ، وأصبح المسلمين يكتشفون الحال ، فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم ، وعرفوا من عرفوه منهم ، وغشى المسلمين بذلك حزن عظيم وكآبة عظيمة ، ولم يقروا من المسلمين إلا رجلاً معروفاً مقدماً أو قوياً أيداً ، للعمل في عمائرهم . (ابن شداد : النواذر السلطانية ص ١٧٣ — ١٧٤) .

١٢ — قول العياد في شهداء عكا :

«فشاهدناهم مستشهادين بال العرا عرايا مجردين . ولا شك إن الله كساهم من سندس النعم ، ونقلهم إلى دار المقاومة في العز المقيم . وتصرف السلطان حينئذ في المال ، وفرق بمجموعه في رجاء الرجال . وأعاد الأسرى إلى أربابها ، واحتوت عليها بدمشق أيدي أصحابها . وحفظ الصليب السليم ورده إلى مكانه ، وأعاده إلى صوانه ، لا لعزم بل هوانه . فإنه لا مصاب عندهم أعظم من استيلاثنا عليه ، وامتداد أيدينا إليه ، وقد بدل فيه الروم ثم الكرج بذولاً ، وأنفذوا بعد رسول رسولًا ، فما وجدوا قبلًا ، ولا صادفوا سلولاً .» (أبو شامة : كتاب الروضتين ص ١٨٩ — ١٩٠) .

الفصل الرابع والعشرون

ملك انكلترا يسعى لتنصيب أسرته في الأرض المقدسة

أوضاع الصليبيين بعد سقوط عكا

وبعد مغادرة ملك فرنسا ، وتركه قيادة قواته هوغ دي بورغونيه ، لم يعد ريكاردوس قلب الأسد يشارك أحداً بمقاييس السلطة ؛ إنه يملك وحده . وبعد عكا أصبح الانكليزي البطل غير المنازع للحملة الصليبية الثالثة . ففي عكا — بعد سنوات الحرمان ، وضراوة المعارك الأخيرة — غدا الفرنجة في رخاء . كانت المراكب القادمة من كل موانئ الغرب تنزل في المدينة المحتلة آفاقات جميلات وبنات داعرات ، أصبحت تلك المدينة كما يقول الشاعر امبرواز انطاكية ثانية ، فالأخلاق فيها تفقد صرامتها شيئاً فشيئاً . ونسى المتتصرون بطريقة فاقدة الحياة أكثر مما ينبغي ما قاسوه ردحاً طويلاً من وطأة الحرمان الرهيبة . كان تدفق هذه الشبيبة البعيدة عن الروح الحرية من الكثرة — كما يقول امبرواز — بحيث لن ترافق النساء الجيوش مستقبلاً ، بل يقين في المدينة باستثناء الخوادم والغسالات اللائي يتظفن ثياب الجنود واللاتي يفلين رؤوسهم من البراغيث ، كما تفعل القرود .

الصلبيون يزحفون صوب مدن الساحل الفلسطيني

وبعد مضي يومين على مذبحة المسلمين الفظيعة ، تلقت القوات الأمر بالزحف إذ عزم الصليبيون على استرداد أشهر مدن الساحل الفلسطيني : قصصية ، يافا ، عسقلان تلك المدن التي يعتبر امتلاكها ضرورياً لتأمين مراكز انطلاق وطيدة تمهدأ لعملية في المستقبل ضد القدس . وتذكر هذه المسيرة على طول الساحل تحت شمس آب الحرقه ، في منطقة مدمرة تدميراً منهجياً ، تحت أقدام الصليبيين ، تذكر بأكثر من ناحية بالمسيرة القدرة إلى حطين . كان غي دي لوزينيان — كعهده في تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٧ — يقود الطليعة وريكاردوس قلب الأسد يقود القلب ودوق بورغونيه المؤخرة . كان المشاة الموزعون على الجناحين يتقدمون بخطا الواثق بانتظام ؛ وكل منهم مدجج سابغ التسلیح ، وكانت حمايل سيفهم من الالتصاق ببعضها بعضاً حتى ليستحيل على سهام العدو أن تنفذ من بينها ، وتسريل كل فرد بدراعة من الجوخ المبطّن بالقطن لا تخترقها أشد القذائف حدة ؛ حتى خامر قلب قاضي الجيش الإسلامي الذعر عندما رأى رجالاً متداياً مثل هذا اللباس ، وقد انفرز اثنا عشر سهماً في ظهره وهو مايزال بجادة في مسيره على طول الساحل ، وكأن شيئاً لم يحدث .

كان ثقل الخيالة الصليبية يتقدم في القلب يحدق به سور حيٌ من المشاة ، ترفف فوق الجيش آلاف الرایات ، وكان الأسطول الفرنسي الذي يجري محاذاة الساحل يؤمن التموين . ولعدم تمكنه من الهجوم الشامل ، كان صلاح الدين يتبع خطة استنزاف الفرنجة بمجموعات صغيرة سريعة الحركة من الماليك تنقض انقضاض الزيارة مرخية الأعنة على هذا المعسكر المتحرك محاولة أن تعمل سيفها هنا وهناك ضاربة عدداً من الرجال ثم تعود بالسرعة ذاتها . كان يedo على المسلمين أنهم يحاذون الفرنجة في مسيرتهم نحو الجنوب ؛ لانقطع المناوشات بين الجيшиين ، وبعد ستة أيام من الزحف وصل الجيش الفرنسي أمام قصصية المدينة المغرة في القدم التي زينها هيرودس ، والتي انقلب فيما بعد مركزاً للحكام الرومانيين ، وعندما اقترب منها جيش الفرنجة لاذ سكانها فراراً ، ولم يتوقف فيها ريكاردوس قلب الأسد ، فالحرب كما تبدو طويلة الأمد غير مؤكدة النتائج .

ملك انكلترا يسعى للتفاوض مع صلاح الدين

وبعد أن اتخذ ملك انكلترا موقفاً أمام أرسوف ، أبوابونية القديمة الواقعة قرب يافا سعى

إلى التفاوض مع صلاح الدين ، ناسياً أن بيته وبين القائد العربي مذبحه ثلاثة آلاف من الأسرى المسلمين ، ومن جانبه أعلن صلاح الدين أنه ليس ضد المفاوضات شريطة أن يكون هدفها تحقيق اتفاق دائم بين الفريقين وأوكل إلى أخيه مهمة التفاوض على الصلح .

وتمت المقابلة بين الملك العادل وريكاروس قلب الأسد في ٥ ايلول (سبتمبر) ١١٩١ في أحراج أرسوف بحضور أونفروا دي تورون المكلف بترجمة أقوال شقيق صلاح الدين .

انقطاع مباحثات الصلح والاحتکام كرة أخرى للسلاح

وحينا سأله الملك العادل عن شروط الصلح التي يقترحها ملك انكلترا ، أجاب هذا الأخير بأن على المسلمين أن يعيدوا إليه مملكة القدس ، وأن ترتد الجيوش الإسلامية إلى الحدود السورية القديمة^(١) . فانقطعت المفاوضات من فورها وانسحب الملك العادل مغضباً ، واحتكم الفريقان كرة أخرى للسلاح . ويوم السبت ٦ ايلول (سبتمبر) أعني بعد مضي أربع وعشرين ساعة فقط على لقاء العادل وريكاروس ، كان القتال يختتم قرب نهر الأوج بين أرسوف والملة . وفُدحت خسائر الجانبين ، وفي الساعة التاسعة صباحاً كان ثلاثون ألفاً من الجيش الإسلامي صادقو العزيمة يحدقون بالجيش الفرنجي مطوقين إياه بتصميم ، يتقدم الأمراء عازفو الأوّاق وحملة الطبول ، تلهم سرايا الخيالة السوداء ويدو الصحراء المهاجمون ، كان المصروم برياً بحرياً معَا كما يكتب اميرواز ويوافقه بهاء الدين لكون الفرنجة مضطرين إلى حد الخطى ليبلغوا أرسوف حيث سيتوقفون ، أخذ المسلمون بخناقهم ، ملجنين إياهم لأسوأ موقف ، ويفخر المسلمون بأنهم قضوا عليهم قضاء سهلاً . تلك هي المرحلة الأولى من المعركة التي تستحضر للذاكرة معركة حطين ، بيد أن القائد كان هذه المرة يعرف مهمته ؛ فبعدما تم تجاوز المشاة منذ بدء القتال وقد أخذوا يتقهقرون على طول الجبهة ويسحقون واحتراق الجناحان ، وتتجند قتيلًا جاك آفين ودب الذئب في صفوف جنده ، عندها أطلق ملك انكلترا خيالته الثقيلة القوية ؛ وكان له من الجرأة في غمرة هزيمته ما جعله ينتقل إلى الهجوم ويتتصّر ، وقتل أو جرح الكثير من جند الإسلام بينهم عدد من النساء .

لكن صلاح الدين أصرَّ على الثبات في حومة المعركة ؛ وأعاد الكثير من المارين إلى

القتال ، ثم أمر بقرع الطبل وأمر خيالته — باذلاً جهده الأخير — فانقضوا على الفرنجية المنعزلين عن خيالتهم وهكذا عاد ظافراً بعد أن أصبح على قاب قوسين من المهزيمة وفوت النصر على الفرنجية .

صلاح الدين يأمر بتدمير عسقلان

والندر الفرنجية نحو عسقلان التي أصبحت بعد ازدهارها القديم مدينة بحرية صغيرة محسنة تشرف على الطرق المتعددة بين مصر وفلسطين . وكان ملك انكلترا يرمي من وراء احتلاله إليها أن يقطع كل اتصال بين البلدين العربيين لانتقال الرجال أو المؤن .

وكان صلاح الدين يريد أن يترك حامية في عسقلان ، ولكن أمرأة أقنعوه بالعدول عن ذلك مخافة أن يحل بها ما حل بحمية عكا ، ونصحوه بمتابعة المعركة ومراقبة تحركات الأعداء وإنها كهم بمعارك جانبية خاطفة تمهدًا لمعركة كبيرة . وقالوا له : إن هدف الفرنجية هو بلوغ القدس ، وقد أصبحوا منها على بعض مراحل ومن رأيهم أن تقوى حامية القدس ما داموا لا يستطيعون بلا خسائر فادحة وقف زحف الفرنجية . وبما أن قواتهم لا تفي بترك حامية في كل مدينة ، فالآجدى أن يُحدِّق الخراب بطريق الفرنجية ؛ فأمر صلاح الدين بتدمير عسقلان وقلتها رأساً على عقب ^(٢) ، كما دمرت قديماً نينوى أو بابل أو طيبة ذات المائة باب . وكان صلاح الدين قد تَبَوَّلَ في أسواقها ، وبعد دمارها غادرها وكتب إلى ابن أخيه عماد الدين الزنكي صاحب سنجار . قائلاً : «إنني موقن بأني بهدمي عسقلان قد أمنت حياة القدس وخلاصها» ^(٣) .

وصول ريكاردوس قلب الأسد إلى يافا

وخلال ذلك كان ريكاردوس قلب الأسد يستقر في يافا ، ولكن غداً جيش الفرنجية على درجة من الإنهاك لا يستطيع معها حتى التناط أنفاسه وقد لزمه سبعة عشر يوماً لقطع المسافة بين عكا ويافا ، بينما يستلزم قطع هذه المسافة في الأحوال العادية مسيرة يومين اثنين فقط .

ورغم ريكاردوس قلب الأسد أسوراً يافا ، وحدث له آنذاك حادث تافه كاد أن يودي بحياته ؛ فبينما كان في رحلة صيد بجوار الرملة حيث خيم جيش صلاح الدين ، وقد بلغ منه الإهانة مبلغه من الحر ، جلس معتمدًا جذع شجرة ليستريح ونام ، وفجأة أيقظه صراخ

مرافقيه من الفرسان ، فإذا فريق من المسلمين يضرب حوله الطوق . فقفز إلى صهوة جواده وقام المهاجمين بعض الوقت مع قوتهم الصغيرة ، وكاد أن يقتل لو لم يصرخ أحد رفاقه باللغة العربية وقد أربعه الخطر المحدق بحياة سيده : « أنا الملك حافظوا على حياتي ». فلتحق به المهاجمون وأسروه ، بينما أخذ ملك انكلترا طريقه إلى يافا .

ويقي الصليبيون شهرين في يافا قضاها الجيش وسط مباحث تذكره بأيام عكا ؛ خاصة وقد ضاقت النسوة ذرعاً بالبقاء وحدهن في عكا فسررن إلى يافا ؛ وفيما هم غارقون في ابتهاجهم كان صلاح الدين يهدم الرملة والله ، فصار طريق القدس قاعاً صفصفاً .

كونراد دي مونفرا يتآمر على ريكاردوس ويتصال سراً بصلاح الدين

هنا تتمحور مؤامرة كونراد دي مونفرا الذي لم ينس أن ريكاردوس قلب الأسد جرده ساعة مغادرة ملك فرنسا من جميع مناصبه التي سبق أن أسنده إليه فيليب أوغست ، وجرده من ألقابه وحقوقه بعرش القدس . كما هدده بأن يتزرع منه صور وإمارتها ، وبأن يشنقه بلا محاكمة على أحد أبراج الميناء المصري القديم ، في المدينة التي ظلت ردحاً طويلاً ، خاضعة لحكم الفراعنة ؛ ولكي يتفادى هذا العار وجه كونراد دي مونفرا رسالة صداقة إلى صلاح الدين عارضاً عليه تحالفه ضد الانكليزي . ولم يكن في هذا - بعد كل حساب - ما يصدق ، لأنها ليست المرة الأولى التي نرى فيها أميراً فرنجياً كبيراً يسعى إلى محالفة أمير مسلم . وكان هذا المارق يطالب المسلمين ثناً لخيانته بأن يسلّموه بيروت وصيادة ، ويعهد بأن يقاتل ملك انكلترا ، بل أن يباغت أصدقاءه القدامي في عكا لكي يتمكن من إعادة هذه المدينة إلى صلاح الدين ، وبدت القضية لهذا الأخير أجمل ما ينبغي ، مما حمله على التفكير في أن مركيز صور يناسب له فخاً ، ولذا عمد إلى مطالبه بشرط مسبقة لأي اتفاق معه ، منها أن يباده كونراد دي مونفرا ملك الانكليز بالحرب .

ريكاردوس يخادع كونراد ويقاوض سراً صلاح الدين

بيد أن ريكاردوس الذي كانت خيالاته السرية تجترح العجائب اطلع على مساعي المركيز ، وعمل - مؤجلاً للانتقام من هذا المغورو فوق العادة - على استقدام إمدادات إلى عكا لحمايتها من آية مفاجأة . وبوصفه لاعباً ماهراً أرسل إلى كونراد دي مونفرا يستفسره عن

أراضه العصبية ، ويوقظ في سويدائه وحوش الطمع ، ذاكراً له القدس التي أصبح هو منها على مسافة مائة كيلو متر فقط ، جاعلاً تاجها يسطع باهراً أمام عيني المكير العجوز ، ورنّ في أذنيه ألقاب جذابة ، واضعاً عقله موضع التعذيب .

وبعدما حار كونراد دي مونفرا بين صلاح الدين وريكاردوس قلب الأسد لعب ورقة ملك الانكليز القريب الشاؤ من القدس ، وذهب مقابلته في مخيّمه بشباب احتفالية . وتصالح البطلان ، وفيما كان الانكليزي يخادع الطامع بعرش القدس ويهدهد أحلامه بملكة لم يكن ينوي فعلاً الاستيلاء عليها ، كان يعرض الصلح مرة أخرى على صلاح الدين ، وقابل أخاه الملك العادل عدة مرات . وكانت الشروط ما تزال هي هي : فريكاردوس قلب الأسد يطالب بالقدس وأراضي الضفة الغربية للأردن وصليب الصليوبت . وأجابه صلاح الدين : «إن البلاد التي تطالب بها لم تكن يوماً ملككم ، ولم يشاً الله أن يجعلكم تضعون فيها حجراً واحداً . لقد أغرتتم علينا وانتزعتموها متّا زمن ضعف المسلمين . فالقدس ليست أقل قدسيّة بالنسبة إلينا مما هي بالنسبة إليكم . فإنّ القدس كان إسراء نبينا محمد ؛ ولن يكون في مقدورنا أن نتخلّ لكم عن هذه المدينة المشرفة دون أن يلحقنا العار إلى الأبد»^(٤) .

وكانت المفاوضات التي يتبعها الطرفان بشيء من الحماسة تطول وتطول ، وانقضت الأيام والأسابيع والطرفان يتناقشان لوضع النقاط على الحروف وكلّاهم يدرك أنّ ما تعوزه هي الحجة الفيصل : القوة . حينذاك عرض ريكاردوس قلب الأسد على صلاح الدين بوساطة أخيه الملك العادل حلاً ، وإن لم تؤيد نصه الأصلي أيّ من المصادر العربية أو الفرنجية ، ويبدو لنا مجرد مزاح مؤرخ . لقد عَرَضَ أخته حنة أمّلة غيم ملك صقلية زوجة لشقيق صلاح الدين على أن يكون مقدم صداقها الجزء الذي استولى عليه من الساحل مع عكا والرملة وأرسوف وبافا وخراب عسقلان ، أمّا الملك العادل صهره العتيق فيتلقى مملكة القدس .

وهكذا تصبح شقيقة ملك انكلترا العظمى وشقيق سلطان مصر وسوريا وما بين النهرين ونجد مملكة وملك القدس بنعمة صلاح الدين . ولم يستشر ريكاردوس قلب الأسد ، كونراد دي مونفرا أو غيري دي لوزينيان مجرد استشارة ؛ ويقال إن الملك العادل رأى في ذلك الزوج السياسي مصلحة للأيوبيين والإسلام معاً . ولكن صلاح الدين الذي لم يكن من سجيته التحمس للمظاهر الخداعية ، لم يُؤيد من الحماسة ما كان يرجوه ريكاردوس . وهبات

أن ينسى ما وقر في سويدائه من تدين ، لذا لم يكن ليغريه مثل هذا الحل للحرب المقدسة (الجهاد) التي سبق أن أعلنها خليفة بغداد . ومع ذلك لم يعارض هذا الرواج ، وأصبحت زيارات الملك العادل **خَيْمَ رِيكاردوُس** قلب الأسد يومية . وكان الأخير يحتفي احتفاء بالغ الدقة بالشخص الذي شرع يعتبره علينا صهراً ؛ فنصب له قرب خيمته خيمة استقبال ، ولم ينفك يغمره ترحاباً ، ويقدم له الحلويات والأشياء الفنية النفيسة ؛ وكان الملك العادل يصطحب معه بعض لاعبي القيثارة ، ومحنة عربية ويضع مع ملك انكلترا مشاريع المستقبل^(٥) .

ورغم كل ذلك لم يقطع صلاح الدين الاتصال بكونراد دي مونفرا ، لأنه كان على بينة من العداء المستحكم بين ملك الانكليز ومركيز صور . ومن أغرب الأمور أن صلاح الدين رغم فشله في عكا يتراضاه قطعاً معسّر الفرنجية ، وكان لديه متسع من الوقت يفكر فيه بهدوء كيلا يرتقي أرقاء أعمى بين ذراعي ريكاردوُس قلب الأسد أو كونراد دي مونفرا ويمكن القول : إن وضعه لم يكن في آية لحظة أفضل مما هو عليه الآن . فريكاردوُس قلب الأسد ينشد ضم الأيوبي إلى أسرة البلاطاجيني ، وكونراد يسعى إلى صداقه صلاح الدين ، لكنه يطرد الانكليزي من الأرض المقدسة . أجل ! كان ملك انكلترا يناور لكي يتزعزع مملكة القدس من المطالبين بها ، ولم يكن ليتردد في أن يستند إلى تأييد صلاح الدين الذي طردهم منها ؛ لكن الصحيح أن موقف ريكاردوُس قلب الأسد لم يكن البتة واضحاً أمام نبلاء الفرنجية حتى تخلى عنه أفضل مؤيديه : دوق بورغنونية ، الهيكليون ، الجerman ، الجنوبيون ، واستقبلهم كونراد دي مونفرا في مخيمه ، ومنذ تلك اللحظة أصبح السؤال هو أي من الاثنين : ريكاردوُس أو كونراد سيحصل أولاً على توقيع صلاح الدين . فأونفروا دي تورون كان يجهد سعياً لصالح البلاطاجيني – والأمير دي ساجيت كان بالغ التوفيق في أن يكون الوسيط الرئيسي لمركيز صور لدى السلطان . ومن جهته كان صلاح الدين حريصاً على أن يظل هذا الخلاف شاجراً ما بين هذين الرجلين ، ولذا طفق يبذل الوعود لكتلهما معاً ، وهو يعيد بناء أسوار القدس . وهكذا كانت نتيجة تلك المفاوضات البرق الخلب للفرنجية ، وبهدف شغلهم عن واقعهم ذلك حملهم ريكاردوُس على إعادة تشييد مدينة عسقلان ، وكانت أعمال البناء هذه ترتعج الكثير من سوادهم ، لأنهم – كما كانوا يقولون – لم يأتوا إلى هنا لحرق الخنادق ، وبناء الأسوار ، ولكن لطرد المسلمين من القدس . وفر جمع غفير منهم ، فبعضهم عبر البحر ، ويم بعضهم الآخر شطر صور . أمّا الذين لبثوا حيث هم فطالبو بالقتال .

وقرر ريكاردوس أن يخيم ليلة عيد الميلاد تحت أسوار المدينة المقدسة، عند ذلك تكشفت نتائج سياسته الرعناء. ففي اليوم التالي لمعركة عكا ١٣ تموز (يوليو) ١٩١١ كانت القدس المحرومة الموارد، الحالية من الجنود لحمايتها الخاوية من القمع لإطعام سكانها، المجردة من التحسينات تقريباً حتى تكاد تكون في متناول يد ريكاردوس الذي لم يكن عليه إلا مسيرة بضع ساعات لاستلابها من عدو أضعف معنوياته هزيمة عكا. أما الآن بعد أربعة أشهر فالرعنون غداً متاخراً جداً. فصلاح الدين قد شحن المدينة بقوّات سابقة للسلاح وافرة المؤن، وسهر بنفسه على تدعيم تحصيناتها بأسرع ما يُمْكِن، كما لم يغفل عن تدمير كل المنطقة المحدقة بها تدميراً منهجاً. فهذا الزحف الفرنجي على القدس كان عديم الجدوى. وبعد أن سحق ريكاردوس قلب الأسد في ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١١ مفرزة في يازورهي على مسافة ثمانية أميال شمالي شرق الرملة، قاد جيشه إلى اللد على طريق يافا — القدس حيث دهمته الأمطار في منطقة مستنقعات، فاضطر إلى التخييم ثلاثة أسابيع.

جيش الفرنجة ينكفيء عن القدس بعد أن غدا قاب قوسين منها

وفي منتصف شهر كانون الأول (ديسمبر) أصبح على مرأى من القدس؛ «وكان الطقس — كما كتب امبرواز — قارص البرد متلبد الغيوم، تجوده أمطار طوفانية؛ ونفت حيواناتنا تحت وطأة الصواعق فيما كان يقوض خيامنا داهم المطر، ووقع تساقط البرد، وأفسدت المياه خبزنا، وأنتفت لحوم الخنزير، وصدئت آلاتنا وملابسنا الحديدية».. وهُرِع بدو المناطق المجاورة طمعاً في السلب فأذلوا ضرباتهم الخاطفة بالجيش المبتلى من المطر، المرتعد بُرداً، والذي كان يتقدم بمتناهى البطء في الطرقات الموجلة، وتعود كرات العدو فيقطعنون عنه قوافل تمويه مكرهين إياه على البقاء بحالة استنفار دائم. وأصبح الفرنجة على مرأى من القدس؛ ولكن هل كان جيشاً حقاً؟

«كان الأفراد مرضى منطوي البطنون على الجوع ولكتهم — كما يتابع امبرواز — كانوا متهجين بأمل أن يستطيعوا أخيراً بلوغ القبر المقدس». وتوقف ريكاردوس قلب الأسد على مسافة عشرين كيلو متراً من القدس. وعقد اجتماعاً لمجلسه، وتردد. كان فرنجة المغرب يودون متابعة الزحف نحو القدس، على حين كان فرنجة المشرق يبغون الرجوع إلى الساحل. كانوا

يتوجسون خوفاً من أن يصبحوا بين فكي كاشة : حماة القدس ، وجيش صلاح الدين المسيطر على الريف . كان هذا الخطر شيئاً بذلك الذي سبق أن واجهوه تحت أسوار عكا ولكنه هذه المرة أخطر ، لأنهم بمنأى عن البحر ويعيدون عن حماية الأساطيل الفرنسية . وكان الصليبيون على شبه يقين بأن إمداداتهم ومواصالتهم مع الساحل يمكن أن يقطعها عليهم البدو ، كما ترافق إليهم أن جيشاً إسلامياً جديداً بقيادة أبي الهيجا (السمين) قد وصل من مصر . وفي ١٠ كانون الثاني انكفاً الجيش الفرنسي متقهراً إلى الوراء بعد أن غدا على مرأى من القدس ، وارتد إلى الساحل ؛ ليستائف من جديد مناوشاته وهو في منجاة من الخطر .



حواشى الفصل الرابع والعشرون

١— جاء في كتاب الروضتين لأبي شامة عن طلب ملك الانكليز بمشاركة قلب الأسد الاجتماع بالملك العادل لعرض الصلح على المسلمين :

« وطلب ملك الانكليز الاجتماع بالملك العادل خلوة فاجتمعا ، فأشار بالصلح ، وكان حاصل كلامه : إنه طال بيننا القتال ، ونحن جئنا في نصرة إفريخ الساحل ، فاصطلحوا أنت وهم ، وكل منا يرجع إلى مكانه . فقال : على ماذا يكون الصلح . قال : على أن يسلم إلى أهل الساحل ما أخذ منهن من البلاد فأني الملك العادل . وأخبره أن دون ذلك قتل كل فارس ورجل . فرجع مغضباً ». (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩١ تاريخ ابن الفرات ج ٤ ص ٣٣).

٢— عن قرار صلاح الدين هدم عسقلان :

« قال العمامد : ورحل السلطان ونزل بظاهر عسقلان بعد العسر وشرع فيما عزم عليه من الأمر ، وكان لما نزل بالرملة أحضر عنده أخاه العادل وأكابر الأمراء ، وشاور في أمر عسقلان ذوي الآراء فأشار علم الدين بن سليمان بن جندر بخرابها ، للعجز عن حفظها على مابها ، ووافقه الجماعة وقالوا قد ضاقت عن صونها الاستطاعة . فإن هذه ياما قد نزلوا بها وسكنوا فيها . وهي مدينة بين القدس وعسقلان متوسطة ولا سبيل إلى حفظ المدينتين فاعمد إلى أشرف الموضعين فحصنه وتحكمه . فاقتضت الآراء إقامة العادل بقرب ياما مع عشرة من الأمراء حتى إذا تحرك العدو كانوا منه على علم .

قال القاضي : أشار عليه بتخريب عسقلان خشية أن يستولي عليها الفرج وهي عامرة فيتلقوها من بها من المسلمين ، ويأخذوا بها القدس الشريف ، ويقطعوا طريق مصر . وخشى السلطان من ذلك ، وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا وما جرى على من كان مقيمياً بها . فسار حتى أتي عسقلان ، وقد ضربت خيمته شمالها ، فبات هناك مهوماً بسبب خراب عسقلان ، وما نام تلك الليلة إلا قليلاً ، ولقد دعاني إلى خدمته سحراً ، وكنت فارقه بعد مضي نصف الليل فحضرت وبدا بالحديث في معنى خرابها . وأحضر ولده الأفضل وشاوره في ذلك وطال الحديث . ولقد قال رحمه الله : « والله لأن أفقد أولادي بأسرهم أحب إلى من أهدم منها »

حجرًا واحدًا ، ولكن إذا قضى الله بذلك وعيته لحفظ مصلحة المسلمين طریقاً فكيف أصنع» . قال : ثم استخار الله تعالى فأقع في نفسه أن المصلحة في خرابها ، فاستحضر الوالي وأمره بذلك في تاسع عشر شعبان . ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب ، وقسم السور على الناس وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر بدنه معلومة ويرجأ معلوماً يخربونه . ودخل الناس إلى البلد ، وقع فيه الضجيج والبكاء . وكان بلدًا نصراً خفيفاً على القلب حكم الأسوار عظيم البنا مرغوباً في سكانه ، فلحق الناس عليه حزن عظيم وكان هو بنفسه ولده الأفضل يستعجلان الناس في الخراب ، خشية أن يسمع العدو فيحضر ولا يمكن من خرابها . وأمر بحرق البلد فأضرمت النار فيه ، والأخبار تتوارد من جانب العدو بعمارة يافا . وخرب من سوق عسقلان معظمها وكان عظيم البناء بحيث إنه كان في موضع تسع أذرع وفي موضع عشراً وذكر بعض الحجاجين للسلطان وأنا حاضر ، إن عرض البرج الذي ينتقبون فيه مقدار ربع فلم يزل الخراب والحريق يعملان في البلد وأسواره إلى سلخ شعبان . » (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٢ - ١٩٣) .

٣ - رسالة صلاح الدين إلى صاحب سنجار يعلمه أنه بهدمه عسقلان ، قد أمن عصمة القدس :

«قد تقدم الإعلام بما جرى عند رحيل العدو على قصد عسقلان ، وما تم عليه هنا في طريقه من الدكاكية والخذلان ، وأنه قطع في سبعة عشر يوماً مسافة يومين لما لبسه وغامر في الحين ، وما صدق كيف وصل إلى يافا فأظهر بها الاستيطان وأقام بها يعمر المكان . وهذه مدينة يافا متوسطة بين القدس وعسقلان ، ومنها إلى كل واحدة منها مسافة نصف نهار ، وكلتاها من العدو على حوف وحدار ، وكل واحد من الموضعين يحتاج في تحصينه إلى ثلاثين ألف مقاتل ، وتعدى الجمع بين حفظ التغرين وتحصين البلدين : وتعينت في تخريب عسقلان عمارة القدس وتحصينه وعصمتها من العدو وتأميته . » (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩١) .

٤ - لقد أرسل ملك الانكليز ريتشارد قلب الأسد رسالة موجهة إلى صلاح الدين عن طريق أخيه الملك العادل ، جاء فيها :

إنك تسلم عليه وتقول له : إن المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية ، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين ، وقد أخذ هذا الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس والصلب والبلاد ، والقدس فمتعبدنا ما ننزل عنه ولو لم يبق منا واحد ، وأما البلاد فنعماد علينا منها ما هو قاطع الأدن ، وأما الصليب ، فهو خشبة لا مقدار له عندكم وهو عندنا عظيم ، فيمن به السلطان علينا ونصلح ونستريح من هذا العباء الدائم .

وكان جواب صلاح الدين لريتشارد قلب الأسد على رسالته التي نقل القاضي ابن شداد فحواها ، قوله :

القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة ، فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين ، وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل ، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت ، وما أدركتم الله على عمارة حجر منها مadam الحرب قائماً ، وما في أيدينا نحن منها نأكل محمد الله مغله ونتتفع به ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قرية عظمية ، ولا يجوز أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوف منها . (ابن شداد : التوادر السلطانية ص ١٩٤) .

٥ — لقد ذكرت المصادر العربية عرض ريتشارد قلب الأسد على صلاح الدين الصلح أن يتزوج أخوه الملك العادل شفيقة ريتشارد: وما جاء في التوادر السلطانية لابن شداد: رسالة حول اقسام الساحل الفلسطيني بين ريتشارد والملك العادل، وفي رسالة أخرى عن مشروع الزواج الذي اقترحه ريتشارد وكاد أن يتم لو لا معارضة البابا لذلك، وعرض ملك الانكليز على صلاح الدين أن يتزوجه ابنته أخته إن قبل ذلك ..

— رسالة أخرى من ملك الانكليز إلى صلاح الدين من أجل الصلح:

إلى أحب صداقتك ومودتك، وإنك ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك فأريد أن تكون حكماً بيسي وبينه، ولا بد أن يكون لنا علقة بالقدس الشريف، ومقصودي أن تقسم البلاد بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين، وتقسم البلاد بيسي وبينه، ولا علي لوم من الإفرنجية.

— رسالة أخرى من ملك الانكليز إلى صلاح الدين حول الصلح وحول تزويج أخته من الملك العادل، وهو مشروع الزواج الذي اقترحه ريتشارد قلب الأسد وكاد يتم لو لا أن البابا عارض في ذلك:

إن معاشر دين النصرانية أنكروا عليّ وضع أختي تحت مسلم دون مشورة البابا، وهو كبير دين النصرانية ومقدمه. وهذا أناذا أسير إليه رسولاً يعود في ثلاثة أشهر، فإن أذن فيها وعممت، وإن روجحتك ابنة أختي وما أحتاج في إذنه في ذلك. (ابن شداد: التوادر السلطانية ص ٢٠٢ - ٢٠٣).

الفصل الخامس والعشرون

الصلح الصعب

البحث عن مخرج من المأزق

وعاد فصل الشتاء فسرح صلاح الدين جيشه لأنه لم يعد الآن يخشى شيئاً من جانب الفرنجة الذين ارتدوا في كانون الثاني ١١٩٢ إلى قواudem على الساحل ولكن قبل أن يفترق عن أمراء جيشه وقادته بعد تقويم النتائج من ربح وخسارة، عقد مجلسه الحربي ليعرف مع أي من الاثنين يجب أن يعقد الإسلام الصلح: كونراد دي مونفرا، أو ريكاردوس قلب الأسد.

وخلال حياته التي أمضى ساحتها على صهوة جواده، وقع صلاح الدين مع الفرنجة الكثير من المعاهدات، بحيث لم يكن يجهل شيئاً عن صدق هذه الوثائق وأمدها، ولكن ما حصل من تصدع في معسكر أعدائه، شاهد بين على أن الأمور، تجري لصالحه.

كان الجميع متبعين مرهقين من الحرب، حتى إن ملك انكلترا نفسه لم يخف رأيه هذا لدى اجتماعه بالملك العادل في يازور قبل زحف الصليبيين على القدس. فالمدن مدمرة في كل مكان، وغدت الإمدادات بالرجال والمؤن معدومة لدى الفريقين. لطول ما راوح الجنود في مكانتهم مكتفين بمناوشات خاطفة بين المواقع المتقدمة، ولكتلة ما دفنا من الموتى،

وما شاهدوا من المدن المحترقة خفت هب الحماسة في صدور الجميع، ودونه تصبح الجيوش كتلاً فاقدة الحركة، وخاصة جيوش تلك الأيام التي تفقد وسائل التدمير الضخمة التي تمتلكها قيادات جيوش العصر الحاضر، ومنذ عدة أشهر كانوا يخبطون اندفاعاً في نفق دون أن يروا أي بصيص للأمل في آخره فالحماسة تحتاج إلى الحركة لتدوم، وكذلك إلى انتصارات، وإلا فهي تصداً حتى في أعمق أشجع القلوب.

كان على المسلمين والفرنجية معاً بعد تلك السنين الطويلة من متواصل المعارك المرهقة أن يقرؤا أن من الأفضل لكلٍّ معاً محاولة التفاهم بهدف الخروج من هذا المأزق الذي ولجوه.

حالة اللا حرب واللا سلم المديدة

مع الأسف كان الصلح تلك الأيام — كما هو في يومنا هذا — صعباً. ففي مطلع عام ١٩٩٢ هـ صلاح الدين أَن يطيل إلى مala نهاية حالة اللا سلم واللا حرب المتأرجحة، بين المسلمين والفرنجية. إذ قال لأمرائه: «إن السلم الذي يريده أعداؤنا لن يحترموه، فإذا مت فسيغرون فلسطين مرة أخرى؛ وقواتهم الآن تدمر نفسها، وإذا ما عرفنا كيف نزيد نارهم خطياً قضى عليهم أوارها — عما قليل — ولن يكون في مستطاعهم بعد ذلك أن يثبتوا أمامنا. فلنصلب ونقيظ. وسنستأنف المعارك حالما نلمح الأمارات المؤاتية لنصر الإسلام الحاسم».^(١)

التقيع على تسوية سياسية مع مركيز صور في القدس

ولما سرحت القوات المحتشدة، ذهب صلاح الدين إلى القدس حيث وقع تسوية مع مركيز صور تتضمن اتفاقاً على النقاط التالية: يحصل رينو دي ساجيت الوسيط بين الفريقين مقابل مهمته، على مدينة صيداء وما تبعها من أراض ويستعيد الهيكليون والاسبارتيون القلاع التي كانوا يملكونها فيما سبق ويكتفي كونراد دي منفرا بالمدن والأراضي التي قد يتزعها من الفرنجة، وإذا سانده المسلمون فسيكتفون بالغنائم، وتظل عسقلان على الحياد؛ لا تطأها يدا الفريقين. وأما التحصينات التي أقامها فيها ريكاردوس قلب الأسد بعد احتلالها فقدمرة دكاً عن آخرها.^(٢) وموجب هذا الاتفاق كانت تنازلات صلاح الدين منحصرة في أدنى الحدود.

كان يعيد صيادة التي لم تكن لها أية قيمة استراتيجية؛ وبعض الأكواخ المخصنة للهيكلين والسبتاريين، أما كونراد دي مونفرا فعليه بدهياً أن يخدم نفسه على حساب الفرنجة وفي هذا السياق إلى الصلح كان مركيز صور هو الوسائل الأول (الخلق)؛ ولما وضع كونراد دي مونفرا هذا الاتفاق في جييه، فكر في الوسائل الآيلة إلى جني الامتيازات الفورية منها، وخدمه الحظ مرة أخرى في مهمته المغامرة كامتنى، ويذكر قراؤنا أن الجنوبيين انحازوا إليه، بينما انحاز البيزيون إلى غي دي لوزينيان.

انقسام صف الفرنجة مرة أخرى

وكان الجنوبيون إضافة إلى كونهم بخارة ماهرين تجارةً حاذقين، وأتى لهم أن يجدوا على الساحل السوري أفضل من ميناء عكا لحماية أساطيلهم التجارية؟ والحال فإن عكا هي التي سعى مركيز صور جاهداً إلى استعادتها من الفرنجة. فاتفق في شهر شباط (فبراير) ١٩٢ مع الجنوبيين الذين كانوا في المدينة وانفجرت المؤامرة، بفضل تراجع دوق بورغونيه القائم على رعاية مصالح فيليب أوغست الذي سبق أن تشاجر مع ملك إنكلترا وانحاز دوق بورغونيه إلى مركيز صور، لأن الجنوبيين كانوا يؤيدونه، وكانت هذه القطعة الصغيرة من العملية التي جاءت في اللحظة الأخيرة، كالقصبة التي قسمت ظهر البعير فتسارعت الأحداث. ولكن البيزيون كانوا بدورهم في عكا ومصممين على عدم مغادرتها فاحتدم قتال الفريقين في الشوارع، فخف كونراد من صور على رأس مجموعة من مؤيديه وحاصر عكا ثلاثة أيام دون أن يتمكن من التغلب على مقاومة البيزيين. وما أدرك هؤلاء أنهم لن يستطيعوا الإفلات من قبضة الجنوبيين وحلفائهم، نشدوا مساعدة ملك إنكلترا الذي كان في قصريه، وفي ليلة واحدة صار أمام المدينة التي طلما أجهد نفسه ليتزرعها من المسلمين. وغادر كونراد منسحبًا إلى معقله لدى سماعيه أول نباء عن قدوم ريكاردوس. ومنذ اليوم التالي عمل الانكليزي على أن يقرب ما بين البيزيين والجنوبيين، وإحباط مشاريع مركيز صور. وعبثًا حاول أصدقاء مشتركون التوفيق بين كونراد دي مونفرا وريكاردوس قلب الأسد، لأن ملك إنكلترا الصلف المغرور قد اقرف الكثير من الأخطاء السياسية التي ذهب ضحيتها نبلاء الفرنجة المقيمون منذ زمن بعيد في سوريا، كما كان مسؤولاً عن الكثير من الغوايات التي أفقدته يوماً عن يوم المزيد من الصداقات ومساندات الدعم في صفوف الفرنجة السوريين التمسكين بامتيازاتهم وأرباحهم المطردة

التزايد ، لا شيء إلا إشاعاً لطامعه الشخصية ، وهكذا انفضوا من حوله ، وبصورة ظاهرة أكثر من حول حميّه الذي كان يدعم مطالباته بعرش القدس : غي دي لوزينيان .

الفرنجة يقررون تتوسيع مركيز صور ملكاً على القدس

كان هاجس كارثة حطين يذكر بالعجز العسكري لغي دي لوزينيان ، وفي اجتماع عقده ريكاردوس قلب الأسد في عسقلان في شهر نيسان (أبريل) ١٩٢١ ضمّ أهم بارونات الفرنجة لمحاولة حل المسألة الشائكة : مسألة وراثة عرش القدس . فأجmetت الآراء على عدم اعتراف فرنجة سورية البتة بغي دي لوزينيان ملكاً للقدس ، وأن كونراد دي مونفرا هو الوحيد القادر على كسب موافقهم ، لأنّه كان في نظرهم جميعاً الأقدر والأجدر بملكية القدس . لم يكن البلاتاجيني يحب مركيز صور ، ومع ذلك صالحه تحت ضغط البارونات السوريين ، وأرسل ابن أخيه كونت شمبانيا إلى صور ليأتي بملك القدس العتيق إلى عكا حيث كان سيُتُوج .

واحتاج فرنجة المشرق فرح غامر ، وكانت تلك المصالحة الواقعية ، وإن لم تكن العاطفية بين ريكاردوس قلب الأسد وكونراد دي مونفرا تتراءى لهم المقدمة لإعادة احتلال القدس . فكونراد دي مونفرا يتمتع بصفات رجل الدولة ، وقد برهن على ذلك أكثر من مَرَّة ، فهو بارع صقلته سلسلة طويلة من التجارب في المشرق ، حتى كان يستطيع أن يتلزم دون أن يفتضّح أمره ، وأن يكون بأناقة ؛ ويعرف كيف يحافظ على صداقات له أقامها بين الرجال الخبيثين بصلاح الدين ، وكان هذا الأخير يكن له الاحترام والتقدير .

اغتيال كونراد دي مونفرا وتنصيب البلاتاجيني ملكاً للقدس

في ٢٨ نيسان (أبريل) ١٩٢١ طاف نباً فاجع من مدينة إلى مدينة موقع الفرنجة في حالة قضم ظهر باللغة : لقد اغتيل كونراد دي مونفرا ، إذ وجد صريعاً في أحد شوارع صور وفي خاصته خنجر . ففيما كانت زوجته تستحم خرج شخصاً إلى فيليب دي درو كبير أساقفة بوفي مليباً دعوته لتناول طعام الغداء ، ولم يعرف البتة مدبر هذا الاغتيال الذي أعاد مسألة وراثة عرش القدس إلى جدول الأعمال اليومي . وتذهب الشائعة العامة إلى أن ملك انكلترا ... كان وراء عملية الاغتيال هذه ، لأنّ موت كونراد دي مونفرا حسّن وضع

ريكاردوس السياسي، إذ لم يعد حزب موئلاً بعد ما فقد رأسه أي مسوّغ لوجوده، فانهار من تلقاء نفسه، وطبيعي أن ينضم أفراده إلى ملك إنكلترا، وكان غي دي لوزينيان ما يزال هناك، ولكن لم يعد وجوده يؤبه له، وحاميه فيليب أوغست بعيد عنه، ولذا هبت رياح الخضوع تجتاح الفرنجة. فخفّ دوق بورغنية والنسا والبارونات السويسرون النشطون والهيكليون والجنويون والجرمان جمِيعاً إلى الانكليزي وأضعين أنفسهم طوعاً تحت حمايته؛ ولم يتخلَّف عن هذا الركب حتى أونفروا دي تورون الذي طالما عمل لصالح مركيز صور، وكان لسانه المفاوض لدى صلاح الدين، وهاده جاء ساعياً يعرض خدماته على البلاطاتاجيني. وهكذا لم تكُن جثة كونراد دي موئلاً تبرد حتى كان خلفه على عرش القدس قد وُجد، وكانت أسرة البلاطاتاجيني عن طريق هنري دي شمبانية تختفظ للمستقبل بحقوقها في فلسطين. وبعية تعويض غي دي لوزينيان، وبالتالي إبعاده عن الأرض المقدسة تنازل له ريكاردوس قلب الأسد عن مملكة قبرص مقابل مائة ألف دوقة ذهبية دون أن يدفع شيئاً للهيكليين الذين سبق أن باعهم هذه الجزيرة. وظلت أسرة دي لوزينيان البواوية تحمل في هذه المملكة اللاتينية الصغيرة حتى عام ١٤٨٩ إذ باعوها لدوقة البندقية كاترين كورنارو وريثة أسرة لوزينيان، وهي بدورها من البندقية.

الفرنجة يستأنفون القتال ويزحفون نحو القدس

وفي الربع، عادت القوات الفرنجية إلى الهجوم، ففي ٢٤ أيار (مايو) ١١٩٢ استولوا على حصن الداروم الواقع على مسافة ثلاثين كيلو متراً جنوب عسقلان على طريق مصر، وتقرر مجدداً الزحف على القدس رغم احتجازات ريكاردوس قلب الأسد إذ تلقى رسائل مزعجة من إنكلترا، حيث طاب لأخيه بتشجيع ملك فرنسا، أن يقوم بلعبة غير مأنيسة، فيجلس على عرش الغائب. ورغم الحرّ البالغ القسوة وندرة الماء، بدأ الزحف، وكان المسلمين قد سُمّموا مياه الينابيع والآبار، وتوقف الفرنجة قرب جبال الخليل على بعد أربعين وعشرين ميلاً إلى الشمال الشرقي من الداروم. حيث جرى اشتباك خفيف مع الطليعة الأيوية، ثم توقفوا في تل الصافي على مسافة سبعة أميال إلى الشمال الغربي من بيت جبرين. وفي ١٠ حزيران (يونيو) تمركز جيش الفرنجة إلى الشمال من النطرون في بيت نوبة، بانتظار قواقل التموين وألات الحصار. هناك جَمِدَ ريكاردوس قلب الأسد جيشه، وما يزال هذا القرار دوغاً تفسير.

الدول عن فكرة حصار القدس والانسحاب إلى الرملة

وأمام القدس التي لم يبق يفصل ريكاردوس عنها سوى مسيرة يوم واحد خارت عزيمته، وفي الواقع كان يعتقد بأن مالديه من الخبراء ومن العتاد لا يكفي لمحاصرة المدينة المقدسة التي حسب أن المسلمين قد حصنوها أكثر مما قدر.

ويذكرنا ابن الأثير بمشاغل ريكاردوس قلب الأسد، حينما يعلمنا بأن ملك الانكليز، بعدما اطلع على مخطط المدينة ودرس النقاط الهامة فيها قال لمن كانوا يطالبونه ببدء الهجوم: «لا يمكن مهاجمة مثل هذا الموقع الحصين مادام صلاح الدين على قيد الحياة، وما دام المسلمين على اتفاق فيما بينهم، وليس بمستطاعنا بأيّ معاً، أن نحاصر القدس ونواجه في الأرياف قوات السلطان التي تهكنا كـ فعلت أيام عكا». ليس لدينا هنا البحر عن يميننا، ولا مراكب البندقية لحمايتنا»، ويلاحظ أن ملك انكلترا لم يكن يريد أن يتتحمل مسؤولية حطين ثانية، وأنه يفضل الاحتفاظ بالموقع المحتلة على الساحل، بصعوبة بالغة، سليمةً بدلاً من خسارة كل شيء في معركة يذكر ريكاردوس قلب الأسد بذعر نتائجها، إذا لم يحرز فيها غير النصر، وكان وبالتالي قلقاً متربداً، لا يجرؤ على تخيل ما مستفسر عنه هذه الحملة الصليبية الثالثة. ورغم رأي مستشاريه عدل عن حصار المدينة المقدسة، وفكّر في عدة مشاريع يمكن أن ينشط فيها جيشه المحمد. فكر في العودة إلى الرملة لإقامة خيّمه الشتوي، وفكّر في الصعود شمالاً حيث سيكون جماً في كوتنية طرابلس. لتسوية عدد من المسائل العائلية، أو يتوجه إلى مصر لضرب سلطة صلاح الدين فيها. وراقت البلاتاتاجيني هذه الفكرة؛ فاشترى آلافاً من الجمال، وكان من الجنون المطبق أن يقوم بمثل هذه المسيرة عبر رمال سيناء الحرقـة في حرّ تموز... واكتفى بأن ينسحب إلى الرملة...

ريكاردوس قلب الأسد يقترح على المسلمين عقد معاهدة سلم دائم

وفي تموز (يوليو) ١١٩٢ عاد الحديث عن الصلح وجاءت العروض الأولى من ريكاردوس قلب الأسد. لقد كان قلقاً، ويد العودة لبلاده بأسرع وقت مستطاع، حيث كان جان سانتير يسعى جاهداً يؤيده في مسعاه فليب أوجست إلى تحريره من مالكه. فأبلغ صلاح الدين بوساطة أخيه الملك العادل الذي كرسه فارساً أنه مستعد بهدف تحقيق سلم

دائم بين الأمم الإسلامية وأمّم الغرب ، للقبول بتنازلات ، فتخلى عن مطالبته بعرش القدس مكتفياً بالشرط الساحلي بين يافا وإمارة انطاكية . واقتراح بأن تعود القدس مسيحية تحت حماية المسلمين ، ويعهد بعدم محاولته إعادة الاستيلاء على شبر واحد من أرض الجليل ، وأن يعيش بتفاهم وحسن جوار مع صلاح الدين إذا تعهد هذا الأخير مقابل هذه التنازلات بأن يسمح بالممارسة الحرة للدين المسيحي في كنائس المدينة المقدسة ، ويسمح كذلك للحجاج بزيارة القدس والأماكن المقدسة ، دون أن يدفعوا الجزية للخزانة الأيوبية ، وأن يقبل بوجود الرهبان والقساوسة في كنيسة القيامة ، وإقامة عشرين جندىاً انكليزياً في قلعة القدس .

انقطاع المفاوضات بين الفرنجة والمسلمين

وتظاهر صلاح الدين بالتأثير بنوياً عدوه الإسلامية ، وأبدى فعلاً نية طيبة ، وتتبادل رسائل عاطفية مع ريكاردوس قلب الأسد ، مؤكداً له أن ابن أخيه كونت شمبانيا سيكون في نظره أعز أولاده ، ولوّح باتفاق سياسي انكليزي أيوبي ، وهذا ما كان يحبه ريكاردوس قلب الأسد بعد أن فشل في تزويج إحدى شقيقاته من أخي صلاح الدين ، وبعد تبادل للرسائل الأكاديمية ، وإثر عدة مقابلات قلبية بين أونفرروا دي تورون الاختصاصي بالمفاوضات ، والقاضي الحاج يوسف الذي سبق أن سمع أن السلطان صلاح الدين يظهر شيئاً من الليونة إذ كان يريد أن يدع الساحل للفرنجة حسب طلبهم ، ولكن شرط أن يتبعهداً بهدم أهم القلاع ، التي أعاد ملك انكلترا بناءها بمجهد جهيد ، أعني غزة ، والداروم وعسقلان ، وأن تخطط مستقبلاً الحدود ، بحيث يُترك للمسلمين حرية التصرف في القلاع التي أقامها الصليبيون داخل لبنان ، ولكي يغوص ملك انكلترا عن الإنشاءات التي أقامها في عسقلان يدع له الضياع الخيطية بها . ورفض ريكاردوس أن يهدم أسوار عسقلان فانقطعت المفاوضات^(٣) .

مهاجمة صلاح الدين يافا

وفيما كانت هذه المفاوضات تطول ، تلقى صلاح الدين قوات جديدة من الموصل وسورية فهاجم في ٢٦ تموز (يوليو) يافا التي كانت في قبضة حامية فرنجية ضعيفة ، ودخلها بعد ثلاثة أيام من الهجمات العنيفة ولما رأى الفرنجة أنفسهم مطوقين داخل الحي الذي كانوا فيه ، أوفدوا بطريركهم ومدير قصرهم إلى صلاح الدين بطلب الأمان ، فمنحهم السلطان

استسلاماً مشرقاً، وتقرر أن يتم التسلیم في الغد. ولكن في الغد، وبناء على نصيحة بطريقك القدس الذي أنبأهم بأن ريكاردوس قلب الأسد قادم لمساعدتهم على رأس خمسين سفينة منها خمس عشرة ناقلة كبيرة مسلحة في بيروت، رفض الصليبيون فتح الأبواب لل المسلمين، فقام هؤلاء بهجوم جديد، وقلعوا أحد الأبراج، وعبر ثغرة أحدها رجال هندستهم دخلوا المدينة، ولكن صدتهم جدار من النار إذ عمد الصليبيون لحرق القش والعشب اليابس لمحجب رؤية العدو. ولما تبدلت سحب الدخان ألقى المسلمون أنفسهم تجاه جدار آخر من رؤوس الحراب والسيوف. فكان الصليبيون المرفق على المرفق، — كما يقول بهاء الدين — يتحفرون متربصين بال المسلمين، وقد أقاموا من أجسادهم جداراً مكان الجدار المهدّم سادّين الثغرة بحيث يستحيل حتى على الناظر أن يخترقها^(٤) .. ولكن النجدة الموعودة لم تصل، فاضطر الفرنجة يملاً نفوسهم هاجس الموت إلى طلب الاستسلام مرة أخرى، فطلب صلاح الدين أن يفتدي الفارس بالفارس والراجل بالراجل، وفرض فوق ذلك على المحاصرين في يافا غرامه حرية. ووافق المحاصرون على هذه الشروط، فطلبو من صلاح الدين وقف القتال، فأجابهم بأنه غير قادر على احتواء جنوده، فإذا كانوا حقاً يريدونبقاء أحياء فلهم أن يجتمعوا جميعاً في القلعة، وإلا فلا يمكنني أن أتحمل مسؤولية حياتكم. وبالواقع كان الملاليك يجهلون أمر التسلیم، ولذا انتشروا في المدينة قاتلين كل من يضعه سوء الطالع في طريقهم، ولكي يحمي الفرنجة من الموت بادر صلاح الدين، وفاءً بوعده، إلى إرسال عدد من أعزائه الموثوق فيهم لحماية الصليبيين من جنده أنفسهم.

وفي هذه الأثناء كان ريكاردوس قلب الأسد يظهر مع سفنه أمام ميناء يافا، ولكن حينها شاهد الرياحيات الإسلامية ترفرف على الأسوار اعتقد أن المدينة قد سقطت، وفيما كان يتأنب للعودة على أعقابه مع أسطوله، تمكن أحد الفرنجة مخادعاً المسلمين أن يتسلل سباحةً حتى بلغ سفن ريكاردوس، وأعلمته أن جموعاً غفيرة من الفرنجة ما زالوا في القلعة يحملون مدخل الميناء، وقد أخفى عليه عمداً كونهم في القلعة بأمر من صلاح الدين تحت حمايته.

الفرنجة يستعيدون يافا ويستأنفون مفاوضات الصلح

ورفع ملك إنكلترا أشرعته باتجاه ميناء يافا، فبلغه ونزل إلى البر، عند ذاك قام

المحاصرون في القلعة بقتل حراسهم، واحتلّ الفرنجية يافا من جديد. وأرسل ريكاردوس عدداً من المالكين الأسرى إلى صلاح الدين قائلاً لهم: «قولوا للسلطان على لساني لقد طالت هذه الحرب أكثر مما يجب، لقد قام كل منا بهمته التاريخية وقوانا منهكة، وينبغي لنا الآن أن نصون دماء رعايانا. وسألوه بالله الذي يعبد أن يمنعني شرطياً مشرفة لكي يعيش في سلام واحدنا مع الآخر.» فأجابه صلاح الدين بأنه ما زال موافقاً على الشروط الأساسية، وأن المسائل الوحيدة الباقية هي عسقلان وبيافا والراروم، واقتراح أن تقسم الإجاصة نصفين، فيحتفظ الفرنجية بيافا التي احتلوها مؤخراً، ويأخذ هو عسقلان^(٥).

و بعد معركة يافا بشهر واحد، وخلال اشتباك ضاري بين المسلمين والفرنجية .. أصيب ملك الانكليز في هذا الصيف بالبرداء وألمه المرض فراشه، وكان من الخطورة بمكان حيث أخذ المحيطون به يتظرون سماع أنفاسه الأخيرة.

صلاح الدين يلي على الفرنجية معاهدـة الصلـح إملـءـ المتـصر

مرة أخرى أعلن صلاح الدين هدنة عامة تشمل البر والبحر، وأحسن ملك الإنكليز برغبة ملحة في الأجاص والدرّاق، فأمر صلاح الدين بأن ترسل إليه هذه الفواكه يوماً مصححوية بشراب لذيد مبرد بثلج لبنان. فعززت هذه الروحات والمجيئات الحادثات، وكان الوقت آخر آب والجيش الفرنسي يستعد عن آخره لمغادرة سوريا التي مني بها بالهزائم أكثر مما حاز من الانتصارات.

وكان ريكاردوس الأول بدوره يبغى العودة إلى إنكلترا قبل موسم الأمطار. كانت النقطة التي ماتزال موضع خلاف هي عسقلان، إذ كان يريد أن يعوضه صلاح الدين عن الأعمال التحسينية التي أجراها فيها، وأصرّ صلاح الدين على عدم التخلّي عن هذا الموقع للفرنجية، فتراجع ريكاردوس. ومن تنازل إلى تنازل تخلّى تقريرياً عن كل مطالبيه، لتأمين هذا السلم البالغ الصعوبة، دافعاً إياه حيثاً في اللحظة الأخيرة، لأن قلقه أخذ يتزايد باستمرار لما يحدث في بلاده، ولأنه خشي أن يداهمه الثناء. وهكذا أمل صلاح الدين معاهدـة الصلـح إملـءـ المتـصر رغم هزائم عكا وعسقلان وبيافا^(٦).

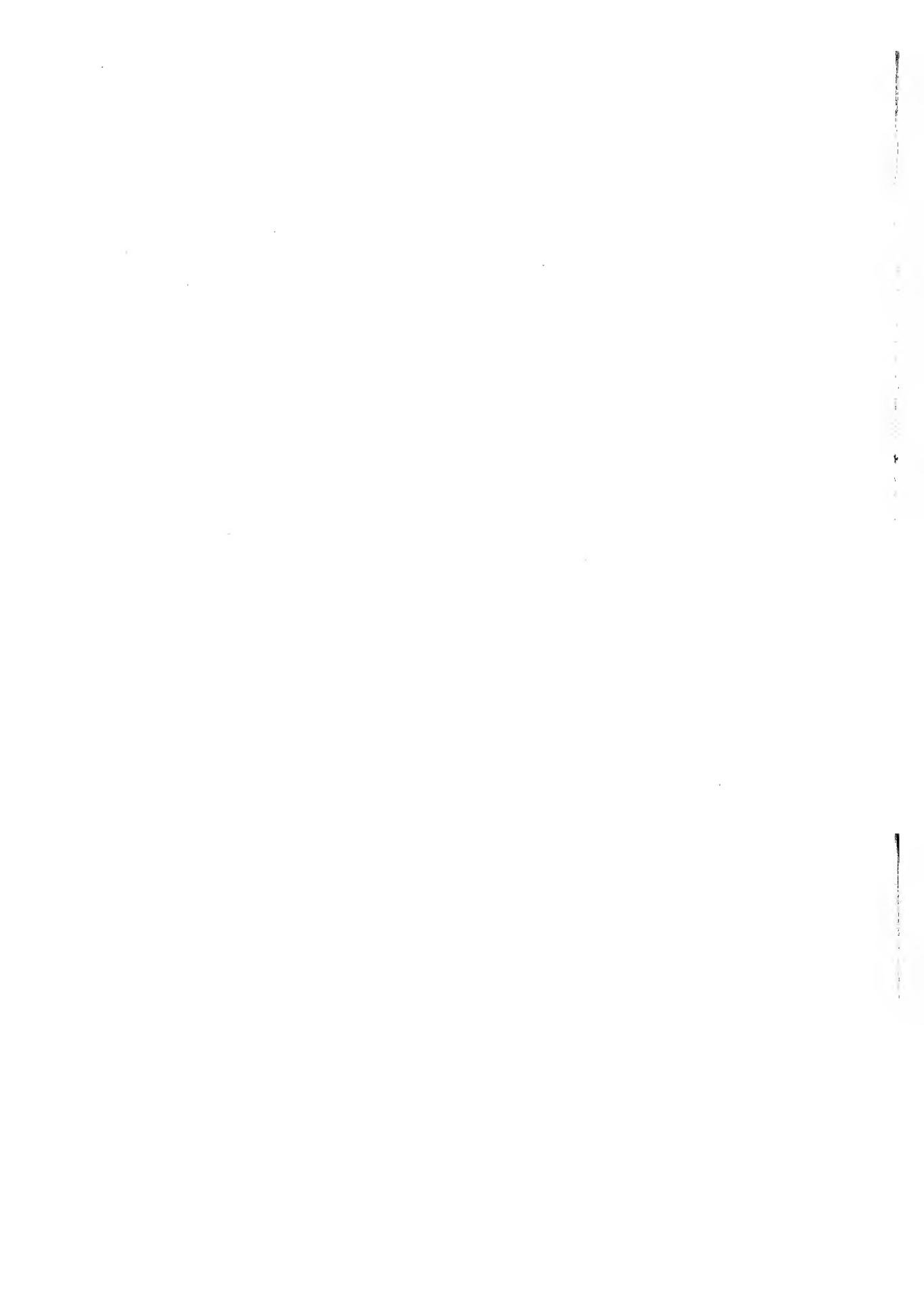
معاهدة الصلح تكرس عجز الفرنجة ومجد صلاح الدين

وفي يوم الأربعاء ٢٢ شعبان ، ٤ أيلول (سبتمبر) ١١٩٢ وقع هنري دي شمبانية ابن أخت ملك إنكلترا وخليفة على مملكة الساحل ، وباليان الثاني ديلين وأنفروا الرابع دي تورون والملك الأفضل والملك الظاهر ، وقعوا باسم ملك إنكلترا ، وصلاح الدين سلطان سوريا ومصر وما بين النهرين وبين وثيقة ليست هي سلماً أبداً ، بل هدنة مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام . وبقي الساحل المتند من يافا إلى عكا تحت سلطة الفرنجة ، وبقيت عسقلان محايدة وقسمت منطقة الرملة — اللذ قسمين أحدهما بيد الفرنجة ، والثاني بيد المسلمين . وعوچها كان المسيحيون يستطيعون الحج بحرية إلى الديار المقدسة ، وكان ماؤذنا بعض التنظيمات الدينية أن تقيم في الأديرة التي أنشأها وتدير شؤونها ، وقرر أيضاً مصير الناس العاديين . لكن حادثاً تافهاً واحداً كاد يفشل العملية . فقد رفض ملك إنكلترا أن يؤدي القسم بمحجة أن الملوك لا يخالفون ، فاكتفى منه بالصافحة عالمة الالتزام (رواية ابن شداد) .

وبعد ثلاثة أسابيع كان بوهيموند الثالث أمير أنطاكية يوقع مع صلاح الدين معاهدة بيروت ، واعترف له صلاح الدين بالسلطة على السهل الغني المتند بين انطاكية وحaram . وحصل باليان الثاني على اقطاعية واقعة في الجنوب من حifa ، وكان نصيب رينو دي ساجيت مكافأة له على خيانته السياسية نحو صلاح الدين ، وعلى معارفه الفقهية والنحوية العربية نصف أراضي صيداء ، وحتى شيخ الجبل سنان المعلم الأكبر للحشاشين لم يقبل بأن يخرج بلا فائدة ، وأنى إلا أن يضع توقيعه في ذيل الرق الذي كرس هذا الصلح العام^(٧) .

وأعلن النباً السار على الفور في المعسكرات وفي أسواق المدن السورية ، وفي جميع المناطق الخاضعة لحكم صلاح الدين أذاع الرسل أنه «باسم الله الرحمن الرحيم ويأمر من صلاح الدين ، صلاح الدنيا والدين ، تم الصلح بين الفرنجة والمسلمين . وضار مسموماً لشعوب الفريقين أن تعيش بتفاهم ، وأن ت safar وتتاجر بحرية في أراضي الفريقين»^(٨) . وأنفذ هذا الصلح الإسلام فصلاح الدين كان يوشك أن يموت . وال الحال أنه لو توفي خلال الحرب — كما يكتب القاضي ابن شداد — «لكان الإسلام في خطر»^(٩) .

تلك كانت نهاية هذا التحالف الضخم للشعوب ، الذي عرف باسم الحملة الصليبية الثالثة . وكرست هذه النهاية مجد صلاح الدين وعقريته ، كما كرست عجز الفرنجة المتقسمين سعياً وراء قضائياً مصلحية قذرة ، أمام الإسلام الذي كان ظله يتعاظم ، وشمل قارات أخرى ...



حواشى الفصل الخامس والعشرون

١ - من دراسة المصادر التاريخية لعهد صلاح الدين، نجد أنه كان يعتقد أن الفرجنة لن يخربوا السلم المعقود مع المسلمين مستقبلاً، وأن على المسلمين أن يقاتلوا الفرجنة حتى ينتصروا النصر، ويتحققوا القضاء على المالك اللاتينية في المشرق العربي. (راجع ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٢٣٥).

٢ - عن التسوية التي توصل إليها صلاح الدين الأيوبي مع مركيز صور (راجع كتاب ابن شداد: النوادر السلطانية ص ١٩٩ - ١٩٠ ، ٢٠٣ - ٢٠٠).

٣ - الرسائل المتبادلة ما بين صلاح الدين وريكاردوس قلب الأسد بحثاً عن معاهدة سلم دائم؛ اطلاقاً من مبدأ «مقاسمة البلاد» ..

رسالة ملك الانكليز ريكاردوس قلب الأسد إلى صلاح الدين :

إنا قد وافقنا على مقاسمة البلاد وإن كل من في يده شيء فهو له فإن كان ما في أيدينا زائداً، أخذتم في مقابلته ما يقابل الزيادة مما يخصنا، وإن كان ما في أيديكم أكثر فعلنا كذلك، ويكون القدس لنا، ولكم فيه الصخرة. (النوادر السلطانية: ابن شداد ص ٢٠٥).

رسالة أخرى من ملك الانكليز إلى صلاح الدين أرسلها له شفهية مع رسول خاص:

تقول لصاحبك بأننا قد هلكنا نحن وأنت، والأصلح حقن الدماء، ولا ينبغي أن تعتقد أن ذلك عن ضعف مني، بل للمصلحة، ويكون هو الواسطة بيننا وبين السلطان، ولا تفتر بتأخري عن منزلي ، فالكبش يتأخر لينطع.

رسالة أخرى من ملك الانكليز إلى صلاح الدين حول الموضوع نفسه أرسلها له مع رسول آخر:

تقول له : إنه راغب في مودتك وصادقتك ، وإنه لا يريد أن يكون فرعون يملك الأرض ، ولا يظن ذلك فيك ،

ولا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ، ولا يجوز لي أن أهلك الفرج كله ، وهذا ابن أختي الكندي قد ملكته هذه الديار وسلمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك ، ولو استدعيتهم إلى الشرق سمعوا وأطاعوا .
ويقول :

إن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها ، وأنا أطلب منك كنيسة ، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك بما كان تجري المراسلة مع الملك العادل قد قلت بتركها وأعرضت عنها ، ولو أعطيتني مقرعة أو قرية لقلبتها وقبلتها .

— جواب صلاح الدين ملك الانكليز عن الرسالة السابقة :

إنك إذا دخلت علينا هذا الدخول فما جزاء الإحسان إلا الإحسان ابن أختك يكون عندي كبعض أولادي ، وسيبلغك ما أفعل في حقه من الخير ، وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القمامات ، وبقية البلاد نقسمها ، فالساحلية التي بيدها تكون بيدهك ، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا . وما بين العلين تكون مناصفة ، وعسقلان وما وراءها تكون خراباً لأنكم ، وإن أردتم قراها تكون لكم ، والذي كنت أكرهه حديث عسقلان . (ابن شداد : التوادر السلطانية ص ٢١٨ - ٢١٩) .

— رسالة من ملك الانكليز إلى صلاح الدين حول الصلح والقدس :

الذي أطلبه منك أن يكون لنا في قلعة القدس عشرون نفراً ، وأن من سكن من النصارى والفرنج في البلد لا يتعرض لهم . وأما بقية البلاد فلنا منها الساحلية والوطاة ، والبلاد الجبلية لكم .

— جواب صلاح الدين ملك الانكليز عن الرسالة السابقة :

إن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة ، وأما البلاد فعسقلان وما وراءها فلا بد من خرابه . (ابن شداد : التوادر السلطانية ص ٢٢٠) .

— رسالة أخرى من ملك الانكليز إلى صلاح الدين حول الصلح :

إن الملك يسألوك وبخضوع لك في أن ترك له هذه الأماكن الثلاثة عامرة ، وأي قدر لها عند ملكك وعظمتك ؟ وما سبب إصراره عليها إلا أن الفرج لم يسمحوا بها . وهو قد ترك القدس بالكلية ، لا يطلب أن يكون فيه رهباً ولا فسوس إلا في القيامه وحدها ، فترك له أنت هذه البلاد ويكون الصلح عاماً ، فيكون لهم كل مافي أيديهم من الداروم إلى أنطاكية ، ويسلم ما في أيديكم ، وينتظم الحال وبروح ، وإن لم ينتظم الصلح فإن الفرج لا يمكنونه من الروح ولا يمكنه مخالفتهم .

— جواب صلاح الدين ملك الانكليز على رسالته السابقة :

إن أهل أنطاكية لنا معهم حديث ورسينا عندهم ، فإن عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح ، وإن لا فلا . وأما البلاد التي يسألها فلا يوافق المسلمين على دفعها إليه ، وإن لا فلقدر لها ، وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابلة ما خسر عليه لذا في الوطاة .

— جواب ملك الانكليز إلى صلاح الدين عن الرسالة السابقة :

لا يمكننا أن نخرب من عسقلان حجراً واحداً ، ولا يسمع عنا في البلاد مثل ذلك وأما البلاد فحدودها معروفة لا مناكرة فيها . (ابن شداد : النواود السلطانية ص ٢٢١) .

٤— وصف حصار صلاح الدين مدينة يافا ، وقتل المسلمين والفرنجة ؛ عن بهاء الدين ابن شداد .
«أشرف على يافا ثم نزل عليها من الغد ورتب عسكره ، في الميمنة ولده الظاهر ، وفي الميسرة أخيه العادل . وركب المنجنيقات ، وزحف عليها . فأرسل العدو رسولين نصرايني وفرنجي يطلبان الصلح . فطلب منهم قاعدة القدس وقطيعته . فأجابوا إلى ذلك ، واشترطوا أن يتظروا إلى يوم السبت تاسع عشر رجب ، فإن جاءتهم نجدة ، وإنما تمت القاعدة على ما استقر . فألى السلطان الإنذار ، وأمر باللقب فخشى وأحرق فرع بعض البندة . فوضع العدو أخشاياً عظيمة خلف القبة فالتب ، فمنع من الدخول في الثلمة . وقاتل خارج الأبواب إلى الليل ، فلما أصبحوا ، وقعت البندة فعلاً غبار مع الدخان ، فأظلم الأفق ، وما تجسر أحد على الولوج خوفاً من اقتحام النار . فلما انكشفت الغربة ، ظهرت أسنة قد ثابت مناب الأسوار ، ورماح قد سدت الثلمة ، حتى عن نفوذ الأبراس . ورأى الناس هولاً عظيماً من صبر القوم ثباتهم . ولقد رأيت رجالين على مشى السور يمنعون المتسلق فيه من جهة الثلمة ، وقد أتى أحدهما حجر المنجنيق فأخذه ونزل إلى داخل ، فقام رفيقه في مقامه ، متصد بالمثل ما لحقه أسرع من لمح البصر ، بحيث لم يفرق بينهما إلا نافذ بصير . وما رأى العدو وما قد آلت إليه سيروا بطلوب الأمان . فقال رحمة الله : الفارس بفارس ، والتركي بمنله ، والراجل بالراجل ، والعاجز فعل قطيعة القدس . فنظر الرسول ، ورأى القتال على الثلمة أشدّ من إضرام النار ، فسأل السلطان أن يبطل القتال إلى أن يعود ، فقال : ما أقدر على منع المسلمين من هذا الأمر ، ولكن ادخل إلى أصحابك ، فقل لهم يتحازون إلى القلعة ، ويترون الناس يستغلون بالبلد . فما يبقى دونه مانع . ففعلوا وتحازوا إلى قلعة يافا ، بعد أن قتل منهم جماعة . ودخل الناس البلد عنوة ، ونهبوا منه أقمشة عظيمة وغلالاً كثيرة وأثاثاً وبقايا قماش مانهب من القافلة المصرية . واستقرت القاعدة على الوجه الذي قرره السلطان . وكان قايماز التحبي في طرف الغور لحماية من عسكر العدو الذي لعكا .» (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٠٠ - ٢٠١) .

٥— رسائل متبادلة بين صلاح الدين وريكاردوس قلب الأسد :

رسالة من ريتشارد قلب الأسد إلى صلاح الدين ، بعد استرداد يافا أرسلها مع رسول له يطلب فيها الصلح ، ويقول فيها :

بالله عليك أجب سؤالي في الصلح ، فهذا أمر لا بد له من آخر ، قد هلكت بلادي وراء البحر ، وما دام هذا مصلحة لنا ولا لكم .

— جواب صلاح الدين إلى ملك الانكليز على الرسالة السابقة :

إنك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة ، وكان الحديث في يافا وعسقلان . والآن قد خربت هذه يافا ، فيكون لك من قيسارية إلى صور .

— جواب ملك الانكليز إلى صلاح الدين عن الرسالة السابقة :
يقول الملك :

إن قاعدة الفرج أنه إذا أعطى واحداً صار به وغلامه . وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان ويكون عساكرهما في خدمتك دائماً، وإذا احتجت إليّ وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك كـ تعلم خدمتي .

— جواب صلاح الدين لملك الانكليز :

حيث دخلت هذا المدخل فأنا أجبيك إلى أن يجعل هذين البلدين قسمين : أحدهما لك وهو يافا وما وراءها ، والثاني لي وهو عسقلان وما وراءها .

— جواب ملك الانكليز لصلاح الدين مع رسول بلغه للسلطان :

يشكر الملك ويقول : إنه إن وقع الصلح في هذه الأيام ستة سار إلى بلاده ، ولا احتاج أن يشتري هنا .

— جواب صلاح الدين لملك الانكليز :

أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه . وأما تشتتيه في هذه البلاد فلابد منها ، لأنه قد استولى على هذه البلاد وعلم أنه متى غاب عنها أحذت بالضرورة ، وإذا أقام أيضاً إن شاء الله تعالى . وإذا سهل عليه أن يشتري هنها ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب في عنفوان شبابه ووقت اقتناص لذاته ، ما يسهل علىَّ أن أشتري وأصيف وأشتبه وأصيف ، وأنا في وسط بلادي وعند أولادي وأهلي ، ويأتي إلىَّ ما أريده . وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عنِّي . والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غير العسکر الذي عندي في الصيف . وأنا أعتقد أنني في أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء . (ابن شداد : التوادر السلطانية ص ٢٢٨) .

— جواب ملك الانكليز لصلاح الدين عن الرسالة السابقة :

لكم أطرح نفسي على السلطان وهو لا يقبلني ، وأنا كنت أحرص حتى أعود إلى بلادي ، والآن فقد هجم الشتاء وتغيرت الأنواء وما بقي بيننا حديث . (تاريخ ابن الفرات ج ٤ ، ق ٢ - ص ٨١ ، نقلًا عن الوثائق الحروب الصليبية د . محمد ماهر حادة ص ٢٣٦) .

٦ — رسالة ملك الانكليز إلى الملك العادل حول الصلح

مرض ملك الانكليز فأرسل له صلاح الدين فاكهة وثلجًا ، فأرسل ملك الانكليز إلى الملك العادل مع رسول يقول له :

قل لأخي — يعني الملك العادل — يصر كيف يتوصل إلى السلطان في معنى الصلح ويستوهب لي منه عسقلان وأمضي ويقى هو هاهنا مع هذه الشرذمة اليسيرة وأأخذ البلاد منهم ، فليس غرضي إلا إقامة جاهي بين الفرنجية ، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان فليأخذ لي عوضاً عن خسارتي على عمارة سورها .

— رسالة صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل حول عرض ملك الانكليز الأخير
إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم ، فإن العسكر قد ضجروا من ملازمة البيكار والنفقات قد نفت . (تاريخ
ابن الفرات ج ٤ ، ق ٢ ص ٨٣ - ٨٤).

٧ — الاتفاقية ما بين صلاح الدين وبيكاردوس قلب الأسد.

« ثم إنَّ الانكليزي نزل عن عسقلان وعن العوض عنها ، واستوثق منه على ذلك . فأحضر السلطان الديوان
يوم السبت ثامن عشر شعبان . وذكر يافا وعملها وأخرج الرملة منها واللد وبجدل بابا ، ثم ذكر قيسارية وأعمالها ،
وأرسوف . وعملها ، وحيفا وعملها ، وعكا وعملها ، وأخرج منها الناصرة وصفورية ، وأثبت الجميع في ورقة وقال
للرسول : هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم فإن صاحبكم على ذلك فمبارك وقد أعطيتكم يدي ، فينفذ الملك
من يخلف في بكرة غد . وإنْ فعلتم أنْ هذا تدفعي وهاطلة . وكان من القاعدة أن تكون عسقلان خراباً وأنْ يتفق
 أصحابنا وأصحابهم على خرابها . واشترط دخول بلاد إسماعيلية . واشتربطا هم دخول صاحب أنطاكية وطرابلس
في الصلح . وشرط أن تكون الرملة واللد بين المسلمين وبينهم مناصفة . واستقرت القاعدة على أنهم يخلفون يوم
الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان ورضي الإسبانية والداوية وسائر مقدمي الإفرنجية بذلك . لم يخلف الانكليزي
بل أخذنا يده وعاهدوه واعتذر بأن الملوك لا يخلفون . وقع من السلطان بمثل ذلك . ثم حلف الجماعة فحلف
الكندوري ابن أخيه المتخلص عنه في الساحل وباليان بن بارزان ابن صاحبة طيبة ووصل ابن المنوري وأبن بارزان
وجماعة من مقدميهم إلى السلطان فأخذوا يده على الصلح . واقترحوا حلف جماعة العادل والأفضل والظاهر
والمصوري وسيف الدين المشطوب ولدرم وأبن المقدم وصاحب شيزر وكل مجاور لبلادهم ؛ وحلف صاحب
أنطاكية وطرابلس وعلق اليدين بشرط حلفهم للمسلمين . قال : ووصل رسول سيف الدين بكثير صاحب خلاط
بيدي الطاعة والموافقة وتسير العسكرية ، وحضر رسول الكرج ، وذكر فضلاً في معنى الديارات التي لهم في القدس
وعمارتها وشكوا من أنها أخذت من أيديهم وسألوها إلى أيديه نواهم . وورد رسول صاحب أرض الروم بيذل
الطاعة . قال العماد : وعقدت هذه عامة في البر والبحر ، والسهل والوعر . وجعل لهم من يافا إلى قيسارية إلى عكا
إلى صور وأدخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكية . ووقت المصالحة مدة ثلاثة سنتين وثلاثة أشهر . أوطاها مبتدأ أيلول
الموافق للحادي والعشرين من شعبان . » (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٠٣ - ٢٠٤).

٨ — اعلان الصلح :

قال القاضي ابن شداد : « أمر السلطان أن ينادي في الوطاقات والأسواق ألا إن الصلح قد انتظم . فمن
شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا يدخل إلى بلادهم فليفعل . وأشاع — رحمه الله — أن
طريق الحج قد فتح من الشام . وقع له عزم الحج في ذلك المجلس ، وكانت حاضر ذلك جميعه . وأمر أن يسير مائة
نقاب لتخريب سور عسقلان معهم أمير كبير ، وإلخارج الفرج منها . ويكون معهم جماعة من الفرج إلى حين
وقوع الخراب في السور خشية من استيفائه عامراً . ففعل ذلك وخربت . وكان يوم الصلح يوماً مشهوداً غشي الناس
من الطائفتين من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى ». (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٤ - ٥).

٩ — موقف صلاح الدين من معاهدة الصلح ورأي القاضي بهاء الدين بن شداد بها ، على أنها أنقذت الإسلام ،
يقول ابن شداد :

«والله العليم أن الصلح لم يكن من إيشاره — أي من إيشار صلاح الدين — فإنه قال لي — رحمه الله — في بعض معاوراته في الصلح : «أخاف أن أصالح وما أدرني أي شيء يكون مني ، فيقوى هذا العدو ، وقد يبقى لهم هذه البلاد ، فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس تله — يعني حصنه ». وقال : «لأنزل ، وبهلك المسلمين ». فهذا كلامه وكان كما قال ، لكنه رأى المصلحة في الصلح لسامة العسكر ، ومظاهرتهم بالخلافة ، وكان مصلحة في علم الله تعالى ، فإنه اتفقت وفاته بعيد الصلح ، فلو كان اتفق ذلك في أثناء الوقعات لكان الإسلام على خطير ، فما كان الصلح إلا توفيقاً وسعادة له ، رحمة الله عليه ». (ابن شداد — التوادر السلطانية ص ٢٣٥).

الفصل السادس والعشرون

العودة إلى دمشق

مقدمة ريكاردوس الديار المقدسة وحظوظه العائدة

في ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٢ غادر ريكاردوس قلب الأسد الديار المقدسة ، وهو أشد قلقاً من يوم مجيئه في حزيران ١٩٩١ ، إذ لم يكن الصلاح الذي وقعت مع صلاح الدين ذلك الذي كان يتمناًه ؛ كما لم يعد احتلال القدس ، وفشل في الربط بين أسرته والأسرة الأيوبية ، بل دمرته هذه الحملة تدميراً ، فعاد مخذولاً ، إذ ردّته المعارك والمحن عجوزاً ، متراجعاً دون مملكة القدس التي كم غدت بعيدة نائية المطروح بعد أن شاهد عاصمتها من أقرب مكان ممكن . فأيّ أمل كان سيستقيه على هذا الساحل الذي طفق يغيب عن عينيه ، وهو الآن يمخر العباب نحو الغرب . وأية تجرب كانت تنتظره لدى عودته ؟ كان فيليب أوغست وأخوه هو يعملاً معاً على هلاكه ؛ وصار على مثل اليقين بأن غبار البشر — ولو ملكاً كانوا — يتناثر أمام نفحة ريانية واحدة ، وتجهمت السماء بوجه ذلك الابن الملعون ؛ فدفعت الربيع سفينة ريكاردوس في خليج البنديقية طارحة إياها حطاماً قرب إكيلية . واضطر ملك إنكلترا لعبور قسم من أوروبا لأن يقوم بحركة التغاف واسعة لاجتناب مملكة فرنسا وجوايسيس فيليب أوغست وكائنه الخفية ، فصعد من البنديقية شمالاً ، ودخل متخفياً أراضي

دوق النمسا الذي لطخ رايته بالوحش غداة الاستيلاء على عكا، وقد سرّ هذا الأخير حينما علم أن ريكاردوس قلب الأسد تائه الآن فوق أرضه متذمراً بزي فلاح، وكان ما يزال متاثراً بالإهانة التي لحقت به، فأمر بمطاردة ملك انكلترا الذي لم يلبث أن عُرف فأوقف وسُجن، وقد عامله ليوبولد دوق النمسا دوغا احترام وأبقاء راسفاً في قيوده مدة ثلاثة سنوات قبل أن يسلمه إلى هنري السادس إمبراطور جermania الذي كان بدوره يضيق عليه ضيقية لا انطفاء لأوار لظاهما لتلك الطريقة غير اللائقة التي تصرف بها في صقلية؛ وفي مقابلة لم تغب عنها قوارص الكلم اتهم كل من الملوكين الآخر بالفظاظة والاحتياط والاغتيال. ييد أن صدّى المنازعات، ووصف سوء المعاملة التي لقيها ريكاردوس سبب استياء بعض الانكليز والنورمانديين والبابا نفسه، ولكن الجرمان ظلوا يرفضون إطلاق سراح الملك إلاّ بعد محاكمته ليس بوصفه ملكاً بل كرجل عادي، فلحاً الملك إلى برلان سبير، وهدد البابا، وأمام عدم تراجع هنري السادس رمي بالحرب أولئك الذين كانوا يأسرون ملك انكلترا. ورغم صواعق روما ظل قائد الصليبية الثالثة سجين الإمبراطور سنة أخرى، ولم يستبعد حريته إلاّ لقاء مائة وخمسين ألف مارك فضة، منها مائة ألف تدفع نقداً، ولكن ما إن استطاع العودة إلى وطنه ووطفت قدماء الأرض حتى علم بأن أخاه كان ينتظره على رأس ثائرية ...

أريحية صلاح الدين وعظمة نفسه

أما صلاح الدين، فما إن علم بأن آخر المراكب الانكليزية توارت وراء الأفق الغربي حتى سرح قوات سنمار والموصلي. وقال موصياً ابنه الملك الأفضل الذي كان يتوجه إلى حلب^(١):

«أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها رأس كل خير، وأمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك، وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فإن الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب النساء وأرباب الدولة والأكابر فما بلغت ما بلغت إلاّ بمداراة الناس، ولا تحد على أحد فإن الموت لا يقي على أحد، وأحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلاّ برضاهם، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك فإنه كريم».

هذه الكلمات وحدها تبين ما كان عليه من أريحية ذلك الرجل ... صلاح الدين الذي كان أعداؤه أنفسهم يعترفون له بعظمة النفس.

أعمال صلاح الدين الإصلاحية

وأنمضى السلطان عيد الفطر في القدس ، وانتهز هذه الفرصة للقيام ببعض الأعمال المادئة ، فأوكل إدارة المدرسة التي بناها إلى أمين سره الخاص بهاء الدين رفيق السلاح الوفي في كثير من معاركه . وكتب العمامد « أنه أمر بإعلاء أسوار القدس وتدعيمها وتزيين أبنيتها وتأمين طرقها ، وأضاف إلى وقف المدرسة سوقاً بدكاكينها وبناءً محاطاً بالبساتين وحسن وضع الصوفية ومنحهم وقفاً مهماً . وحول الكنيسة القائمة في حي القيامة إلى مستشفى جهزه بالأطباء من جميع الاختصاصات ، وجعل السور يمر فوق قبة صهيون فضمها بذلك إلى القدس ، وأحاط المدينة بالخنادق »^(٢) .

أما الآن وقد عمّ السلم الشرقي كله فقد أراد صلاح الدين أن يؤدي فريضة الحج ، ويسجد أمام الكعبة شكرًا لله على نعمه التي غمر بها ملوكه ؛ وأعلن عن رغبته تلك ، وأمر الديوان بتسجيل اسم كل من أراد الجيش أداء فريضته لاحصاء عدد الذين سيسلكون طريق الحج ، وإعداد ما يلزم من نفقات خلع ومؤونة . وكلف سيف الإسلام حاكم اليمن بتأمين سلامة قافلة الحجاج . وكان كل شيء جاهزاً للسفر إلى الديار المقدسة حينما تلقى صلاح الدين أبناء مزعجة من أخيه الملك العادل الذي كان حينذاك في قلعة الكرك . كان الخليفة العباسي يتذمر من سلوك بعض اقطاعي ما بين النهرين المتعتمين بشيء من حماية السلطان . لأن بغداد لا تقبل بتدخله السري في شؤون الخلافة في العراق أو خراسان ، على حين كان شيخ البدو في سوريا يظهرن بمظاهر السادة بعد عودتهم من حرب فلسطين الظافرة التي أبلوا فيها بلاءً حسناً بحيث صاروا يتصرفون وكأنهم مساوون لأمراء أمير المؤمنين ، ومسألة أمراء ما بين النهرين هذه لم تسوّ على الإطلاق تسوية ترضي الجميع . فأرسل صلاح الدين قاضي دمشق إلى بغداد لشرح وجهة نظره . وقبل أن يتوجه إلى مصر لفقد أحوالها رغب صلاح الدين في قضاء بضعة أشهر في دمشق ؛ فغادر القدس يوم الثلاثاء في ١٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١١٩٢ ، وفتح الحصون البحرية على الساحل ، وسلك طريق بانياس ؛ وتوقف في نابلس ليطلع على شؤونها لأن الأهالي كانوا يتذمرون من تصرفات حاكم المدينة المشطوب لما أشيع عنه من قسوة . واتجه بعدها نحو السامرة ، وفي قلعة كوكب استقبل

بهاء الدين قراقوش القادم في موكب مهيب لتقديم احترامه وتأكيد ولائه، مفتشاً حيثاً مرت
الإنشاءات العسكرية تفتيشاً دقيقاً.

أمير انطاكية يطلب حماية صلاح الدين

وأمر صلاح الدين بأعمال إصلاحية في كثير من الواقع الخصينة على الساحل.
وجهزها بالفرسان والمشاة؛ وأوجد مراكز عسكرية جديدة خوفاً من عودة مفاجعة للفرنجة.
وفي ٣٠ تشرين الأول (اكتوبر) دخل بيروت حيث استقبله حاكمها عز الدين سماح
استقبلاً تكريياً حافلاً. وكان يتأهب لمغادرتها حينما وصل أمير انطاكية بوهيموند، وعدد من
حكام إمارته لتقديم الاحترام لصلاح الدين وطلب حمايته، فشرفه صلاح الدين باستقباله إياه
مع مرافقه البارونات الأربع عشر وغمرمهم بالهدايا، وأظهر لهم الكثير من إمارات المودة
وخصص لبوهيموند دخلاً مقداره عشرون ألف دينار تؤخذ من بيت المال^(٣).

العودة الظافرة إلى دمشق

روصل صلاح الدين أخيراً إلى دمشق في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٩٢ بعد
غياب دام أربع سنوات، فاستقبله جمهور بالغ الحماسة. وخلال عدة أيام كانت
المهرجانات تتلو المهرجانات؛ وشاركت المدينة كلها في هذه المباھج المقامة تكريياً للبطل
الأنقى في الإسلام.

صلاح الدين سيف ملحمة الإسلام المنتصر

ومطلقاً لم يبلغ أحد من البشر ما بلغه صلاح الدين من آلق المجد بعد انقضاء عهد
الرسول (عليه السلام) وقاده الفتح الأولين، إذ أحرز أكبر نصر للإسلام على الفرنجة - حطين.
وأزاح ستار الظلام القائم بين الشرق والغرب، لقد بكى الناس فقدان القدس في أكثر الأ��واخ
تواضعاً في فرنسا، ولكن هنا في دمشق، أصبح صلاح الدين في حياته وسيبقى أبداً على مر
الأجيال سيف الإسلام. وأضحى رمز الإسلام. وغداً اسمه وحده يجعل يقطظة الإسلام تهتزّ
رهبة أعمق أقصى الولايات في الغرب، وقدم دمشق لتحيّته الأمراء وشيوخ القبائل، وقوّام
المقام والقضاء والعلماء وتغنى الشعراً بأعجم ملحمة قام بها خيالة الرحمن، تحت السماء

المرصّعة بالنجوم في العربية السعيدة على جميع طرق القوافل الممتدة نحو بحر الخزر أو المتغلغلة في قلب القارة الآسيوية الحافلة بالأسرار ، في كل مكان تحت الحيام المنسوجة من وبر الجمال أو تحت أروقة الخانات أو في أبهاء أصفهان ، في كل مكان في دوارات البرير أو مخيمات المغول حتى عتبة التبيت وهضاب أثيوبيا العالية تغنى الشعراً بقصة الأبطال ، وروواً أسطورة «صلاح الدين البطل الأنقى في الإسلام».

مرض صلاح الدين ودنو أجله

إلا أنه منذ الأسابيع الأولى للعام الهجري ٥٨٩ (١١٩٣) ساءت صحة صلاح الدين ، وأغلق الخصيصة بابه في وجوه الزائرين الساعين إلى دمشق لزيارتة وتهنئته . وألزمته أطباؤه عدم مغادرة حجرته . ولكن صلاح الدين أراد أن يستقبل في أيام شباط (فبراير) ١١٩٣ قافلة حجاج هامة عائدة من مكة ، وسار إلى ملاقاتها بهذا الطقس البارد في وادي بردى المؤدي إلى دمشق ، فأحس بألم مض ، وهو على صهوة جواده وصرعته الحمّى ، فعاد إلى دمشق مرهقاً لا يكاد يستقر على سرج حصانه . فلزم الفراش نهائياً .. وتفاقم مرضه بالحمى التيفية .

يمين الولاء لصلاح الدين ولابنه الأفضل من بعده

و يوم السبت ٢١ شباط (فبراير) قدم بهاء الدين يستفسر عن حاله ، مع ولديه الفاضل والملك الأفضل فوجدوه في أسوأ حال . ولمّا غلت الغيبوبة صلاح الدين تسرّبت المدينة حلل الحداد ، وأغلق التجار المذكورون دكاكينهم في الأسواق خشية الأضطرابات التي قد تنجم عن اغتياد سيف الإسلام . شعر الملك الأفضل بدنو أجل والده وسط عويل النساء ، فاستدعي إلى القلعة حاكم دمشق وكل من فيها من الأمراء الأتابكة ليقسموا له يمين الولاء قبل أن يتمكن من الجلوس في الإيوان وتتوسّل المأدبة ، وكان القضاة قد وضعوا نص اليمين على الشكل التالي : «منذ الآن أقسم أن أكون وفيأً ومطيناً لصلاح الدين ما دام حياً وأن أؤيد أبداً حكمه مكرساً لخدمته حياتي ، وأموالي ، وسيفي ورجالي . ومن بعده سأظل على هذا الولاء لابنه الأفضل وورثته وأشهد الله على أنني سأطيعه وأؤيد حكمه مكرساً لخدمته حياتي وأموالي وسيفي ورجالي ، وأن تطابق أفعالي أقوالي والله على ما أقول شهيد . وإذا نسيت قسمي هذا فلتكن زوجاتي طوالق وليعتق عبيدي ، وعلى أن أحج حافياً إلى البيت الحرام»^(٤) .

خاتمة الملحة والحداد العام في ديار الإسلام

وفي يوم الأربعاء ٤ آذار (مارس) ١١٩٣ وبعد صلاة الفجر أسلم صلاح الدين الروح وهو في الخامسة والستين من عمره، بينما كان أبو جعفر أمام القلعة يتلو عليه آيات الذكر الحكيم، وقد كتب العمامد: «وحلت الظلمات محل النور حيناً غاب هذا الكوكب ليل السابع والعشرين من صفر. وغابت معه ينابيع النور، وأظلمت الدنيا وماتت معه آمال الناس وتوارت الأريحية وانتشر العداء»^(٥). وقال محمد بن القادسي: «وفي يوم السبت ثالث عشر ربيع الأول - ١٩ آذار (مارس) - شاعت الأخبار - يعني ببغداد - بوفاة صلاح الدين بن يوسف بن إيبوب، وذكر أنه دفن معه سيفه الذي كان معه في الجهد، وكان ذلك برأي الفاضل، وقيل عنه: هذا يتوكأ عليه إلى الجنة»^(٦)، ورفع جثمان والده وواراه الثرى يعاونه خطيب دمشق. وفي فقد الإسلام حامي الناصر ظل يرثيه كما تبكي الأم وحيدتها. ولم يبق شخص إلا صعقه النبأ وأحس بأنه أصيب في قلبه وعقله».

لقد مات البطل الأنقى في الإسلام في حالة فقر مدقع غير مختلف سوى سبعة وأربعين درهماً وقطعة ذهبية صورية.

واضطر المقربون منه إلى اقتراض نفقات الجنازة، وقدم القاضي الشياط الاحتفالية والكفن رغم أن الفرصة واتته مرتين ليكون أحد أثرياء زمانه، الأولى عند وفاة الخليفة الفاطمي العاضد، والثانية عند وفاة الأتابك نور الدين ولكنه وزع على جنده وأنصاره كنوز الخليفة الذي حكم مصر، وربما بنفسه أن يجوز أية قطعة نقدية من ثروة نور الدين الضخمة واضعاً لها بين يدي ولده (ولد نور الدين). كان الحداد عاماً - لأنه، كما يقول بهاء الدين، منذ رحيل الخلفاء الراشدين الأربع لم يصب الإسلام بطبعه كهذه. وأقيمت الصلوات على روحه في جامع مكة والمدينة، وهو تكريم لم يجر إلا للخلفاء وحدهم دون سواهم^(٧). وقيل صلاة العصر نقل الجثمان إلى حدائق قصر الصيف، وبعد بضع سنوات خصص له في المدرسة العزيزية قرب الجامع الأموي الكبير المدفن النهائي، حيث ماتزال روحه الطاهرة تنعم بالسلام في هذه المدينة المقدسة: دمشق وسط أنوار مجده يتعاظم من جيل إلى جيل.

زهد صلاح الدين

إن سيد مصر وسورية الجنوبية وسورية الشمالية وفلسطين وحوران ، وشرق الأردن والجزيرة وما بين النهرين واليمن ، قاهر الأسر الأرتقية الكثيرة الحركة في ماردین وزنکیي الموصل والأؤمن ... هذا الذي أنهى الخلافة الفاطمية في مصر لصالح خلافة بغداد ، والذي نظم شؤون الأتابكة السوريين ، واستعاد القدس من الفرنجية ، وخاصة معهم حرباً لا هوادة فيها على امتداد عشرين سنة ... نعم ! إن الرجل الذي حقق كل ذلك لم يخلف لأولاده السبعة عشر — عدا المملكة — سوى سبعة وأربعين درهماً وقطعة ذهبية صغيرة . وأكثر من مرة كان يعوزه ما يقيم به أوده ، ولم تكن وظيفة الحارن عنده مجرية كما لم يكن أمام أولاده الذين لم يصيروا ملوكاً لحداثة سنهم بعد وفاة أبيهم ، إلا أن يعملوا لكسب قوتهم لدى إخوتهم وأعمامهم أو أبناء إخوتهما الذين شرعاً يتصارعون كالذئاب حوالي الإرث السياسي لصلاح الدين .

صلاح الدين الصورة الأنقى إسلامياً وعالمياً

وسيبقى صلاح الدين في التاريخ الإسلامي إحدى أعظم صوره؛ وحينما كانت أوروبا تتعافى من الصدمة السيكولوجية الرهيبة التي اعتبرتها زمن الفتوحات الإسلامية ، وحينما كانت بيزنطة المرهونة الجانب ، نصف الآسيوية ونصف الفرنجية تدع جيوش الحملات الصليبية الأولى تباد في آسيا الصغرى ، حاطمةً بذلك حماسة الصليبيين ، ظهر صلاح الدين روح الإسلام الأصولي بشبابه العاف ، الكثير الحركة ، على مسرح التاريخ؛ فزاد من قوته في هذه اللحظة المؤاتية وخاصة لقيادته الحرب ضد الفرنجية الذين كانوا أقل حماسةً مما كانوا عليه قبل قرن مضى ، ومؤكداً أن المثل الأعلى الدينيّ كان إلى جانب صلاح الدين في هذا الصراع لطرد الفرنجية نهائياً من سوريا وفلسطين ، ومن إقطاعاتهم الثانوية فيما بين النهرين ، والتي كانت تهدد مركز الخلافة : بغداد ، ذلك كان هم الملك الذي لم يكن سوى سلسلة متلاحقة من المعارك ، واستئناف مغامرة الرومان لصلاح الإسلام . تلك المغامرة التي كانت تشمل البحر المتوسط والأراضي التي يحدق بها ، ذلك كان هدف صلاح الدين . كانت مصر الأيوبيه وأسطولها مقابل القوة البيزنطية التي فشلت أساطيلها أمام الاسكندرية وتجاه دمياط . وبعد انتصاره الباهر في حطين الذي مهد له فتح القدس وفلسطين ، تبدى جلياً أن الوجود الفرنجي في المشرق أوشك أن يصبح غير قابل للبقاء .

سيد العواصم العربية الثلاث ومعهد وحدة سورية

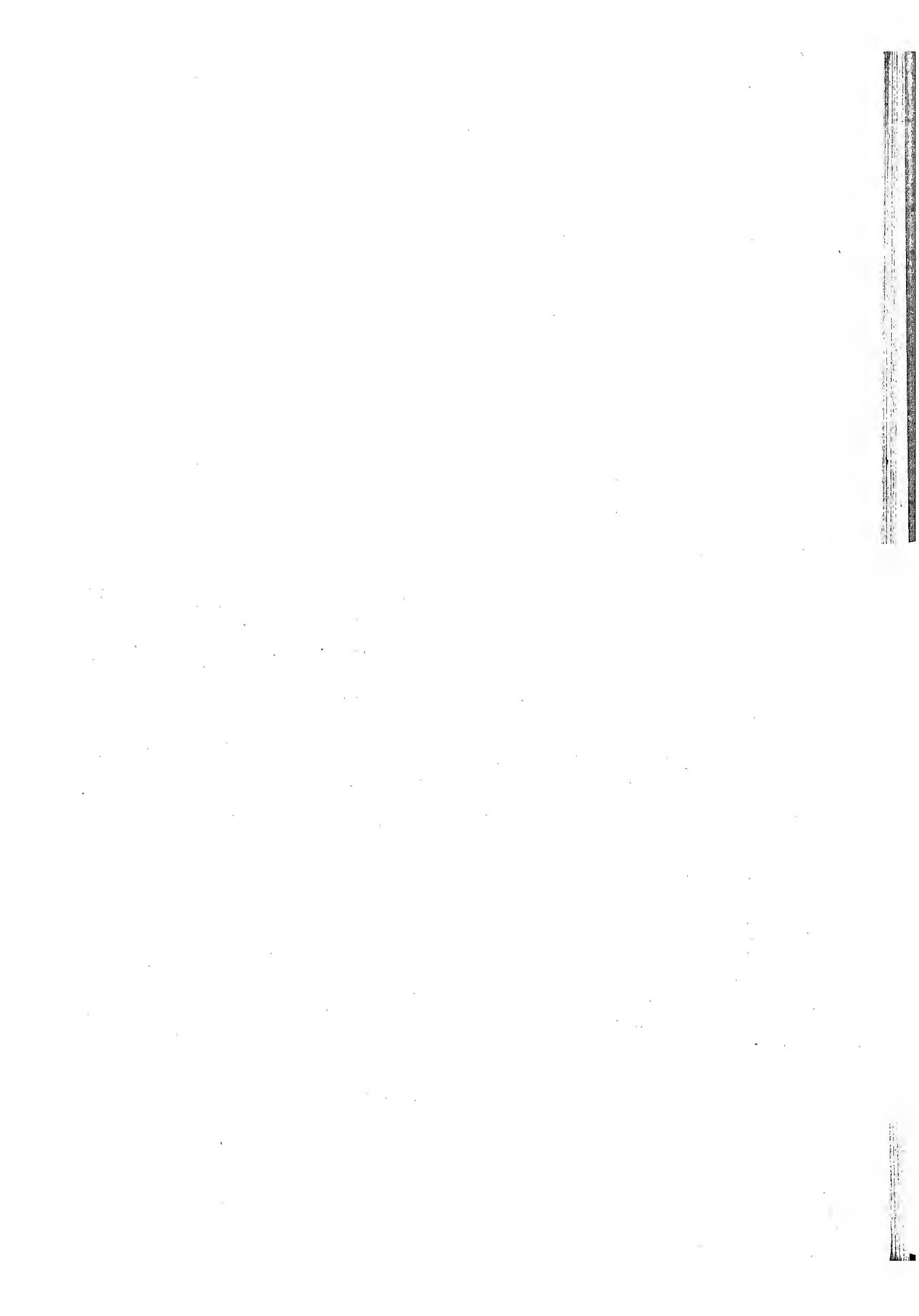
حينذاك حدث حادث له أهميته؛ فصلاح الدين الذي غدا سيد كل الساحل تقريراً وقف ثاني يوم النصر الذي هزّ أوروبا القلقة هزة مؤلمة أمام قلة مقاتلة مخندقة وراء صخرة صور الصراع، فنقرر على ما يظهر حظ صلاح الدين السياسي. كانت الأمور الكبيرة قد أُخبرت، وقوة صلاح الدين ما زالت تتضاعف، فأعاد الوحدة السورية، كما ترسخت من النيل إلى دجلة أركان الإمبراطورية الأيوبية سنةً بعد سنة، فامتلك صلاح الدين ثلاث عواصم: القاهرة ودمشق وحلب. وتقلقه بغداد تملق الموجس خوفاً، واعتُرف في الموصل - بؤرة الفتن التقليدية ضد السوريين - بسلطته. ولكن بعد صور، وإثر حادث عكا العاثرة الحظ والتي لم يستطع صلاح الدين إنقاذ حاميتها، انتهت حياته السياسية. وقد رأى عليه ضرورة لازب مساومة ملك انكسر المحتال، الذي جاء في آخر لحظة بلا نصر حاسم باهر، والذي تمكّن مع ذلك أن يتعاقد تعاقد الند للند مع صلاح الدين الذي لم ينتصر عليه في ساحة القتال، ولكن عرف كيف يستنزفه وهو يجبره من مقاومته إلى مقاومة حتى هذا الصلح الشهير صيف ١١٩٢ الذي استقبله الجميع بحماسة. ويلاحظ أن الغيرة الدينية لدى صلاح الدين لم تكن أبداً - منذ صور - أقوى مما هي عليه الآن، كانت تتملكه حماسة دينية. لقد قرأ هو نفسه لأولاده المعاهدة التي كتبها له خصيص قطب الدين النيسابوري. وحينما لم يكن يستطيع المشاركة في صلاة الجمعة كان يستدعي الإمام، إن كان مريضاً، ويكره نفسه على الوقوف لأداء الصلاة. كان يخصي إحصاءً دقيقاً أيام صومه، وحينما يمضي الليل في خيمته الخربية، كان يأمر حارسه بأن يتلو عليه آياً من الذكر الحكيم؛ وفيما كان الفرنجة يتلقون امدادات جديدة في عكا، وبينما شرع ملكان يتوجهان إلى الأرض المقدسة التي كان صلاح الدين أعاد فتحها، وأيان كان يتربّد في المشرق شائعة مفادها أن البابا نفسه سيشترك في الحملة الصليبية ضد صلاح الدين، كان هذا الرجل يزداد يقيناً وثباتاً أمام كل هذه الأخطار ويضرع إلى الله قائلاً: «إلهي إني أكل أمري إليك، وأرضي بما تبتليني وتبتي أصحابي إذا كان في ذلك مرضاتك»^(٧).

الحاكم العادل والقائد الإنسان

وكمديب في تصريف الأمور، يصفه لنا أحسن مؤرخي سيرته بهاء الدين بأنه سلطان

كثير التدقيق فلم يكن يدع لأحد سواه أن يوقع الشكاوى التي ترفع إليه، وكان يصرف الوقت اللازم لدراسة المذكرات التي كانت ترده من جميع أنحاء المملكة. ورغم حاجته إلى المال لمobil الحروب وجد سبيلاً إلى خفض الضرائب. وكان محباً للعلوم الفقهية، حامياً للعلماء؛ وفوق كل ذلك بني قلعة القاهرة الشهيرة، ورمم الكثير من الأبنية في القدس. وظلت طريقته في تحقيق العدالة سائدة في المشرق. فحينما كانت أعماله تسمح له بذلك يعقد بنفسه ديوانه يومي الاثنين والخميس، يعاونه قضاته سواء في المدينة أو في المعسكر. وكان يقبل المتخاصمين المسيحيين أسوةً بال المسلمين. وأمام صلاح الدين كان للفقراء الحقوق ذاتها التي للأغنياء. وكان من الرحمة والشفقة بحيث لم يلبث أن حامت حوله إشاعة الضعف. فكان خدمه يسرقونه بوقاحة، وكان خازنوه ينهبون وارداته دونما اكتتراث. فكان صلاح الدين يغضي عن ذلك أو يرى أنها أمور لا تستحق الاهتمام.

هذا القائد، هذا المنتصر في هذا العدد من المعارك^(٩) الذي لم يكن يستطيع رؤية الدم المراق إلا وهو يشعر بامتعاض حقيقي، كان يخشي جانب أمرائه فلا يريد أن يتذكرة إساءاتهم، مفضلاً الاحتفاظ بصلادتهم بلطفهم وأريحيتهم، وحينما ثار عليه علناً عدد من الأمراء خلال حصار عكا لم يشأ خلافاً لما كان متوقعاً أن يجعلهم عبرةً لمن يعتبر، والأعجب أنه استطاع أن يثبت نفسه بلا عنف ولا قوانين استثنائية، ومن دون استعمال السيف أو السم على رأس مملكة إسلامية أوجدها ودعم أسسها بسنين قليلة. ولم يفك أحد من أمرائه أو أولاده أو أصدقائه أو خدمه أو ماليكه أن يعرض على ألقابه أو حقوقه، أو أن يفكر في التخلص منه لمناسبة إحدى المآدب الشرقية التي لانهاية لها، والتي تختتم دائمًا بالحلويات اللزجة المتبللة والأشربة المثلجة التي طالما غَيَّب فيها أمراء وأبطال في الإسلام^(١٠)...



حواشى الفصل السادس والعشرون

١— جاء في كتاب القاضي بهاء الدين بن شداد مؤرخ سيرة صلاح الدين عن وصيته لابنه الملك الظاهر، قبيل توجهه إلى حلب وليس لابنه الأفضل كما ذكر شاندور .. (راجع ابن شداد : النواود السلطانية ص ٢٣٨).

٢— أعمال صلاح الدين الإصلاحية في مدينة القدس :

«قال العماد : عاد السلطان بعد السلم إلى القدس ، لفقد أحواله ، وعرض رجاله . واشتعلت بتشييد أسواره وتحسينها ، وتخليد آثاره وتحسينها . وتعقيم خنادقه ، وتوثيق طرائقه . وزاد في وقف المدرسة سوقاً بذلكينها ، وأروضاً بيساتينها . وكذلك رتب أحوال الصوفية في رعايتها ، والوقف الكافل بكلينتها . وغير الكنيسة التي في شارع قعامة بالبيمارستان ، ونقل إليه العقاقير والأدوية من جميع الأنواع والألوان . وأدار سور القدس على قبة صهيون ، وأضافها إلى المدينة . وأمر بإدارة الخنادق على الجميع ، وচمم العزم على المجمع فلم يوافقه القدر ، وتأسف على فواته ، بعد أن قدم مقدّماته . وأقام شهر رمضان وأفاض الإحسان . وفرض ولبة القدس وأعمالها إلى عز الدين جردلوك حين استغنى منها حسام الدين سياروخ ، وولى مملوكه علم الدين قيسر مادون القدس كحمل الخليل وغزة والدروم وعسقلان ..

قلت ولم يزل البيت المقدس شرفه الله تعالى ملحوظاً بالعناية والتحصين من عهد السلطان رحمة الله إلى سنة ست عشرة وستمائة فإنه خرب في المحرق منها بسبب خروج الفرج وانبعاثهم في البلاد فخفيف من استيلائهم عليه وفي السنة التي قبلها توفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب آخر السلطان وتشتت الناس بعد خرابه ورغبوا عن السكنى به » (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٠٥).

٣— عن استقبال صلاح الدين بوهيموند أمير أنطاكية في مدينة بيروت :

قال العماد الأصفهاني : « ودخل يوم الخميس بيروت وبها إليها عز الدين سامة ، فاهتم له بالكرامة . ولما أراد عن بيروت الانفصال ، في الحادي والعشرين من شوال ؛ قيل له : إن الإبرنس الأنطاكي يسمى مع عصابة من الوفد قد وصل إلى الخدمة ، مستمسكاً بحبل العصمة . فتنى عناه ونزل وأقام وما رحل . وأذن للإبرنس في الدخول ، وشرفه في حضرته بالمثل . وقرّبه وآنسه ، ورفع مجلسه . وكان معه من مقدمي فرسانه أربعة عشر بارونياً ،

فوهب كلاماً منهم تشريفاً سرياً : وأجزل له وهم العطاء ، وأبدى بهم الاعتناء . وكتب له من مناصفات أنطاكية معيشة بمبلغ عشرين ألف دينار ، وخص أصحابه ببار . وأعجبه استرساله إليه ، ودخوله بغير أمان عليه . فلا جرم بتلقاء بالإحسان ووافقه ، وودعه يوم الأحد وفارقته . (نقلأً عن كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ ص ٢٠٧) .

٤- عن نص مبين الطاعنة لصلاح الدين وابنه الملك الأفضل من بعده..
جاء في التوادر السلطانية:

ولما رأى الملك الأفضل ماحل بوالده ، وتحقق اليأس منه ، شرع في تحريف الناس ، وجلس في دار رضوان المعرفة بسكنه ، واستحضر القضاة ، وعمل له نسخة يمين مختصرة مُحَصَّلة للمقاصد ، تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته ، وله بعد وفاته ، واعتذر للناس بأن المرض قد اشتد ، وما نعلم ما يكون وما فعل هذا إلا احتياطاً على جاري عادة الملوك . فأول من استحضر للحلف سعد الدين مسعود آخر بدر الدين مودود - الشحنة - فبادر إلى العين من غير تشرط . ثم استحضر ناصر الدين - صاحب صهيون - فحلف ، وزاد أن الحصن الذي في يده له . وحضر سابق الدين - صاحب شيزر - فحلف ، ولم يذكر الطلاق ، واعتذر بأنه ماحلف به . ثم حضر خشترين الهكاري ، وحلف . وحضر نورشوان الزرزاوي وحلف ، واشترط أن يكون له خبرٌ يرضيه : علّكان ومنكلان وحلفا . ثم مذ الحوان ، وحضر الجماعة وأكلوا . ولما كان العصر أعيد مجلس التحريف ، وأحضر ميمون القصري وشمس الدين سنقر الكبير وقالا : «نحن نحلف بشرط لأنسل في وجه أحد من أخوتك سيفاً ، لكن رأسي دون بلادك». — هذا قول ميمون — وأما سنقر ، فإنه امتنع ساعة ، ثم قال : «كنت حلفتي على النظرون يميناً ، وأنا عليها» . وحضر سامة ، وقال : ليس لي خبر ، فعل أي شيء : أحلف؟ . فروعج فحلف ، وعلق يمينه بشرط أن يعطي خبراً يرضيه . وحضر سنقر المشطوب ، وحلف ، واشترط أن يُرضي . وحضر اليكي الفارسي ، وحلف . وحضر أبيك الأفطس وحلف واشترط رضاه ، ولم يحلف بالطلاق . وحضر آخر سياوارخ وحلف واشترط رضاه . وحضر حسام الدين بشارة وحلف — وكان مقدماً على هؤلاء — ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ، ولم يتعرض لهم ، بل حلف هؤلاء النفر ، وربما شدّ منهم غير معروف : ونسخة العين المحرف بها وفصولها : الفصل الأول : إنني من وقتي هذا قد أصفيت نيتني ، وأخلصت طبعي للملك الناصر مدة حياته ، وإنني لا أزال باذلاً جهدي في الذبّ عن دولته بنفسه وماي وسيفي ورجاله ، ممتثلاً أمره ، واقفاً عند مراضيه ، ثم من بعده لولده الملك الأفضل علي : والله إنني في طاعته ، وأذبّ عن دولته ولبلاده بنفسه وماي وسيفي ورجاله وأمثلل أمره ونبيه ، وباطني ظاهري في ذلك سواء ، والله على ما أقول وكيل . هذه نسخة العين المحرف بها ، أعني مقاصدتها . (ابن شداد :

٥ — وفاة صلاح الدين :

«وكانت وفاته رحمة الله عليه بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسماة. وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته. ووصلت أنا وقد مات وانقل إلى رضوان الله وحل كرامته. ولقد حكى لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى لا إله إلا هو، عليه توكلت، بسم وتهلل وجهه وسلمها إلى ربه. وكان يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بهمle منذ فقد الخلفاء الراشدون. وغضي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وتالله لقد كنت أبغى من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم

بنفسهم. فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوز والترخيص إلى ذلك اليوم. فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفداء بالنفس. وكان يوماً عظيماً قد شغل كل إنسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر إلى غيره» (أبو شامة: كتاب الروضتين: ج ٢ ص ٢١٣).

وقال العmad الأصفهاني:

«دخلنا إليه ليلة الأحد للعيادة، ومرضه في الزيادة، وفي كل يوم تضعف القلوب، وتتضاعف الكروب. وانتقل من دار الفناء، إلى دار البقاء، في سحرة يوم الأربعاء، ونابت الظلماء عن الضياء. ودخل قمره ليلة السابع والعشرين في السرار، ودجت مطالع الأنوار، ومات بموته رجاء الرجال، وأظلم بغروب شمسه فضاء الأفضال، وغاصت الأيدي، وفاقت الأعادي». (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢١٣).

٧ - «قال محمد بن القادسي وفي يوم السبت ثالث عشر ربيع الأول شاعت الأخبار يعني بعديد بوفاة صلاح الدين يوسف بن أيبوب» (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢١٤).

٨ - دعاء صلاح الدين: انظر التوادر السلطانية لابن شداد ص ١٠ - ١٢.

٩ - وجاء في كتاب التوادر السلطانية لابن شداد في ذكر المدن والمحصو التي يسر الله فتحها على يدي صلاح الدين - رحمة الله عليه - من ديار الفرج - من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة ست وثمانين:

طبية على بحر الأردن بالسيف. عكا على البحر الكبير بالأمان. حيفا على البحر بالأمان. الناصرة التي تنسب إليها النصاري. الرملة. قيسارية بالسيف. أرسوف بالأمان. يافا بالسيف «ميديثها». عسقلان بالأمان. غزرة بالأمان. الداروم. صيدا على البحر. بيروت بالأمان. جبيل. هونين. جبلية. تبنين. أنططروس «دون أحد برجها» بالسيف. جبلة «ميديثها بالسيف»، وقلعتها بالأمان» اللاذقية مدينتها بالسيف وقلعتها بالأمان. مدينة القدس الشريف خلصه الله تعالى. نابلس. البير بأرض القدس. صفورية. الطور. حصن ذيورية. الفولة. حصن عقربلا. حصن جينين. سفسطية. كوكب. حصن عفرى «شمالي القدس». بيت لحم. حصن العازرية بأرض القدس. البرج الأحمر «قريباً منه». حصن الخليل «عليه السلام» بيت جبرين. تل الصافية. حصن محدل يابا. قلعة الجيب الفوقي. «الجيوب». التحتاني. النطرون. الحصن الأحمر. لد بأرض الرملة. قلنوسة «قريباً منها». بئنى. القانون والقيمون. قلعة الكرك «بعد حصار سنة ونصف». قلعة الشوبك «بعد حصار سنتين». قلعة السلع. الوعيرة. قلعة الجم. قلعة الطفيلة. قلعة الهرمز. جميع ذلك في وادي موسى والسرارة. قلعة صَفَدْ. حصن يازور. شقيف أرزنون. حصن اسكندرونة «بين صور وعكا». قلعة أبي الحسن «بأرض صيدا». صيدا أيضاً حصن. بلدة بالساحل الأعلى. المرقية «على البحر». حصن يحمور بأرض عكا. بلنياس بين جبلة والمرقب. صهيون. بلاطنس. حصن الجماهيرية. قلعة العيند. بكساس. الشُّعُرُ. بكسرايل. السرمانية. قلعة بُرْزَة. ذرساك. بُغْراس «قريباً من أنطاكية» الدائز بأرض بيروت. السوفند قريباً من صيدا. (ابن شداد التوادر السلطانية ص ٢٤٨).

١٠ - صلاح الدين في مرآة التاريخ:

آ— صلاح الدين في مرآة مؤرخي عصره:

ويتحدث ابن الأثير عن طرف من مناقب صلاح الدين:

«وكان رحمة الله، كريماً، حليماً، حسن الأخلاق، متواضعاً، صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلم بذلك ولا يتغير عليه».

ويلغى أنه كان يوماً جالساً وعنه جماعة، فرمي بعض المالكية بعضاً بسموز فأخطأته ووصلت إلى صلاح الدين فأخطأته، ووقيت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلم جليسه ليتغافل عنها.

وطلب مرة الماء فلم يحضر، وعاد الطلب في مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر، فقال: يا أصحابنا، والله قد قتلني العطش! فأحضر الماء، فشربه ولم يذكر التوانى في إحضاره.

وكان مرة قد مرض مرضًا شديداً أرجف عليه بالموت، فلما برئ منه وأدخل الحمام كان الماء حاراً، فطلب ماء بارداً، فأحضره الذي يخدمه، فسقط من الماء شيء على الأرض، فناله منه شيء، فتألم له لضعيته، ثم طلب البارد أيضاً فأحضر، فلما قاربه سقطت الطاسة على الأرض، فوقع الماء جميعه عليه، فكاد يهلك، فلم يزد على أن قال للغلام: إن كنت تزيد قتلي فعرّفني! فاعتذر إليه، فسكت عنه.

وأما كرمه، فإنه كان كثير البذل لا يقف في شيء بخوجه، ويكتفي دليلاً على كرمه أنه لما مات لم يختلف في خزاناته غير دينار واحد صوري، وأربعين درهماً ناصيرية، وبلغني أنه أخرج في مدة مقامه على عسكراً قبلة الفرج ثماني عشر ألف دابة من فرس وبلغ سوى الجمال، وأمّا العين والثياب والسلاح فإنه لا يدخل تحت الحصر، ولما انفرضت الدولة العلوية بمصر أخذ من ذخائرهم من سائر الأنواع ما يقوت الإحصاء فرقه جميعه.

واما تواضعه، فإنه كان ظاهراً لم يتكلّر على أحد من أصحابه، وكان يعب الملوك المتكببين بذلك، وكان يحضر عنده القراء والصوفية، ويعلم لهم السماع، فإذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقوم له فلا يقدر حتى يفرغ الفقير.

ولم يلمس شيئاً مما يذكره الشاعر، وكان عنده علم ومعرفة، وسع الحديث وأسمعه، وبالجملة كان نادراً في عصره، كثير الحاسن والأفعال الجميلة، عظيم الجهاد في الكفار، وفتوحه تدل على ذلك، وتحلّف سبعة عشر ولداً ذكراً. (ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٩٦—٩٧).

ويتحدث ابن جبير في رحلته عن «حسن سيرة السلطان» فيقول:

وقد تقدّم الذكر أيضاً في غير موضع من هذا الكتاب عن حسن سيرة السلطان بهذه الجهات: صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب، وبهله من المؤثرات في الدنيا والدين، وما يمارسه على جهاد أعداء الله، لأنّه ليس أمّا هذه البلدة بلدة للإسلام، والشام أكثرو بيد الإفرنج، فنسّب الله هذا السلطان رحمة للمسلمين بهذه الجهات، فهو لا يأوي لراحة، ولا يخلد إلى دّعة، ولا يزال سرّجه مجلسه؛ إلّا بهذه البلدة نازلوا من شهرین اثنين وحلّلناها وقد خرج لمنازلة حصن الكرك، وقد تقدّم الذكر أيضاً له، وهو عليه مُحاصر حتى الآن، والله تعالى يعينه على فتحه. وسمّعنا أحد فقهاء هذه البلدة وزعمائتها المسلمين بستنة هذا السلطان والحاضرين مجلسه يذكر عنه

في حضرة مخفي علماء البلد وفقهائه ثلاثة مناقب في ثلاث كلمات حكاماً عنه رأينا إثباتها هنا: إحداها أن المعلم من سجایاه، فقال، وقد صفح عن جريمة أحد الجناء عليه: أما أنا فلأن أخطيء في التقوّي أخطّب إلى من أن أصيّب في العقرة. وهذا في الحلم متّزع أختهني (الأختني: نسبة إلى الأخفف بن قيس، الذي اشتهر بالحلم).

وقال أيضاً، وقد ثوّثت بحضوره الأشعار وجرى ذكر من سلف من أكارن الملوك وأجوادهم: والله لو وهبت الدنيا للقادصي الآمل لما كنتُ أستكثّرها له، ولو استفرغت له جميع ما في خزانتي لما كان عوضاً مما أراقة من حرّ ماء وجهه في استمناحه إياي. وهذا في الکرم مذهب رشيدى أو جعفرى (رشيدى: نسبة إلى هارون الرشيد، جعفر: جعفر المتوك أو إلى جعفر البرمكي).

وحضروه أحد مماليكه المتميّزين لديه بالحظوظ والأثر مستعدّياً على جمال ذكر أنه باعه جلاً معيناً أو صرف عليه جلاً بعيّب لم يكن فيه، فقال السلطان له: ما عسى أن أصنع لك، ول المسلمين قاضٍ يحكم بينهم، والحق الشرعي مبسوط للخاصة وال العامة، وأوامره ونواهيه مُستَكْلَة، وإنما أنا عبد الشّرع وشحنته، والشحنة عندهم صاحب الشرطة، فالحق يقضي لك أو عليك. وهذا في العقد مقصد عمرى (عمرى: نسبة إلى عمر بن الخطاب).

وهذه كلمات كفى بها لهذا السلطان فخراً، والله يمتع بيقانه الإسلام والمسلمين بهـه (رحلة ابن جبير ص ٢٧٠ - ٢٧١).

أما القاضي ابن شداد صاحب سيرة صلاح الدين، فقد قسم كتابه المعروف باسم النواود السلطانية والمحاسن اليوسنية إلى قسمين، أفرد القسم الأول منه لدراسة أخلاق صلاح الدين وقضائه، بينما بحث في القسم الثاني سيرته العسكرية حتى وفاته ..

وهما جاء في القسم الأول ذكر مواطيته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية: « فهو قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع أهل العلم وأكابر الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته .. » (ص ٧).

وحين يتطرق ابن شداد لبحث مسألة التزام صلاح الدين بفرضية الزكاة، يقول:

« فإنه مات — رحمه الله تعالى — ولم يحفظ ما وجبت عليه به الزكاة.

وأما صدقة النفل فإنها استندت جميع ماملكه من الأموال، فإنه ملك ماملك ومات، ولم يختلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرياً، وجرماً واحداً ذهباً صورياً، ولم يختلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستانياً، ولا قرية ولا شيئاً من أنواع الأموال ». (ص ٨).

ويتحدث ابن شداد عن عدله؛ فيقول:

« ولقد كان — رحمه الله — عادلاً رؤوفاً، رحيمًا، ناصراً للضعيف على القوي . وكان مجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد ، من كبير وصغير، وعجز هرمه، وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سيراً وحضرأً .

على أنه كان في جميع أزمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص كاشفاً لما ينتهي إليه من المظالم، وكان يجمع القصص في كل يوم، ويُفتح باب العدل، ولم يرّد قاصداً للحوادث والحكومات، وكان يجلس مع الكاتب ساعة، إما في الليل أو في النهار، ويوضع على كل قصة بما يطلق الله على قلبه، ولم يرّد قاصداً أبداً ولا متعللاً ولا طالب حاجة.. لقد كان رؤوفاً بالرعاية.. فما استغاث إليه أحدٌ إلا وقف وسع قضيته، وكشف ظلامته، وأخذ بقضته» (ص ١٣ - ١٤).

«ويروي القاضي ابن شداد كيف أن صلاح الدين جلس بين يديه إلى جانب خصميه التاجر الذي رفع عليه دعوى، «بعد أن نزل عن طراحته وساواه» على بساط الشرع وبعد أن رفع صلاح الدين الدعوى بالبيضة القاطعة بحضور شهود عدل، لم يرّد خصميه خاتماً وأمر له بخلعه ونفقة باللغة» (ص ١٥ - ١٦).

ويتحدث ابن شداد عن كرمه، بقوله: «وكرمه— قدس الله روحه— كان أظهر من أن يسطر.. وكان يعطي في وقت الضيق كم يعطي في حال السعة». «يعطي فوق ما يؤمل الطالب» .. «ويكرم أكثر مما يعطي» .. «وأما تعداد عطاياه وتعدد صنوفها فلا تطمع فيها حقيقة أصلًا». (ص ١٧ - ١٨).

أما في ذكر شجاعته، فيقول:

«ولقد كان— رحمة الله تعالى— من عظماء الشجعان، قوي النفس، شديد البأس، عظيم الثبات، ولا يهله أمر، ولقد رأيته— رحمة الله— مرابطًا في مقابلة عدة عظيمة من الفرج، وتجدهم تتوافق، وعساكرهم تتواتر، وهو لا يزداد إلا قوة نفس وصبر، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نصف وسبعون مر Kirby على عكا، وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس وهو لا يزداد إلا قوة نفس، ولقد كان— رحمة الله— يعطي دستوراً في أولئك الشتاء، ويبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة».

«وكان— رحمة الله تعالى— إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد وعلى يده جنيب، ويخرج العساكر من الميمنة إلى الميسرة، ويرتب الأطلاع، ويأمرهم بالتقدم والوقف في مواضع يراها، وكان يشارف العدو وبجاوره».

«وما رأيته استكثروا العدو أصلًا، ولا استعظم أمرهم قط، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبر، تذكر بين يديه الأقسام كلها، ويرتب على كل قسم بقتضاه من غير حيّدة ولا غضب يعتريه رحمة الله».

ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر ببرج عكا حتى القلب ورجاله، ووقع الكوش والعلم وهو— رضي الله عنه— ثابت القدم في نفر يسير، قد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردهم، وينجّلهم حتى يرجعوا، ولم يزل كذلك حتى تصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم».

«وكان— رحمة الله— يمرض ويصح، وتعريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط، وتراءى الناران، ونسمع منهم صوت الناقوس، ويسمعون منا صوت الأذان، إلى أن انقضت الوعة على أحسن حال وأيسره» (ص ١٩ - ٢٠).

أما عن اهتمامه بأمر الجهاد، فيقول:

«ولقد كان رحمة الله شديد المواطبة عليه، عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أتفق بعد خروجه إلى الجهد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الإرداد، لصدق وبر في مبينه».

ولقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانبه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آنه، ولا كان له اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحيث عليه، ولقد هجر في عبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاده وقع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح مينة ويسرة، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحانة على مرج عكا، فلو لم يكن في البرج إلا قتله، ولا يزيده ذلك إلا رغبة وصابر واهتماماً .».

وكان يعتبر أن الموت في سبيل الله أشرف الميتات، ويقول عن نفسه «غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات» (ص ٢٢ - ٢٣).

ويذكر ابن شداد طرفاً من صبره واحتسابه:

فضللاح الدين لم يتوقف أبداً عن الجهاد مهما اعترته الأمراض، وكان «يرتب العسكر للقاء الفرنجية يوم التعبية للحرب»، ويلاقي العدو بنفسه دون أن تلين قناته، رغم مرضه عند الحروبة في حصار عكا:

«وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو مستديراً إلى ورائهم، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم، وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح، ويقتضي بنديل على رأسه من شدة وقع الشمس، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفاً .

ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر، ونزل هو قبالتهم على تل مطل عليهم إلى أن دخل الليل، ثم أمر العسكر المتصورة أن عادت إلى مجال المصايرة، وأن يبيتوا تحت، وتأنخر هو، ونحن في خدمته، إلى قمة الجبل، فقضرت له خيمة لطيفة، وبُث تلك الليلة أجمع أنا والطبيب ثورضه ونشاغله، وهو بنام تارة ويستيقظ أخرى، حتى لاح الصباح، ثم ضرب البوق، وركب هو، وركبت العسكر، وأحدقت بالعدو، ورجل العدو عائدًا إلى خيامهم من الجانب الغربي من النهر، وضايقهم المسلمون في ذلك اليوم مضائقه شديدة .

ولقد رأيته — رحمة الله — بمرج عكا، وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه، بحيث لا يستطيع الحلوس، وإنما يكون متكتأً على جانبه إن كان بالخيمة، وامتنع من مذ الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكان يأمر أن يفرق على الناس، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو، وقد رأب الناس ميمونة ومبسة وقلباً تعيبة القتال، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على الأطلاب، ومن العصر إلى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الألم وقوه ضربان الدمامل، وأنا أتعجب من ذلك، فيقول: إذا ركبت يزول عنك ألمها حتى أنزل، وهذه عبانية رمانية .» (ص ٤٥ - ٤٦).

وكان صلاح الدين «حليماً متتجاوزاً قليل الغضب» يحافظ على أسباب المروعة «نديّ اليد، كثير الحياة،

مبسط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف، لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده، ولا يخاطبه بشيء إلا وينجزه .. وكان يكرم الوافد عليه وإن كان كافراً . (ص ٣٠ - ٣١).

«وكان حسن العشرة، حسن الأخلاق .. طاهر المجلس، طاهر السمع طاهر اللسان، حسن العهد والوفاء» .

ويختتم ابن شداد القسم الأول من كتابه التوادر السلطانية، بقوله:

فهذه نبذة من محسنات أخلاقه ومكانته شيمه، اقتصرت عليها خوف الإطالة والإسلام، وما سطرت إلا ما شاهدته، أو أخبرني الثقة به وحققته؛ وهذا بعض ما اطلعت عليه في زمان خدمتي له، وهو يسير مما اطلع عليه غيري من طالت صحبته، وقدمت خدمته، ولكن هذا القدر يكفي الأريب في الاستدلال على طهارة تلك الأخلاق والخلال . (ص ٣٤).

بــ صلاح الدين في مرآة العصر

هذه هي صورة صلاح الدين التي نقلها لنا مؤرخو عصره بروح من الموضوعية، من المشاهد العيانية المباشرة أو تقلاً عن نفقة .. فلا عجب أبداً أن تكون الصورة زاهية بالنسبة للمؤرخين المعاصرين عرباً وغربيين .. ومن هنا كان عنوان كتابنا هذا: «صلاح الدين .. البطل الأنقى في الإسلام» لشاندور الذي أعطاهم حقه .. ولقد تناول كارل بروكلمان بجملة عدداً من صفاتيه. وما امتاز به، بقوله:

«وليس من شك في أن قلة ضعيلة من أمراء الإسلام كانت. تضارعه من حيث تجرده عن أيها نزعة إلى الكسب الشخصي، ومن حيث انصرافه إلى خدمة دولته ورعايتها ليس غير، ولم يستطع أحداؤه أنفسهم إلا الإقرار له بالشهامة والنبل في معاملة الخصم المغلوب. ليس هذا فحسب، فقد كان صلاح الدين بالإضافة إلى ذلك كله نصيراً للعلم» (تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٣٢).

ويقول الباحث الأستاذ قدرى قلمجى:

«والواقع إن سر عظمة صلاح الدين ودعامة مجده، هي الأخلاق التي امتاز بها في وقت تفسخت فيه الأخلاق وانهارت القيم. وقد استعراض بقوة هذه الأخلاق الكريمة عن العبرية العسكرية والدهاء السياسي. وكانت هذه الأخلاق تظهره أحياً بمظاهر البساطة والسداجة، فيحاول الكثيرون استغلالها، ولكنها كانت تتغلب في النتيجة على الخديعة والمكر، وتتحطم تلك المحاولات على صخرة منيعة من الصفاء والوفاء ونبيل الغاية والوسيلة معاً» .

وقد أعطى صلاح الدين الغرب، بعدله ورحمته وتسامحه، صورة جديدة للإسلام، فزالت تلك الروح العدائية القديمة التي حملت الصليبيين إلى الشرق سنة ١٠٩٦ ، حتى غدا ملك الانكليز يقترح كارأينا رف شقيقته إلى أحد أمراء المسلمين.

ويلاحظ الأستاذ نقولا زيادة أن الصليبيين كانوا في السينين الأولى من القرن الثاني عشر قد علّموا عظمة عmad

الدين ذنكي بأن جعلوه ابن الكونتيس ايما التي اشتهرت في الحملة الأولى ، وفي زمن الحملة الثانية اعتقدوا أنَّ قلچ أرسلان من نسل جرماني شريف ، ولكن بعد أن ذاعت شهرة صلاح الدين ظهرت أسطورة تعلل عظمة توماس بكت أحد مشاهيرهم بجعله ابنًا لأم عربية .

ومن جهتنا نقول : ولا عجب ، أن تحاول الصهيونية العالمية اليوم وريستها إسرائيل أن تدعى ، كما ادعى صليبيو الأمس ، أن صلاح الدين يتميّز إلى القبائل اليهودية ، وتسعى لإلباسه الطامة الصهيونية ؛ فهي رغم خشيتها من ظهور صلاح الدين جديد ، يقود ملحمة حطين عربية فاصلة معاصرة ، لا تملك إلا أن تعجب بعظمة هذا الإنسان الكبير ، فتسعي لتزوير التاريخ ، لتجعل منه بطلاً من أبطالها ..

ويخلص الباحث قدرى قلعجي إلى القول :

وهكذا ثبتت سيرة صلاح الدين الأيوبي أنَّ القوة لا تصنع البطولة إذا لم تقترن بالمروعة ومكارم الأخلاق .

فيما سيرة صلاح الدين علينا مناقب الأبطال ! (قدرى قلعجي : صلاح الدين الأيوبي

ص ٤٥٢ - ٤٥٣ .)

جدول الخطأ والصواب

الصواب	الخطأ	السطر	الصفحة
يتضح	يتضخ	١٧	١٨
فريدريك	فردريك	١٠	٢٩
بأيديهم	بأيدهم	٢٠	٣٤
مسكناً	مسكنا	٦	٣٧
تشجيع	تشجع	٤	٤٠
كلاهُ	كلاه	١٤	٤١
المقربين	المقربون	١٦	٤١
و	أو	الأخير	٤٤
المسلمون	المسلمون	١٧	٥٤
دي موليه	دي مولاي	٩	٦١
ألا يغ رب	ألا يعزب	٤ — أسفل	٨١
بالخدمة	أبا لخدعة	٧	٨٩
عرش دمشق	عرش مصر	٩	١١٥
عن السور	من السور	٨ — أسفل	٢٤٧
ورومانية	ورمانية	٥	٢٩٠
أنسدها	أنسنه	١٠	٣٤٥
طاويّ	منظوري	٤ — أسفل	٣٤٨
تحدق	يمحدق	٤ — أسفل	٣٧٩

الفهرس

الإهداء	٩
تقديم (بقلم العmad مصطفى طلاس)	١٣
أمير شاندور ... والشرق	١٥
واقع العالم الإسلامي عشية الحروب الصليبية	١٧
الدول اللاتينية في المشرق وعوامل قوتها وضعها	١٩
يقظة الإسلام السوري	٢٠
نور الدين زنكي بطل الإسلام والمناضل بلا هواة ضد الفرنجية	٢١
الصراع على وادي النيل ويروز نجم صلاح الدين	٢٢
السيرة النضالية المستمرة ضد فرنجية الشرق	٢٥
حطين .. النصر الأعظم للعرب والمسلمين على الفرنجية	٢٥
فتح بيت المقدس	٢٧
صلاح الدين ومشروع تصفية الوجود الصليبي في الشرق	٢٧
الحملة الصليبية الثالثة	٢٨
ملحمة عكا	٢٩
الصراع على الساحل الفلسطيني ، وسياسة الأرض المحروقة	٣١
الطريق إلى القدس	٣١
البحث عن خرج من حالة اللاسلم واللاحرب	٣٢
القدس .. وهاجس حطين أخرى	٣٣
الصلح الصعب	٣٣

٣٣	مجد صلاح الدين وفشل الحملة الصليبية الثالثة
٣٤	صلاح الدين : سيف ملحمة الإسلام المنتصر
٣٥	صلاح الدين الأيوبي .. وخطين ما بين الأمس واليوم

الفصل الأول

المختضات الكبرى في العالم الإسلامي

عشية الحروب الصليبية

٣٧	العهد الذهبي للإسلام
٣٧	وحدة العقيدة الروحية والزمنية للعالم الإسلامي وبرود الانقسام
٣٨	زعزعة السلطة المركزية وسلطان الموالي على الحكم
٤٠	حننة العالم الإسلامي وانقسامه عشية الحروب الصليبية
٤١	الفاطميون والحكم الإلهي في مصر
٤١	اضطهاد مسيحي مصر
٤٢	السلجوقيون وكارثة البيزنطيين في معركة ملاذ كرد (هتزيكرت)
٤٢	جمع كليرمون والدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى
٤٣	واقع التجربة والانقسام في الصف الإسلامي
٤٤	الممالك اللاتينية في الشرق
٤٥	حواشي الفصل الأول

الفصل الثاني

سورية الفرنجية

٤٩	وضع سوريا الفرنجية في مطلع القرن الثاني عشر
٤٩	قلاع صلاح الدين وحصونهم في سوريا

البنية السياسية للمجتمعات اللاتينية في سوريا	٥٠
منظمات الفرسان زمن الحروب الصليبية	٥٢
الحاكم والقوابن في المجتمعات الصليبية	٥٣
التحولات الاجتماعية	٥٣
العلاقات التجارية بين الفرنجة وال المسلمين	٥٤
البنية الإدارية للملك اللاتينية والمسيحيون الشرقيون	٥٥
المبادئ الليبرالية في المجتمعات سوريا الفرنجية	٥٦
حواشي الفصل الثاني	٥٩

الفصل الثالث

الحملة الصليبية الثانية

ويقطة الإسلام السوري

سقوط القدس وردود الفعل الإسلامية الأولى	٦٥
معركة الرها والدعوة إلى الحملة الصليبية الثانية	٦٦
الصليبيون وصراع المصالح الخاصة	٦٦
فشل الحملة الصليبية الثانية أمام دمشق	٦٧
نور الدين زنكي ويقطة الإسلام المناضل	٦٨
حواشي الفصل الثالث	٧١

الفصل الرابع

صراع الفرنجة وال المسلمين

على وادي النيل

بدايات صلاح الدين	٧٥
-------------------------	----

نور الدين واهتمامه بحماية مصر من الهجمات الصليبية 76
ال الخليفة العباسي يؤيد سياسة نور الدين تجاه مصر 77
الحملة الصليبية على مصر واستنجاد الخليفة الفاطمي بنور الدين 77
وصول القوات السورية إلى مصر 79
شيركوه وصلاح الدين في القاهرة 79
صلاح الدين يعجل ب نهاية الوزير الخائن 80
صلاح الدين يختلف عمه وزيراً أول لمصر 80
صلاح الدين سيد مصر المطلق 81
حواشى الفصل الرابع 85

الفصل الخامس

صلاح الدين يحل في القاهرة محل الفاطميين

ويؤسس السلالة الأيوبية

مصر صلاح الدين بؤرة الإسلام المناضل 89
صلاح الدين يدحر في دمياط حلف بيزنطة وملكة القدس 90
صلاح الدين يتنتقل من الدفاع إلى الهجوم 91
إنهاء الخلافة الفاطمية في مصر 92
صلاح الدين مؤسس السلالة الأيوبية الحاكمة 93
حواشى الفصل الخامس 95

الفصل السادس

القاهرة

إصلاح نظام الحكم في مصر 97
بناء قلعة القاهرة 100

ثروات الخليفة الفاطمي الأسطوري ١٠١
قلعة قصر الجبل ١٠٢
ثروات القاهرة في عهد صلاح الدين ١٠٤
ازدهار التجاري لمصر والمبادلات الاقتصادية مع الفرنجية ١٠٦
حواشي الفصل السادس ١٠٩

الفصل السابع

نور الدين ضد صلاح الدين

قلق نور الدين من نشاط صلاح الدين ١١١
الفرنجية يحلمون بالاستيلاء على مصر ١١٢
نور الدين يستولي على قلعة الشوبك (مونتريال) ١١٣
الصراع الخفي بين نور الدين وصلاح الدين ١١٣
صلاح الدين يتتجنب الصراع الأخوي مع نور الدين ١١٤
صلاح الدين يعزز موقعه ويستعد لأنجيه فتح برقة والنوبة والعن ١١٥
وفاة نور الدين المفاجئة واعتلاء الملك الصالح عرش مصر ١١٥
سيرة نور الدين الكفاحية ١١٥
القضاء على ثورة الفاطميين ١١٨
صلاح الدين والتنظيم الإداري في مصر ١٢٠
الوزير الفاضل الأنا الآخر لصلاح الدين ١٢٠
الحكم المستير ١٢١
حواشي الفصل السابع ١٢٣

الفصل الثامن

فتح سوريا

آموري ملك القدس يحاصر بانياس ١٢٧
--

الصراع بين الاسماعيلية والميكليين ١٢٨
انقسام المالك اللاتينية في الشرق ١٢٨
سياسة أموري الخارجية في المشرق ١٢٩
بلدوين الرابع ملكاً للقدس ١٢٩
الصراع على الوصاية ١٣٠
فشل الفرنجية أمام أسوار الاسكندرية ١٣١
الانقسامات الداخلية في الدول الزنكية ١٣٢
صلاح الدين يدخل دمشق ١٣٢
استيلاء صلاح الدين على المدن السورية عنوة ١٣٣
أمام أسوار حلب ١٣٤
العودة إلى حصن ١٣٧
الفرنجية يهددون جنوب سوريا ١٣٨
في ظل أعمدة بعلبك ١٣٩
الحلف الجديد ضد صلاح الدين ١٤٠
هزيمة قوات أمير الموصل وأرخيمة المنتصر ١٤٠
الاستيلاء على حلب وشمال سوريا ١٤١
السلطة الأيوية من حلب إلى القاهرة ١٤١
ـ مجد صلاح الدين وألقابه ١٤٢
صلاح الدين وشيخ الجبل ١٤٢
العودة إلى مصر وإنجازات صلاح الدين العسكرية والفنية والفقهية ١٤٣
مجد صلاح الدين ١٤٤
حواشي الفصل الثامن ١٤٥

الفصل التاسع

كارثة الأيوبيين في سهل عسقلان

الفرنجية وأحلام اقتسام وادي النيل ١٤٩
صلاح الدين يحضر عسقلان ١٥٠

خطأ صلاح الدين أمام عسقلان ١٥١
نصر الفرنجة في معركة عسقلان (الرملة) ١٥٢
حصار حام ١٥٢
صلاح الدين وسحق الهيكليين في مرجعيون ١٥٣
حواشى الفصل التاسع ١٥٥

الفصل العاشر من ضفاف الفرات إلى ضفاف الأدن

ملكة أرمينية الصغرى وتحالفها مع مالك الفرنجة ١٥٧
صلاح الدين يغزو أرمينية ١٥٨
زعامة صلاح الدين وميثاق الصداقة ١٥٨
حلب بؤرة صراع جديد ١٥٩
إعادة اليمن إلى الخطيئة الأيوبية ١٦٠
مغامرة رينو دي شاتيون وخرق الهدنة بين الفرنجة وال المسلمين ١٦٠
صلاح الدين يهاجم مملكة القدس ١٦١
سقوط قلعة حبس جلداق ١٦٢
ظهور المسلمين أمام بيروت وصمود الفرنجة ١٦٣
رينو دي شاتيون ومساعيه للاستيلاء على المقدسات الإسلامية ١٦٣
تدابير الأيوبيين المضادة وسقوط المغامرة ١٦٥
الحلف الإسلامي الفرنجي غير المقدس ١٦٦
صلاح الدين يوجه ضربته الأولى للأعداء ١٦٧
حصار الموصل ١٦٧
عودة حلب إلى سلطة الأيوبيين ١٦٨
حواشى الفصل العاشر ١٧١

الفصل الحادي عشر سيد الكرك

استيلاء الفرنجة على حبس جلداق ١٧٥

١٧٦	صلاح الدين ينهي للاقاء الفرنجة
١٧٧	حصار الكرك
١٨١	الخلاف الشائك بين الدولتين الزنكية والأيوبية
١٨٣	حواشي الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

مسألة الموصل

١٨٥	الاضطرابات الداخلية في إمارة الموصل
١٨٦	الجيش السوري في وادي الفرات
١٨٦	أمام أسوار الموصل
١٨٧	استغاثة ملك أرمينية بصلاح الدين
١٨٧	الصلح بين الزنكيين والأيوبيين
١٨٨	امير حصن يدفع حياته ثمناً لقراره الاستيلاء على سورية
١٨٩	سيد المشرق الإسلامي وصراعات المستقبل

الفصل الثالث عشر

النقطة الخامسة في الحروب الصليبية

١٩١	الانقسام داخل صف الفرنجة
١٩٣	بعثة القدس إلى أوروبا والدعوة إلى صلبيّة جديدة
١٩٤	الاضطرابات الجديدة في مملكة القدس
١٩٥	رينو دي شاتيون يتتصدر الواجهة السياسية مرة أخرى
١٩٦	الدعوة إلى الجهاد المقدس في دار الإسلام
١٩٦	أمارات انهيار الممالك اللاتينية في الشرق
١٩٩	حواشي الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

حطين ..

النصر الأعظم للمسلمين على الفرنجة

٢٠١	تحت راية الجهاد
٢٠٢	الصلبيون والدعوة إلى الوحدة المقدسة
٢٠٣	الاستفار المرجح وحشد جيوش الفرنجة في صفورية
٢٠٤	تحركات صلاح الدين لتأمين حدوده الشمالية
٢٠٥	احتشاد القوات الإسلامية
٢٠٦	صلاح الدين يعبر أراضي كونتية طرابلس
٢٠٧	عملية فرسان الهيكل الاتحارية
٢٠٨	الاستيلاء على مدينة طبرية وحصار قلعتها
٢٠٩	ضجة في صف الفرنجة
٢١٠	ملك القدس يزحف بقوات الفرنجة إلى حتفها
٢١١	خطبة صلاح الدين الحرية
٢١٢	بدء المعركة
٢١٣	حطين : الكارثة الأفدح للصلبيين والنصر الأعظم للمسلمين
٢١٤	بطل حطين يلتقي بالأسرى من قادة الصليبية
٢١٥	نهاية رينو دي شاتيون
٢١٦	الفرح الغامر بعد معكسر المسلمين
٢١٧	مسألة زيون كونت طرابلس
٢١٨	استسلام قلعة طبرية وتحرير عكا
٢١٩	إخضاع الساحل الفلسطيني ، وتساقط مدن الفرنجة وحصونهم
٢٢٠	استسلام بيروت وإتمام تحرير الأرضي الفلسطينية
٢٢١	حصار صور
٢٢٢	وصول كونراد دي مونفرا واستقباله كمنقذ لمدينة صور
٢٢٣	صمود صور أمام القوات الإسلامية

٢١٩	خطاً صلاح الدين الاستراتيجي أمام صور
٢١٩	سقوط المدن الفلسطينية
٢٢٠	حصار عسقلان وتحريرها
٢٢١	تحرير غزة والتوجه صوب القدس
٢٢٣	حواشي الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر تحرير القدس

٢٢٩	أمام أسوار القدس
٢٢٩	التفاوض على الإسلام
٢٣٠	حصار القدس ودك السور الشمالي
٢٣١	القضية الخاسرة
٢٣١	نص عهدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لسيحي دار الإسلام
٢٣٢	استئناف المفاوضات واستسلام المدينة
٢٣٣	استسلام قلعة القدس
٢٣٣	أثر سقوط القدس على الفرنجة
٢٣٤	أريحية صلاح الدين ونبيله
٢٣٤	خروج الفرنجة المهزومين من باب داود
٢٣٤	صلاح الدين يخفف آلام نسوة الفرنجة ويغمرهن بالهدايا والمؤن
٢٣٥	رحمة صلاح الدين بفرنجة القدس وتذكر دينهم لهم
٢٣٥	«سيف الإسلام» يعيد سلطة المسلمين على القدس
٢٣٧	حواشي الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر كونراد دي مونفرو .. الخصم الدد لصلاح الدين

٢٤١	صور ودعم تخصيصاتها ، وأسوارها الحصينة
-----------	---

٢٤١	محاصرة صور براً وبحراً
٢٤٢	دفاع المهاجرين المستميتين عن صور
٢٤٢	ظهور جيش إسلامي جديد أمام صور
٢٤٢	خدعنة كونراد مونفراً الناجحة
٢٤٣	صلاح الدين يرفع الحصار عن صور
٢٤٣	صور قاعدة الفرنجية الحصينة وبواية الحملة الصليبية القادمة

الفصل السابع عشر

صلاح الدين يعمل على إلقاء فرنجة المشرق في البحر

٢٤٥	الدعوة إلى الجهاد واستئناف القتال
٢٤٦	سقوط طرطوس
٢٤٦	سقوط بانياس وجبلة واللاذقية
٢٤٧	الاستيلاء على حصن صهيون
٢٤٧	أنييار شبكة التحصينات الصليبية حامية مملكة أنطاكية
٢٤٨	القضاء على أهم حصون الفرنجية الشمالية
٢٤٩	سقوط الكرك وإعادة الاتصالات بين الشام ومصر
٢٥٠	سقوط صفد وكوكب
٢٥١	الأرض المقدسة مسرح الحروب المقبلة
٢٥٣	حواشى الفصل السابع عشر

الفصل الثامن عشر

تحالف أوروبا المسيحية ضد الإسلام

٢٥٧	أوروبا والإعداد للحملة الصليبية الثالثة
-----------	---

ملكا فرنسا وانكلترا يتسلمان الصليب من يد بطريرك صور ٢٥٨
امبراطور جرمانيا يحمل بانتزاع قصب السبق في المشرق ٢٥٩
باربروس يضع قواعد صارمة للحملة الصليبية الجديدة ٢٥٩
امبراطور جرمانيا يتوعد منذراً صلاح الدين ٢٦٠
صلاح الدين يرد على تهديدات ملك جرمانيا ٢٦١
عقبالية صلاح الدين السياسية ومعاهدة التحالف مع بيزنطية ٢٦٣
حول سياسة امبراطور بيزنطية اسحق لانج ٢٦٣
اسحق لانج ينحاز لصلاح الدين خوفاً من القوات الصليبية ٢٦٤
سفارة صلاح الدين الاستثنائية لدى القسطنطينية ٢٦٥
الملا ألف جرماني والمغامرة الخائبة ٢٦٥
حواشى الفصل الثامن عشر ٢٦٧

الفصل التاسع عشر

رينو دي ساجيت وصلاح الدين

تساقط سلسلة حصون الفرنجة جنوب لبنان ٢٦٩
صلاح الدين يتحفز لخمارشيف أرنون ٢٦٩
رينو دي ساجيت يقابل صلاح الدين ٢٧٠
ثقافة رينو دي ساجيت الإسلامية ومعرفته دقائق العربية ٢٧٠
خدعة رينو دي ساجيت ٢٧٠
اكتشاف المسلمين خدعة دي ساجيت وسوقه أسيراً إلى دمشق ٢٧١
ظهور غي دي لوزينيان على المسرح السياسي من جديد ٢٧٢
غي دي لوزينيان يتوجه صوب عكا بعد طرده من أمام صور ٢٧٣
مسيرة دي لوزينيان وبدء الصراع من جديد ٢٧٣
المواجهة الجديدة أمام أبواب عكا ٢٧٤
حصار عكا وفكرة إعادة احتلال القدس ٢٧٦
حواشى الفصل التاسع عشر ٢٧٧

الفصل العشرون

ملحمة عكا

الهجوم الإسلامي الأول على الفرنجة ٢٧٩
انتشار جيش الفرنجة بتشكيل غير قابل للانشقاق ٢٧٩
الصدام الرهيب .. وال الحرب سجال ٢٨٠
إحدى كبريات معارك الشرق ٢٨٠
الفرنجة يحكمون الطوق على عكا برأً وبحراً ٢٨٠
صلاح الدين يحاصر بدورة الفرنجة ٢٨١
المجلس الحربي الإسلامي ورأي صلاح الدين بمتابعة القتال حتى النصر ٢٨١
صلاح الدين يأخذ برأي أمرائه بإرجاء المعركة ضد الفرنجة ٢٨٢
حواشي الفصل العشرون ٢٨٣

الفصل الحادي والعشرون

مصائب الإمبراطور

فريدريك باربروس في آسيا الصغرى

صلاح الدين يقرع ناقوس الخطر ٢٨٥
وصول الإمدادات الإسلامية إلى عكا ٢٨٦
البيزنطيون والجرمان وجهاً لوجه ٢٨٧
إمبراطور الجerman يقرر قضاء فصل الشتاء في تراقيا ٢٨٨
مراسلات لانج صلاح الدين وعبر باربروس آسيا الصغرى ٢٨٨
مخاوف صلاح الدين على حدود سوريا الشمالية ٢٨٩
باربروس يدخل قونية عاصمة السلاجقوين ٢٨٩
مصائب الجerman في آسيا الصغرى ٢٩٠

الفصل الثالث والعشرون

فيليب أوغست وريكاردوس قلب الأسد

في مواجهة صلاح الدين

ريكاردوس قلب الأسد واستعداداته للحملة الصليبية الثالثة ٣١٧	٣١٧
لقاء عاهلي فرنسا وانكلترا في فيزلاي ٣١٨	٣١٨
لقاء الحليفين اللذين في صقلية ٣١٩	٣١٩
وصول ملك فرنسا إلى عكا وانفجار الخلافات الصليبية من جديد ٣٢٠	٣٢٠
ملك فرنسا يسعى لفاوضة صلاح الدين ٣٢١	٣٢١
ريكاردوس يستولي على جزيرة قبرص الاستراتيجية ٣٢١	٣٢١
وصول الأسطول الانكليزي إلى الشواطئ السورية ٣٢٢	٣٢٢
ابتهاج الصليبيين برسو الأسطول الانكليزي أمام عكا ٣٢٣	٣٢٣
استمرار النزاع بين ملكي فرنسا وانكلترا أمام عكا الحاصرة ٣٢٣	٣٢٣
البحث عن صيغة اتفاق جديد بين الفرنجة ٣٢٥	٣٢٥
الإمدادات الجديدة لمعسكري المسلمين والصليبيين ٣٢٦	٣٢٦
احتدام المعارك بين الفرنجة والمسلمين ٣٢٦	٣٢٦
استغاثة المسلمين الحاصرين بعكا بصلاح الدين ٣٢٧	٣٢٧
ملوك فرنسا وانكلترا يتبااحثان سراً مع صلاح الدين ٣٢٨	٣٢٨
فشل محاولة الخروج من عكا ٣٢٨	٣٢٨
صلاح الدين يرفض الموافقة على التسلیم وسقوط عكا ٣٢٩	٣٢٩
نصر الفرنجة الباهظ الثمن ٣٣٠	٣٣٠
عوده فيليب أوغست إلى بلاده ٣٣١	٣٣١
تفرد ملك انكلترا بقيادة الفرنجة ٣٣١	٣٣١
بريرية ريكاردوس ومجازرته الشنيعة ٣٣٢	٣٣٢
استنكار العالم الإسلامي جريمة عكا ٣٣٣	٣٣٣

الجرمان على أبواب سورية والخطر الكبير ٢٩١
نهاية باربروس المأساوية وزيارة شمع الخطير الدهام ٢٩١
هللة الجيش الجرمانى وبلغة فلوله صور ٢٩١
تأسيس تنظيم الفرسان الاستباريين التوتونيين ٢٩٢
تقرير حاكم سپيساط الأرمني لصلاح الدين عن الجيش الروماني ٢٩٣
حواشى الفصل الحادى والعشرون ٢٩٧

الفصل الثاني والعشرون

صراع الشرق والغرب

أمام أسوار عكا

معسكر المسلمين أمام عكا ٣٠٣
العلاقات بين المسلمين والفرنجية فترة وقف القتال ٣٠٤
كونراد دي مونفرا يستأنف الأعمال الحربية بحراً ٣٠٤
الفرنجية يهاجرون المسلمين في سهل عكا ٣٠٥
الزنكيون يشاركون الأيوبيين الجهاد ضد الفرنجية ٣٠٥
صلاح الدين يستتجد عبئاً سلطاناً المغرب ٣٠٥
وصول إمدادات جديدة للفرنجية وسيطرتهم على البحر ٣٠٥
اتصال المسلمين بالمدينة المحاصرة ٣٠٦
فريدریک دی صواب والمعركة الفاشلة ٣٠٦
تحركات الفرنجية وصدامهم مع المسلمين جنوبي عكا ٣٠٧
نكوص الفرنجية على أعقابهم ومعركة جسر الداعوق الدامية ٣٠٨
حسن معاملة صلاح الدين أسرى الفرنجية ٣٠٨
مصابع المسلمين والفرنجية أمام أسوار عكا ٣٠٩
فشل الصليبية الألمانية ٣٠٩
تنافع الفرنجية على ملكية القدس ٣١٠
الموقف العسكري قبل وصول قوات الحملة الصليبية الجديدة ٣١١

٢٣٥ حواشى الفصل الثالث والعشرون

الفصل الرابع والعشرون

ملك انكلترا يسعى لتنصيب أسرته في الأرض المقدسة

٣٤١	أوضاع الصليبيين بعد سقوط عكا
٣٤٢	الصليبيون يزحفون صوب مدن الساحل الفلسطيني
٣٤٢	ملك انكلترا يسعى للتفاوض مع صلاح الدين
٣٤٢	انقطاع مباحثات الصلح والاحتکام كرة أخرى للسلاح
٣٤٤	صلاح الدين يأمر بتدمير عسقلان
٣٤٤	وصول ريكاردوس قلب الأسد إلى يافا
٣٤٥	كونراد دي مونفرا يتآمر على ريكاردوس ويحصل سرًا بصلاح الدين
٣٤٥	ريكاردوس يخادع كونراد ويفاوض سرًا صلاح الدين
٣٤٨	جيش الفرنجية ينكىء عن القدس بعد أن غدا قاب قوسين منها
٣٥١	حواشى الفصل الرابع والعشرون

الفصل الخامس والعشرون

الصلح الصعب

٣٥٥	البحث عن مخرج من المأزق
٣٥٦	حالة اللا حرب واللا سلم الجديدة
٣٥٦	التوقع على تسوية سياسية مع مركيز صور في القدس
٣٥٧	انقسام صف الفرنجية مرة أخرى
٣٥٨	الفرنجية يقررون توجيه مركيز صور ملكاً على القدس
٣٥٨	اغتيال كونراد دي مونفرا وتنصيب البلاطاجيني ملكاً للقدس

الفرنجية يستأنفون القتال ويزحفون نحو القدس ٣٥٩
الدول عن فكرة حصار القدس والانسحاب إلى الرملة ٣٦٠
ريكاردوس قلب الأسد يقترح على المسلمين عقد معاهدة سلم دائم ٣٦٠
انقطاع المفاوضات بين الفرنجية والمسلمين ٣٦١
مهاجمة صلاح الدين يافا ٣٦١
الفرنجية يستعيدون يافا ويستأنفون مفاوضات الصلح ٣٦٢
صلاح الدين يلي على الفرنجية معاهدة الصلح إملاء المتصر ٣٦٣
معاهدة الصلح تكرس عجز الفرنجية ومجده صلاح الدين ٣٦٤
حواشى الفصل الخامس والعشرون ٣٦٧

الفصل السادس والعشرون

العودة إلى دمشق

مغادرة ريكاردوس الديار المقدسة وحظوظه العائرة ٣٧٣
أريحية صلاح الدين وعظمته نفسه ٣٧٤
أعمال صلاح الدين الإصلاحية ٣٧٥
امير انطاكيه يطلب حماية صلاح الدين ٣٧٦
العودة الظافرة إلى دمشق ٣٧٦
صلاح الدين سيف ملحمة الإسلام المتصر ٣٧٦
مرض صلاح الدين ودنو أجله ٣٧٧
يدين الولاء لصلاح الدين ولابنه الأفضل من بعده ٣٧٧
ختامة الملحمة والخلاف العام في ديار الإسلام ٣٧٨
زهد صلاح الدين ٣٧٩
صلاح الدين الصورة الأنقى إسلامياً وعالمياً ٣٧٩
سيد العواصم العربية الثلاث ومعيد وحدة سورية ٣٨٠
الحاكم العادل والقائد الإنسان ٣٨٠
حواشى الفصل السادس والعشرون ٣٨٣

صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام /تأليف البير شاندور؛ ترجمة سعيد أبو الحسن؛
تحقيق نديم مرعشلي. — ط. ١. — [دمشق] : دار طلاس، ١٩٨٨. — ٤٠ ص.؛
٢٥ سم.

١— ٩٥٦٠٥٥٩١ شان ص ٢ — ٩٥٦٠٥٤٥ شان
ص ٣ — العنوان ٤ — شاندور ٥ — أبو الحسن ٦ — مرعشلي

مكتبة الأسد

رقم الإيداع — ١٩٨٨/٨/٩٤٤

رقم الإصدار ٣٥٧

